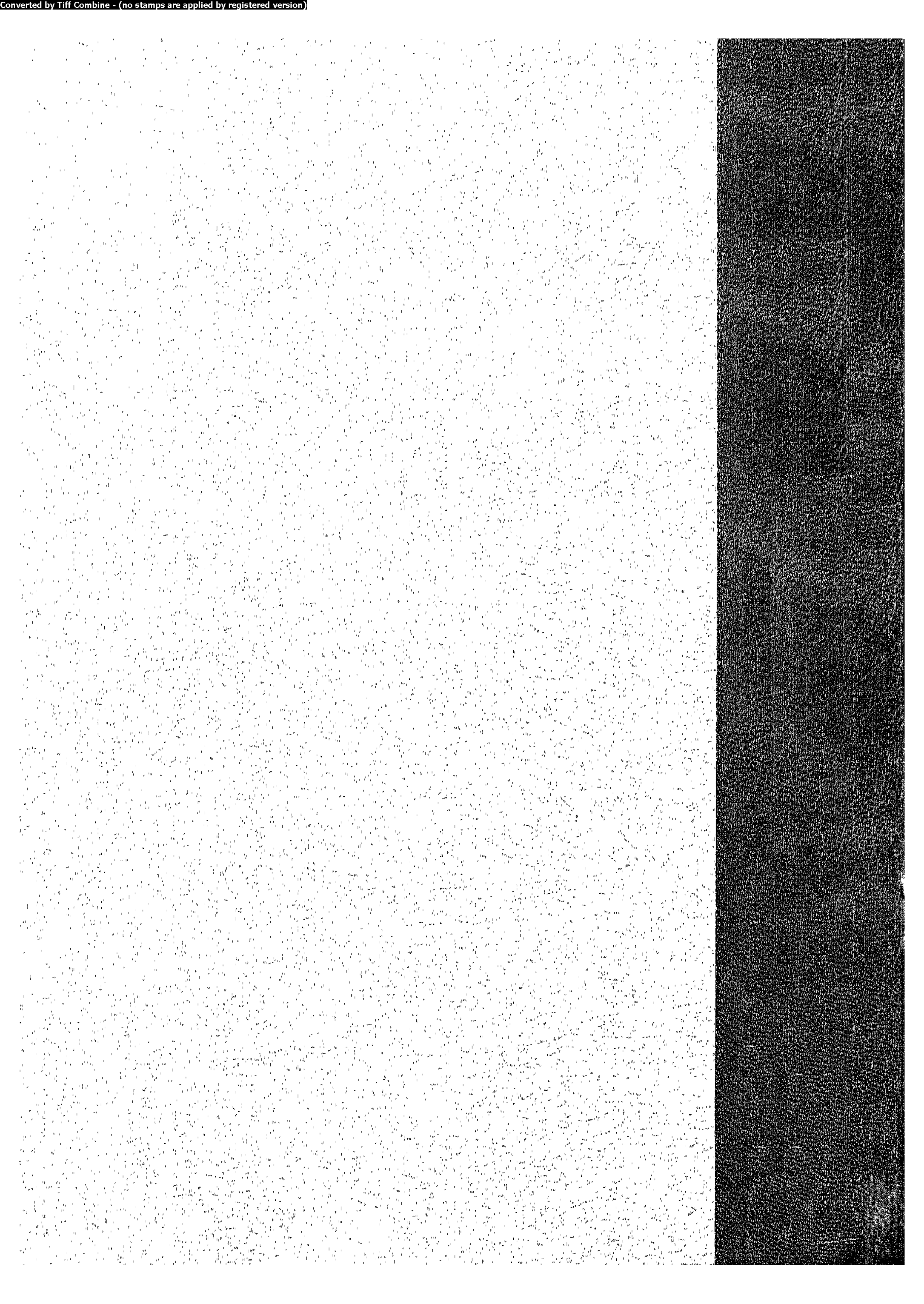








تاريخ الحركات القومية

الجزء الأول

يقظة القوميات الأوربية

تأليف وتعريب

الدكتور نور الدّين حاطوم

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في جامعة الكويت

دار الفكر

الطبعة الأولى : ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٧ م
الطبعة الثانية : ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م

الى كل قومي حر

الى

الاستاذ شارل ـ هـ . بوتاس

تحية اكبار واحترام

هذا الكتاب قبس من نورك

وثمرة من دوحة جهدك

المقدمة

القومية في ميزان التاريخ

ان تاريخ القرن التاسع عشر والقرن العشرين مطبوع بطابع الحركات القومية والتحررية . وتاريخ هذه الحركات يدعونا لأن ننظر إلى التاريخ من وجهة نظر الفكرة القومية والمبدأ القومي . فالفكرة يقصد بها مفهوم القومية ، والمبدأ يراد منه تبني الفكرة كهدف وغاية ومبرر للسياسة المتبعة في سبيل التحرر وبناء الدولة القومية .

أما كلمة القومية فلقد أخذناها ، نحن العرب ، عن « القوم » ونعني به « الأمة » . ولقد فضلنا القول بالقومية كفكرة فلسفية عوضاً عن « الأمية » لما تتركه هذه الكلمة الأخيرة في الذهن من لبس ومعنى غير محبب . ولكن هذا اللبس غير موجود في اللغات الأجنبية الأخرى .

والفكرة القومية لما تتضح تماماً . وقد وجد لها في منتصف القرن التاسع عشر تفسيران : الأول وهو نظرية **القومية الواعية** ، نظرية المفكرين الفرنسيين ؛ والثاني نظرية **القومية اللاواعية** ، نظرية الفلاسفة الألمان . وليست هاتان النظريتان نتاج اتفاق أو تصادف ، بل على العكس ، لقد كانا تعبيرين لتاريخين وتطورين متناقضين في كلا البلدين ، فرنسا وألمانيا .

ان نظرية القومية الواعية ، النظرية الفرنسية ، ترجع في أصلها إلى الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو في كتابه « العقد الاجتماعي » ،

وفيه يرى أن أساس المجتمع يقوم على ارتباط المواطنين ، أي أنه يقوم على فكرة « العقد » . ثم وسعت هذه النظرية بآراء وأفكار تتلخص في احترام الشخص الإنساني واستقلاله وعدم فرض إرادة أجنبية عليه أو الاعتداء على حق الآخرين . ومنها يستنتج ان ارتباط الأفراد في مجتمع من المجتمعات يخلق فيما بينهم روحاً عامة مشتركة ويجعل منهم أمة ؛ وان الدولة ، التي هي الكيان السياسي للأمة ، تقوم على هذه الروح الاجتماعية .

ونظرية القومية اللاواعية تقول : لمعرفة انتماء شعب لقومية معينة يكفي الرجوع إلى الأمارات الخارجية وملاحظة ما إذا كان هذا الشعب يبدي أمارات معينة موجودة عند شعب آخر ، عندئذ يمكن أن يستنتج بأن هذين الشعبين ينتميان إلى قومية واحدة . وأهم هذه الأمارات وحدة اللغة .

والنظرية الألمانية في القومية القائمة على وحدة اللغة ترجع في أصلها إلى الفيلسوف هردر . فقد كان يرى في اللغة روح الشعب ، ويعتبرها خير معبر عن فكره ومزاجه وحساسيته وأصالته . وهذا يعني أن القومية كائن عضوي ظاهرته الأساسية اللغة البدائية للشعب .

ولا شك في أن مفهوم النظرية الفرنسية ومفهوم النظرية الألمانية قد تطورا مع الزمن ، خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، ولكن أساسيها ظلا باقيين ، ومازالت الحركات القومية في القرن العشرين مطبوعة بطابع هاتين النظريتين من حيث الارتباط الحر والارادة المشتركة واللغة .

ومهما يكن من أمر هذه النظريات فما لاشك فيه أن عاطفة القومية قوة عميقة ودورها أساسي في تاريخ الشعوب المعاصرة . غير أن المؤرخين الماركسيين ، ومن جرى على سننهم من أنصار مذهب المادية التاريخية ،

يسقطون من حسابهم أهمية الأفكار والعواطف في تاريخ البشرية وينزعون إلى تفسير حوادث التاريخ بعوامل اقتصادية . وهذا النوع من التفكير صحيح إلى حد ولكنه لايخلو من مبالغة ، لأننا وان كنا في تاريخ العالم المعاصر لانهمل شأن هـذه العوامل وفي بعض الأحيان نعطيها قيمة كبرى ، إلا أننا نجدنا أمام حالات أخرى لايمكن أن تفسر فيها الحوادث إلا بعوامل فكرية وعاطفية ، وما ذلك إلا لأن بعض الشعوب تفضل ارضاء مصالحها المعنوية وتطلعاتها الروحية على إرضاء منافعها المادية .

ولقد نمت العاطفة القومية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وفي هذا القرن العشرين وأدى نمو هذه العاطفة بدوره الى عاطفة أكثر حيوية وحدة وهي عاطفة التضامن بين أعضاء الأمـة الواحدة . وكلما قويت عاطفة التضامن نما الشعور بالكرامة الوطنية والشرف القومي والحس بالمصير القومي ، وفي الوقت نفسه نمت الرغبة في توكيد صفات الخلق القومي وفرضه على مرأى ومسمع من العناصر الأجنبية الاخرى .

وقد ينشأ عن هذا الشعور مبالغات مثل **العصبية القومية** (الشوفنية) أي الحب الفائض للأمة الذي يدفع المواطن إلى الاعتقاد بأن أمته اسمى الأمم . وأخطر من ذلك **القومية ـ العرقية** التي تنسب الأمة إلى عرق يسمو على الأعراق ومن حقه أن يقتطع لنفسه **مجالاً حيوياً** على حساب الآخرين والقوميات الأخرى . ولقد كانت **النازية** أكبر ظاهرة متطرفة لهذه القومية .

ولكن ماهي الأمة ؟ لقد اختلف معنى هذه الكلمة مع الزمن ولم يتحدد حتى أيامنا هذه . وما ذلك إلا لاختلاف العقليات التي تنظر الى مفهوم الأمة . ولذا فالتعقيد والغموض والالتباس مازالت تجري تحت اقلام المفكرين المهتمين بدراسة الأمة والعاطفة القومية .

والمصدر الأساسي للصعوبات التي تعترض في فهم معنى الأمة هو تعدد العوامل التي تدخل في نشأة الأمة وفي تشكل العاطفة القومية ، والتي يجب ألا يهمل واحد منها ، وهي كما يلي :

الأرض . ـ ان الحياة المشتركة في « مكان » واحد توجد تماثلاً بين أنواع الحياة ، التي تتعلق إلى حد كبير بشروط المناخ والتضاريس ونظام المياه والنبات ، ويمكن أن تؤدي غالباً إلى « وحدة ثقافية » . بيد أن هذا التماثل لا يكفي مع ذلك لخلق أمة . فهنالك أمثلة كثيرة عن بلاد لم يؤد فيها تجانس الشروط الجغرافية الى تقارب أوصهر بين جماعات مازالت مستمرة ، بعد قرون من التعايش ، في مقاومة بعضها بعضاً كحالة ترانسلفانيا . وليست الأرض كذلك عنصراً ضرورياً ، لأن عاطفة التضامن بين أبناء الأمة الواحدة يمكن أن يظل حياً ومحافظاً عليه بالرغم من ضياع الأرض ، أو من فقدانها البتة .

العرق . ـ ان التشابه بين الصفات الجسدية ، من حيث الهيكل الجسماني وشكل الجمجمة والأنف والعين ولون الجلد ، يمكن ان يؤلف عامل تضامن بين الناس . حتى أن غوبينو ، الذي كتب في تفاوت الاعراق ، اعتقد بأنه يستطيع ان يستنتج بأن الشعوب ذات الميزات الاثنوغرافية الواحدة تنتسب إلى قومية واحدة . ولكن أعمال الاثنوغرافيين دلت في هذا المجال على أن الأمم الكبرى ليس لها وحدة عرقية ، وان المناطق التي تشاهد فيها هذه الوحدة نادرة : مثل مونغوليا وهضبة ايران وبلاد الأناضول الداخلية وشبه جزيرة العرب . وحتى في هذه المناطق لم تسلم الشعوب من التمازج العرقي وبخاصة في أيامنا .

اللغة . ـ من المؤكد ان استعمال لغة واحدة يعين تشابهاً بين

اشكال الفكر ويشجع على تشكيل تراث من المفاهيم المشتركة . ويقول الفيلسوف فيخته في هذا الشأن : « ان من يتكلم لغة واحدة كلٌ ربطته الطبيعة المحضة سلفاً بروابط عديدة وغير مرئية » . وترى الحكومات الحديثة الفوائد التي تتأتى عن وحدة اللغة في نمو التضامن القومي ، وتحاول اقامة الوحدة اللغوية على أرضها . ومع ذلك فقد تشكل الوجدان القومي في بلاد يختلف سكانه لغة ، كما في سويسرا وبلجيكا . كما ان استعمال لغة واحدة لاينفي الاختلاف بين الناطقين بها ، وان العاطفة القومية والانتماء إلى جماعة لغوية يمكن أن يكونا مختلفين .

الذكريات التاريخية . — لها تأثيرها في نمو العاطفة القومية . فهي تذكر بالابطال والنضال وبالآثار الكبرى التي سجلت في العالم اشعاع الدولة ونفوذ شعبها ويصر عليها بالحاح في حال المرارة والنكبات الحديثة لرفع معنويات الشعب واستعادة قوته ونشاطه بعد ضربات الاعداء التي وجهت إليه . ولكن هذه الذكريات التاريخية ليست كل شيء في حياة الأمة .

التقاليد . — شريطة أن يكون لها صدى في عقلية الشعب الجماعية ، لا أن تكون قاصرة على بعض الأوساط الفكرية أو السياسية . وهذه التقاليد تضيف لوناً خاصاً للعاطفة القومية كتقاليد الحرية في الولايات المتحدة الاميركية ، والانعزالية الانكليزية . ولكن هذه التقاليد قلما تكون عفوية . فقد نحتها وصاغها رجال الدولة والكتاب السياسيون وغذاها الناشرون . وهي على ما يبدو نتيجة لوجود الأمة وليست سبباً لتشكل عاطفة قومية .

الحضارة الفكرية . — ان نشأة الوجدان القومي تفترض وجود

حضارة . فنمو الأدب واشعاع الفكر وتكوين قيم حضارية ، إن كل ذلك يؤلف عنصراً هاماً في نمو العاطفة القومية . ولكن وحدة الحضارة لا تكفي لصنع أمة . فقد وجدت بلاد كبرى ذات حضارات عريقة ولم يظهر فيها الوجدان القومي إلا في وقت متأخر جداً .

الدين . — لا شك أن الايمان بدين واحد في جماعة بشرية معينة يعتبر شرطاً ملائماً لنمو التضامن بين أعضاء هذه الجماعة . ولقد حرصت الحكومات على ابقاء الوحدة الدينية في داخل بلادها للحفاظ على قوة الدولة وتماسك أبنائها . وفي هذه الحال يصبح الدين أداة سياسية . ولكن بعض الوحدات القومية تحققت بالرغم من الاختلافات الدينية . وكان الدين في بلاد أخرى عائقاً في تحقيق الوحدة القومية ، وأدى أخيراً إلى تقسيم البلاد إلى وحدات سياسية ، كما في الهند .

الظروف الاقتصادية . — ان التضامن ، الذي يقوم على المصالح المادية للمنتجين أو التجار في منطقة من مناطق العالم ، كان عنصراً ملائماً لنمو العاطفة القومية . ففي القرن التاسع عشر ، ساهم وجود **« الاتحاد الجمركي »** في نجاح الحركة القومية الألمانية ، لأن الوحدة الجمركية ساعدت على تهيئة الاتحاد السياسي . ولكن تاريخ الاتحاد الجمركي نفسه يدل على أن التضامن ، الذي قام بين دول جنوبي ألمانيا وبروسيا منذ ١٨٥٠ في نطاق الاتحاد الجمركي ، لم يمنع هؤلاء الرفقاء من أن يحمل بعضهم السلاح على الآخرين عام ١٨٦٦ . والأمثلة على ذلك كثيرة .

التباين الاجتماعي . — على صعيد الريف ، لقد أوجدت الظروف التاريخية في بعض البلاد طبقة فلاحين تابعة لطبقة ملاكين كبار من جماعة لغوية مغايرة لطبقة الفلاحين ، وشجع تضامن المصالح بين الفلاحين على نمو

الوجدان القومي . ولكن التعارض الاجتماعي بين الطبقتين لم يكن عاملاً في أصل الشعور القومي ، وكل ما في الأمر أنه هيأ أرضاً صالحة لنمو البذور المطروحة من قبل مبادهات ودوافع أخرى .

وعلى **صعيد العمل** ، لقد خففت حركة العمل ونمو الفكرة الاشتراكية ، في منطق المذهب ، ظاهرات العاطفة القومية ، واحتل تضامن الطبقة المكان الأول ، ولكنه لم يسكت نأمة القومية ، التي استيقظت في بعض الظروف ، وتخلت عن كل اشتراكية في سبيل الدفاع عن الوطن القومي .

ومن هنا يتبين لنا أن لكل عامل من هذه العوامل التي أتينا على ذكرها أهميته الخاصة وفائدته في تكوين الأمة . ولكن ما من واحد منها يمكن أن يأتي بايضاح له قيمة عامة ليكون جامعاً مانعاً .

ومهما يكن فان هذه التفسيرات المتباينة تشترك في نقطة واحدة وهي اعطاء الدولة أساساً قومياً ، والعمل جهد المستطاع على انطباق الدولة على الأمة . وهذا يعني جمع جميع الشعوب التي تنتمي إلى قومية واحدة في دولة واحدة . وهذا هو القصد الذي عبر عنه « مبدأ القوميات » في القرن التاسع عشر .

ولكن تطبيق هذا المبدأ اصطدم بصعوبات عظيمة ، لأن الدلائل التاريخية أو المسلمات اللغوية كانت تتناقض مع ظواهر العقلية الجماعية . وعلى مايبدو أن معظم المذاهب القومية قد وضعت غالباً في الوقت الذي طلب منها أن تدعم المواقف السياسية . ولذا كانت مرتبطة بالأمل في الحصول على نتائج عملية أو بالرغبة في تبرير مطاليب جماعية . وهذا بالطبع ما يقلل من أهميتها في أعين الحقوقيين أو النظريين في العلوم السياسية . أما

المؤرخون فهم يرون بأن العاطفة القومية ، بالرغم من هذا الضعف المذهبي، قد برهنت على حيوية نشيطة غير منازعة ، وكانت ذات تأثير كبير ونتائج هامة في العلاقات الدولية .

ولقد أخذت « **قضية القوميات** » ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر شكلين متكاملين غالباً . فمن جهة كانت القومية **قوة تجمع** ، ومن جهة أخرى كانت **قوة تفتيت** : لقد حملت قوة التجمع الشعوب ، التي تنتمي إلى قومية واحدة وتعيش في دول مختلفة ، إلى الاتحاد في دولة واحدة . ولذا كان هدف هذه الحركة تشكيل الوحدات القومية مقام التجزئة السياسية . وأما **قوة التفتيت** فقد دفعت الشعوب الخاضعة لسيطرة دولة أجنبية عنها إلى التحرر من نير هذه السيطرة وإقامة الدولة القومية . وهذه حال الاقليات القومية ، أو حال بلد احتله الأجانب فتقاسموه واختص كل واحد منهم بجزء منه .

في البدء كان لتشكل الوحدات القومية دور مسيطر من ١٨٥٠ — ١٨٧٠ وقد تمت هذه الوحدات بشكل دولة إتحادية كما في الوحدة الألمانية ، أو بشكل دولة وحدوية كما في مملكة إيطاليا .

أما قضية الاقليات القومية فقد كان دورها نشيطاً بعد ٧٠ ١. وقد استطاعت هذه الأقليات أن تحقق شيئاً فشيئاً **الاستقلال الذاتي** ، أي أن يكون لها الحق في أن تصنع قوانينها الخاصة بنفسها عن طريق مجالسها المنتخبة ، ومن ثمّ **الاستقلال التام الناجز** . لأنها لم تكتف بالمطالبة بالحرية الواسعة في النمو السياسي بل أرادت أن تنفصل عن الدولة التي عاشت في ظلها حيناً من الزمن ، وتحقق ذاتها القومية في ظل هذا الاستقلال الذي حصلت عليه .

ان تشكل الوحدات القومية كان يغلب عليه اهتمام أساسي : وهو أن يفيد من وضع الشعوب الناطقة بلغة واحدة ولها تراث مشترك من الذكريات التاريخية ولكنها تابعة لولاءات سياسية مختلفة ، ويطبع في ذهنها الرغبة في العيش المشترك في ظل دولة واحدة . وهذا يعني وجود حالة فكرية يجب تغذيتها وامدادها وتوسيع انتشارها . ولكن هذه الحالة لاتخلو من عقبات ومقاومات ، أهمها : التعلق بالتقاليد الموروثة ، وقوة الروابط الشخصية المعقودة في داخل الدول الموجودة ، والخوف من ضياع الأوضاع المكتسبة والمنافع الاقتصادية القائمة ، والولاء لعهد معين ، ورغبة الأطر الادارية في الحفاظ على الأوضاع التي تفيد منها .

وللتغلب على هذه النعرات العاطفية المختلفة وجب القيام بتنظيم دعاية خاصة تبعث في الشعوب الشعور والوعي بالقربى ، وتبين لها فوائد التبعية والانتماء إلى دولة كبرى . ولقد كانت هذه الدعاية تلح خاصة على المنظور السياسي أكثر مما تلح على الفوائد الاقتصادية ، وتسعى جاهدة للبرهان على أن تشكل الوحدة السياسية يمهد السبيل إلى القوة .

ولكن النشاط الذي قام به بعض **رجال الفكر** أو بعض **رجال العمل** لم يكن وحده كافياً ليعطي لهذه الحركات التوحيدية سيماءها . ففي كل بلد قامت فيه هذه الحركات كان لسياسة السادة الموجهين والحكومات دور هام ، إما لأنهم شجعوها باعتبارهم سيفيدون منها ، واما لأنهم قاوموا فيها مبادهات خطرة على منافعهم . وفي الواقع **ان قوى الهجوم** في هذا الحقل كانت على درجة من التنظيم تفوق **قوى الدفاع** ، وكانت تمتاز بالاندفاع والحركية وبذل الجهد لتحويل العقلية الجماعية .

وأبدت حركات « **الاقليات القومية** » في كل مكان صفات مشتركة .

فقد ظهرت في الغالب بشكل نضال يومي قائم بين الأقليـة والادارة بسبب لغة الدولة الحاكمة في التعليم ، أو بسبب الحوادث التي يثيرها في الحياة الادارية والقضائية استعمال اللغة الرسمية التي تختلف عن اللغة التي تتكلم بها عامة الأقلية . وبالاضافة إلى هذه الملامح العامة نجد أن التحليل التاريخي في دراسة كل قومية على حدة يكشف عن حالات مختلفة .

وفي هذه الحركات أو تلك كان عمل المفكرين حاسماً . فقد أحيوا الذكريات التاريخية وفهموا أهمية وحدة اللغة ، وعرفوا كيف يعربون عن العواطف الغارقة في سباتها العميق ، ويبعثون فيها القوة والحيـاة . وفي كل هذه الحركات تتردد أسماء الفلاسفة ورجـــال الآداب ومؤرخو اللغة والأدب والحقوق اكثر من أسماء رجال المذاهب السياسية . وكان نشر هذه الأفكار يتم في الأوساط الثقافية والفكرية عن طريق التعليم الثانوي والجامعي والآثار الأدبية والتاريخية . أما في الأوساط الشعبيـة الواسعة فكانت تنتشر عن طريق الصحافة اليوميـة والدوريات والدعاية ووسائل الاعلام الأخرى .

وفي كل هذه الدعاية تحتل الســـاعات الكبرى في الماضي والمواقف الحاسمة والأمجاد القومية والتقاليد الشعبية المكان الأسمى .

أما المنافع الاقتصادية والاختلافات الاجتماعية فلم يلح عليها في البـدء حتى أن بعض الموجهين السياسيين أهملوها على ما هي عليه من قيمة متفاوتة . ولكنها أخذت تحتل مكاناً كبيراً في الحركات التحررية والتوحيدية الحديثة في قارتي آسيا وافريقية وخاصة بعد التحرر من الاستعمار .

مما تقدم نرى أن القومية وليدة افكار وعواطف تتفاعل مع بعض . وتؤلف قوة نشيطة تحرك الشعوب وتدفع بها إلى تحقيق الذات القومية . بيد أن بلوغ هذا الهدف كثيراً ما يكون بعيداً أو صعب المنـــال .

ويحتاج إلى سابق تخمر فكري واعدادٍ عاطفي وجهد متواصل ومرور زمان تؤدي كلها إلى ما نسميه « الشعور القومي » أو « الوجدان القومي » أو « الوعي القومي » .

وهذا الوعي القومي على درجات ويبدأ من مرحلة العاطفة الوطنية ، أي حب البلد الذي تتفتح فيه عينا الانسان للنور ، بلد الآباء والأجداد ، بلده الذي يحن إليه إذا نأى عنه ، ويحميه إذا اعتدي عليه ، بلده الذي يكون عنده موضع عطف وحب واعزاز ، وينتهي بمرحلة التفكير القومي . وليس لهذه المرحلة حد ، ولكن المراد منها هو جمعُ شمل أبناء القوم الواحد ولمُّ شعثهم والخلاص من الأجنبي الذي يرزحون تحت نيره ، ان وجد ، وأنشاء دولة مستقلة تضم تحت لوائها من تجمعهم وحدة الأفكار والمصالح والعواطف والذكريات والآمال والرغبة والارادة في العيش المشترك ضمن إطار جغرافي معين تحدده في الغالب وجهد المستطاع اللغة القومية .

والقومية قوة من القوى النشيطة في التاريخ المعاصر ويرجع أصلها إلى القرن السابع عشر وخاصة إلى القرن الثامن عشر ، عصر الأنوار وعبادة العقل والتفكير الديموقراطي والحقوق الطبيعية ، وحق تقرير المصير القومي وغيرها من هذه الأفكار العلوية التي بشر بها الفلاسفة الانكليز في البدء ووسعها الفلاسفة الفرنسيون والفت أول تطبيق لها في استقلال الولايات المتحدة الاميركية وقيام الثورة الفرنسية ، ثم انتشرت خلال القرن التاسع عشر في كل اوربة ، وأصبحت في القرن العشرين حركة واسعة شملت انحاء العالم ، وما زالت أهميتها في قارتي آسيا وافريقية آخذة بالنمو عاماً بعد عام ، وستظل قائمة مادام على أديم الارض حق مهضوم وشعب مغلوب على أمره يطالب بحقه في الحياة .

والفكرة القومية ليست نفسها في كل زمان ومكان . انها حادث تاريخي ومخلوق حي يتطور ويتأثر بالأفكار السياسية والمبنى الاجتماعي للبلاد التي يتأصل فيها . انها فتح من فتوح البشرية وانتصارها ، وأصدق تعبير للطموح البشري في شتى اشكاله والوانه ، هذا الطموح الذي يحرك الأفراد كما يحرك الجماعات ويدفع بها إلى الحياة الحرة الكريمة .

وفي الحقيقة ان كثيراً من الحوادث التاريخية ، حدثت وتأثرت بالفكرة القومية والمبدأ القومي . لأن هذه الحوادث لا تظهر لنا وكأنها مجرد تصادف أو محض اتفاق ، بل تبدو مسيرة حسب مفاهيم فلسفية كبرى . وهذا ما يجعلنا نقبل بأن للأفكار والعواطف أهميتها في الحوادث التاريخية .

إن غاية كل حركة تاريخية قومية تجمع الشعوب وتحررها تؤدي إلى تأسيس الدولة القومية . ولكن يجب ألا نتصور أن الوصول إلى هذه الغاية يمكن أن يتم في زمن قصير ، وذلك لأن الفكرة النظرية لاتجد حقائق واقعية تطابقها إلا بصورة بطيئة ، حتى أن هذا التطابق ، بين النظرية والحقائق ، يكون مضطرباً ومختلفاً قليلاً أو كثيراً . ولنذكر على سبيل المثال أن مضى ما يقارب نصف القرن بين ظهور النظريات القومية والحقائق التي نجمت عنها . وقد يمر وقت طويل بين يقظة القومية ونمو الوعي القومي وتحقيق السيادة القومية .

ولذا يجب إلا نفكر بأن التاريخ يرينا أن القوى الجماعية عند شعب من الشعوب تظهر فجأة ودفعة واحدة ، فليس على هذه الطريقة يسير المنطق التاريخي ، أو على هذا النحو تدعو النظريات الوقائع . بل ان ما يحدث في الغالب هو أن فكرة من الأفكار تظهر في بلد ما أو في بضعة

بلدان ، ويقول بها مفكر من المفكرين أو بعضهم ، فلا يلتفت اليها أحد ، ثم لا تلبث أن تختفي بعد حين ، وقد يمضي زمن قصير أو طويل وهي في حالة اغفاء أو سبات أو كبت أو خفاء ، ثم تعود في يوم من الأيام ، وعلى أثر حادث من الحوادث ، فيلتفُّ حول الفكرة نفر من الناس ، أو تتجمع خلفها نخبة صالحة تؤمن بها وتخلص لها ، وتجعل منها عقيدة ، وتحاول بدورها أن تنشرها في الأوساط الاجتماعية ، وقد تبذل في سبيلها النفس والنفيس غير هيابة ولا وجلة ، وقد تنتظر الزمن ليعمل عمله في العقول والأفئدة .

ان الشيء الذي نلمسه في هذه الحالة ، هو أن الفكرة انتقلت من حيز النظر إلى حيز العمل أو من حيز القوة إلى حيز الفعل ، وبدت ذات حيوية نشيطة بالرغم من القوى المضادة التي تحاول إبعادها أو وأدها ، وأخذت تتحرك ، وهنا يحدث عراك بين متبني الفكرة ومقاوميها إلى أن تسفر الواقعة عن نصر الفكرة وانتشارها أخيراً في السواد الأعظم من الناس وفي الجماهير الشعبية ، وعندئذ يقوى عود الفكرة ويشتد ساعدها . وهكذا تصبح قوة شديدة البأس قوية العزم لا يمكن غلابها أو قهرها أو طمس معالمها إلا بصعوبة ولأجل محدود .

على أن الفكرة القومية ، وان بقيت حية ، تأخذ أشكالاً مختلفة حسب الظروف وحسب البلاد وحسب مراحل نموها وانتشارها ، ولكن يجب الا نتمثلها في ذهننا كواقع ينمو بسرعة ويتكامل باستمرار ، بل على العكس يجب أن نتصور دوماً أنها تتطور ببطء وانقطاع ، أو بتعبير آخر بانقطاع مستمر نظراً للقوى المضادة التي تقف في سبيلها لتعيق سيرها

أو لتقضي عليها . ولذا تضطر إلى الخفاء والسر بعض الوقت ، ثم تظهر وتعاود سيرها إلى أن ترسخ وتتوطد وتكتب لها الحياة . ومن هـــذه الفكرة النشيطة ، المحرضة الدافعة النابعة من الحياة نفسها ، ومن لا شعور الشعوب إلى شعورها ، إلى وعيها المتـكامل ، يتوالى سير الحركات القومية باقدامه وأحجامه ، بالتوائه وانحرافه ، بظهوره واختفائه ، بسره وعلانيته إلى أن يتحقق النصر المبين في انشاء الدولة القومية .

والجدير بالذكر أيضاً أن الدول القومية ، التي تشكلت في التاريخ ، لم تبدع ابداعاً ولم تصطنع اصطناعاً ، بل كانت موجودة قبل أن تظهر بشكلها الجديد ، أي أنها كانت حقائق ووقائع ولم توجد من العـدم . ولكنها كانت على درجات متفاوتة : بعضها كان مضطرباً لم يأخذ شكلاً منتظماً ومعيناً ، ولا يمكن تمييزه في البيئة التي وجد فيها ، وهـذه هي حال الأقوام السلافية مثلاً في الامبراطورية النمساوية . وهـذا ما جعلها آخر القوميات التي استيقظت للحياة في أوربه . وبالمقابل نجد شعوباً لها كيانها المستقل احتفظت بفرديتها بالرغم من وقوعها تحت ضغط غيرها من الشعوب الأخرى ، وظلت حية تسعى ولكن دون أن تعي ذاتها ،ودون أن تكون لها ارادة باظهار شخصيتها . ويكفي لمثل هـــذه القوميات ظروف تاريخية تتيح لها الفرصة لتستيقظ من سباتها وتدرك عاطفة الاستقلال التي حرمت منها . وفي الواقع ان هذه الأمم امحت من الوجود كشخصية سياسية واحتفظت بمقومات قوميتها ، ولكن ينقصها الروح ، فيكفي إذن أن تنفخ فيها الروح لتعي نفسها وتشعر بوجودها الحقيقي . وهـذه مثلاً حال البولونيين أو اليونان أو الهونغاريين أو العرب في ظل الامبراطورية العثمانية .

ودرجة نفوذ الحكم الأجنبي تختلف بالنسبة لكل أمة من الأمم ، لأن جوهر شخصية كل منها يختلف عن جوهر الأخرى . فبولونيا مثلاً بقيت حية كشعب بالرغم من تقطيع أوصالها بين جيرانها وزوالها من الخارطة الأوربية في القرن التاسع عشر كدولة ذات سيادة . غير أن ضغط الفاتح قد يبلغ في بعض الأحيان درجة يفقد الامة صوابها فلا تشعر بانحطاطها وسقوطها ، وهذا ما جرى للايرلنديين في ظل الحكم الانكليزي ، عندما كانت ايرلندا تؤلف جزءاً من الامبراطورية البريطانية .

ووضع الامم يبقى على مثل هذه الحال جسداً بلا روح حتى تتاح له منبهات مختلفة تبعث فيه الروح من جديد ليمور بالحياة . وقد الفت الشعوب هذه الروح عندما قامت حرب الاستقلال الاميركية وبصورة خاصة الثورة الفرنسية تلبيان فلسفة الانوار من جهة وتناديان بحقوق الانسان والشعوب ، وأكثر من ذلك عندما قامت الشعوب تناهض نابوليون.

ولا ريب في أن الثورة حادت عن مذهبها الاصلي وانحرفت عن غايتها الاولى ، وان نابوليون كان يتلاعب بالمذهب الثوري في حق الشعوب وان ادعى أنه يعمل لخير هذه الشعوب . وهذا ما أثار عليه رد الفعل من كل جانب وتألب أوربه واعادة تنظيمها من جديد وعلى أسس جديدة .

وفي جميع البلاد التي استيقظت فيها العاطفة القومية وجد مفكرون وشعراء وروائيون يغذون الآداب القومية بنتاج قرائحهم وفيض خواطرهم كما وجدت الآداب الشعبية سوقاً رائجة وآذاناً صاغية . ورافق هذا الاتجاه الحركة الابداعية في الأدب والفن فأحيت جميع التقاليد الشعبية ومجدت الماضي وجعلت منه مصدر حساسية وخيال . ونهضت كذلك

حركة التأليف في التاريخ . وقام المؤرخون القوميون ينقبون عن ماضي أمتهم وينبشون تراثهم ويبحثون عن امجاد قومهم .

ثم قامت المؤسسات الأخرى كالجامعات والمتاحف والمؤتمرات العلمية تؤدي رسالتها التي أنشئت من أجلها ، فأفادت في اثارة الشعور وتقريب أبناء القوم الواحد . ووجد في كل بلد من البلدان رجالات ينشؤون الحياة ويصنعون التاريخ بقوة شخصيتهم وقناعتهم وإيمانهم وفصاحتهم وجاذبيتهم وحسن بلائهم ودفاعهم ، وأخذ أبناء قومهم يتعلقون بهم ويتبنون آراءهم ويعملون بتوجيههم . وهذا يعني أن العنصر الفكري أخذ يعمل عمله في الجماهير القومية ويدفعها للقيام والمطالبة بالحرية والاستقلال وتأسيس الدولة القومية .

ولم يكد ينتهي القرن التاسع عشر ويطل القرن العشرون إلا وتحررت معظم القوميات الأوربية وكونت وحداتها القومية بالرغم من الصعوبات المادية المختلفة وبالرغم من التيارات الفكرية المضادة الأخرى كتيار الاشتراكية وتيار الأممية .

واستجمعت بعض هذه الدول الناشئة الجديدة أسباب القوة على أثر التقدم الصناعي واستخدام الآلة وما رافق ذلك من ازدهار اقتصادي ، وشرعت تحاول الاستيلاء على غيرها من البلاد بطرق مختلفة ، ولا تتوانى عن سلوك الحرب والابادة وغيرها من أساليب الاستعمار المعروفة . وعلى هذا النحو تم الغزو الاستعماري لبلاد آسيا وافريقية وشعوبها الآمنة . وأصبحت الشعوب التي كانت تنادي بالحرية أو تطالب بها أول من يعتدي على حق الشعوب .

ولا ريب في أن الدول الاستعمارية كان يؤدي بها الطموح لاستغلال

الشعوب الأخرى إلى التنافس والحرب أحياناً ، ولكن الصلح بينها كان يُسوّى على حساب الشعوب الضعيفة وبما يتنافى مع حرية الشعوب في تقرير مصيرها واحترام حقوق القوميات . حتى أن الحلول التي اتخذتها الدول الكبرى بعد الحرب العالمية الأولى لتسوية القضايا القائمة والمعلقة ، كثيراً ما جنت على مبدأ القوميات وكانت مضادة له . وبالرغم من أن معاهدات السلام التي تلت حرب ١٩١٤ حررت كثيراً من الشعوب التي كانت خاضعة حتى ذلك الحين للنفوذ الأجنبي ، فان هذه المعاهدات من جهة أخرى وضعت مصوراً سياسياً جديداً للعالم وأوجدت فيه أقليات قومية جديدة في الدول التي أنشأتها ، وهذا ما أثار مشاكل جديدة لم تكن موجودة من قبل .

وعلى عكس ذلك لم يعمل شيء لصالح القوميات في خارج أوربة . فقد تقاسمت الدول الظافرة الأسلاب والغنائم فيما تبقى من بلاد غير مستعمرة في قارتي آسيا وافريقية ، وحلت المشاكل الدولية الأوربية على حساب هذه البلاد ، وجعلت منها مستغلات ومستعمرات ، وان ادعت ، كما زعمت ، انها ما أتت لهذه البلاد إلا للحماية والوصاية ، وتأدية الرسالة الحضارية إلى أبناء الشعوب المتخلفة ، إلى آخر ما هنالك من تعابير جوفاء .

غير ان فترة ما بين الحربين شهدت نضال الشعوب المغلوبة على امرها في آسيا وافريقية ، بعد أن افاقت من سباتها وأخذت تزيح عن كاهلها نير الاستعباد ، وتحاول جاهدة الأخذ بأساليب الغرب ومكافحته بوسائله وعقليته ما استطاعت لذلك سبيلا . كما شهدت في الحركات القومية لبعض البلاد مطاليب تتجاوز جمع الشمل تحت لواء الوحدة ، وتتعداه إلى البحث

عن المجال الحيوي . حتى ان الدول الكبرى في الحرب العالمية الثانية كلما دحرت خصمها في بلد من البلدان جاءت تفرض نفسها على أبناء هذا البلد وتجعل يوم دخولها عيداً للتحرر القومي تقام فيه الزينة والأفراح ، وكان أبناء هذا البلد ليس لهم من إرادة يبدونها سوى الرضى بالأمر الواقـــع والتسليم بكل ما يجري .

ولكن الشعوب المتطلعة الى الحرية والاستقلال ظلت تناضل وتقاوم وزاد أملها بما صرح به موقعو ميثاق الأمم المتحـــدة من ايمان بحقوق الانسان الأساسية وبالكرامة ، وقيمة الشخص الانساني ومساواة حقوق الرجال والنساء ، والأمم الكبرى والصغرى دون تمييز عنصر او جنس او لغة او دين ، وتأكيدهم لحق الشعوب في تقرير مصيرها .

وهكذا شهد العالم منذ ١٩٤٥ ولادة دول قوميـة متعددة في آسيا وافريقية ممتدة من اندونسيا حتى المحيط الاطلسي ، كانت شعوبها في القرن التاسع عشر وفي النصف الأول من القرن العشرين خاضعة سياسياً وعسكرياً للدول الأوربية .

ووحدة المصاب بالاستعمار والنضال والأمل بالاستقلال والعيش الكريم شدت اواصر الصداقة والتفاهم بين شعوب آسيا وافريقيـة وربطت بينها برباط التضامن الافرو آسي لإنهاء الاستعمار والقضاء عليه قضاء مبرماً ودفع كل استعمار جديد والتعاون معاً في الحقل الدولي .

ولا مرية في ان العهد الجديد الذي تجتازه هذه الدول الفتية الناشئة مثقل وسيكون مثقلاً بالصعاب والمشاكل الداخلية والخارجية مع ما يصحبها من أزمات النمو . ولكنها على أي حال أحسن عيشاً وأوفر كرامـة واعجل تقدماً منها في العهد البائد . وستجد من نفسها القوة ، ومن رجالها

الخلص حسن التوجيه بما يساعد على النهوض وتذليل العقبات وتحقيق القدر الذي ترتايه لنفسها .

وهكذا نرى ان التوازن القديم الذي أوجدته الدول الكبرى والمنافع المادية والمصالح الاستعمارية والتسلطات التوسعية بدأ يضطرب ليحل محله توازن جديد يقوم على الحرية والمساواة بين الشعوب . فلقد زالت بالتدريج الأطر التقليدية لصالح قوى جديدة ناشئة لم تستقر بعد ولكنها في طريق التكامل والنمو . ولم تعد اوربة وامريكا تمسكان بأيديها صولجان التفوق أمام ظهور عمالقة آخرين ، كما لم تعد الدول الكبرى كبرى أمام دول العمالقة ، لأن انتشار التعليم المستمر وتمازج الحضارات المختلفة واتساع طرق المواصلات وتنوعها جعلت الشعوب القاصرة تتطلع الى ادارة شؤونها بنفسها ونبذ كل حماية او وصاية او رعاية ومكافحة كل استعمار مهما كان نوعه من قديم او حديث . وهذا ما احدث مرارة شديدة في نفس من كانوا يعتقدون بالأمس انهم السادة وغيرهم العبيد ، وانهم أوصياء على الشعوب الأخرى ...

وبعد ان كان ابناء الشعوب المتخلفة يؤخذون بسر « تقدم الغرب » إذا بهم يستبينون « أفول الغرب » النسبي . وبعد ان كانت القارتان آسيا وافريقية مستغلاً للدول الكبرى ، إذا بها تنفضان غبار القرون الخالية وتنشآن الحياة من جديد وعلى أسس عقلانية .

ان هذا التطور القومي الذي نلمس آثاره في جميع انحاء العالم ، وخاصة في القارتين الكبيرتين ، لمدين حقاً الى نمو الشخصية البشرية وتكامل الوعي عند الشعوب ، وتحرير الفرد والجماعة من كل قيد يشل النشاط ويعيق التقدم .



الحركات القومية الأوربية
في النصف الأول من القرن التاسع عشر

القسم الأول

القومية والوطنية



الفصل الأول

الأصول العقائدية لمبدأ القوميات

حوالي ١٧٦٠ — ١٧٧٠ قامت في مختلف انحاء اوربة عدة ظاهرات بدت فيها مطالب قومية . ففي ايطاليا نجدها في آثار مؤرخين : **مافيئي** (١٦٧٥ — ١٧٥٥) **وموراتوري** (١٦٧٢ — ١٧٥٠) . وفي جنوب شرقي اوربة الف الأب بيزي عام ١٧٦٢ تاريخ الشعب السلافي البلغاري والقياصرة والقديسين في بلغاريا . وفي حملة روسيا ضد تركيا عام ١٧٧٠ قامت حركة يونانية هزت شبة الجزيرة والجزر . وفي بلاد الشمال نشرت في العام ١٧٦٠ اول ميثولوجيا اسكاندينافية باللغة الألمانية . وفي العام ١٧٧٢ الف جيرارد شونينغ أول تاريخ للنورفيج . وبعد بضعة أشهر الف اول نشيد وطني نورفيجي وترى فيه هذه الجملة : « لاشك في أننا سنستيقظ مرة ونحطم اغلالنا وروابطنا ونقضي على كل قسر » . وفي عام ١٧٧١ الف نشيد مماثل في فنلندا . وفي المانيا الف غوتيه عام ١٧٧٣ قطعته المسماة « **غوتز فون برليشنغن** » وهي اول قطعة ذات موضوع الماني قومي . وفي البلاد المنخفضة بديء ببعث اسم بلجيكا .

لقد كانت هذه الظاهرات معاصرة لبرنامج الاستقلال والاتحاد الذي وضعه صموئيل آدامز في ماساتشوستس في الولايات المتحدة شتاء عام ١٧٧٢ — ١٧٧٣ . وكذلك تقسيم بولونيا عام ١٧٧٢ هز اوربة هزة عنيفة .

لم يكن كل حادث من هذه الحوادث جلياً ، ولم يكن في هذه الأفكار المضطربة دقة او مفهوم واضح للقومية . غير أن المهم هو أن هذه الوقائع وجدت معاً وتعممت ، وهذا يدل على انتشار بعض الأفكار الجديدة في اوربة كلها .

وفي الحقيقة ، لقد تشكلت في الوقت نفسه النظريات الاولى للقومية ونجد فيها مدرستين : المدرسة الفرنسية والمدرسة الألمانية . وفي هاتين المدرستين تنعكس عبقرية الشعبين ، او بتعبير آخر طبعها ونفسيتها اللذان يعتبران عنصرين دائمين في التاريخ . وهذا الدوام في نفسية الشعبين يؤثر في طبع شخصيتها ويعكس شرائط نموهما التاريخي .

المدرسة الفلسفية الفرنسية

إذا نظرنا إلى فرنسا من الوجهة السياسية ، واستثنينا انكلترا ، نجدها متقدمة على باقي بلاد اوربة . ان ما يميز فرنسا هو قدم الأمة الفرنسية . فمن الوجهة التاريخية ، تشكلت فرنسا من جمع عناصر مختلفة وعروق متباينة اتت اليها عن طريق الغارات واستوطنتها ، واختلطت بالأصل القديم الغالي ؛ ومن جمع المقاطعات المتعلقة بنعرتها الاقليمية الشديدة . ومن هذا الخليط تشكل جسم واحد ، فرنسا . وقد وجدت فرنسا هذه بفضل الأسرة الكابسية التي بذلت جهوداً مديدة في هذا الشأن . ويلاحظ أن فرنسا الفت دولة منذ عهد بعيد ، وان الوطنية فيها قديمة ، وان لكل من المؤرخين والناشرين نظريات مختلفة في تاريخ هذه الوطنية وأصلها ؛ ويلاحظ في الغالب ان الأفكار السياسية كانت أساساً لهذه النظريات . يرى المؤرخ الفرنسي اوغستن تييري ان الأمة

الفرنسية تبدأ مع هوغ كابيت . ويرى جمهرة المؤرخين أن واقعة بوفين بين فيليب اوغست والامبراطور اوتون الرابع وحلفائه ، عام ١٢١٤ ، اول بادرة واشارة للقومية الفرنسية . ويرى المؤرخ غيزو ان الأمة الفرنسية بدأت تشعر بذاتها في عهد أسرة آل فالوا . وينسب المؤرخ ميشليه نمو الوطنية الفرنسية إلى جان دارك . ويزعم المؤرخون الجمهوريون ، مثل لافيس واولار ، ان الأمة الفرنسية بدأت منذ عهد الثورة . وفي الواقع ان العاطفة القومية أي عاطفة حب البلد الفرنسي قديمة في فرنسا ويرى التعبير عنها منذ القرن الثاني عشر والثالث عشر .

غير ان الذي يهم موضوعنا هو ان العاطفة القومية بدأت مبكرة على الشكل الذي سيكون أساساً للمذهب الفرنسي في القومية لا بشكل غريزي فحسب ، بل بشكل شاعر وواع بأن للأمة حق الحياة ، وهذا الحق لايمكن أن يمس او ينقل إلا برضى الأفراد أنفسهم . ومن هنا يرى ان في أساس الأمة فكرة العقد .

وهذه النظرية ، التي تجعل حق الأمة مستنداً على رضى الشعب أي على عقد بين الشعب وسيده ، دامت من القرن الرابع عشر إلى آخر القرن السادس عشر . أما في القرن السابع عشر فقد كسفت وراء الحق الملكي ، ولكن دون أن تذهب تماماً . وقد أصبح هذا التقليد القديم نظرية وأخذ يتضح في القرن الثامن عشر . فحتى ذلك الحين كان يرى ان الصفة الأساسية للدولة هي وجود سلطة ذات سيادة . وان الدولة مرتبطة بالمبدأ الملكي . غير ان فكرة الأمة ، في القرن الثامن عشر ، أخذت تعلو فكرة السيد كأساس للدولة ، وصار يطلب إلى الدولة أن تبرهن على شرعيتها بحل آخر غير حل الحق الملكي .

ترجع اسباب هذا النداء للنظريات إلى مايلي :

١ — الى تضارب وعدم كفاية الايضاحات التاريخيـة المعاصرة التي كان يؤتى بها لبيان أصل فرنسا القديم ، وطبيعة الغارات ودور كل من الفرنجة والغاليين في تشكل فرنسا . وقد دشن هذا الجـدل في القرن السادس عشر المؤرخان هيللو دو تييه وهوتمان ، ولبـث طوال القرن السابع عشر ، وانفجر بشكل قوي في فاتحة القرن الثامن عشر . ولم يصل المؤرخون إلى نتيجة وافية ، لأن الشك ظل يحوم حول أسـاس الأمة الفرنسية ووحدتها ، بينا كان وجود الأمة الفرنسية أمراً اكيـداً وثابتاً . ولذا حصل اتجاه في التفكير إلى ايجـاد الحل في عـالم الفكر لا في عالم التاريخ .

٢ — دخول رجال الآداب والفكر في منتصف القرن الثامن عشر في عالم السياسة والفلسفة السياسية والعمل السياسي ،هذا العالم الذي ظل حتى ذلك التاريخ وقفاً على اللاهوتيين ورجال القانون . وفي الوقت نفسه بـدأ رد الفعل في العالم الفلسفي ضد الحكم الملكي المطلق . ففي عـام ١٧٤٧ نشر الفيلسوف الجونيفي بورلاماكي « مبادىء الحق الطبيعي » . وفي عام ١٧٤٨ نشر مونتسكيو كتابه « روح القوانين » ، ومن بعد ذلك مدرسة الموسوعة كلها . ومن هذين الأصلين خرجت نظرية الحرية السياسية .

وبفضل عمل هؤلاء المفكرين أخذت كلمة « شعب » معناهـا وهو وحدة الأصل ، وفكرة « الامة » معنى المنظمة السياسية والاجتماعيـة . وحلت جميـع القضايا التي كان يتناقش بها كقضية أصـل فرنسا . وقـد بسطت هذه الأفكار المعقدة وحلت بارجاعها إلى العقل الذي يوضح كل شيء . وبهذا العمل الفكري وجدت فكرة الأمة مرتبطة نهائياً بشعور

الوحدة القومية وبوعيها ، وانفصلت عن الفكرة الحقوقية للدوله ، وارتبطت بفكرة الحرية وفكرة الحق .

إلا ان الذهاب بالمفهوم الأصلي للأمة في عالم الفكر له خطره ، وذلك لأن هذا المفهوم للأمة يمكن أن يهدد المفهوم الوطني ويحله في فكرة البشرية والوطنية العالمية . غير ان الوقائع وخاصة السياسة الخارجية اجرت التصحيح الضروري لهذا المفهوم . وكذلك ارجعت حروب الثورة الفرنسية فكرة الأمة إلى حظيرة الوطنية القومية بعد أن كادت تضيع في الوطنية العالمية . يقول روبير ، وهو من رجال دانتون في المؤتمر الوطني الفرنسي : « أريد أن ينسى لحظة مشرع فرنسا العالم فلا يشغل نفسه إلا في بلده . اريد هذا النوع من الانانية القومية ، الذي نخون واجباتنا بدونه . اني احب جميع الناس ، وبخاصة احرار الرجال ، ولكنني افضل رجال فرنسا الأحرار على احرار العالمين » .

هذه هي الأسباب التي ولدت النظرية . فلنتأمل هذه النظرية نفسها: لقد وضعت هذه النظرية عقب ١٧٦٠ تقريباً وبخاصة على يد جان جاك روسّو في كتابين من كتبه وهما : « العقد الاجتماعي » ١٧٦٢ و « نظرات في حكومة بولونيا » ١٧٧٢ .

يقول جان جاك روسو في كتابه « خطب في التفاوت » ، عام ١٧٥٤ : « لنبدأ بابعاد جميع الحوادث » . وهو يرى ، كما يرى رجال الموسوعة ، ان الفرضية لاتفهم كفرض على الحوادث القديمة لايضاحها بل كتبرير مقبول وممكن للحوادث الحالية . وهذه الحوادث ، بالنسبة اليه ، هي ان الناس مرو بمراحل متعاقبة : الحالة الطبيعية ثم الحالة الهمجية ثم الحالة الاجتماعية التي هي الحالة الحاضرة ، على ما فيها من عيوب وانحطاط

تدريجي للانسان أدت اليه الحضارة ؛ وأخيراً الحالة المدنية التي ارتبط فيها الناس بعقد والفوا الدولة باسم المصلحة العامة .

لم يعالج جان جاك روسو القومية صراحةً ، ولم يعرفها بتعبير واضح ، غير أنه ، على العكس ، يستعمل كلمة « الأمة » في معنى معاصريه ويقول عن نفسه في « حواره » : « انه رجل العالم الذي يكن في نفسه الاحترام الحقيقي للقوانين والدساتير القومية » . بيد ان بعض نظريات جان جاك روسو وضعت نظرية القومية واعطتها تفسيرها وتبريرها . وأول هذه النظريات نظرية « العقد » ويقصد بهذا العقد الاجتماعي الذي هو أساس المجتمع المدني والمجتمع الانموذجي . ومنه يستنتج المبدأ القائل بأن ارتباط المواطنين هو أساس المجتمع . وهذه الارادة العامة التي تحل محل الارادة الفردية في الحالة الاجتماعية انما هي تعبير لكائن اجتماعي وجماعة قومية . ويرى جان جاك روسو ان الكائن الاجتماعي يوجد فعلاً ، ويجب احترامه في حقه في الحياة وفي حقه في التعبير . ومن نظرية العقد تخرج أخيراً فكرة ربط الدولة ، وهي الهيئة السياسية ، بهذه الروح القومية المؤلفة من ارتباط المواطنين . ويرى ، من جهة أخرى ، أن روسو في فلسفته العامة وخاصةً في مفهومه للدين ، يرجع إلى الوجدان أي الضمير ، ويبني هذه الفلسفة على احترام الفرد .

ومن نظريات جان جاك روسو يخرج ايضاً مفهوم يتعلق بالقومية وخاصة في مفهوم الدولة . وهو أن هدف التشريع يجب أن يعطي إلى روح الشعب سيماءه القومية ، ويحيي في القلوب ، بواسطة التربية ، تقاليد الوطن واخلاقه وطباعه . وهذه هي الفكرة التي يوسعها في كتابه « نظرات في حكومة بولونيا » عام ١٧٧٢ . ولذا ينبغي تكييف الدولة حسب الروح القومية ، وهذا ما حاوله في وضع دستور لبولونيا . إلا

أنه لا يتصور امكان تكييف الدستور الجمهوري مع العاطفة القومية إلا من أجل الدول الصغرى .

ويهمنا من روسو روح نظرياته وما تمثل بالنسبة إلى رأي عصره ، أي فكرة الديموقراطية والجمهورية ، فكرة السيادة الشعبية . ولقد وضحت نظريات روسو بجلاء على يد تلاميذه ومكمليه ، ونخص بالذكر منهم ، في ميدان الفلسفة المحضة وما وراء الطبيعة ، الفيلسوف الألماني كانط . فقدم آل تفكيره إلى الاستقلال الذاتي للشخص البشري وإلى الآمر المطلق للوجدان . فاذا نقلت هذه الأفكار إلى المضمار القومي الذي يشغلنا ، دلت على لزوم احترام الفرد وعدم فرض ارادة أجنبية على الروح الاجتماعية . ويرى كانط أن الأخلاق هي نفسها بالنسبة للأمة كما هي بالنسبة للفرد ، ولا يوجد مبرر نظري ممكن للاغتصاب التاريخي . إلا أن كانط كان مواطناً عالمياً دون قواعد قومية وانسانية .

وكان المكمل لآراء روسو في فرنسا ، وخاصة في العالم السياسي ، الأب مابلي . فقد عرض نظريته في كتابين : **« حديث فوسيون عن علاقة الأخلاق بالسياسة »** عام ١٧٦٣ و **« ملاحظات في تاريخ فرنسا »** عام ١٧٦٥ .

وكان تأثير مابلي عظيماً في رأي عصره . فقد أسس مذاهب المساواة وحتى الشيوعية فيما يتعلق بالناحية الاجتماعية . ووضع في أصل تاريخ فرنسا نوعاً من جمهورية قومية فرنجية وفرنجية — غالية ، ورأى أن مجلس الأمة تعبير لا ينفصل عن الحياة القومية ، واعتبره سابقاً للملكية ، وان للانسان قانونه الخاص ، ولذا لا يمكن أن يرتبط إلا بارادته الخاصة

وهكذا نرى أن نظريات روسو وكانط ومابلي تؤول إلى تصور القومية ارتباط ارادات حرة .

ومما هو جدير بالذكر أن هذه النظريات المتعلقة بالقومية لم تبق في حيز الفلسفة بل انتقلت إلى حيز الواقع . ومنذ أيامها الأولى نراها عند رجل يهتم بالاعمال وفي الوقت نفسه رجل أوهام ، المركيز دار جانسون في « نظراته في حكومة فرنسا » المنشور عام ١٧٦٤ ، وفي يومياته . وضع مخططاً لتجزئة الامبراطورية العثمانية على أساس القوميات . ولذا يعتبر بحق طليعة ومبشراً . وتصور قومية يونانية ، وقومية آسيا الصغرى وقومية فلسطينية وقومية سورية ، وقومية مصرية ، وقومية مراكشية ، وامتد بهذا المفهوم إلى أوربة ، ورأى تشكيل جمهورية أو رابطة دائمة للدول الايطالية ، كما وجدت رابطة جرمانية ، وباتافية (جمهورية بلاد البالطيك من ١٧٩٥ إلى ١٨٠٦) ، وهلفتية (سويسرية) . وفي الوقت الذي كانت تنتشر فيه نظريات روسو ومابلي استقبل استقلال الولايات المتحدة في فرنسا ، وان كان ذلك لغرض سياسي لا قومي ، كتحقيق للأفكار الفرنسية فيما يتعلق بالدولة .

وفي عهد الثورة الفرنسية دخلت نظرية القومية في الأحداث والوقائع وجعلت الثورة منها مذهباً عاماً ، وفي الوقت ذاته ، حلا عملياً وواقعياً ، وأظهر اعلان حقوق الانسان والمواطن ، من الوجهة القومية ، فكرتين أساسيتين : الأولى أن السيادة للأمة ؛ والثانية ان القانون تعبير للارادة العامة ، وأن هـذه الارادة العامة وحدها تملك القانون وتعرف سيادة الأمـة ووجودها ، وان الدولة يجب ألا توجد إلا برضى المحكومين الحر . وتستخلص الثورة من هـذه الفكرة نتيجة مزدوجة . فهي من

جهة تنكر حق الفتح ؛ ومن جهة أخرى ، تنادي بحق انفصال الأمم المقهورة والمغلوبة على أمرها . وليس حق الانفصال هـذا الا حق مقاومة القهر الذي اعترف به اعلان الحقوق للافراد . وفي الواقع وجدت مادة في دستور ١٧٩١ تصرح علناً : « ان الأمـة الفرنسية تتخلى عن القيام بأي حرب في سبيل الحصول على فتوحات ، ولا تستخدم قواها ضد حرية أي شعب كان » . وبعد بضعة أشهر على اعلان الدستور تم الوصول إلى نتيجة أوضح وهي : أن قوى فرنسا موضوعة تحت تصرف حرية الشعوب الأخرى لتحريرها .

ومن هنا نشأ حق عام جديد ، وفي الوقت نفسه ، جرت تطبيقات عملية لهـــذه النظرية كانت في صالح فرنسا . وحققت فرنسا بنفسها « عقدها الاجتماعي » في عيد الاتحاد أي في ١٤ تموز ١٧٩٠ عندما أتت وفود المقاطعات إلى باريس لتعقد صك الاتحاد على مذبح الوطن ، وتحققت فعلاً فكرة روسو النظرية والوهمية في العقد الاجتماعي .

واستعملت الثورة الفكـرة نفسها لتبرر توسيع حدود فرنسا وتحل قضيتين سياسيتين وهما : ضم الكونتا فينيسان وقضية الصعوبات التي أثارها أمراء الامبراطورية المالكون في الالزاس . لقـد كان الكونتاديون (سكان الكونتا) يطالبون البابا بمجلس أمة ليستطيعوا اعلان ضم الكونتا فينيسّان وآفنيون إلى فرنسا ويصرحون بقولهم : « بناءً على اعتبار أن الأساس الشرعي الوحيد للمطالبة بالسيادة والحصول عليها هو الرضى الحر للشعب ، وان ارادة الشعب يجب أن تظهر قبل أن يخضع لنفوذ آخر . . . » فالنظرية إذن واضحة وهي أن رضى الشعب له الخيار في تقديم طاعته إلى الدولة التي يريدها . وفي الواقع صوت مجلسا الأمـــة في الكونتا

وآفنيون على الانضمام إلى فرنسا . كما أن نظرية رضى الشعب في اختيار حكومته دافع عنها في المجلس الفرنسي النواب المحبذون لهذا الانضمام مثل روبسبير وبتيون وبارناف ، بينا عارضها حقوقيون من أمثال ترونشيه باسم الحق القديم ، وسياسيون مثل ميرابو باسم الانتهاز ، ولكن النظرية القومية تغلبت أخيراً عندما قبلت الجمعية التأسيسية بضم المقاطعتين المذكورتين إلى فرنسا في ١٤ ايلول ١٧٩١ . وباسم هذه النظرية حلت الثورة قضية الأمراء المالكين في الألزاس ، وانضم هذا الاقليم إلى فرنسا ، ولم يعد للأمراء الالمان حق أعلى على أراضيهم خارج عن مشيئة السكان .

وطبقت الثورة هذا المبدأ عن طريق الاستفتاء لضم نيس والسافوا ، وبلجيكا والضفة اليسرى لنهر الراين .

وهكذا نرى أن النظرية الفرنسية تقوم على مفاهيم فلسفية .

المدرسة التاريخية الالمانية

اما النظرية التي تعارض النظرية الفرنسية فهي نظرية المانية غير فلسفية ولكنها ذات أساس تاريخي . ولذا يمكن تسميتها بالنظرية التاريخية الالمانية واذا رأينا في المانيا نظرية في القومية تختلف عن النظرية الفرنسية ، فذلك لأن الظروف التاريخية في كل من الدولتين كانت تختلف عن الأخرى ؛ ولأن الاتجاه الفكري للدولتين في آخر القرن الثامن عشر كان مختلفاً ايضاً . ومن السهل ان نفهم في هذه الظروف ان التعبير الفلسفي لفكرة **الدولة و القومية** يختلف في المانيا عنه في فرنسا . وهذه النظرية الألمانية تختلف عن النظرية الفرنسية في تطورها الشخصي وفي الاتجاه الذي عينته للشعوب الأخرى .

لقد خبرت المانيا في تاريخها الطويل تجربة سياسية متناقضة . فقد كانت ضحية العصر الوسيط الذي استحكم بين ظهرانيها حتى القرن التاسع عشر ، بينما استطاعت فرنسا ان تنجو منه في وقت مبكر . لقد أخذت فكرة السيادة في المانيا شكل الامبراطورية والفكرة الامبراطورية أي انها أخذت مفهوماً عاماً وهو « الكاثوليكية السياسية » ولم ترتبط الفكرة الامبراطورية بالدولة ولا بالارض ، بل انها توضعت فوق الدول الألمانية ، كما توضع الأمبراطور فوق الملوك العاديين . وهو يمثل الفكرة المسيحية من الوجهة السياسية كما يمثلها البابا من الوجهة الروحية . والبابا والامبراطور يمثلان « نصفي الله » . ومن هنا يفهم ان فكرة الامبراطورية تمتد بحدودها إلى ماوراء المانيا نفسها . وفي الواقع امتدت الامبراطورية بعيداً عن ألمانيا نحو الغرب ونحو الجنوب . فمن جهة الغرب شملت وادي الرون وبلاد اللورين ، ومن جهة الجنوب ضمت ايطاليا الشمالية حتى أنها احتوت ايطاليا الوسطى وروما . وبالمقابل ، ان هذه الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة التي امتدت نحو الغرب والجنوب إلى ماوراء حدود المانيا الجغرافية ، ما كانت لتشمل الاراضي التي توسعت بها اوربة بعد تأسيس الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة على يد اوتون الكبير . فمن جهة الجنوب الشرقي اتسعت اوربة بالثغور التي كان غرضها ايقاف الغزو الآسيوي بالنمسا وهونغاريا ، ومن جهة الشرق اتسعت بدحر الصقالبة البولونيين نحو الشرق ، حتى ان هذه الامبراطورية في آخر القرن الثامن عشر ، لم تنطبق على مايسمى المانيا . بلغت مساحتها ٦٠٠,٠٠٠ كـ م² وتراوحت نفوسها بين ٢٨ و ٣٠ مليون نسمة . ولكن الدول التي تؤلفها أو تشترك في تأليفها كانت تتجاوزها بصورة غريبة . فقد كانت النمسا تضم ١٠,٥ ملايين نسمة في الامبراطورية و ١٤ مليون في خارج الامبراطورية . وتضم بروسيا ٢,٥ مليون نسمة في الامبراطورية

ومثل ذلك في خارجها . وفي مثل هذه الشروط يمكن ان نعتبر المانيا كبيرة جداً أو غير كبيرة بصورة كافية . وهذا ما يوضح لنا المطالب السياسية إذا اريد تأسيس القومية على التاريخ ، أي اذا اريد ، باسم القومية المؤسسة على التاريخ ، جمع الشعوب التي دخلت في زمن ما في الامبراطورية الألمانية . وعلى هذا ففكرة السيادة الألمانية ، كما تفهم في الأصل كفكرة امبراطورية ، منفصلة عن كل قوام ارضي وسياسي . ومن هنا يمكن أن نفسر تشعث القومية الألمانية والنظام السياسي الألماني ، لأن المفهوم الامبراطوري لا يمثل فكرة الأمة الألمانية .

يضاف إلى ذلك أن المانيا خبرت تجربة سياسية أخرى مضادة نوعاً ما للسابقة . لقد وجدت في المانيا دول اصطنعت اصطناعاً ، كدولة بروسيا . فقد تشكلت هذه الدولة على يد سلالة آل هوهنتزولرن بجمع اراض مختلفة عن طريق الارث أو الشراء او الفتح او الاستيلاء . وأخذت شكلها السياسي تدريجياً باسم « ناخبية براندبورغ » ، ثم بالملكية المكتسبة عام ١٧٠٣٠ على يد البوروقراطيين من كبار الموظفين والجيش ، وأخيراً بتأثير حكم فريدريك الثاني المطلق . واستطاعت هذه السلالة ان تؤلف سكان بروسيا لأن ملوكها اضطروا إلى استدعاء السكان من مختلف اقطار اوربة إلى بروسيا لتعمير الاراضي البور والمتروكة على طبيعتها ؛ ثم إلى صهر هذه العناصر المختلفة من السكان وتشكيل كل غير متجانس العناصر ؛ وأخيراً إلى تقسيم السكان إلى طبقات حسب قرار فريديريك . وهكذا تألفت الأمة البروسية ، التي تختلف من حيث تشكيلها عن تشكيل الأمة الفرنسية او الانكليزية اللتين توجدان تقريباً قبل وجود الدولة . إن نتيجة هذا العمل ، من وجهة النظر القومية ، هي ان بروسيا تعطينا مثالاً واضحاً عن قوة الدولة وشدة نفوذها ومن الممكن ان ينسب إلى الدولة كل شيء ، لأنها استطاعت أن

تخلق شعباً وتوجد أمة . فالدولة في بروسيا هي الكل في الكل . وهذا ما حدا بالبروسيين إلى تأليه الدوله على حساب الفرد . وما فلسفة هيغيل ، كما سنرى ، الا صورة عن هذا الواقع البروسي .

وفي الحقيقة ، كان تأثير بروسيا عظيماً في المانيا ، وساعد على هذا التأثير مجد فريديريك الثاني العسكري والفلسفي . فقد كان موضع اعتزاز وفخار لدى جميع الألمان . حتى ان الشاعر غوته تغنى به في شبابه وهو في فرنكفورت بقوله : « لقد كنت مع بروسيا ، وبخاصة مع فريديريك ، وماذا يهمني من أمر بروسيا ، ان شخص المليك هو الذي يهيج القلوب ، ولقد فرحت وابي بانتصاره » . وتدل تقارير السفراء على ان الألمان الذين سافروا الى امريكا في ذلك العهد ، قد آثارهم مجد فريديريك فجعلوا « يعبدون ملك بروسيا كما تعبد الأصنام » . ونرى ايضاً نشأة أدب شعري في الحرب والوطنية على لسان الشعراء : كلايست وغلايم وتوماس آبت . وفي هذا من التناقض مافيه ، لأن ملك بروسيا ، وهو اقل الالمان المانية ، كان يزود المانيا بهـذا المجد ويجعلها تفخر بالمانيتها . ونرى تناقضاً آخر وهو ان فريديريك الثاني كان يكافح النمسا والامبراطورية أي يكافح الشكل الأساسي للتاريخ الألماني في سبيل تنظيم دولته على حساب الامبراطورية .

يضاف إلى ذلك عنصر آخر ، كان يظهر بين حين وآخر في المانيا ، وهو كره فرنسا . وكان يرى من تارة لأخرى ظهور كلمة « وطن » في رسائل رجال السياسة أو أعمالهم أو دراساتهم . ففي الجدل الذي قام بين فريديريك الثاني وماريا تيريزا ، بسبب اقليم سيليزيا ، كان كل من العاهلين يتوجه إلى « الوطن الألماني » ، لأن ماريا تيريزا كانت تريد ان تحمي الامبراطورية من فريديريك ، وبالتالي من حلفائه

الفرنسيين . وفريديريك نفسه ، عند ما كان يهاجم الامبراطورية ، كان يدعي بانه يريد تحرير « الشعب الألماني من الأجنبي » وفي العام ١٧٦٩ تصالح فريد يريك الثاني وماريا تيريزا باسم « المذهب الوطني الألمـــاني » ضد فرنسا . وكان كل منهما ينـادي باسم « الحريات الألمانية » ، وبخاصـة فريد يريك الثاني عندما الف « عصبة الأمراء » عام ١٧٨٥ ضد الامبراطور جوزيف الثاني باسم الدفاع عن هذه الحريات . وكان وراثه وابن أخيـه فريد يريك غليوم الثاني يحاول توطيد نفوذه على هـذا المذهب . وفيـه يقول ميرابو : « لقد عرف هذا الملك كيف يصبح رجلاً عظيماً . فقد جعل نفسه المانياً والمانياً قحاً واستخف بالتفوق الفرنسي » . على أن هذه الأقوال ليست ، في الحقيقة ، سوى حجج سياسية بسيطة . وما كان كل من فريديريك الثاني او ماريا تيريزا أو يوسف الثاني ليخدع بمثل هـــذه الكلمات . بيد أنهم كانوا يشعرون بان هذه الحجج كانت تلامس شيئاً من واقع الحياة في المانيا ، وهو وجود هذه العاطفة الألمانيةعند الألمان .

ان النتيجة التي نستخلصها من تطور المانيا التاريخي هي ان المانيا لم تكن هيئة سياسية قومية . لقد كانت امبراطورية تتألف من ٣٦٠ دولة ، حتى أن وسط المانيا وغربها كانا عبـارة عن فسيفساء سياسية تضم دولاً صغيرة جداً تتـألف كل واحدة منهـا من دوقية أو قصر او مدينـة أو امارة كنسية . وإذا كانت بروسيا تضم ٢٫٥ مليون من السكان ، وهي اكبر دوقية ، فبالامكان تصور الدول الأخرى .

كانت هذه الـ ٣٦٠ دولة موزعة على عشر دوائر ، ولكل منهـــا دياطها ، وعليها تبعة الدفاع المشترك، وتنفيذ قوانين الامبراطورية . أما القضايا العامة فتعرض على دياط الامبراطورية ، ولم يكن هذا لينعقد الا موقتاً وبدعوة من الامبراطور . حتى ان الدياط الذي دعي للاجتماع في راتسبون

عام ١٦٦٣ لم يحل فيا بعد بل علقت أعماله وظل دائماً . ويتألف هذا الدياط من ثلاث هيئات : **الناخبون ، الأمراء ، المدن** . ولاتخاذ قرار فيه تجب اكثرية هيئتين . ولم تكن هنالك حكومة المانية أو جيش الماني ، ولا يمكن ذلك إلا بقرار من الدياط . ولايمكن لهذا الجيش أن يعمل إلا اذ أمرت دياطات الدوائر بالتنفيذ . ومن هنا يرى ان لا وجود لدولة المانية او فكرة سياسية المانية . لقد كانت المانيا منقسمة الى عدة أقسام ولكل منها نعرة خاصة . وكل نقاش أو جدل في سبيل التغيير أو الاصلاح كان يدعو إلى الخوف من الوحدة . لقد كانت النعرة الانفصالية سائدة في كل دولة من دول المانيا ، ولم يكن بين هذه الدول وحدة نقد او قوانين أو مقاييس ، حتى ولا أي وحدة معنوية .

بيد اننا نجد ، الى جانب هذه التجزئة السياسية ، في آخر القرن الثامن عشر ، نوعاً من وحدة المانية وذلك بتشكل أمة فكرية المانية . وهذا هو الحادث الجديد حقاً . لقد كان القرن السابع عشر ، بما أعقب من اضرار حرب الثلاثين عاماً ، عصر اعياء فكري في المانيا ، ولم يرتفع فيه سوى اسم ليبنتز الكبير ، ثم تلا ذلك عصر تهيئة واعداد ، ويرى فيه عملان متناقضان .

الأول : عمل العقليين من مدرسة ليبنتز ، ويعرف باسماء بعض الفلاسفة مثل فولف ، وتوماسيوس ، والمؤلف الدرامي غوتشد الذي حاول أن يوجد مسرحاً المانياً ، والشاعر غيلّرت .

الثاني : الحركة الدينية التي قام بها جماعة الأتقياء البروتستانتيين في دعوتهم الى الزهد والتفافهم حول شبينر او أهل الكشف والنور من رجال فايسشاوبت .

ومنذ العام ١٧٤٠ يمكن الكلام عن وجود المانيا الأدبية . وتتفق هذه الحركة مع نمو الطبقة البورجوازية أي الطبقة الوسطى التي تشكلت بنتيجة الرخاء الاقتصادي والتربية القوية . ويتضح هـــذا النهوض الفكري عند البورجوازية بنشر المجلات الأدبية والاخلاقيـة . فقد تأسس من ١٧١١ إلى ١٧٦١ ما يقارب ١٨٢ مجلة . كما يتضح أيضاً باصلاح الجامعات . ففي العام ١٧٣٧ تأسست جامعة غوتنغن على أسس وقواعد تربوية تختلف عن السابق ، وسيكون لها تأثير عظيم على طلابها وعلى غيرها من الجامعات الأخرى لما تحلت به من جد في العمل وتجديد في طرق التعليم وأساليبه . ومن جامعة غوتنغن هذه انتشرت حرية الفكر والتوثيق (جمع الوثائق) الدراسي ، والتوسع في الاطلاع والمعرفة . وبنهوض هذه البورجوازية واصلاح الجامعات تشكل في المانيا جمهور مثقف .

وفي الوقت نفسه تشكل لفيف من كبار الكتاب والمفكرين الألمان الذين خرجوا على تقليد فرنسا وانكلترا . فمن الشعراء نذكر **فيلاند** و **كلوبستوك** مؤلف قصيدة « مجيء المسيح » التي صدرت عام ١٧٤٨ ، ثم اعقبها بقصائد أخرى مختلفة الوحي والالهـــام . والف تلاميذه لأول مرة نوعاً من « قومية أدبية » وعرفوا بكرههم للفرنسيين ، ونخص بالذكر منهم **فوس ، وبورغر ، والاخوين شتولبرغ** .

ومن الناثرين المؤرخون والفلاسفة ومؤلفو الدرامات ونذكر منهم : **فنكلمان** مؤرخ الفن والتاريخ . فقد نشر عام ١٧٥٤ كتابه « أفكار في تقليد الآثار الاغريقية في التصوير والنحت » ؛ وفي عام ١٧٦٤ كتابه « تاريخ الفن القديم » . وضع فيه نظرية جديدة في علم الجمال . ونذكر **ليسنغ** ، ويعد محرراً

للفكر الالماني . اشتهر بانشاء المسرح القومي ، وأول مأساة له : « مينّا بارنهلم » نشرت عام ١٧٦٧ . وفي آخر حيـــاته نشر أثره العظيم : « ناثان العاقل » عام ١٧٧٩ . ووضع أسس نقـد الفن بأثرين أساسين وهما : الاول « فن الدارمـة في هـامبورغ » ويتعلق بفن الدوامة ؛ والثاني « اللاؤكون » ويبحث في علم الجمال المحض .

وفي الثلث الأخير من القرن اشتهر هذا الجيل بأسماء لامعة مثـل : **غوته ، وشيلر ، وكانط ، وهردر .**

وقد أصبحت آثار هؤلاء المفكرين تراثاً فكرياً المانياً تعتز به المانيا وتشعر بقيمته وأصالته ولا تتخلى عنه لفرنسا أو انكلترا .

ولكن هذا الادب لا ينفذ إلى الحقل السياسي ، ولانجد فيه أقل وطنية سياسية ، على ما فيه من وطنية أدبية . ان الوطنية السياسية تبدو إلى هؤلاء المفكرين عيباً وضعفاً . كذلك لا نجد عندهم فكرة عن « الوطن » أو « المانيا » . وكانوا يعتقدون بأنهم لا يقومون بواجبهم إذا شغلوا انفسهم بالمانيا خاصة . كتب غوته في العام ١٧٧٢ : « لقـد سئمت من سماع ما يقال ان الوطنية تنقصنا ، وان لاوطن لنا ... هـــذا كلام ... وكلام ليس الا ... ولماذا تترك هذه الجهود عبثاً لتوليد عاطفة لانستطيـع الشعور بها ، هذه العاطفـة ، التي لم توجد إلا عند بعض الشعوب في أزمنة معينة في التاريخ ، ولم تكن سوى نتيجة لمجرى الحوادث والظروف » .

وعلى العكس ، كان هؤلاء الكتاب والفلاسفة يهنىء بعضهم بعضاً على عدم وجود المانيا السياسية ، ويرون بأنهم ينجون انفسهم بهذا التفكير من العصبية الوطنية التي تضيق ساحة العقل . ويقول الشاعر شلّر عام

١٧٨٩ : « ليس للمصلحه الوطنية من قيمة الا من أجل الأمم التي لم تنضج بعد ، أي من أجل الأمم الفتية في العالم ، وان مثلنا الأعلى يكون فقيراً جداً إذا لم نكتب الا لأمة واحدة ، وهـذا الحد لايحتمله العقل الفلسفي » . ويرى شلّر أن « الوطن جزء لاقيمة له اللهم إلا إذا كان شرطاً لتقدم العقل » . أما من كانوا المانـاً اكثر من غيرهم فانهم يعتقدون بأن على المانيا رسالة يجب أن تؤديها ، وانها لم تؤدها بعد ، وان المستقبل أمامها . أما دور بقية الدول ، كدور فرنسا ، فقد انتهى . وهذه الرسالة هي رسالة السلام والحضارة .

واتضحت هذه الأفكار في الجدل الذي قام في المانيا أثناء عصبة الأمراء ، أو في نقاش المصلحين السياسيين قبيـل الثورة . تبنى هؤلاء المصلحون فكرة المساواة الطبيعية ، بالرغم مما استحكم عندهم من زعم باطل لصالح الولادة ، ومن فكرة التسلسل الطبقي . وإلى جانب هذه الفكرة في المساواة الطبيعية ، نجد عند هؤلاء المصلحين افكاراً انسانية تطالب بتحرير الاقنان وتعليم الشعب . وكل هذا ، من فكرة الحقوق الطبيعية والمساواة وتحرير الشعوب ، هو ما يسمى في المانيا « جمهوري » .

لقـد كان هؤلاء المفكرون الالمانيون وطنيين عالميين نظرياً وعملياً بأخبارهم ورحلاتهم وعلاقاتهم مع رجال الفكر في فرنسا وهولندا وانكلترا . وكان مفهومهم للفكرة الالمانيـة سامياً ، ولكنهم لايربطون هذه الفكرة بمفهوم سياسي ، بمفهوم الوحـدة المعنوية التي تشكل شعباً وأمة . ومفهومهم ، من وجهة النظر هذه ، يختلف عن مفهوم الأمة في فرنسا ،

وفكرة الوحدة الفكرية البسيطة التي تؤلف البلد عند الالمان تلحق ، إلى حد ، بمفهوم روسّو في مثله الاعلى الانساني وفي اعتقاده بصلاح الانسان الاصلي وبقوة الافكار . وفي الحقيقة كان لروسّو تأثير عظيم

في المانيا ، ولكنه لم يؤثر فيها بروسو « العقد الاجتماعي » بل بروسو « اميل » و « هيلويز الجديدة » . ونلاحظ أن فكرة المانيا الأدبية التي توجد من وجهة النظر الفكرية ، لا من وجهة النظر السياسية ، تعطي إلى فكرة القومية نوعاً من شكل لا نجده في الفكرة الفرنسية عن القومية . لأن القومية في المانيا لا تعرف بشكل ثابت ، وهي بالنسبة للالماني صيرورة دوماً وتمثل كل أنواع الخيال .

وهكذا كان تشكل هذه الأمة الفكرية في آخر القرن الثامن عشر شيئاً جديداً في المانيا . وكانت هذه الأمة المانية وعالمية في آن واحد، وعن أحد رجال هذه الأمة الفكرية وأشدهم احتقاراً للوطنية القومية خرجت نظرية جديدة في القومية ، وكان لها تأثيرها العميق مباشرة وفي المستقبل . هذا الفيلسوف هو هردر .

هردر — (١٧٤٤ — ١٨٠٣) . — ولد هردر في بروسيا الشرقية . ابوه معلم مدرسة فقير . نشأ نشأة عصامية واحاطت به ظروف خارجية فتحت عبقريته وساحة فكره . فقد حدث ان كاهن قريته الصغيرة كان يملك مكتبة ضخمة وكان هردر الشاب يختلف اليها باقبال وشغف زائد . ومر بقريته جراح روسي ورأى ما هو عليه من علائم النجابة فأوحي اليه ان يذهب إلى كونيكسبرغ لدراسة الجراحة . غير ان هردر عدل عن دراسة الطب واستبدلها بدراسة اللاهوت . وشاءت الظروف أن يكون مربياً لأمير صغير من هولشتاين ، وان يتجول في انحاء اوربة الغربية ، ويطلع على حضارتها ، ويفيد من كل ذلك فوائد جمة في نموه الفكري . وقدالتقى في إحدى جولاته بغوته الشاب عام ١٧٧٠ وعقدت بينهما صداقة وعندما أصبح غوته وزيراً في فيمار دعا هردر اليه وسماه مفتشاً للمدارس ورئيساً للمجلس الملي البروتستانتي عام ١٧٧٦ .

هذه هي الحوادث الخارجية التي أحاطت بحياة هردر ، وماترجمة حياته في الحقيقة الا ترجمة لحياة فكره ، وليست الحوادث الا منبهاً وفرصة لنموهذا الفكر . ان أهم ما يتصف به هردر هو حب الاطلاع الواسع والاندفاع العجيب للعمل ، منذ حداثة سنه ، وظل محافظاً على هذا الميل حتى آخر أيامه . كما يمتاز ايضاً بقوة التصور الذي ينهج فيه منهج الكشف اكثر من الاستنتاج العقلاني .

وفي حياة هردر يجب ان نعين بضع مراحل لأن هذه المراحل هامة بالنسبة إلى تهيئة نظرياته واعدادها وهي كما يلي :

١ ـ **المرحلة الاولى** : مرحلة المراهقة والشباب في كونيكسبرغ . ففيها انصرف هردر الى دراسة اللاهوت على يد استاذه وصديقة هامن وتلقى دروس كانط ، ودرس مشاهير الادباء الأجانب : مثل شكسبير دانتي ، أوسيان . وتعلم اكثر اللغات الأجنبية لدراسة مؤلفاتها الأصليه . ثم عين استاذاً في ريغا عام ١٧٦٤ . وفي هذا الوسط الروسي البعيد عن المانيا شغف بمطالعة الأساطير والقصائد القديمة وأغاني الحب والأدب الشعبي الفنلاندي واللابوني ، وقرأ الكتاب المقدس وقصائد الشرق ، والأغاني الحماسية في حرب القرصان الاسكاندينافيين وملاحمهم ، وقصائد سكان بحار الجنوب ، والأدب الألماني المعاصر . ومن اكداس هذه القراءات نشر في العام ١٧٦٧ كتابه « مقتطفات من الأدب الألماني الجديد » وفيه يجدد النقد لا ليجعل مهمته اعطاء احكام قيمة في علم الجمال بل ليفهم المؤلفين ، لا بارجاعهم إلى قواعد علم الجمال ، بل ليفهم أصالتهم وروحهم وفكرهم . وهذه الدراسة تؤدي إلى مفهوم جديد لعناصر وعوامل نمو عبقرية الشعوب .

٢ — **المرحلة الثانية** : مرحلة نموه وفلسفته . لقد كان ، وهو في ريغا ، باعتباره استاذاً ، يفكر بتجديد التعليم . وأصالته في ذلك انه تصور المدرسة وفهمها عند حد قوله حديقاً لاسجناً . ولهذا الاصلاح الذي تصوره وجد ضرورياً اجراء تحقيق عن الاشكال المختلفة للتعليم التي يريد معرفتها ليضع مخططاً جديداً للمدارس . ولهذا الغرض قام برحلات في غرب اوربة وجاء الى باريس وتعرف بكبار الكتاب والفلاسفة المعاصرين ، وزار المكتبات . وهنا عرضت عليه وظيفة مرب لأمير هولشتاين . وفي طريقه الى هذه الدوقية عبر المانيا الغربية ومر بهامبورغ حيث اجتمع بلسينغ وعقدت بينها صلات ودية ، ثم جاب مع تلميذه الأمير هولانده والمانيا الرينانية ، وزار ستراسبورغ في ١٧٧٠ — ١٧٧١ ، وفيها اتصل بغوته . وفي كل هذه الرحلات كان يجمع القصائد الشعبية ، ويدرس اللهجات ، وينشر قصائد اوسيان وأغاني الشعوب القديمة . وكل هذه الدراسات المختلفة أدت الى تاليف مذكرة أساسية في « أصل اللغات » كتبها في ستراسبورغ وصدرت عام ١٧٧٢ .

٣ — **المرحلة الثالثة** : مرحلة اقامته في فيمار . وبعد ان تقلب في وظائف متعددة ، من بينها انه عين استاذاً في جامعة غوتنغن عام ١٧٧٥ ، استدعاه غوته إلى فيمار فذهب اليها ولم يغادرها الا لرحلة الى ايطاليا في العام ١٧٨٨ و ٨٩ . وفي فيمار انصرف الى انواع من الدراسات المختلفة ومنها الكتاب المقدس والعالم الشرقي القديم ، واستخلص منها مؤلفاً صدر عام ١٧٨٥ وهو « روح الشعر العبري » . وتجدر الاشارة إلى انه لم يدرس الكتاب المقدس من الوجهة الدينية أو التأويلية بل من الوجهة البشرية وحاول أن يفهمه بتقريبه من الحضارات الشرقية المعاصرة له . ونشر عام ١٧٧٨ « صوت الشعوب » وهو ديوان اشعار شعبية من جميع البلاد .

ونشاهد اتجاهاً آخر هاماً في تفكيره وهو فلسفة التاريخ . فقد نشر من ١٧٨٤ الى ١٧٩١ كتابه الأساسي « أفكار في فلسفة تاريخ البشرية » ؛ وفي عام ١٧٩٥ كتاب « رسائل في تقدم البشرية ». وأنهى ميدان عمله الفكري بترجمة أشعار اسبانية من الديوان المسمي « قصائد السيد ».

وفي الحقيقة كان عمل هردر عظيماً ومتنوعاً . ولذا كانت له شعبية واسعة في ألمانيا . ويرجع نجاحه في آثاره إلى فصاحته ، ولغته الشعرية ولمحاته الواسعة ، وغموضه ، وإلى أشياء أخرى تترك مجالاً لأحلام القارىء . ولقد استطاع هردر بتآليفه أن يوجه قسماً عظيماً من الشعب الألماني والفكر الألماني . فقد ذهب بالفكر الألماني إلى العدول عن طريقه وتحويله عن فلسفة الأنوار العقلية نحو دور العواصف ، وهذا ما يسمى « العاصفة والزحف » في مضمار الأدب والفلسفة . ومن جهة أخرى كان هردر مبدع مدرسة تاريخية ، ولنذكر على سبيل المثال أن المؤرخ الفرنسي غيزو ، وهو شاب ، قد وعى وتصور قسماً من نظرياته على ضوء هردر .

ومن آثار هردر نستخلص مفاهيم كبرى تهم موضوع دراستنا . ففي فلسفته العامة وفي طريقته نرى رد فعل ضد العقلانية الفرنسية والكانطية وعوداً لفلسفة سبينوزا . لأن هردر يرجع الى الحدس والتوثيق (جمع الوثائق) أكثر من رجوعه الى الطريقة الاستنتاجية العقلانية ، التي عرف بها الفلاسفة الفرنسيون ، ويبحث عن القوانين التي توصل الى تطور البشرية . فقد كان يطمح لأن يكون نيوتن في العلوم المعنوية (الأخلاقية) . فمن ذلك أنه وضع خطة لتطور البشرية على مراحل ، ورأى أن هذه المراحل تنتج تدريجياً أنواعاً بشرية لا تتحقق بجهد من الارادة البشرية، كما

هي الحال في مفهوم العقلانيين الفرنسيين ، بل بنتيجة الظروف الخارجية واستعمال القوى الغريزية . ويرى أن البشرية كالبلد كلٌّ يضيع فيه الفرد ، وان قوة العقل فيه ضئيلة ومحدودة وأقل من أن تبدل الحياة وتؤمن تقدمها . وبالاجمال ان هردر يدع مجالاً واسعاً للقوى الغامضة والجماعية . وهذا لم يمنعه من التبشير بالتفاؤل البشري .

ولم يكن هردر في تفهم الآثار الأدبية بأقل أصالة منه في الفلسفة . ففي فهم الآثار الأدبية وعظمتها يحاول أن يبحث عن عبقرية الشعب ، ولذا نراه لا يسأل في الآثار العظيمة ما اذا خرجت عن فن متطور أو عالم ، بل على العكس ، يبحث فيها عن عبقرية الشعب في الآثار الغريزية والشعبية ، في الملاحم والأساطير ، في الأخلاق والعادات والاستعمالات والتقاليد الشعبية ، كما يبحث عنها أيضاً في صفات العصور التاريخية لنمو الشعب . فهو يرى أن الشعر نشأ من الطبيعة ، وان لكل شعب صفته الخاصة ، ككل فرد ، وان كل ما يخرج عفوياً من أعماق الشعب يوضح عبقرية الشعب ، وان كل ذلك صالح ومقبول . وعلى العكس ، ان كل ما هو دخيل بالتقليد يغدو ضئيلا بل وخطراً يهدد بتشويه فكرة الشعب . ومن هذا المفهوم يخرج منهج جديد في التجديد الأدبي . ومنه استوحت الحركة الإبداعية الالمانية الهامها . وهذا ما جعل هردر يعود بالنقد وعلم الجمال الى المصادر والى الماضي ليخرج منها الى أصالة الشعب وأدبه . ومن هنا يظهر أن العنصر الأساسي الذي تعبر فيه عبقريته هو **اللغة** . واللغة ، من حيث الأصل ، ليست اتفاقاً أو تواضعاً أو فناً ، بل هي في رأي هردر ، كل عضوي يولد ويعيش ويموت ، فهي روح الشعب تبدو ظاهرة للعيان ، وبها يعبر الشعب عن مزاجه

وحساسيته وفكره وأصالته . والنتيجة التي تستخلص من كل ذلك هي أن تطور لغة الشعب يعطي مفتاح تاريخ هذا الشعب . والكاتب الكبير هو الكاتب الذي تكون لغته أكثر قومية من غيرها ، وتستمد غناها وثروتها من الكنز الشعبي ، وتبتعد عن التقليد الاجنبي . وان من واجب كل أديب وكاتب ، كما هو من واجب كل رجل ذي شعور ووجدان ووعي ، أن يعرف لغته جيداً ، وأن يرجع إلى مصادر لغته ، أي إلى ظاهراتها البدائية . فباللغة نستطيع أن نعرف شعباً من الشعوب ، وباللغة يستطيع الشعب أن يعي ويشعر بقدراته .

ومن هذه الأفكار جميعاً يخرج مفهوم هردر للقومية . فهو يرى أن الامة عضوية حية ، لها وجودها الخاص والبدائي ، حبتها الطبيعة غريزة حياتية وعبقرية . وهذه الامة تتضح عفوياً بلغتها واستعمالاتها البدائية ومجموع سلوكها الاخلاقي . وعلى هذا فالقومية شيء طبيعي وغير ارادي ، وله حياة تاريخية . وإن جميع تحاليل هردر ، من تحاليل في علم الجمال أو اللغة وغيرها ، نجد أمثلتها وتطبيقاتها مستمدة من الشعب الالماني . ولكن هذا المفهوم عند هردر خال من أي وطنية . فقد نشر عام ١٧٦٥ مذكرة عنوانها : « أعندنا بعد جمهور ووطن كالآخرين » . وانتهى إلى مقابلة المجتمعات القديمة المبنية على الوطنية بالمجتمع المسيحي الذي لا يرى الشعوب إلا في الانسانية . والانسانية عنده مثل أعلى سياسي واجتماعي . والحضارة المسيحية ، في رأيه ، تسقط الحواجز بين الشعوب . ونراه يقول : « يبدو لي ، بين جميع المجدين ، أن الممجد لقوميته أحمق كل الحمق كالممجد لميلاده وثروته » . وفي آخر حياته كتب عام ١٧٩٤ : « الاوطان المحشورة ضد أوطان أخرى في نزاع دموي ، إن هذا لهو أقبح بربرية اللغات البشرية » . وهو لا يقبل إلا التنافس المجدي

والمثمر بين الامم في التقدم والحضارة . ويفرح لعدم أهمية ألمانيا من الوجهة السياسية عوضاً عن أن يأسف لها . ويرى أن من الخير لالمانيا أن تكون كما هي مراكز سياسية متعددة ؛ فبفضل ذلك تنمو بحرية الفروع الاصيلة للعرق الالماني . وليس لديه أي فكرة عن أن ألمانيا يمكن أن تؤلف امتداداً جغرافياً معيناً ، بل على العكس ، انه يتحمس لالمانيا في لغتها وطبعها وتقاليدها ويدعوها لتعمل بكل قواها وتعي ذاتها فكرياً . وهكذا نرى هردر ينتهي إلى مفهوم في القومية مبني على عناصر مغايرة لمفهوم الفلاسفة الفرنسيين ، ولكنه لا يمثل هذه القومية .

وقد انتشر مفهوم هردر هذا في ألمانيا الفكرية بشكل مزدوج : في **الحياة الأدبية** بالحركة الابداعيه التي تبحث عن إلهامها في عناصر الحياة البدائية والتاريخ الالماني ؛ وفي **الحياة العلمية** التي حمل لواءها فقهاء اللغة والمؤرخون . وقد الفت هاتان الحركتان الادبية والعلمية في الجامعات موئلًا وموطناً . وفي هذه الجامعات تعرف الطلاب بنظريات هردر في القومية وعبقرية الشعب في لغته ونشروها في كل أوربا .

ولا شك في أن هذه النظرية في القومية كانت نتيجة لتاريخ ألمانيا التي ينقصها التماسك السياسي كما رأينا . فقد تشكلت في مكان واحد بين الراين والاودر ، وبقي شعبها في معصم من سيطرة الاجانب وغاراتهم ، وتصعدت عنده فكرة الدولة في مفهوم فقد كل قاعدة جغرافية وكل تعبير سياسي ، وكل ما بقي لديه ، كمقوم للقومية ، هو هذا العنصر البدائي المشترك وهو **اللغة** التي تعبر عن وحدة أصل هذا الشعب .

الفصل الثاني

الأصول التاريخية للقوميات الأوربية

ليس للقوميات الاوربية أصول فكرية عقائدية فحسب ، بل إن لها أصولاً تاريخية أيضاً ، لان هذه الاقوام على اختلافها وجدت تاريخياً حرة مستقلة كسائر الاقوام الحرة المستقلة الاخرى . غير أن ظروفاً سياسية طارئة ساعدت شعوباً ودولاً أخرى أشد منها قوة وأعظم غلاباً ، فأتت اليها واحتلت أرضها بطريق الغزو والفتح والاستيلاء أو الحرب وأخضعتها لمشيئتها وأخذت تتحكم بمصيرها . وظلت هذه حالها تابعة بشكل قوميات عتيدة إلى أن دبت فيها روح جديدة أيقظتها من سباتها وجعلتها تشعر بذاتها وقيمتها وحقها في الحياة والحرية والاستقلال . وسنذكر فيما يأتي هذه القوميات المختلفة ونبين أوضاعها العامة كما وجدت في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر .

بولونيا

ترينا بولونيا منظراً لدولة اعتدى عليها جيرانها وتقاسموهـا فيما بينهم وجنوا عليها . وإذا زالت الدولة البولونية من الوجود كشخصية سياسية فإن الشعب البولوني بقي حياً . وهذا ما يجعلنا نتساءل لأى مدى كان رد الفعل القومي في بولونيا حيال تجزئة الدولة البولونية .

لم تكن بولونيا قومية ، حتى ولا دولة تألفت بشكل مرض . لقد

تشكلت تاريخياً دون أسس جغرافيــة أو عرقية . والجوهر الاساسي في هذه الدولة البولونية هو ما يسمى بولونيا الكبرى وبولونيا الصغرى ، أي منطقة بوزن وفارسوفيا من جهة ، ومنطقة كراكوفيا ولوبلن من جهـة أخرى . وقد تشكلت الدولة البولونية حول هذه النواة بتأثير حوادث ثلاثة كما يلي :

الأول : حادث اتحاد تم بطريق زواج بنت ملك بولونيا لويس آنجو بدوق ليتوانيا الأكبر ياجللون عام ١٣٨٦ . وبهذا الاتحاد تضاعفت بولونيا بانضمام ليتوانيا وروسيا البيضاء .

الثاني : فتح اكرانيا وهجرة الفلاحين الاكرانيين إلى كييف والدنيبر ، ونحو الجنوب إلى الحدود التركية حتى تارغوفيتز .

الثالث : الاصلاح البروتستانتي . وعلى أثره قام امراء بروسيا الشرقية وليفونيا وكورلاند وعصروا أموال الكنيسة ، وليثبتوا وضعهم الجديد في دولهم . أعلنوا سيادة بولونيا عليهم .

ولقد تغيرت حدود بولونيا في التاريخ ، وفي بعض الأحيان توصلت الى موسكو ، وأخيراً تقلصت هذه الحدود ، فأضاعت كييف وأطرحت دوقية بروسيا سيادة بولونيا . وفي العام ١٧٧٢ كانت بولونيا دولة تتألف من ١٥ مليون نسمة . ولذا يمكن القول أن بولونيا في العام ١٧٧٢ كانت حادثاً تاريخياً بسيطاً .

وكذلك لم توجد بولونيا من الوجهة السياسية ، أو انها لم توجد إلا تحت السيطرة المطلقة للطبقة الاستقراطية التي كانت تتمتع بالنفوذ السياسي والاجتماعي والثقافي . وتتألف هذه الطبقة الارستقراطية من مائة نبيل ، ولم يكن لديها أقل شعور بضرورة الدولة . ومن الممكن أن يقال انها قضت على الدولة بالاعمال التالية :

١ — باقامة ما يسمى الرفض الحر « الفيتو » ، وبموجبه يمكن لنبيل من النبلاء أن يمنع الدياط (المجلس السياسي الذي تناقش فيه مصالح البلاد المختلفة الممثلة في هذا المجلس) من اتخاذ أي قرار .

٢ — بمجالس النبلاء الانفصالية (مجالس اتحاد النبلاء) . ويكفي لهذه المجالس أن تجتمع وتتخذ قراراً بأكثرية الأصوات لتفرضه على البلاد .

٣ — بتهديم السلطة الملكية .

يضاف الى ذلك أن هذه الارستقراطية لا تعرف معنى المصلحة العامة والمصلحة القومية ، ولم يكن بينها وبين بقية السكان أقل تضامن . لقد كانت ، كسائر الاقليات الغنية ، تتمتع بالحضارة الاوربية العامرة بشكلها الناعم المهذب ، وكانت على اتصال مع الاسر الغربية . فهي إذن لا تمثل الامة وتعيش على حساب البلاد كما يعاش على بلد مفتوح .

ولم يكن تحت هذه الطبقة الارستقراطية طبقة وسطى ، لأن الطبقة البورجوازية لا تتعدى بعض الالمان في المدن ، وكانوا محتقرين وعرضة للإساءة ، واليهود . ولم يكن بين هؤلاء البورجوازيين أقل تماسك أو ارتباط أو انسجام أو حياة . وأخيراً تأتي طبقة الفلاحين . وكانت تعيش عيش القنانة . ولقد ذكر الأب ما يلي في « نظرات في حكومة بولونيا » : أن « ليس لدى أمراء بولونيا أقل فكرة في معاملة فلاحيهم كخيولهم » . وكان الشعب البولوني لا يبالي بسادته وبلاده ، ويعيش في حـــالة خبل عميق يتخلله بين حين وآخر يقظة التعصب الديني . ولم يكن هنالك أقل قوة تماسك ، حتى أن الكاثوليكيـة ، التي يمكن للبولونيـين أن يقاوموا بها جيرانهم الروس أو الالمان ، لا تكفي لتأليف هذه القوة . كما وجد بين البولونيين أنفسهم لوثريون وارثوذكس .

وهكذا كان تقسيم بولونيا عام ١٧٧٢ بتراً بسيطاً لاراضيها ولم يهاجم القوى الحية في الدولة . ففي عام ١٧٧٢ أضاعت بولونيا قسماً من روسيا البيضاء ، وهو القسم الذي اعطي للروس ، وبوميرانيا التي أعطيت للألمان ، وهي التي تسمى بروسيا البولونية ، ولودوميري وروسيا الحمراء إلى النمساويين الذين أطلقوا عليها اسم **غاليسيا** .

ولكن كثرة الاراضي أو قلتها في هذه الدولة الكبرى التاريخية الخالية من الحدود ، ليس لها أهمية كبرى من وجهة النظر القومية . ولذا يمكننا القول ان تقسيم بولونيا عام ١٧٧٢ لم يمس الدولة البولونية بل كان جرحاً للارستقراطية البولونية ، وفي الحقيقة ، ضربة موجهة الى هذه الامبراطورية التاريخية والى هذا الاطار الارستقراطي اللذين يؤلفان الدولة . ولذا لا يمكن القول بأن تقسيم ١٧٧٢ كان مطبوعاً بطابع الاعتداء على أمة .

ومع هذا فقد خرج من هذا التقسيم حركة كانت في أصل القومية البولونية في الآجل البعيد . وفي الحقيقة نرى عقب هذا التقسيم مباشرة ظهور حركتين هامتين :

الحركة الاولى . — ونريد بها تشكيل فريق من المصلحين ممن يرمون الى إصلاح الدولة ووضع حد للفوضى القائمة بالغاء « الرفض الحر » «والعهود المفروضة » على الملك حين اعتلائه العرش و«مجالس النبلاء الانفصالية » ، كما يريدون أن يصنعوا الدولة من جديد ، ويشكلوا لها جيشاً ومشاة ومدفعية ويجهزوها بضرائب . وقد التف هذا الفريق حول بعض النبلاء من أمثال تشارتوريسكي وبوتوكي وزاموسكي . ولتحقيق هذه الاصلاحات اجتمع الدياط في فارسوفيا ، في ٦ تشرين الاول ١٧٧٨ ، ولكنه القى

بنفسه في سياسة لا يملك وسائلها. وذلك يرجع الى الدعاية والى المال الذي بذله وزير بروسيا الى أعضاء الدياط للتصويت على مشروع كان من اللازم ألا يبدأ به إلا بعد إصلاح الدولة . فقد صوت على تسليح ١٠٠٠٠٠ رجل ، وطالب بجلاء الجنود الروسية وقرر المفاوضة مع بروسيا بعقد حلف وأجّل برنامج الاصلاح الى السنة القادمة .

الحركة الثانية . — كانت هذه الحركة ذات أغراض بعيدة وعميقة ترمي الى اصلاح التعليم ورفع المستوى الخلقي والفكري في البلاد . نشأت هذه الفكرة في النصف الاول من القرن الثامن عشر . عندما ألقى بها كاهن يدعى الأب كونارسكي (١٧٠٠ — ١٧٣٣) ، ويستند هذا البرنامج الاصلاحي على انتشار الافكار الفرنسية في بولونيا وخاصة أفكار **الفيزيوقراطيين** ، وأخيراً على إلغاء طريقة اليسوعيين من قبل البابوية عام ١٧٧٤ . وقد لاقى هذا الالغاء معارضة كبيرة لأن لليسوعيين شعبية واسعةفي بولونيا ، إلا انه من جهة أخرى كان فرصة لتنظيم التربية العامة ، وذلك بفضل أموال اليسوعيين وبفضل أعضاء الجمعية نفسها . ففي عام ١٧٧٤ سميت لجنة عرفت باسم « **لجنة التربية القومية** » أعدت نظاماً وبرنامجاً للتعليم ونشرت كتباً تربوية وقامت باصلاح جامعتي **كراكوفيا** و **فيلنا** . وكان يدير هذا الاصلاح في التعليم ميشيل بونياتوسكي .

وهذا الاصلاح في أساس التعليم يمكن أن يوجد يوماً ما روحاً عاماً ، روحاً قومياً وسياسياً . ومثل هذا العمل يحتاج إلى جهود طويلة . غير أنه انقطع تحت تأثير الحوادث .

إن هذه الحركة المضاعفة في الاصلاح السياسي والتهذيب الاخلاقي مرت

خلال النزاع والمؤامرات والدسائس وقبل تقسيم ١٧٧٢ ، حتى ان التقسيم لم يزد التفرقة إلا شدة .

وهكذا نرى أن تقسيم بولونيا جنى عليها وانتهى بامحائها التام . ولكن هذا التقسيم آجري في وقت تطورت فيه الافكار وسارت خطوة نحو الامام . وهذا كاف لإثارة الاحتجاجات وعدم الرضى بالواقع ، لا كما حدث في بولونيا سابقاً . يضاف الى ذلك أن كثيراً من الدسائس الاوربية والمصالح الدبلوماسية الاوربية قد امتزجت بالمشكلة البولونية ولعبت دورها . ثم أتت أخيراً الثورة الفرنسية فأمدت الحركة البولونية . ولهذه الاسباب كلها نرى أن القضية البولونية بقيت مفتوحة ، عوضاً عن أن ينتهي أجلها وتدفن ، وقد بقيت مفتوحة في بولونيا نفسها وفي الدبلوماسية الاوربية . ولكن هذه المشكلة البولونية **بقيت مشكلة سياسية تهم الارستقراطية البولونية دون سواد البلاد ولم توقظ الشعور القومي** بعد ، ويجب أن تتطور بعد المصيبة لتصل الى هذه النتيجة .

هونغاريا

ترينا هونغاريا مثالاً آخر لدولة تاريخية وقعت ضمن دولة أخرى ولكنها حافظت على شخصيتها . وكل ما نريد من دراستها هو أن نرى لأي درجة أثر هذا الحادث في شعورها الشخصي .

لقد كان لهونغاريا وضع خاص من الضروري إيضاحه وذلك لأننا نجد فيه تحقيقاً لنظرية « الحقوق التاريخية » التي تؤلف فيما بعد أساساً لجميع المطالب القومية في هذا البلد . كان لمملكة هونغاريا كيان قديم وقد استطاعت أن تفرض شخصيتها على سادتها المحدثين عندما أعطيت

عام ١٥٢٦ الى أسرة آل هابسبورغ ، وانتخب **فوديناند** النمسا آنذاك ملكاً عليها . وكان هذا الاتحاد بالنسبة الى الدياط كحلف عَقَدَه لحفظ الدولة ، وبالنسبة الى الأمير كان على العكس منحة أو أعطية . وقد اعترف بهذا الوضع بما يسمى **الدستور الهونغاري** ثم ساعدت على بقائه عدة عوامل تاريخية أخرى . أما استقلال هونغاريا الحقوقي ، ولحد ما استقلالها السياسي ، فقد بقي مصوناً بفضل نضالها الخارجي والداخلي : فمن ذلك أن هونغاريا وجدت زمناً طويلاً منقسمة الى ثلاثة أقسام :

١ً — هونغاريا الخاضعة للنفوذ التركي .

٢ً — هونغاريا التابعة لآل هابسبورغ .

٣ً — امارة ترانسيلفانيا التي كانت تتمتع باستقلالها الداخلي (الذاتي) داخل الامبراطورية العثمانية .

ومن جهة أخرى كانت هونغاريا تقوم بحركات عصيان ضد آل هابسبورغ دفاعاً عن شخصها . وقد دامت هذه الحركات من ١٥٢٦ الى ١٧١١ وتدعمها غالباً الدبلوماسية الاوروبية وخاصة الدبلوماسية الفرنسية حباً في إضعاف آل هابسبورغ . وكان من حركات العصيان هذه أن احتفظت المملكة الهونغارية بشخصيتها . وأخيراً استعادت هونغاريا وحدتها بطرد الاتراك على يد آل هابسبورغ وخاصة بالجيوش التي كان يقودها الامير « **اوجين** » . فقد استردت بودابست عام ١٦٨٦ وكُسر الأتراك في زانتا عام ١٦٩٦ واضطروا بموجب معاهدة **كارلوفيتز** ١٦٩٩ للتخلي عن الأراضي الهونغارية التي فتحوها ، ولم يبق لهم فيها سوى مقاطعة « **بانات تيميسفار** » التي حررت بموجب معاهدة **باسادوفيتز** (١٧١٨) وأضيف إليها قسم صغير من **صربيا** والأفلاق .

لقد بقيت هونغاريا خلال هـذين القرنين مملكة لها كيانهـا الخاص وانتهى دفاعها عن شخصيتها ضد سيدها الى حل وسط وهو **معاهدة زاتمار** (١٧١١) وتلا هذه المعاهدة عدة قوانين صوت عليها الدياط من ١٧١٢ الى ١٧٢٣ : فمن ذلك أن الهونغاريين قبلوا بمبدأ مملكة آل هابسبورغ وقبلوا منه عام ١٦٣٧ النظام الوراثي نظراً لاعتصابهم ضد الأتراك ؛ غير أنهم بالمقابل جعلوا آل هابسبورغ يعترفون بقوانينهم الخاصة التي يجب أن يحكموا أنفسهم بموجبها . ولكن أعيـد النظر بهذه القوانين الدستورية وجعلت تأتلف مع الدولة الجديـدة في النواحي **العسكرية و الادارية والقضائية** . ومما يجـدر ذكره بهذه المناسبة أن آل هابسبورغ ، منـذ أواخر القرن السادس عشر والنصف الاول من القرن السابع عشر ، كانوا يقوضون دعائم « **مملكة بوهيميا** » التي أدخلوها في عداد دولهم ، بينا نرى ، على العكس ، أن هونغاريا تتمتع بكيانها الخاص في داخل دولة آل هابسبورغ المطلقة الحكم . وهذا الوضع هو أساس الحكم الثنائي الذي سيتم في القرن التاسع عشر في العام ١٨٦٧ بين هونغاريا والنمسا .

وفي القرن الثامن عشر حصل الهونغاريون على الاعـتراف بكيانهم بفضل عدة حوادث :

الحادث الاول . — وهو قضية وراثة آل هابسبورغ وسويت بموجب مرسومين :

آ) التسوية التي اجراها لؤبولد الأول عام ١٧٠٣ والتي بموجبها تعود وراثة الامبراطورية إلى بنتي ابنـه يوسف الأول حسب عمريها : الأولى ماريا جوزيف والثانية ماريا آميلي .

ب) التسوية التي أجراها شارل السادس عـام ١٧١٣ . وذلك لأن يوسف الأول (١٧٠٥ — ١٧١١) مـات عام ١٧١١ ولم يخلف سوى بنات ، ولم يكن لأخيه شارل السادس (١٧١١ — ١٧٤٠) الذي

خلفه على عرش الامبراطورية سوى بنات ايضاً . فلمن يعود الإرث بعد موته ألبنات يوسف أم لبنات شارل ؟

غير أن هذا الأخير لم يستطع تحمل التسوية التي قام بها ابوه قبيل وفاته لذا أجرى عام ١٧١٣ تسوية جديدة عرفت باسم (براغماتيك سانكسيون) وبموجبها يجب ان ينتقل الارث الى بنات الامبراطور القائم على الحكم اذا لم يكن له بنون .

ولقد كان شغل شارل الشاغل ان يحصر الارث في اعقابه . وفكرته الثابتة التي علق عليها كل سياسته هي ان يؤمن ارثه إلى ابنته ماريا تيريزا التي ولدت عام ١٧١٧ . وأدت مشكلة الوراثة هذه الى مفاوضات بين الهونغاريين وشارل السادس ، ووضع الهونغاريون شروطهم لقبول مبادىء شارل . فرفض هذا شروطهم وانتهى الأمر أخيراً إلى حل وسط وهو : أن دياط ١٧٢٣ قبل بمبادىء شارل التي وضعها بشأن الوارثة . ومعنى ذلك ان الهونغاريون يقبلون بوحدة الوراثة وتعميمها ، ويقبلون بأن الامبراطورية لا تقبل التفرقة والانقسام ، أي ان هونغاريا لاتستطيع ان تنفصل عن النمسا . وهذا يعني تبادل التعاقد بين الطرفين أي ان هونغاريا اذا لم تستطع الانفصال عن النمسا فكذلك يجب على النمسا ان تعترف بوجود هونغاريا .

قبل الهونغاريون بمبادىء شارل بالوراثة ضمن هذه الشروط الآتية :

أولاً : ان « البراغماتيك سانكسيون » قد دخلت في قوانين المملكة الهونغارية أي ان ملك النمسا يقبل كملك وراثي باعتبارة هونغارياً لا نمساوياً .

ثانياً : ان يتعهد الملك بحكم البلاد الهونغارية حسب دستورها وحسب قوانينها .

وهذا ما معناه وجود حكم ثنائي معترف به بصورة رسمية في دولة آل هابسبورغ .

الحادث الثاني . — يؤيد كيان هونغاريا ووجودها وهو سياسة ماريا تيريزا . وذلك ان ماريا تيريزا منذ ان اعتلت عرش النمسا وجدت أمام مصاعب كبرى . فقد هاجمها فريديريك الثاني ملك بروسيا ، وكانت بحاجة لجمع قواها لترد العدوان . ولقد قدم الهونغاريون اليها هذه القوة دون مشاكل . وبالمقابل ايدت ماريا تيريزا الامتيازات الممنوحة لهونغاريا. وعندما انتهت الامبراطورة من الحروب ، اتبعت سياسة مركزية في الدولة النمساوية . من ذلك انها احدثت نظاماً ادارياً مختلف الاشكال سياسياً وقضائياً . ولكن هذه الاصلاحات المركزية التي قامت بها لم تمتد إلى هونغاريا بل وقفت عند نهر **الليتا** الذي يفصل بين النمسا وهونغاريا . وفي الحقيقة ان سلطة الامبراطورة اتسعت في الدولة النمساوية ، غير ان الملكة — الامبراطورة كانت تتبع سياسة خاصة في هونغاريا . وحصل الهونغاريون من ماريا تيريزا على الاعتراف رسمياً بأن تؤلف ترانسلفانيا وكروواسيا قسمين ملحقين بالمملكة الهونغارية .

الحادث الثالث . — نجده في اصلاحات جوزيف الثاني أو على الأصح في اخفاق اصلاحات جوزيف الثاني . كان جوزيف الثاني ملكاً فيلسوفاً حاول ان يوحد دول النمسا غير المتجانسة على أساس عقلي . فاصطدم بمقاومات كثيرة ، حتى انه اضطر قبل وفاته بقليل ، عام ١٧٩٠ ، على العدول عن هذه الاصلاحات . وعند وفاته أعادت الأقاليم الهونغارية النظم القديمة واضطرت خلف جوزيف الثاني ، وهو اخوه لوبولد ، الى التخلي عن برنامج الاصلاحات المركزية . يضاف إلى ذلك ان اصلاحات جوزيف الثاني احدثت رد فعل : فقد قوت عاطفة النعرة الهونغارية .

وبعد موته اجتمع الدياط والف نوعاً من جمعية تأسيسية — لم يجتمع خلال حكم جوزيف الثاني وقسم من حكم ماريا تيريزا — وسنّ عدة قوانين في (١٧٩٠ — ١٧٩١) .

وبمقتضى هذه القوانين يجب على الملك أن يتوج في بودابست في الأيام الستة الأولى التي تعقب توليه العرش . وهو لا يتمتع بتمام سلطاته قبل تتويجه . وعلى الدياط ان يجتمع كل ثلاث سنوات ، ولا يحق للملك فرض الضرائب او انشاء جيش دون موافقة المجلس . وهذا المجلس يقاسم الملكَ حق سن القوانين والغائها وتفسيرها ، وهذا الحق حق مشترك للتاج والدياط . وأخيراً يجب على السلطة التنفيذية والقضائية ان تمارسا عملها طبقاً للقوانين المرعية .

وفي هذا النوع من الدستور نجد **المادة العاشرة** تنص على ما يلي : ان صاحب الجلالة يعترف بأن هونغاريا ، ولو كانت تابعة له كالنمسا ، تؤلف مع توابعها مملكة حرة ومستقلة ، أي مستثناة من الخضوع لأي مملكة أو شعب ، بل وعلى العكس ان لها كيانها ودستورها . وإن ملكها المتوج شرعياً يجب أن يعمل ويحكم حسب القوانين والعرف الخاص في المملكة » . وهذا نص واضح لتأييد شخصية الدستور الهونغاري . وليس في هذا شيء جديد ، لان هذا الدستور موجود في السابق ، ولكنه تأكيد رسمي لدستور البلاد . وليس معنى هذا ان هونغاريا قد انفصلت عن النمسا ، بل أنها تقبل ، على العكس ، بتابعيتها للدولة النمساوية وتقبل بسيادة الملك ولكنها جعلت الملك يعترف بشخصيتها الخاصة ودستورها التاريخي الذي نراه مؤسساً لا على نظريات عقلية بل على وقائع تاريخية .

ما هي فحوى هذا الدستور ؟ ان لهذا الدستور طابعاً اقطاعياً وتاريخياً : فهو **اقطاعي** لأن الدولة لم تتألف الا من اجتماع عنصرين : الملك والأمة.

وان نطاق كل منها لم يحدد جيداً في الحق الاقطاعي القديم . وهو **تاريخي** لأنه تألف بوقائع ؛ ولانه يتعلق بوضع كل من القوتين ، الملك والامة؛ ولان العلاقة بينها اختلفت حسب العصر وحسب الظروف .

اما السلطة التي يتمتع بها الملك فواسعة تقريباً وحظ الملك فيها عظيم لانه يتعلق بحقوقه كصاحب جلالة وسيد من جهة ، ومن جهة أخرى ، بالاغتصابات التي وسع بها اراضيه . والسلطات التي يتمتع بها في في المجتمع ، ككل سيد اقطاعي ، هي أولاً : **حق الطاعة** ، وكل حكم على خيانتها يؤدي بالنبلاء إلى اخراجهم من طبقتهم واسقاطهم من نبلهم .

ومن جهة أخرى يعتبر الملك **رئيس الكنيسة** فهو الذي يوزع الوظائف وينظم الوضع الديني لرعيته : ولذا فان وضع البروتستانت في الدولة يتعلق بالادارة الملكية بصورة خاصة . والملك **سيد المدن** ومالكها . وأخيراً الملك **زعيم القضاء** : فهو الذي يعين القضاة ويصادق على قرارات المحاكم وإذا اقتضى الحال يستطيع أن يفسر أحكامهم .

فالملك إذاً بالنظر الى حقوقه الإقطاعية يتمتع بسلطات واسعة في المجتمع . ومن جهة أخرى له **سلطات دستورية** : سلطته العسكرية المطلقة : اقامة الجنود ، والقيادة ، وإدارة الشؤون الخارجية . وهو مستقل عملياً في الشؤون المالية وفي غيرها من الموارد : واردات أراضيه الجسيمة ، والرسوم التي يفرضها على المدن . وهو يملك الجمارك والملح والمناجم . وهذه الواردات تؤلف أكثر من ضعف الضرائب التي يصوت عليها الدياط . وهذا يعني أن الملك في النواحي المالية مستقل كالدياط . وأما ما يتعلق بالجيش والدبلوماسية أو المالية فالملك يستطيع أن

يستعمل سلطاته كما يشاء ، وذلك لأنها خارجة عن القانون الهونغاري ولذا يستطيع أن يمارسها كما يحلو له دون أن يخرق الدستور .

وعدا ذلك كان للملك حقوق تتجاوز حرفية الدستور وتتعلق بالحق العام للدولة النمساوية التي تدخل فيها هونغاريا . فالملك سيد **الشؤون المشتركة** أي الشؤون الخارجية التي يجعل حق ممارستها لمجلسه الخاص ؛ **والشؤون العسكرية** التي تديرها المحكمة العليا ؛ **والشؤون المالية** التي يديرها المجلس الأعلى . والملك بالاعتبار النمساوي وباعتبار الشؤون المشتركة يستطيع في هونغاريا أن يتصرف بالجيش وأن يقيم الحاميات حيث أراد ويسيّر الجيوش . وهو سيدالمالية والموظفين الماليين . ففي مجلس المالية الهونغاري يوجد ما يقارب النصف من الالمان لأن النبلاء يحتقرون الاشتغال بالقضايا المالية ويتركون مطلق الحرية للملك .

وهكذا نرى أن نصيب الملك من السلطات عظيم ، وأن المؤسسات التي تساعده في السلطتين الهونغارية والملكية توجد في هونغاريا وفينّا : ففي هونغاريا يوجد **المجلس الملكي للنيابة الهونغارية** الذي يمثل الملك في البلاد وعليه تنفيذ القوانين وحماية الهونغاريين من أي خرق للقوانين . وفي الواقع أن مجلس النيابة الملكي ليس له سلطة حقيقية بل أصبح أداة بسيطة بيد الملك. وفي فيينّا توجد مؤسسة هامة وهي **الوزارة الهونغارية** ولها وظيفتان :

الاولى : اصدار كل ما يتعلق بشؤون هونغاريا الادارية والتشريعية وغيرها .

الثانية : تمثيل الأمة الهونغارية أمام الملك في فيينا .

وتسترعي هذه الوزارة اهتمام الملك بالمقررات التي يمكن أن تخالف الدستور. وهذه الوزارة الهونغارية يمكن أن تلعب دور مجلس الملك في الشؤون الهونغارية ، ويمكن أن تكون مساوية للوزارات الأخرى في فينا . وفي الواقع ان

اقامتها في فينا كافية لتجعلها تخضع للمؤثرات الالمانية في الحكم وقد خضعت فعلاً إلى سلطة الملك . ولقد حاول الملك بصورة قانونية وواقعية النزوع الى الحكم المطلق . وكان نصيبه عظيماً في سير الدولة الهونغارية .

ولكن كان أمام الملك مؤسسات قومية . وهذه هي التي تهمنا من وجهة النظر التي تشغلنا وهي وجهة نظر القومية . والواقع أن العثرة في سبيل الحكم المطلق كانت تأتي عن حق مزدوج يتمتع به الهونغاريون : **الأول** الحق في أن يكون لهم قوانين خاصة بهم، وذلك لأن القانون لا يمكن أن يعمل بصورة مشروعة إلا باتفاق بين الملك والدياط . **الثاني** أن يكون لهم حق تنفيذ القانون بمؤسساتهم الخاصة التي تسمى « **الدوائر** » . فاذا يوجد مؤسستان : **الدياط** لسن القوانين ، و **الدوائر** لتنفيذها .

الدياط الهونغاري .— كان الدياط في القديم مجلس جميع النبلاء ومنذ ١٦٠٨ انقسم إلى مجلسين : **الأول : مجلس الماغنا** حيث يعقد الكبار والنبلاء العظام اجتماعاتهم . وهؤلاء هم **البارونات والأحبار** والأمراء أصحاب الألقاب ؛ **والثاني مجلس الطبقات** ويتألف من ممثلي الكوميتات (الدوائر) ويضاف اليهم ممثلو المدن والاديرة ومجلس الكهنة . ولم يكن لكل طبقة سوى صوت واحد . أما أصول اخراج القانون فمعقد : وذلك ان القانون يجب أن يُعمل باتفاق بين الملك والدياط ، ولما لم يكن للملك ممثل في الدياط وجب لذلك مفاوضات طويلة بين الدياط والمليك أو مؤسسات المليك في فينا . وليسن القانون يجب الاتفاق أيضاً بين المجلسين المار ذكرهما . ويحرر القانون **القضاة الملكيون** . وبنتيجة المفاوضات الطويلة بين المليك والدياط وبين المجلسين يتفق أخيراً على نص القانون . ثم يعقد هذان المجلسان اجتماعاً مشتركاً لتبني النص الذي عرض

عليهم . وعندما يتبنى هذا النص يرسل الى فينا لدراسته واعطاء رأي الوزارة الهونغارية به . وهذه تأخذ رأي الرجال الأكفاء في مختلف الوزارات ، فيوجهون اليه الاعتراضات مثلاً أو يقبلونه . وإذا أبدت الوزارات اعتراضها على النص ، الذي صُوِّت عليه ، وجب استئناف المفاوضات في الدياط وبين الدياط والمليك . وهكذا نرى أن سن القانون شيء طويل وصعب وهو اتفاق حقيقي ومفاوضة دبلوماسية حقيقية بين الدياط والمليك .

مجالس الأقاليم (الكوميتات) . — أما **الكوميتات فهي هيئة** قومية أنجع . وتكون باجتماع كامل نبلاء الاقليم . والكوميتات هي هيئات السلطة التنفيذية في جميع النواحي السياسية والحقوقية والادارية والاقتصادية والادارة كلها تتعلق بالكوميتا . وهذا المجلس يسمي لثلاث سنوات الموظفين الذين يمارسون السلطة العامة تحت اشرافه . وأخيراً يملي الأنظمة الخاصة لكل اقليم والانظمة الضرورية في حدود القانون لتنفيذه . والكوميتا في الواقع مستقلة . والشخص الوحيد الذي يعينه الملك هو « **الكونت** » ويرأس المجلس كل ثلاث سنوات في الجلسة التي يعين فيها الموظفون، ويمثله في المجلس فيكونتان ينتسبان إلى طبقة النبلاء المحلية . فالكوميتا تكاد تكون بتمامها مستقلة عن الحكومة ، والحياة الادارية كلها منوطه بها . وكل شيء يعلق بأي معارضة ممكنة من قبل الكوميتا للحكومة .

إن هذا النظام الهونغاري ليس نظاماً برلمانياً كالانظمة الحديثة ، أو الانظمة التاريخية الانكليزية المعاصرة ؛ وليس نظاماً تمثيلياً ، بل هو نظام اقطاعي استطاع أن يحافظ على شخصية هونغاريا تجاه المليك الذي كان ينزع نحو الحكم المطلق ونحو الوحدة . وهذا هو الدستور التاريخي المشهور الذي كان يطالب الهونغاريون الملك باحترامه حتى منتصف القرن التاسع عشر أي إلى ثورة ١٨٤٨ .

وإذاً من أي شيء سوّيت الحياة القومية في هذه الدولة ؟ في الواقع لسنا أمام أمة وانما نحن أمام مجتمع اقطاعي .

إن سواد السكان من الفلاحين الأقنان . أما البورجوازية فلا قيمة لها لأن كتلة الفلاحين تمثل ٩٩٪ في الدولة . وهذه الكتلة التي تؤلف في الواقع كل هونغاريا لا تشترك بشيء في الحياة السياسية القومية . انجميع السلطات وجميع الوظائف مركزة في أيدي الطبقة النبيلة المتحدرة من أسر الفاتحين المجر أو الناشئة عن أناس اكتسبوا النبل بعد أن خَلَعَه الملك عليهم ، وأخيراً من أناس سمح لهم الدباط بالاقامة في هونغاريا وحصلوا على نوع من قومية هونغارية . وتفقد صفة النبل في حالة عدم الاطاعة للملك ، وفي حالة خيانة النبيل لحقوقه الإقطاعية . وهذه الطبقة النبيلة عديدة في المجتمع . وأهم امتيازاتها انها معفاة من الضرائب ، وجميع النبلاء متساوون داخل الطبقة فيما بينهم . وهم ، وان كانوا سواسية في الحق إلا أنه يوجد بينهم تباين واختلاف ، وذلك لأن قسماً عظيماً من هذه الطبقة النبيلة كان بائساً وغليظاً فظاً . ويطلق على نبلاء هذه الطبقة اسم « **نبلاء الصنادل** » . وبالمقابل نجد طبقة من كبار الملاكين الاغنياء والمثقفين المدربين على الحضارة الأوروبية الغربية ، وتبلغ أراضي الواحد منهم أحياناً ما يعادل أقاليم بكاملها ، وهذه هي **طبقة الماغنا** وتؤلف الارستقراطية . وبين هذين النوعين توجد **طبقة النبلاء المتوسطة** وهي سيدة مجلس الدول والكوميتات . ويوجد في هذه الطبقة النبيلة المتوسطة عنصر المعارضة والحياة السياسية الشخصية في هونغاريا . وليس لهؤلاء النبلاء الهونغاريين بصورة عامة إلا حظ قليل من الثقافة وقليل من العلم ، وليس لديهم مطلقاً معنى للأمة ، وكل ما عندهم أنهم يدافعون عن مصالحهم ، مصالحهم الشخصية ومصالح طبقتهم .

ولا نجد في هذه الطبقة النبيلة ، التي تؤلف الطبقة السياسيــــة في البلاد ، كتلة ضد سلطة المليك النمساوي . ويظهر تأثير المليك في هذه الطبقـة بطريقتين :

التأثير الديني .— لقد أصبحت هونغاريا دولة بروتستانتية في عهد الاصلاح الديني ، ولكن الاصلاح الكاثوليكي كان له تأثير عظيم فيها ، حتى انه أعاد الى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية قسماً كبيراً من هونغاريا . وقد عملت الكنيسة كثيراً في خدمة السلالة النمساوية ، وقرنت هــــذه الكنيسة مقدراتها بقدرات السلالة الحاكمة ، وكانت غنية جداً وقوية . كان الاحبار في يبن مجلس الماغنا في الدياط ، ونجدهم في أي مكان أصحاب وظائف عليا ، ويدخلون وسطاء بين الطبقة النبيلة والملك في حالة المفاوضات عندما يراد سن قانون من القوانين . ولذا كان الأحبار الكاثوليك يمثلون في مجموع هونغاريا عنصر التوحيد والمركزية نحو فينّا .

التأثير الارستقراطي.— عندما غزا الأتراك هونغاريا اضطر كثير من العائلات الهونغارية القديمة الى الالتجاء الى الدولة النمساوية ، وخاصة الى فينّا . وفي القرن الثامن عشر اتسعت حياة البلاط في عهـــد شارل السادس وماريا تيريزا وصار لها رونق جميل في العاصمة النمساوية . وسلكت ماريا تيريزا سياسة تقارب وامتزاج بين الطبقة النبيلة الالمانية والطبقـــة النبيلة الهونغارية عن طريق الزواج والادارة وعلاقات البلاط ومصالحه مع ما يشوب ذلك من آداب المجاملة والظرف والمنح ، حتى ان هـذه الارستقراطية الهونغارية اشبعت بروح جديدة وأصبحت ترى الأشياء بمنظار أوسع أفقاً مما كانت تراه في هونغاريا .

لقد كان هؤلاء النبلاء الهونغـــاريون يقيمون على الأكثر في فينّا ولهم علاقات شخصية مع الملك نفسه ، ويرون الأشياء كسياسين

لا كقوميين فحسب . يضاف الى ذلك أن ثقافتهم كانت أوربية ، ولهم علاقات مع الطبقات الارستقراطية الأوربية من فرنسية وانكليزية . ومع الزمن أصبحت هذه الطبقة الارستقراطية الهونغارية أكثر انقياداً للملك ، حتى ان مجلس الماغنا في الدياط كان في الحقيقـــة آلة مسخرة بيد الامبراطور .

لقد كان هؤلاء النبلاء عوامل نمو للدولة النمساويه على حساب الدولة القومية . وقد استطاعت النمسا أن تطبق سياستها هذه في بوهيميا ونجحت في جرمنتها الى حد كبير . أما هونغاريا فقد بقيت موجودة ، ولكن يجب ألا ننظر اليها كأمة حديثة لها مجتمعها الحديث ، بل ان مجتمعها مازال محتفظاً بطابعه القديم ، واستطاع ان يحفظ امتيازاته رغم محاولة النمسا ابتزازها . ولذا احتفظت هونغاريا باستقلالها السياسي وحياتها القوميـة ، ولكنها لم تكن بلداً برلمانياً ولا تمثيلياً ولا أمة . ولن تظهر القوميـــة الهونغارية إلا عندما تنتشر العاطفـة السياسية والتعليم في الطبقة النبيلة الوسطى . وهذا لا يكون إلا في الربـع الأول من القرن التاسع عشر .

وهكذا نرى بنتيجة هذه الدراسة أن هونغاريا دولة تاريخيـــة لها شخصيتها التي احتفظت بها ، بيد انها لم تكن دولة قوميـــة بالمعنى الصحيـح للقومية .

اليونان

نجد في اليونان أمة معنوية تشعر بتقاليدها ، ولكنها عاجزة عن أن تشعر بوجودها القومي . فما هي عناصر الأمة اليونانية ؟

ليس لدينا في اليونان دولة تريد أن تحيا بتأثير الأفكار الحديثـة بل يكفي الامة اليونانية ان تتذكر نفسها لتشعر بوجودها وكيانها . لقد طغى

الحكم التركي في اليونان في آخر العصر الوسيط ، ومع ذلك استطاع اليونانيون أن يصونوا وجودهم وبقاءهم بفضل نظام الدولة التركية التي لم تكن دولة بالمعنى الصحيح ، وإنما كانت بشكل قوم يعسكر في بلد من البلدان ويكتفي باحتلاله واستغلاله تاركاً السكان وشأنهم مقابل دفع « الجزية » ، هذه الضريبة التي يتوجب على كل « رومي » أي يوناني دفعها ليؤمن حياته ووجوده . وهنالك ضريبة أخرى وهي ضريبة الخراج التي كانت تجبى من اليونان عن الاراضي ، وضريبة العشر أي ضريبة التمتع . وهناك ضريبة ثالثة قديمة وهي ان الاتراك كانوا يأخذون ١/٥ البنين والبنات في البلد المفتوح ويربونهم تربية عسكرية لتأليف الجيش الذي عرف باسم **الجيش الانكشاري** . ولكن هذه الطريقة ألغيت منذ القرن السابع عشر أي في سنة ١٦٨٥ . وعلى هذا نرى ان العثمانيين قد توضعوا فوق السكان الاصليين وتركوهم يستمرون في حياتهم اليومية المعتادة مقابل الضرائب التي كانوا يتقاضونها منهم . ولم يحاول الاتراك مرة ان يصهروا هؤلاء السكان في بوتقتهم أو يمثلوهم في جسم الامبراطورية العثمانية . وكل ما في الأمر ان احتفظ اليونان باطارهم القومي ، واعترف الاتراك به رسمياً وهذا يعني ان الاتراك كانوا يعترفون بوجود الامة اليونانية .

الكنيسة — إن العنصر الاول لهذه الامة اليونانية واطارها الاساسي هو الكنيسة . وقد أبقى السلطان محمد الثاني فاتح القسطنطينية على الكنيسة الارثوذكسية ، وذلك لأن هذه الكنيسة ، عندما استولى العثمانيون على عاصمة بيزنطة ، كانت انهزامية وشايعت الاتراك ولم تكن راضية عن سياسة الاتحاد التي حاولها آخر أباطرة بيزنطة ، **قسطنطين دراغازيس** ، للتوفيق بين الكنيستين الشرقية والغربية . وجرى بين السلطان محمد الفاتح وبطريرك اليونان ، **جينو آتيوس العالم** ، عقد حقيقي ،

وروعيت ، من بعد ، حرمة هذا العقد من اخلاف السلطان والبطريك .
وبموجب هذه المعاهدة بحتوم الاتراك صندوق البطركية ، ويستثنون من الجزية والخراج أعضاء الاكليروس مقابل مبلغ سنوي تؤديه الكنيسة للسلطان . وتخلى السلطان للبطركية عن الادارة المدنية للكنيسة واعترف باستقلال الاكليروس القضائي . وكان يساعد البطريك في ادارة الكنيسة مجلس مؤلف من عشرة رؤساء أسقفيات يعينهم البطريك نفسه بالاضافة الى رؤساء الاسقفيات الاربعة : **هرقله ،سيزيك ،كالسدوان** (خلقدونية) ، **در كوس** . كما اعترف بالسلطة القضائية للبطريك ومجلس البطركية على بلاد اليونان والجزر وجميع آسيا الصغرى وبلاد الشرق وشبه جزيرة البلقان . وعندما تأسست الكنيسة الروسية كان بطريك القسطنطينية يعين الاكليروس الموسكوفي في منصبه الديني .

وكان مفهوم الديانة والامة ، أو الديانة والدولة شيئاً واحداً بالنسبة للأتراك . واعتراف السلطان بالكنيسة الاغريقية خولها نوعاً من انتداب للسلطة العامة : فقد اعترف بوجود هيئة مستقلة إلى جانبه وهي الارثوذكسية وفي هذه الشروط نما الاكليروسان **العصري والنظامي**، ونمت ثروتها بصورة زائدة . أما الاكليروس النظامي الذي كان مجتمعاً تحت حماية القديس باصيل (مؤسس الطريقة في القرن الرابع للميلاد) فكان يضم عدة طوائف غنية ، وخاصة في جزيرة الامراء ، وهي جزيرة صغيرة في بحر مرمرة حيث كان للاديرة الحق في قرع نواقيسها . ولكن مركز هذه الحياة الرهبانية كان الجبل المقدس ، جبل **آتوس** الواقع في جنوب شبه جزيرة سالونيك حيث يوجد رهبان ارثوذكسيون يأتون من جميع البلاد الارثوذكسية من روسيا وبلغاريا واليونان وغيرها . وكذلك كانت **القدس** مركزاً كبيراً للحياة الرهبانية الارثوذكسية . ومما لاشك فيه ان هذه الاديرة كانت

تدفع ضريبة للسلطان إلا انهـا كانت متمتعة في الوقت ذاتـه بأراضيها وآخذة بالنمو والاتساع .

ومنذ تعاهدت هـذه الكنيسة الارثوذكسية مـع السلطان كانت تبدي معارضة صريحة ومستمرة للكاثوليكية . وهذه المعارضة صفة مميزة لحياتها ، وسيكون لها اثرها عند استقلال اليونان في القرن التاسع عشر . لقـد كانت هذه المعارضة في الاصل عن عدم رغبة الارثوذكس في الاندماج والاتحاد مع روما كما دعا إلى ذلك آخر اباطرة القسطنطينية . وهـذه المعارضة دعتهم الى الامتثال وقبول سلطة الاتراك . وفي القرن السابـع عشر كافحت الكنيسة الارثوذكسية اليسوعيين بحرارة لانهم كانوا ممثلي روما في الشرق . وكان الارثوذكس يساعدون الاتراك ضد البندقية الكاثوليكية لاخذ موره اي البيلوبونيز وجزيرة كورفو التابعة للبندقية في آخر القرن السابـع عشر وأول القرن الثامن عشر .

لذا نرى الكنيسة الارثوذكسية ، في داخل الدول العثمانية، مستودعاً حافظاً للعاطفة القومية اليونانية الممزوجة بالدين، ولم يكن هنالك تمييز بين العاطفة اليونانية والديانة الارثوذكسية .فهما شكلان متشابهان للقومية في المعارضة التي كانت تظهر بشكل معارضة حكم ذاتي تجاه السلطان، ومعارضة ارثوذكسية تجاه الكاثوليكية . أما الجزر الكاثوليكية اليونانية فكانت منعزلة في داخل الدولة التركية وهي جزر صغيرة كان الكاثوليك فيها اكثرية مثل جزر **سيكلاد** : **ناكسوس** ، **آندروس** ، **بادوس** ، **سانتوران** ، **ميلو** ، **سيرا** ، وكانت تتمتع بامتيازات خاصة باعتبارها كاثوليكية ووضعت تحت حماية الحكومة الفرنسية التي سعت بان يعترف لها بحقوقها وحق اصلاح الكنائس وترميمها بحرية، وذلك بموجب **الامتيازات الأجنبية** التي كانت الضمان الوحيد للحرية الكاثوليكية . وهذا النزاع بين العناصر اليونانية الارثوذكسية والعناصر

اليونانية الكاثوليكية نشاهده في عهد الاستقلال .

وقد طبق هذا النظام في جميع بلاد الامبراطورية العثمانية .

البلديات . — والى جانب الكنيسة الارثوذكسية توجد البلديات. فمنذ ان أسس السلطان امبراطوريته على انقاض الامبراطورية البيزنطية، ابقى على النظم الادارية لهذه الامبراطورية وأقام الموظفين الاتراك مقام الموظفين البيزنطيين . ولكنه لم يطبق هذ التغيير في الاجهزة الادارية الدنيا وذلك لان الموظفين الاتراك كانوا قلائل . لذا ترك في النواحي والقرى البلديات التي كانت موجودة في السابق والتي تنتخب من قبل السكان بأشكال مختلفة حسب وضع كل بلد . كان يدير النواحي والمدن جنالقة **الاساقفة** الذين ينتخبون من قبل السكان ولهم حرس أهلي محلي تحت تصرفهم ويسمون **الباليكاو** ، وزعماوهم **أرماتولي** . وقد قويت هذه البلديات في موره ، أي البيلوبونيز في عهد النفوذ البندقي واحتفظ بها عندما استولى عليها الاتراك ، وفي هذه الجزر التي لم يتوصل اليها الاتراك بسهولة كانت البلديات عملياً مستقلة وكانت نسبة السكان الاتراك فيها ضعيفة جداً . لذلك كانت هذه الجزر تحكم نفسها كما تريد . ففي رودس مثلاً كان البك الحاكم التركي الوحيد في الجزيرة . اما الادارة فكانت بأيدي السكان اليونان : وجزيرة ثازوس الكبرى بالقرب من شاطيء تراكيا كان يحكمها جنالقة الاساقفة الذين يسميهم السكان. وفي جزيرة **بسارا** الصغيرة القريبة من كيو كان الحكام ينتخبون من قبل السكان المجتمعين في الآغورا أي الساحة العامة كما كانت عليه الحال في اليونان القديمة . وفي جزيرة **هيدرا** الصغيرة التي ستكون مركزاً من مراكز حركة الاستقلال اليونانية لا يوجد ولا تركي واحد .

كانت هذه البلديات تؤلف نوعاً من جمهوريات صغيرة قومية نرى فيها ما نراه في اليونان في العصر القديم من ديموقراطية الدولة والنعرة المحلية .

ونجم عن وجود الكنيسة ووجود البلديات ، المعترف بها رسمياً من قبل السلطان ، استحكام الحياة الروحية الاستقلالية في اليونان ، لأن الاتراك احترموا هذه الاوضاع ولم يمسوها بسوء ، كما لم يحاولوا أن ينشروا الديانة الاسلامية فيها . وقد تألفت هذه الحياة الروحية بطريقة التواتر والتقليد والاساطير والشعر الذي يتناقل شفوياً والغناء في السهرات . وفي أول القرن التاسع عشر أي في سنة ١٨٢٤ نشر المؤرخ الفرنسي فوريل ديواناً يسمى : « **الاغاني الشعبية في اغريقية الحديثة** » (ويجب أن نفهم من اغريقية الحديثة لا اغريقية المعاصرة بل اغريقية العصر الوسيط) بالنسبة الى اغريقية القديمة . وهذه الحياة الروحية لها كتبها ومدارسها التي احتفظت بها الكنيسة وتعهدتها بالعناية . فقد بقيت الثقافة البيزنطية حية جداً في بعض المراكز مثل **كورفو** و**كريت** اللتين أعيد بناء مدارسها في القرن التاسع عشر على يد بطريرك عالم اسمه سيريل لوكاريس الذي وسع التعليم في اليونان وفتح أول مطبعة يونانية في حي الفنار في القسطنطينية . وبين المراكز الفكرية الاخرى توجد القسطنطينية وسيدونيا ويانينا وآرتا وجبل آتوس وميسولونغي . وفي عام ١٧٤٠ افتتح مركز هام وهو مركز كوزاني في ماكدونيا . ويوجد في كيو جامعة يونانية حقيقية وهي مدرسة دار الفنون (البوليتكنيك) حتى أن طلاب كيو يسمون « فرنسيي الشرق ». وفي **ياسي** و**بخارست** وجد مركز لغة وثقافة وتعليم يديره أمير (هوسبودار) من أصل يوناني .

لقد احترم الاتراك هذه المدارس ولم ينازعوا اليونان هذا التفوق الفكري. ويجب أن نضيف الى الشبيبة التي تربت في المدارس اليونانية، الشبيبة التي كانت تذهب لاتمام دراستها العالية في غربي اوربه ، وخاصة في فرنسا .

وهكذا نرى أن ليس هنالك أي انقطاع في الشعور اليوناني القومي . فما زال اليونان يسمون أبناءهم بالأسماء الشهيرة في اغريقية القديمة ، وسفنهم بأسماء القادة مثل الجنرال تيمستوكل أو باسم معارك العصر القديم أو بيزنطه .

وعلى هذا النحو أثبت اليونان إرادة تفصلهم وتميزهم عن الأتراك . إلا أن قسماً من مفكري اليونان يرون بان يستند الشعور على سادتهم العثمانيين . ويجب ألا ننسى أن هذه الثقافة اليونانية تتصل بالتقاليد البيزنطية خاصة وبتقاليد اغريقية القديمة قليلاً . وسيرى الاوربيون في عهد حب الحركة الهلنية الحديثة في اليونان ورثة ميلتياد وتيميستوكل . وهنا يوجد سوء تفاهم : فبالنسبة الى اليونان ، اغريقية هي بنزنطة وليست اغريقية القديمة .

وإلى جانب هذه الأنظمة الرسمية التي كانت تدعم استحكام الأمة اليونانية كانت هناك أنظمة واقعية تمكن الأمة اليونانية من القيام بنشاط خاص ، بل وتساعد على حركة مقاومة ضد النفوذ التركي .

الأول : وجود طبقة من البيزنطين الارستقراطيين أو البورجوازيين في القسطنطينية حافظوا على التقليد الهيلليني . وهذه الأسر تنتسب الى أصول مختلفة : بعضها ينسب الى أسرة الاباطرة مثل أسرة **الارجيروبولو** أو اسرة **يبسلنتي** ؛ وبعضها من أصل ايطالي وهي عائلات كبرى استقرت منذ العصر الوسيط مثل آل **مانو وآل نغري**؛ وبعضها من أصل يوناني من مختلف المناطق اليونانية مثل آل **كانتا كوزين** ،ويوجد هنالك ما يقرب من عشرين أسرة، مثل آل كانتاكوزين وآل **هانديري** وآل **مافرو كورداتو وديزوورانجيي ويوتزو وستوردزا** . وهي أسماء نراها في تاريخ اليونان كله . وأعضاء هذه الاسر يقيمون في قصور في حي الفنار ولديهم

خدم وحشم ، ويتمتعون بثروة طائلة . وكانوا على رؤوس المشاريع الكبرى من تجارية ومناجم في الامبراطوريه العثمانية . وهم يعرفون جميع اللغات الأجنبيـة تقريباً في البحر المتوسط وغرب أوربة ، ولهم علاقات واسعة ، ويحبون الاعمال والمصالح ، وكانوا على وفاق مـع البطريركية ويمنحونها الاموال للأديرة والكنائس والمدارس .

الثاني : التجار . وإلى جانب هؤلاء الفناريين الاثرياء يوجد فئة من اليونان النشيطين والاثرياء وهم التجـار الذين يشتغلون بالتجارة **البحرية** . فقد كانت السفن التجارية في تركيا يونانية سواءً في ملاحة السواحل أو الملاحة البحرية البعيدة المسافة . ولقد نافسوا في زمن ما الجاليات اليهودية أو اشتغلوا معها . وهـذه الجاليات أتت من اسبانيا والبرتغال والتجأت في سالونيك . وفي القرن الثامن عشر انحطت ملاحـة التجارة البندقيـة وفتحت البحر أمام التجار اليونان وساعدتهم على طرد الايطاليين من البحر الايوني . وفي زمن الثورة الفرنسية قام الانكليز بمنافستهم وحربهم ضد فرنسا وحذفوا التجـار الفرنسيين فاحتل اليونان مـكانهم . ولذا نراهم قد حلوا محـل الايطاليين والفرنسيين في بلاد الشرق واحتكروا التجـــارة البحرية بأيديهم .

وأخيرا يوجـــد **جاليات يونانية في** جميـع الموانيء الكبرى للبحر المتوسط وكان منها مجهزو السفن وتجار البضائع الشرقية الذين أثروا وحصلوا على ثروة طائلة مثـل آل **المامالي وآل نوتراس** وآل **فاتاتزيس** . وآل كانتاكوزين وآل **باليولوغ** .

ولم يكن أفراد هذه الجاليات أو التجار او الفناريون رجالاً انانيـين وواقعيين ، بل كانوا يتحمسون للتقاليد البيزنطية والى كل ماهـو وطنهم ويمنحون المال للمدارس ومؤسسات الاحسان . وسنرى ان رجال الجاليات اليونانية

بالاضافة الى الفناريين ، سيمدون حركة الاستقلال اليونانية بعونهم عندما تقوم عام ١٨٢١ .

ان وجود هؤلاء اليونان الاثرياء الارستقراطيين أو البورجوازيين كانت له نتائج هامة في الامبرطورية العثمانية ، وذلك **لانهم أخذوا يتسللون شيئاً فشيئاً الى الادارة التركية** ، وكان منهم الجباة ومديرو البنك العثماني ورجال المالية . وفي منتصف القرن السادس عشر ومنتصف القرن السابع عشر خاصة كانت الامبراطورية العثمانية بحاجة الى دبلوماسية نشيطة وعلاقات مع الدول الاوربية ، ولذا كانت بحاجة الى مترجمين ، حتى ان مصلحة الترجمة الضرورية في الدول العثمانية كانت بيد اليونان . وأول رئيس لهذه المصلحة كان يونانياً من كيو يسمى **بانايوتيس**،حتى ان اخلافه كانوا يونانيين . وأهم رؤساء التراجمة المشهورين : **الكسندر مافروكورداتو** فقد عاش من ١٦٣٦ الى ١٧٠٩ ولقب بـ« **كاتم السر** » وهو يوناني عاش طويلاً في أوربة ودرس الطب ونال شهادته من بادوا وعاش في بولون ثم في القسطنطينية وأصبح « أمين سر عام لوزارة الشؤون الخارجية » . وهو الذي فاوض صلح كارلوويتز ١٦٩٩ . وكان كاتباً ، ألف كتاباً اسمه « **التاريخ المقدس** » كتبه باليونانية ونشر في بخارست عام ١٧١٦ بعد وفاته . وقد تبنى في اسلحته **العنقاء** التي تبعث من رمادها وترمز لوطنه .

وذهب اليونان الى أبعد من ذلك في الادارة العثمانية،حتى ان **نيقولا** ابن الكسندر مافروكورداتو سماه السلطان هوسبوداراً أي حاكماً لمقاطعة البغدان (مولدافيا) عام ١٧٠٧ ثم الافلاق (فالاشيا) عام ١٧١١ ومنذ ذلك الحين أصبح في تقاليد هاتين المقاطعتين ، اللتين تؤلفان مايسمى في أوربة الاقليمين الدانوبيين ان ينتخب الهوسبودارات من يونان حي الفنار . وكذلك قسطنطين أخو نيقولا مافروكورداتو أصبح هوسبوداراً

في الافلاق (فالاشيا) في العام ١٧٣٥ . أما نيقولا فكان كاتباً كأبيه ويكتب باللاتينية . وقد احتفظ الاقليمان ، الافلاق والبغدان ، تحت سيادة السلطان بقوانينها الشخصية مقابل ضريبة يؤديانها له . وكان الحكام يتلقون منصبهم من السلطان باسم باشا أي حاكم ، ومن البطريرك باسم دسبوط أي زعيم المسيحيين . وفي هذين الاقليمين الدانوبيين حصل نوع من سيادة مشتركة بين السلطة المركزية العثمانية وبين ممثليها الاغريق الفناريين . وتؤلف ادارة الاقليمين على هذا الشكل نوعاً من تجربة قابلة للاستعمال في المستقبل وقد عملت بها كبريات العائلات اليونانية .

يوجد اذن في اليونان نوع من عنصر واقعي يحيط بالكتلة القومية . وهذا العنصر هو **النخبة اليونانية** ، التي تشعر بقيمتها وامكانياتها وسيكون منها في الوقت المناسب زعماء الامة اليونانية . واذا مست الحاجة يجد اليونان فيها هيئة سياسية وادارية عتيدة وجاهزة وقد حصلت تعليمها في أطر الامبراطورية العثمانية .

والى جانب هذه الأسر الكبرى الثرية نجد عنصراً يختلف كثيراً عنها وسيكون في المستقبل اداة نشيطة في الاستقلال اليوناني . وهذا العنصر « خارج عن القانون » وسيكون عضواً عاملاً في الثورة الاستقلالية . ووجود هذا العنصر الذي يعيش « خارجاً عن القانون » حادث عام في البحر المتوسط ، ويرتبط بشروط البلد الجغرافية . فاليونان بلد متقطع ، مجزأ كثير التعاريج والفجوات ، مؤلف ، كانتونات صغيرة منعزلة بجبال ، ويصلح لأن يكون مأوى للأشقياء واللصوص وقطاع الطرق . ويتضح تاريخ اليونان في القديم بوجود هؤلاء الطريدين الذين يعتصمون بالجبال ويؤلفون اطار الحياة السياسية . ويسمي اليونان هؤلاء الطريدين بأسماء مختلفة ويطلقون عليهم خاصة اسم « **كلفت** » أي اشقياء ، لصوص ، وقطاع طرق

ونجد مثلهم في كريت بشكل عصابات صغيرة مؤلفة من خمسة أو عشرة أشخاص يعيشون في الجبال بعيداً عن المجتمع على حساب السكان . وفي الجزر نجد تابعين لهؤلاء الكلفت وهم **القرصان** الذين يكثرون في جزر سيكلاد . ويتغنى اليونان بمغامرات هؤلاء القرصان في الاناشيد الشعبية التي نشرها فوريل .

ومن البديهي ان ينتقل هؤلاء الطريدون عند الاقتضاء بسهولة من حالة اللصوصية والشقاوة الى حال العصيان . وقد حاولوا ذلك لأول مرة في عام ١٧٧٠ اثناء الحرب الروسية — التركية ، عندما أرسلت القيصرة كاترينه الثانية حملة بحرية لمهاجمة الاتراك في بحر ايجه . وقد سبقت هذه الحملة بحركات واضطرابات سياسية هزت شبه الجزيرة اليونانية . وأرسلت أيضاً الى تساليا ضابطاً روسياً من أصل يوناني اسمه **بابا زوغلو** لتحريضها على الثورة . وعندما بدأ ظفر الجيش الروسي على الجيش التركي يرتسم في جنوب روسيا والقرم تقدم زعماء محليون من الكونت **اورلوف** القائد الروسي ومحظي كاترينه واتصلوا به في البندقية ثم في ليفورنه ليوحدوا جهودهم مع جهود الاسطول الروسي . وحاول الروس أن يحتلوا نقطة في جنوب موره وهي ميناء **كورون** . وعندما قاموا بعمليات الانزال تهافت لمساعدتهم اليونان من باليكار وكلفت وقد أتوا من مانيا والجزر الايونية وكريت وآكارنانيا . واشترك الروس واليونان في واقعة **تريبوليتزا** قاعدة مانيا الستراتيجية . ولكن هذه الواقعة اخفقت حتى ان الحصارين اللذين حاول الاتراك ضربها على تريبوليتزا قد رفعها اليونان وقتل الاتراك ٣٠٠ يوناني من سكان المدينة . ونزل جيش تركي مؤلف من ١٠٠,٠٠٠ الباني ليقمع الثورة . وفي عبور نهر **الاسبروبوتاموس** حاول اليوناني **كريستوف غريفاس** ان يجدد مغامرة **لؤنيداس** ونزل مع ٣٠٠ اغريقي ومنع المرور من جسر **آرجيلوكاسترو** فذهب ضحية هو ورجاله .

نرى في هذا العصيان الذي رافق الحملة الروسية عام ١٧٧٠ نوعاً من تصوير سابق لحركة ١٨٢١ . ونشاهد فيه مختلف العناصر : عنصر السكان الخارجين عن القانون الذي شكا بسلاحه وقام بتحريض باقي البلاد ، ثم اشتراك السلطات الدينية والبطريرك . ومن الطبيعي ان ينتقم الاتراك بعقاب صارم في ميسو لونغي وبتراس وبيوليا وفي بلاد ميغاد وكورانثه وموره حيث قتل الزعيمان لوطنيان الكبيران ايتين مافرو ميخاليس وابنه . أما البطريرك ميليتيوس الثاني فقد نزع السلطان ثقته منه وخلعه .

ومع ذلك فان الروس ، في المعاهدة التي فرضوها على الاتراك بعد ظفرهم في ازمير وهي معاهدة كينارجي ، نصوا على عفو عام عن اليونان مع حرية ممارسة العبادة واهمال الضرائب المتأخرة واحترام الامتيازات الممنوحة لاقليمي الدانوب . وفي هذه المعاهدة مادتان لهما مغزاهما وذلك لأنهما تعتبران كقاعدة أولى للمزاعم الروسية في تدخلها بشؤون الامبراطورية العثمانية باسم الدفاع عن المسيحيين الارثوذكس : وهما المادتان (٧) و(١٧). فالمادة السابعة تنص على مايلي :

« يعد الباب العالي أن يحمي الديانة المسيحية دوماً في جميع كنائسها . ويقبل أيضاً أن يبدي له وزراء البلاط القيصري الروسي ملاحظات فيما يتعلق بالكنيسة التي ستبنى في القسطنطينية وبحق الذين يخدمونها ، ويعد بان يتلقى هذا اللوم باعتباره آتياً من شخص جدير بالاحترام باسم دولة مجاورة وصديقة مخلصة » . وهذا معناه نوع من حق التدخل الروسي في القسطنطينية لمؤازرة البطركية . والمادة السابعة عشرة تضيف :

« يعد الباب العالي ، منذ الان فصاعداً ، بالا تتعرض الديانة المسيحية لأقل اضطهاد ، والا يمانع بتحسين الكنائس أو اعادة بنائها ، وانه يحرم الى الأبد أن يكون الكنسيون عرضة للسخرية والاضطهاد بأي حال كان . »

ولكن يجب الا نرى في ثورة ١٧٧٠ حركة قوميـة كبرى ، كما ينبغي الا نرى في الكلفت أو القرصان وطنيين اغريق ، بل عنـاصر معارضة وامكانية يمكن أن تؤلف في المستقبل عنصر عمل يغذي الحركة القومية ويتعهدها .

وأخيراً يجب أن نلاحظ في دراسة الامة الاغريقية التي مازالت مفرقة في داخل الامبراطورية العثمانية ، وجود عنصر مستقل وهو **الجزر الايونية** التي يبلغ عددهـا السبع وأكبرها **كورفو وكافالونيا** ويضاف اليها أربعة حصون على شاطىء **ابيروس** وهي مدن **بوترينتو وبارغا وبره فيزا وفونيتزا**

وهذه الحصون الأربعة مع الجزر السبـع هي بقايا امبراطورية البندقية القديمة في اليونان . وقد سلمت من الحكم الاسلامي كجزيرة **مالطه** ولم يستول عليها الاسطول التركي . يوجد في هذه الجزر الايونية ديانتان : **الكاثوليكية والارثوذكسية** . وما من أحد يقوم بالدعاية ونشر الدين ولكن الاكثرية ارثوذكسية ، وإن **البروتوبابا** أي الرئيس الديني الأعلى لهذه الكنيسـة الايونية يخضع لبطريرك القسطنطينية وان كانت هذه الجزر بندقية من الوجهة السياسية .

وفي ظل الحكم البندقي تعلم يونان هذه الجزر أصول الادارة . ويحكم الجزر كلها حاكم « بروفيديتور » بندقي وموظفون ايطاليون بالطبـع مع عناصر يونانية أساسية . ويجتمع النبـلاء اليونان في مجلس سنوي ينتخب مجلساً مؤلفاً من ١٥ عضواً . وهذا المجلس ينتخب ثلاثـة اعضاء يمثلون الجزر في البندقية .

وعندما يجتمع هؤلاء النبلاء اليونان في المجلس يدافعون عن حقوقهم الاقطاعية بالطبـع تجاه جمهورية البندقية ولكن ليس لهم حق الرقابة على

حكومة البندقية في الجزر ، ولا تسمح البندقية إلى يونان الجزر بتعاطي الملاحة لئلا ينافسها الكورفتيون ولذا فان الايونيين يكرهون الحكم الايطالي في بلادهم . وأخيراً نجد في كورفو مركزاً فكرياً كبيراً يشع حتى على اليونان نفسها .

وهكذا نرى ان الجزر الايونية تؤلف نقطة اتصال بين عالم اليونان والعالم الغربي . فقد كانت الجزر الايونية نوعاً من وسيط بين الحضارة الغربية وافكارها الجديدة او ديانتها من جهة ، وبين هذا الشعب المبعثر الذي لم يأخذ شكلاً معيناً ، هذا الشعب وإن كان مسيحياً ، إلا انه ما زال يعيش تحت حكم السلطان العثماني .

وإذا نظرنا إلى اليونان نجد فيها جميع عناصر القومية وخاصة اللغة والدين . وهذه القومية لم تظهر بعد ، ولا تنتظر إلا عنصراً فكرياً أو عاطفياً لتنتقل إلى حالة الشعور القومي . كما انها تنتظر بالطبع امكاناً سياسياً لتظهر ، وستجهزها الثورة الفرنسية بهذا كله فتنتقل الى المرحلة الثانية من حياة هذه الامة المبعثرة المضطربة ، وهي المرحلة القومية .

ايرلنده

تظهر فردية ايرلنده في مختلف نواحي الحياة السياسية والاجتماعية ، إلا انها كانت مرهقة لكثرة الضغط والشقاء حتى أصبحت لاتشعر بسقوطها وفقدت كل مقاومة .

تعرف ايرلنده بأنها أمة لها جميع الصفات المميزة : من أرض وعرق ولغة ودين وماض مشترك ، أي أن لها كل ما يمكن أن يكون أساساً للقومية . الا أنها كانت منعزلة عن بقية العالم بهذا السور الانكليزي

الذي يقف حاجزاً بين جزيرة ايرلنده والقارة الاوروبية ، فضلاً عن أنها سحقت منذ أمد طويل تحت عبء الحكم الانكليزي . ولقد كتب المؤرخ ماكوليه بصدد ايرلنده ما يلي :

« اننا لم نعمل السيف في الايرلنديين الكاثوليك خلال إدارة واحدة أو عشرين إدارة بل طوال قرون . لقد جربنا المجاعة ، واستعنا بجميع القوانين الدراكونية ، وحاولنا الإبادة دون قيد ، لا لنحط أو نغلب جنساً نكرهه ، بل لنمحي كل أثر لهذا الشعب في البلد الذي نشأ فيه » . ورغم ذلك عاشت ايرلنده ، إلا أنها فقدت صوابها وشعورها وقوة مقاومتها ولم يبق لها سوى الشقاء والحقد العاجز الذي تضمره للطغاة الظالمين .

خضعت ايرلنده دوماً لنظام الفتح الوحشي الفظيع في أعماله وفي نتائجه . بدأ هذا الفتح في القرن الثاني عشر في عهد الامبراطورية الانغلو – نورماندية ، وبدأ ما يسمونه بـ : **القصر** ، و **الحاجز** ، و **الحامية** ، و **الاحتلال** على الشاطيء الشرقي لايرلنده بالقرب من انكلترا ، وكان بمثابة رأس جسر عسكري . ولكن رأس الجسر أخذ يتطاول مع الزمن لأن الانكليز الملاكين المقيمين في الحامية أخذوا يؤلفون نوعاً من طبقة نبيلة انغلو – ايرلندية . وفي عهد أسرة **تيودور** ، في زمن اليزابت ، وفي عهد أسرة **ستيوادت** توطد نظام الفتح بصورة أكيدة وتجددت عمليات الاعتداء وإجاعة السكان . ففي عهد اليزابت من أسرة تيودور انتقل الى منطقة **اولستر** في ايرلنده من ٢٠٠٠٠ الى ٣٠٠٠٠ ايكوسي واستوطنوا فيها وطردوا سكانها ، ولم يخل ذلك من أعمال النهب والاستثمار والاختلاس والاعتداء على أملاك الايرلنديين . ولما اعتنقت انكلترا في هذا العهد الديانة البروتستانتية أدخلت الى ايرلنده الكنيسة الانغليكانية

(الانكليزية) ووضعت هذه الكنيسة يدها على أموال الكنيسة الكاثوليكية وبدأت تضطهد الايرلنديين الكاثوليك .

وقد سبب هذا النظام عام ١٦٤١ حركة عصيان في اولستر أولاً حيث تبادل السكان الايرلنديون والانكليزيون التقطيع والشراسة والمذابح ، واستمر هذا العصيان خلال سنوات إلا أنه أخمد بحملة كرومول عام ١٦٤٩ بعد أن أعمل السيف بالايرلنديين وأباد السكان . وكانت نتيجة هذا العصيان وما اعقبه من الضرب على أيدي العصاة أن فقد ٦١٦٠٠٠ نسمة من أصل ١٤٦٦٠٠٠ نسمة خلال إحدى عشرة سنة . ولتمديد المذابح اقيمت في ايرلنده محاكم خاصة سميت باسم « **محاكم المجازر** » . وهاجر من ايرلنده مـا يقارب ٣٠٠٠٠ — ٤٠٠٠٠ نسمة فراراً الى اوربة أو امريكا . وباع الانكليز ٦٠٠٠٠ امرأة أو فتاة الى جزيرة جامايكا . وانخفض عدد السكان الى أقل من مليون . وهذا الفراغ الناشيء كان يسد بجنود جيش كرومول التي كانت تحجز الاراضي الايرلندية فى مقاطعة لينستر واولستر ومونستر وتتقاسمها مع المتعهدين في الجيش . واندحر الايرلنديون الى منطقة **كونوت** في الغرب . وكان الانكليز يدفعونهم بقولهم : (الى جهنم أو الى كونوت) . ولكن السياسة الانكليزية احتفظت ، حتى في الأقسام التي جردت من سكانها بعدد من الايرلنديين كمناورة .

وتم الفتح في حملة غليوم الثالث على أثر العصيان الذي قام في ايرلنده لمناصرة جاك الثاني المطالب بالعرش . وانتهى الأمر بأن طرد الملك الكاثوليكي بعد أن انكسر في واقعة **بوين** في ١٢ تموز ١٦٩٠ . ثم قام بين الايرلنديين والحكومة الانكليزية صلح ليمريك عام ١٦٧١ ، وفيه تعهد الانكليز باحترام حرية الوجدان والمساواة في الحقوق . ولكن ما

كاد يوقع هذا الصلح حتى خرق بحجز مليون آكر لاستيطان عدد جديد من الانكليز . وعلى هذا الشكل يبدو أن الفتح الانكليزي كان يريد وضع ايرلنده الانكليزية على ايرلنده القومية .

وخضعت ايرلنده الى نظام « **القوانين الجزائية** » التي فرضها البرلمان الايرلندي من ١٦٩٥ الى ١٧٠٩ . ولم تسلك الحكومة الانكليزية في ايرلنده سياسة الصهر والتمثيل بين الانكليز والايرلنديين، بل بالعكس نهجت سياسة القهر والعسف واستثمار ايرلنده بواسطة الحاميات الانكليزية والبروتستانتية . وهذا معناه استمرار حالة الحرب تحت نقاب النظام السياسي .

ما هي عناصر الحكم الانكليزي في ايرلنده ؟

النظام السياسي . - لقد ادخل قانون بوينيغ عام ١٤٩٥ في ايرلنده التشريع الانكليزي وألحق البرلمان الايرلندي بالبلاط الانكليزي . وفي الاصل احتفظت ايرلنده نظرياً بالحكم الذاتي وأديرت من قبل عنصري القصر والبرلمان . ويضم القصر الحاكم الذي يسمى **اللورد النائب** والى جانبه **مجلس ايرلنده الخاص** . وكلاهما انكليزيان ويعينها ملك انكلترا . ولكن اللورد النائب لا يقيم في دبلن بل يمثله فيها **مندوب اللورد** ومجلس من الموظفين يعينهم الانكليز . والى جانب القصر يضم البرلمان ، كما في البرلمان الانكليزي ، مجلس **اللوردات** و **مجلس العموم** . ويتألف **مجلس اللوردات** من رؤساء الأساقفة والأساقفة الانغليكان بالطبع ومن شيوخ ايرلنده الوراثيين أو الذين يعينهم الملك ، وعددهم ٢٠٠ تقريباً . أما **مجلس العموم** فينتخب بنفس الطريقة التي ينتخب بها مجلس العموم البريطاني . وكان الناخبون انكليزاً من ملاكي الاراضي أو المنازل وذلك لأن أموال الايرلنديين قد صودرت كلها . ويشاهد أيضاً في نظام ايرلنده الانتخابي المساوىء التي

ترى في النظام الانكليزي من مدن « معفنة فاسدة » ومن مدن « الجيب ».

وللبرلمان الايرلندي دورة واحدة في كل سنتين وسلطاته محدودة وذلك لأن القوانين التي يصوت عليها تخضع إلى تأييد مجلس ايرلنده الخاص ومجلس ملك انكلترا الخاص الذين لهما الحق في تعديل المشاريع المصوت عليها من قبل البرلمان الايرلندي . وهنالك بعض حالات تتعلق بتشريع وستمنستر كالحالات التي تهم القضايا المشتركة ، وخاصة التشريع الاقتصادي . وكان رجال القصر والبرلمان انكليزاً وبروتستانتيين وليس فيهم ايرلندي واحد . ومشروع قانون تيست يقصي الكاثوليك عن الوظائف العامة . أما الادارة فقد عهد بها كما في انكلترا الى قضاة الصلح ، وكان هؤلاء بروتستانتيين وانكليز .

الكنيسة الانغليكانية . — وهي العنصر الثاني للنفوذ الانكليزي وكانت كنيسة دون مؤمنين . ولم يوجد بروتستانت إلا في شمال ايرلنده في مقاطعة اولستر . والكنيسة الانغليكانية تابعة للبرلمان في كل ما يتعلق بالمذهب والمراسم والحياة الدينية ؛ وتتعلق بالملك في كل ما يختص بتسمية الاكليروس والأساقفة . وكان في ايرلنده ما يقارب ٢٢ أسقفاً و ٣٠٠٠ كاهن • وكان الأساقفة في الغالب يقيمون في انكلترا . وهذه الكنيسة الانغليكانية غنية جداً وقد أثرت بمصادرة أموال الكنيسة الكاثوليكية . ويأتيها دخل من الأراضي التي تملكها . وتملك جميع الكنائس التي كانت قديماً للكنيسة الكاثوليكية ، ولم تكن لتتعهدها وتعتني بها لأنه ليس لديها مؤمنون تجمعهم بها وتدعوهم إليها . ولها على السكان ضريبة العشر أي عشر الموارد ، ويضاف الى ذلك وظائف الدولة : كالتعليم والاحوال المدنية وغيرها ، ولها سلطة القضاء على فلاحيها وعلى أراضيها . وهذا يعني أنها كانت تتقاضى ثروة عظيمة دون أن تقوم بالمقابل بأي خدمة . وكان

نظام هذه الكنيسة مطبقاً أيضاً على الطوائف المشيخية الايكوسية التي كانت توجد هنا وهناك في مقاطعة اولستر .

الملاكون . — والعنصر الثالث للنفوذ الانكليزي هو الملاكون . وقد كان أشد العناصر الثلاثة تأثيراً . لأن الارض كانت للانكليز من ملك خاص أو ملك مشاع ، ثم اغتصبها كبار الملاكين كما في انكلترا .

ويوجد فئتان من الملاكين : **الملاكون الكبار** ، أصحاب الاراضي الواسعة وهم لا يقيمون في ايرلنده ، بل يستثمرون أملاكهم بواسطة عملائهم مقابل نسبة مئوية من الوارد ؛ **والملاكون المتوسطون** ، ويؤلفون نوعاً من ارستقراطية (جنتري) تقيم في ايرلنده. وهؤلاء الملاكون المتوسطون يضيفون الى ثروتهم ونفوذهم الاقتصادي نفوذهم الاداري لأنهم كانوا يديرون المدن . ويقدر وارد الواحد منهم من ٢٠٠ — ١٠٠٠ جنيه في السنة . ويكثرون غالباً في كونتية لينستر وعلى شواطيء اولستر وفي مقاطعة مونستر . وكان للملاكين الانكليز الحق في توريث أملاكهم إلى أكبر أولادهم ، باسم حق البكورة ويستطيعون أن يخصصوها سلفاً إلى حفيدهم بموجب **قانون النيابة** الذي يجمد الثروة الارضية. وكان السكان الايرلنديون، الذين يعيشون على هذه الاملاك تحت نفوذ هؤلاء الملاكين ، لا يفيدون من الحماية التي يقوم بها النظام الاقطاعي حيال الفلاحين في القديم ، ولا يفيدون أيضاً من النظام الزراعي ، وذلك لأن هؤلاء الملاكين لم يضعوا في أراضيهم أقل رأسمال ليحسنوها أو يصلحوها .

وكان الايرلنديون يستأجرون أراضي الملاكين الى زمن قصير لمدة ٢٠ أو ٣٠ سنة مقابل دخل معين ؛ ومن جهة أخرى يقومون بالسخرة والخدمات في الارض التي خصصها الملاك لنفسه . وكثيراً ما كانوا يقومون

بها بأجور ضئيلة جداً أو مجـــاناً . ولقد كان نظـام الملكية أداة نفوذ صرف واستغلال غاشم ، لأنه لايجد ما يعدّلـه من حماية النظام الاقطاعي أو استثمار الارض استثماراً عقلياً اقتصادياً يزيد في إنتاجها ومحصولها .

ولقد تفاقم نفوذ هؤلاء الملاكين لأن الانكليز جذبوا إليهم النخبـــة الايرلندية ، وهي نوع من بورجوازية قروية : ففي القرن الثامن عشر استحالت بعض أراضي ايرلـنده الزراعيـة الى مراعٍ واسعـــة ، كما في مقاطعـــة ليمريك وتبيراري وكلار وميث و وتر فورد . ويعطي المرعى منها دخلاً يتراوح بين ٣٠٠٠ و ١٠٠٠٠ جنيـه . وكان ملاكو هذه المراعي أو مستثمروها يقلدون حياة الجنتري الانكليزية في كل شيء .

وهناك فريق آخر لهذه البورجـوازية الايرلندية وهو فريق **الوسطاء** وهم مزارعون يأخـذون قسماً من أرض الأمـــير للاستغلال ، أو أنهم يزارعون على قسمٍ من أراضيهم ويحتفظون بالقسم القليل من الاراضي الذي هم بحاجة اليه ، ويوزعون الباقي على شكل مزارع صغـيرة يؤجرونها الى مستأجرين مدة قصيرة بشكل لا يتحملون أية مخاطرة إن لم يُدفع لهم ، ويكتفون بطرد المزارع . وهذه الايجارات تحسب بصورة يكون مجموعها أعلى مما يجب أن يدفعه الوسيط عن الحقل الذي يستثمره لحساب الأمير نفسه . وهؤلاء الوسطاء الايرلنديون ، الذين يساعدون الملاك الانكليزي في استثمار البلاد الايرلندية ، هم بطبيعة الحال مكروهون ومحتقرون من كلا الطرفين أي من الفلاح الذي يستغلونه ومن الملاك الانكليزي الذي يعملون في خدمته . وهم من هذه الناحية يعتبرون خونة بالنسبة لأبنـاء وطنهم ، ويضطرون أن يتأنكلزوا شيئاً فشيئاً . وكل هؤلاء من ملاكي الجنتري أو الوسطاء الايرلنديين أناس غلاظ قساة جفاة دون ثقافة .

هذه هي وسائل النفوذ الانكليزي الثلاث : من إدارة سياسية وكنيسة ،

وملكية ، وكلها تؤلف نظاماً فاسداً من شأنه القضاء على مصادر الحياة الروحية والمادية في انكلترا .

إن أول شيء أوحى به اعتناق الديانة البروتستانتية الانغليكانية هو اضطهاد الايرلنديين الكاثوليك وتعذيبهم : فقد حرم عليهم أن يقوموا بأي عبادة ظاهرة من حج أو احتفال أو قرع نواقيس وغيرها وكان الاكليروس الكاثوليكي في حالة ضعة ومهانة ، حتى أنه في العام ١٥٩٨ قرر طرد الأساقفة ورجال الطرق النظاميين . أما الكهان الذين سمح ببقائهم فهم المسجلون في سجلات الحكومة دون أن يسمح بمن ينوب منابهم . وكان عليهم أن يحلفوا اليمين السياسية ويمين الصبا . ولذا كان الاكليروس الكاثوليكي خارجاً عن القانون . وخصصت جوائز لمن يشي عن كاهن أو أسقف . وكانت المكافأة عن الكاهن (٢٠) جنيهاً وعن الأسقف (٥٠) جنيهاً . وكان الانكليز يسمون هؤلاء الوشاة « صيادي الكهان » .

وعلى هذا نرى أن الكاثوليك كانوا في حالة ضعة قانونية . فقد كان محرماً عليهم حق الملك ،وحق عقد الايجار لأكثر من ثلاثين سنة أو ، ممارسة الصناعات الحرة إلا الطب ، وحتى أكثر الصناعات التجارية، إلا في بعض الشروط . وهم بطبيعة الحال حسب مشروع تيست مبعدون عن كل وظيفة عامة ، ومحرومون من الوصاية على أبنائهم ومن تعليمهم في الخارج . ولم يكن للكاثوليكي الحق في أن يرث أهله أو اقرباءه البروتستانت وليس له الحق في ان يتزوج بروتستانتية ، في حين أن البروتستانتيين لهم الحق في الوراثة بموجب حق الابن الأكبر (البكر) بينا كان نظام التوريث الكاثوليكي يقضي بالعكس ـ أن يكون الارث موزعاً بالتساوي بين الأولاد،

حتى أن وزير العدل الانكليزي قال مـــرة : « ان القانون لايفترض وجود مايسمى كاثوليك رومانيين. » وقد عبر الكاتب الفيلسوف الانكليزي بورك عن النظـام الانكليزي في ايرلنده بقوله : انـه كال في الرذيلة، وعبودية فظيعة طاغية ، انه أقبـح ظلم تجرأت على ممارسته السفاهة والخبث البشريان » .

هذا هو نظام الكاثوليك الشرعي . أما ايرلنده فقد كانت في عجز اقتصادي تام ، لأنهـــا خضعت للنظام الاستعماري الذي يقضي بأن يوجه الاستغلال في مصلحة انكلترا والا تتعاطى التجارة إلا لفائدة انكلترا أيضاً. يضاف إلى ذلك أن الصناعات الايرلندية قد تهدمت الواحدة بعد الأخرى بتأثير القوانين والضرائب التي فرضت عليهـا : فمنذ آخر القرن السابع عشر ذهبت صناعة الصوف ادراج الرياح وتبعتها صناعة الفخار. ولم يترك الانكليز سوى صناعة القماش والكتان والقنب في مدن الشمال الشرقي من ايرلنده مثل بلفاست أو لندندري . ولم تفد ايرلنده شيئاً من الثورة الصناعية التي حدثت في انكلترا في القرن الثامن عشر .

أما في الحقل الزراعي فبقيت ايرلندة متأخرة تستعمل الادوات الفنية القديمة والمحراث العادي ، وتزرع الارض فيها مادامت تنتج شيئاً ولو كان قليلاً ثم تترك بوراً . وليس هنالـك طرق مواصلات ولا عجلات . وعبثاً يحاول الانسان تحسين أو زيادة زراعة القمح لأنه لايمكن بيعـه إلا في مكان إنتاجه . وإذا استثنينا زراعـــة الحنطة في الجنوب الغربي لانتاج الويسكي فان زراعة البطاطا هي الغالبة والاساسية في ايرلنده ، حتى انها نمت واتسعت على حساب الزراعات الأخرى . يضاف إلى ذلك أن طرق استثمار الارض كانت تزيد الشقاء ضغثاً على إبالة ، لأن الارض مقسمة الى أقسام صغيرة جداً ، ولهذا التقسيم عوامل :

١ — توزيع الارث بصورة متساوية بين الورثة .

٢ — توزيع الارض المشاع بالتساوي بين سكان القرية . وفي هذا مايجعل الحصة تصغر كلما ازداد عدد السكان .

٣ — فقدان شروط الاجرة التي تخصص للعامل الزراعي . وكل مافي الامر أن كانت الاراضي الحرة تعطى الى الفلاحين بشروط رديئة ثم تؤخذ منهم بسرعة . وتقدر مساحة الحقل الزراعي الذي يستثمره الايرلندي (١٥ — ٢٠ آكر) وكل آكر يساوي ٤٠٠٠م٢ .

لهذا كله كانت ايرلنده ، من الناحية الاقتصادية ، بعيدة كل البعد عن الحركة الزراعية التي جددت بريطانيا العظمى وقسماً من فرنسا في ذلك العهد .

واننا لنتساءل الآن ونقول ماهو رد فعل الايرلنديين حيال هذا النظام القاسي المفروض عليهم ؟

يعرف الشعب الايرلندي بأنه شعب ولود : ففي آخر القرن الثامن عشر كان في ايرلنده على وجه التقريب ٥ ملايين نسمة يعيشون في بؤس مريع . وقد وصف هذا الشقاء الانكليزيون المعاصرون أنفسهم ونخص بالذكر منهم سويفت في كتاب ظهر عام ١٧٢١ وعنوانه : « **نظرات موجزة عن حالة ايرلندة** » وفي كتاب آخر ظهر عام ١٧٢٩ عنوانه : « **اقتراحات متواضعة لمنع الفقراء أن يكونوا عالة على أهلهم وبلدهم** » وفيها يبين الكاتب أن وضع الايرلنديين « اردأ من وضع المتسولين في انكلترا » . ونشاهد الوصف نفسه عند **بورك** الذي مر ذكره سابقاً ، وعند **شسترفيلد** (١٦٩٤ — ١٧٧٣) فقد وصف الايرلنديين بأنهم كانوا في وضع أسوأ من العبيد وسماهم « شعب الارقاء المتسولين » . كما أن **آرثريانغ** (١٧٤١ — ١٨٢٠) الاقتصادي والمهندس الزراعي الانكليزي

وصفهم وصفاً مشابهاً في آخـــر القرن الثامن عشر وبين أن الايرلنديين يعيشون في أكواخ بائسة من الطين والتبن بدون أثاث ، ثيابهم رثة ، يعيشون في غرفة واحدة بجوار حيواناتهم ، عـدا عن أن المجاعات الرهيبة كانت تنتابهم من آن لآخر . فقد كانوا عرضة لأربـع مجاعات خـلال عشرين سنة في القرن الثامن عشر . ثم ان مجاعـة ١٨٤٠ — ١٨٤١ قضت على ٤٠٠٠٠٠ نسمة دفعة واحدة . وفي مقاطعة مونستر وحدها ذهب ثلث الفلاحـين .

وللتخلص من هذا البؤس كانت العناصر القوية من السكان تهاجر إلى انكلترا . إلا أنها لاتستطيـع أن تشتغل كعمال زراعيين في الارياف الانكليزية لانهم لايقبلون ؛ ولذا كانوا يذهبون الى المدن الصناعية الجديدة ويشتغلون عمالاً . وقد تجمعت منهم جاليات هامة في ليفربول ومانشستر . وكانت هذه الجاليات تتوالى بازدياد المدن الصناعية .

وكان الايرلنديون يهاجرون الى الخارج وينخرطون في سلك الجنـدية كمتطوعة بالاجرة في اسبانيا أو فرنسا . ففي فرنسا كان في الجيش الملـكي « **فرقة ايرلندية** » دائمة . ومنهم من ذهب واشتغل في خدمـة الجيش النمساوي . وكان هؤلاء الايرلنديون الذين ينزحون عن بلدهم يلقبون من قبل أبناء وطنهم بـ « **الاوزات الوحشية** » . ويقدر عدد الوفيات في جيش ملك فرنسا في القرن الثامن عشر بـ ٤٥٠٠٠٠ . وكان منهم بعض القادة من عائـلة لالي و ديللون . كذلك نجد في اسبانيا عائـلة اونيل و وول وفي النمسا نجد الجنرال نوجونت وعائلة لاسي من أصل ايرلندي .

ومن الايرلنديين أخيراً من كان يهاجر الى امريـكا .

أما الاثر النفسي لهذا البؤس فـكان مريعاً . فقد زاد في طابـع عدم المبالاة وعدم التبصر بالعواقب والانقياد المعروف عن الايرلنديين . لقد

كان الايرلنديون يتحملون هذا الشقاء برضى واستسلام عظيمين ويثقون بسادتهم ، حتى أنهم كانوا لايجرون عقوداً خطية في الايجارات . وهناك مثل انكليزي يقول : « ضع ايرلندياً على السفّود تجـــد دوماً ايرلندياً آخر يحركه » . وبهذا البؤس فقدوا كل كرامة وكل سلطة شخصية. وكان المثقفون منهم منهمكين في جوهم ، عاجزين عن أن يبدو أقل حراك. ومن الطبيعي في مثل هذه الحال أن ينظر إليهم الانكليز نظرة خاصة ويقولون فيهم ان لاسبيل للتفاهم مع الايرلنديين ، انهم اناس كذابون خائنون شرسو الطباع يحبون الانتقام ولا يمكن حكمهم وضبطهم . ومهما يكن من قول وأحكام جائرة في الايرلنديين ، فالحق يقال ، انهم كانوا على العكس ، ذوي قيم اخلاقية عالية ، ولكن الشقاء عضهم بنابه، وضربهم سوء الحظ ، وجار القدر الغاشم عليهم ورماهم بالجمود المعنوي فأعوزهم النشاط والنظام . ولكن كل هـــذا كان نتاج النظام الانكليزي ، الذي جعل منهم نفوساً متهدمة لايرفـع لها صوت ، ولا تبدي رد فعل قومي ، حتى انهم لم يشتركوا في الفتنة اليعقوبية التي قامت في القرن الثامن عشر ، وكان من الممكن ان تتيح لهم فرصة العصيان والتمرد .

إن الشي الوحيد الذي بقي للايرلنديين ويستطيعون به أن يدعموا عاطفة الاستقلال هو إيمانهم الديني . وذلك لأن النظام الانكليزي قد هدم كل شيء ولم يبق سوى الكنيسة والكهنة الذين يستطيعون أن يكونوا قادة وأدلاء. فقد بقي نظام الكنيسة الايرلندية على حاله كما في السابق قبـــل الفتح الانكليزي وكان يوجـد في ايرلنـدة ٢٦ أسقفية منها أربع كراسي رؤساء اسقفيات والف خورية (منصب الخوري) و ٩٠٠ خوري مساعد تقريباً . أما تسمية الاساقفة فكانت في فترةمن الزمن بيد آل ستوارت : جاك الثاني ، جاك ادوار ثم تشارلز ادوار ، وعندما توفي هـذا الاخير

وجب إيجاد طريقة أخرى للتسمية : وكانت قوائم المرشحين للأسقفية توضع من قبل اكليروس الاسقفية وباقي أساقفة ايرلنده وتعرض على البابا ليختار منها ما يريد .

أما الكنيسة الايرلندية فقد جردت من أموالها . ولكن المؤمنين كانوا يغذونها ويتعهدونها . بيد أنها كانت فقيرة في هذا البلد البائس . وكان متوسط وارد الاسقف في ايرلندة ٣٠٠ جنيه في السنة ؛ والكاهن من ٦٠ الى ٧٠ جنيه . ونظراً للتشريع القاسي السائد بقيت الكنيسة سرية . فلم يكن لها أبنية (كنائس) لان الكنيسة الانغليكانية استولت عليها . ولم يكن هنالك سوى قابلات (كنائس صغيرة) ، وكثيراً ما كانت هذه الكنائس أكواخاً حقيرة أو انباراً أو مخازن . ففي مدينة بلفاست كلها لم يكن سوى قابلة وحيدة كاثوليكية . ولم يكن هنالك مدارس اكليركية لتثقيف الكهان ، بل كانوا يذهبون للتحصيل في لوفن أو باريس أو دوويه أو سالامنكا في اسبانيا . وكانت كليات اللاهوت التي يؤمونها في الخارج غالباً متمسكة بالنظريات الغاليكانية ولذا كانت تعلمهم وجوب الطاعة إلى الحكومة والخضوع للمليك . ولم يكن الاكليروس الايرلندي ثورياً وكثيراً ما كانت الحكومة الانكليزية تتوجه اليه لاصلاح ذات البين وتهدئة النزاع . وكان موظف العدل يتوجه أحياناً إلى الخوري للبحث عن المجرم أو لمنع الفلاحين من القيام بالعصيان .

وكان الشعب مطيعاً للكاهن وخاضعاً له خضوعاً مطلقاً . ويعرف الايرلنديون في أوربة الغربية بايمانهم العميق . ولم يكن في ايرلنده حركة عقلية تعبد العقل وتطرح الدين جانباً . فالعرق السلتي (أو الكاتي) ينزع بطبعه إلى التصوف . ولذا بقي الايمان الديني الاساس الوحيد للعاطفة

القومية . والشكل الوحيد ، الذي يظهر الايرلنديون به وجودهم وكيانهم واستقلالهم تجاه الانكليز ، هو كونهم كاثوليكيين . وان جميع الاضطهادات التي لاقوها لم يكن منها إلا تقوية هذه العاطفة ، وهذه الغريزة الدينية التي كانت في الوقت نفسه غريزة قومية . ومن جهة أخرى كان الا كليروس وحده يتمتع بالتعليم ، لأن التعليم كان مغلقاً على الكاثوليك . وكان محظوراً تعليم اللغة الايرلندية وتعليم التاريخ الايرلندي والاناشد الايرلندية . وكانت في دوبلن جامعة اسمها « كلية الثالوث » أسست سنة ١٥٩١، إلا أنها أصبحت بكاملها انكليزية بروتستانتية . ومن الوجهة العملية لم يكن للايرلنديين ، لتثقيف الناشئة ، إلا مدارس تسمى « مدارس السياج » ويعلم فيها الكهنة أطفال القرية وتكون في الغالب أنباراً وأحياناً في الهواء الطلق . وفي أول القرن التاسع عشر ، بعد الاتحاد ، تأسست الجمعيات الدينية لتعليم الاطفال مثل « **جمعية الاخوة المسيحيين** » أو « أخوة القديس باتريك » .

يوجد إذاً هوية بين الكاثوليكية والعاطفة القومية ، وليس للعاطفة القومية من شكل آخر سوى هذا العناد الخلقي في المحافظة على التقاليد الدينية . وليس لهذه العاطفة سياسة بعد ، وليس لها شعور . وكل ما في الامر أن هذا الايمان الديني كان قوياً ومستحكماً ، وأن جميع الجهود التي بذلها رجال « **فرقة الاصوليين** » الانكليز لدى الايرلنديين، ليردوهم عن دينهم ويعتنقوا البروتستانتية ديناً ، قد أخفقت ، حتى أن زعيم الاصوليين **ويزليه** ركب البحر سبع عشرة مرة ليبشر في ايرلنده دون أن يظفر أو ينجح مرة واحدة .

ومع هذا كله ، ورغم البؤس الشديد ، الذي يحول دون أي رد فعل واع من قبل الايرلنديين ضد الانكليز ، فاننا نرى في السنوات الاخيرة

التي سبقت الثورة الفرنسية ، أن شـــدة البؤس سببت حركات شديدة ومقاومة : فبين ١٧٦٠ و ١٧٧٠ تشكلت عصابات الفلاحين التي تسمى « الفتيان البيض » ، باسم الاردية البيضاء التي كانوا يضعونها فوق ملابسهم ، وأخذت تقوم بأعمال الاغتيال والقتل في الأرياف . وهذه الحركة كانت بمثابة انتقام من الامراء الملاكين ، وكان الفلاحون يهاجمون القطعان أو الخدم أو المزارعين التابعين لهم . ولم تكن هذه الحركات سوى ثورات متفرقة منعزلة نشأت على اثر حركة تسوير الحقول التي كثرت في ايرلنده كما في انكلترا .

وهنالك عصابات مشابهة تشكلت بعـد ١٧٧٠ على اثر المشاكل التي تخبطت فيها انكلترا في ذلك العهـد مع امريكا ، حتى ان المثل السائر كان يقول « إن مشاكل انكلترا كانت لحسن حظ ايرلنده » .

لقد ساعد عصيان امريكا الايرلنديين على انتزاع بعض الامتيازات من الانكليز . وكان له في ايرلنده نتيجتان :

الاولى : اتساع حركة العصيان في ايرلنده ، فقد كثرت الرابطات والعصابات مثل « عصابة الفتيان البيض » و « عصابة الحماة » و « فتيان الحق » . منذ العام ١٧٨٥ و « **فتيان غابة البلوط** » .

ومن هذه الرابطات رابطات دينية غايتها حماية الدين ، وأخرى ضد الضرائب المحلية ، ضد ضريبة العشر بخاصة ؛ وغيرها لأجل تحديد سعر الأجار وبقاء قطع الارض بأيدي الفلاحين . وفي الشمال أيضاً تشكلت حركات رابطات وعمل مباشر ، مثل رابطات « القلب الفولاذي » عـام ١٧٧٢ و ١٧٧٣ ، التي كانت رابطات فلاحـين مشيخيين وديموقراطيـين تناضل ضد الملاك الكبير الانغليكاني . ولكن هـــذه الحركات كانت

حركات مطاليب اجتماعية من آناس تعساء دون أن يكون لها أي طابع قومي وسياسي .

الثانية : إلى جانب هذه الحركة العصيانية الغريزية احدثت حركة عصيان الولايات المتحدة حركة مطاليب سياسية في العالم البروتستانتي في ايرلنده . . فقد كان الملاكون أو التجار البروتستانتيون في ايرلنده يضيقون ذرعاً ، في نموهم الاقتصادي ، بالقوانين الانكليزية . ومن جهة أخرى كان « المشيخيون » مبعدين عن الوظائف العامة بقانون تيست وبحالة مماثلة لحالة الامريكيين الذين يريدون الدفاع عن حقوقهم كمواطنين انكليز ضد الحكومة ؛ وقد ألفوا على غرار الاميركيين فرقة أهلية للدفاع عن الجزيرة وتضم ٤٠٠٠٠ متطوع تقريباً وباشروا في الوقت نفسه بحركة تهديد للتجار الانكليز في ايرلنده . وبفضل قوة هؤلاء المتطوعين وهذه الحركة المتضافرة الجهود استطاعوا ان يرفعوا صوتهم عالياً ويحصلوا من انكلترا على امتيازات . ولكن هذه الحركة ليست حركة قومية لأن هؤلاء الايرلنديين البروتستانتيين الذين يطالبون الحكومة الانكليزية لم يكونوا انفصاليين ؛ ومن جهة اخرى، ان هؤلاء البروتستانتيين باعتبارهم مشيخيين كانوا ملكيين أي انصاراً للتاج البريطاني . ولذا وجب الا ينظر في هذه الحركة التي قامت في السنوات الاخيرة من القرن الثامن عشر في ايرلنده ، إلى شيء يسمى قومياً .

وفي سنة ١٧٧٩ قامت الحركات من برلمان وستمنستر لالغاء المحظورات التجارية التي كانت تعتبر ايرلنده مستعمرة : فمن ذلك ان الايرلنديين حصلوا على حرية تصدير الصوف نحو القارة الاوربية . وفي عام ١٧٨١ حصلوا على الضمان الذي يحمي الحرية الفردية من الاستبداد . وفي عام ١٧٨٢ حصلوا على الاستقلال التشريعي للبرلمان الايرلندي الا حق الرفض

الذي يتعلق بالتاج البريطاني ضد مشاريع القوانين . وعلى هذا الشكل حصل بروتستانتيو ايرلنده من برلمان انكلترا على نوع من التشريع الذاتي لصالح البرلمان الايرلندي .

ورغم ان هذه الحركة كانت بروتستانتية الا ان الكاثوليك أفادوا منها. وكان زعيم البرلمان غراتان ، الذي قاد هذه الحملة ، يناضل في سبيل اتحاد الايرلنديين جميعهم ليكونوا كتلة واحدة أمام الانكليز ويقول عن نفسه انه يخجل من الحصول على حرية ٦٠٠٠٠٠ نسمة بينما كان بامكانه الحصول عليها من أجل مليونين . فهو يفضل اذن الاتحاد مع الكاثوليك ليكون للحركة تأثير اكبر . وبفضل هـــذا الموقف الذي وقفه استفاد الكاثوليك من بعض الامتيازات :

من ذلك ان بعض القوانين الجزائية التي كانت تثقل عليهم قد خففت ولطفت . وفي عام ١٧٧٨ منحوا المساواة في الارث وفي اجار الارض . وفي عام ١٧٨٢ اعترفت الحكومة لهم بحرية العبادة والتعليم .

وإذا تنازل البرلمان الايرلندي بهذه الامتيازات للكاثوليك فذلك لأن حركة في الرأي العام بدأت تظهر عند البروتستانت : فمن ذلك ان كاتبين انكليزيي اللغة ايرلنديي الولادة رغم انهما بروتستانتيان صورا وضع ايرلنده تصويراً يلفت نظر الرأي العام .

هذان الكاتبان هما **سويفت** الساخر الذي مات عام ١٧٤٥ و**بركلي** الفيلسوف الذي توفي عام ١٧٥٣ .

وكذلك قام **وود** و **لوكاس** الايرلنديان من حزب الهويغ ، في البرلمان الانكليزي ، على سدة البرلمان بحملة ضد القهر والعسف الذي ترزح تحتها ايرلنده .

وقبيل آخر القرن الثامن عشر قام **بورك** ، الذي دخل البرلمان عام

١٧٦٥ ، وغواتان الايرلندي ، الذي ترأس الحركة البروتستانتية ، يعرفان الرأي العام ، عند حد تعبير غراتان ، بأن ايرلنده البروتستانتية لاتكون حرة مادامت ايرلده الكاثوليكية قنة ، وه ما دامت ايرلنده قنة فستبقى متمردة » ولذا فان مصلحة الانكليز والبروتستانتيين في ايرلنده ان يلطفوا وضع الكاثوليك .

وهكذا نرى ان عناصر القومية قد تجمعت في ايرلنده . ولكن هذه القومية ينقصها الشعور والمطالبة الصريحة العلنية بوجودها وكيانها . وليس لدى الايرلنديين بعد سوى عاطفة الشقاء والبؤس والألم ، هذه العاطفة التي تريهم اختلافهم عن الانكليز . إن شقاءهم كان عظيماً جداً فلم يشعروا به ويقوموا بأي عمـــل . وليس لديهم ارادة مشتركة جماعية . لقد فقد الايرلنديون كل عاطفة بعظمتهم الماضية ومدنيتهم التقليدية التي كانت وضاءة قبل فتح الانغلوساكسون ، ولم يبق لديهم إلا عاطفة أليمة تحز في نفوسهم من الفرق الكائن بينهم وبين الانكليز الذين يضطهدونهم ويقسون عليهم .

هذه هي الأمم التي نرى لهـــا وجوداً ، ولكن دون أن ترتفع إلى فكرة القوميـة في القرن الثامن عشر . ومن دراسة هـذه الأمم الأربعة الموجودة بحيز القوة دون ان تنفذ بعد إلى حيز الفعل نستخلص بعض الملاحظات :

نرى أن كل قومية من هذه القوميات الأربع ، التي مرت معنا : بولونيا ، هونغاريا ، اليونان ، ايرلنده ، تؤلف فردية تاريخية لأننا نجد وحدة مقدرات تاريخية تربط اعضاء هذه الأمم بعضهم ببعض .

ونجد بعض الاختلاف : ففي بولونيا وهونغاريا نرى أن سواد الشعب لا يشترك في حياة الدولة وفي تاريخ الأمة . لأن كل شيء كان يمر فوقه فلا يشعر بأنه مسه . واذا وجدت قومية فهذه القومية لاتوجد إلا عند بعض الطبقات العليا دون ان تنفذ إلى سواد الشعب . وهذا عكس ما نراه في اليونان وايرلنده لأننا نجد هنا ان السواد هو شخص هذه الحياة الجماعية المشتركة ، هذه الحياة التاريخية .

وليس في هذين البلدين ارستقراطيـة او طبقـة ممتازة . فالانظمة الموجودة والتي ستتشكل في المستقبل خاصة من اجل القومية خرجت من هذا السواد نفسه . وهذا ما يحملنا على التفكير بان فكرة القومية ستستيقظ تحت مؤثرات مختلفة في كلا الفريقين .

ونلاحظ شيئاً آخر : وهو ان القوميات لم تظهر بعد بشكل واضح ولم تشعر بنفسها جلياً . إلا ان هنالك عاطفة عميقة تصل احياناً لدرجة الألم كما في ايرلنده ، وهي عاطفة الاختلاف عن الكيان السياسي الذي يسود هذه الكتل . انها تشعر بانها مباينة للدولة التي تشملها وذلك لعدة عوامل : كالعوامل الدينية في اليونان ، حيث نجد الارثوذكس يختلفون عن سادتهم المسلمين . أو في ايرلنده ، حيث نجد الكاثوليك مضطهدين من قبل البروتستانت الانغليكان . وفي هونغاريا نجد العوامل في اللغة والدور السياسي . وفي بولونيا الكفاح ضد الغاصب . وهذه العواطف ترافقها عاطفة الاختلاف في العرق مع القاهر الفاتح . لذا يوجد ، في هذه القوميات التي لم تشعر بعد بذاتها ، عنصران متحدان : عنصر بشري تاريخي ، وعنصر طبيعي وراثي . وهذا الحادثان نشاهدهما دوماً في حركة القوميات .

الفصل الثالث

الثورة الفرنسية والقوميات الاوربية

لقد عرفت اوربة من ١٧٩٢ إلى ١٨١٥ دوراً مليئاً بالتقلبات لم تر في التاريخ له مثيلا ، لأن هذه التقلبات شملت القارة الأوربية والحالة السياسية ، وظهرت بمظهر حديث . فقد نشبت الثورة الفرنسية وقامت بعدها الامبراطورية النابوليونية ، ولم تقتصرا على القضايا السياسية فحسب، بل جاءتا بشيء جديد وهو دخول العنصر الفكري في التاريخ . لقد وضعت الثورة الفرنسية على بساط البحث والمناقشة أسس الحق العام وقواعد المجتمع الأوربي . ولا يقصد من هذه التغيرات،التي حولت اوربة، الترتيبات السياسية التي يتخذها رجال الدولة وما يرافق هذه القضايا من ملابسات ،، بل يقصد شيء آخر ، وهو فلسفة المجتمع والحق العام، التي تناهض غيرها ، أي ان هنالك فلسفة تناقض فلسفة أخرى .

ولم تكن الثورة حركة حوادث تجري بل حركة أفكار أيضاً . حقاً لقد هدأت العاصفة بعد هذه الحوادث ، وجنحت أوربة للسلم ، ولكنها تركت آثارها في التغيرات التي طرأت على الدول الأوربية ، والقت ببزورها في الشعوب وسيمر على هذه البزور الوقت الكافي لتنضج وتحدث بدورها تبدلات أخرى .

ولقد ظهر أثر هذه البزور في الحقل السياسي بحركة القوميات التي اتسعت في أوربة بعد العام ١٨١٥ .

لقد تم تاريخ هذه الحوادث المختلفة في عهدين : عهد الثورة وعهد الامبراطورية . على أن هنالك بعض المؤرخين يقولون ان الامبراطورية ليست إلا تتمة للثورة وشكلاً جديداً لها . ولكن هذين الدورين يختلفان عن بعضهما اختلافاً عميقاً ، كما يختلفان بالتأثير الذي أجراه كل منهما . ولذا نرى أن ندرس كلاً منهما الواحد تلو الآخر . وسندرس أولاً مذهب الثورة وسياستها والآثار التي احدثتها مقتصرين في ذلك على الناحية التي تهمنا من وجهة نظر الحركات القومية في أوربة .

مذهب الثورة وسياستها

لقد زعمت الثورة أنها تنيب الحق والعقل مقام القوة . وهذا هو العنصر الفكري الجديد الذي أتت به . وفي الحقيقة ان للثورة صفة عالمية ، لأن نظريتها تطبق على جميع الناس لا على الفرنسيين وحدهم ، حتى الكاتب الفرنسي ماليه دوبان كتب في عام ١٧٩٣ : « ان الثورة عالمية وليست خاصة بالفرنسيين » .

ماهي الافكار الفرنسية التي قلبت قواعد الحق العام الأوربي ؟

لقد جعلت الثورة من مذهب روسّو ، الذي سبق لنا أن درسناه ، برنامجاً سياسياً ، لأنها لم تقتصر على المناداة بحقوق الانسان والقوميات ، بل شنتها حرباً ضروساً في الدفاع عن الحرية وحق الشعوب ودعمت هذه الحرب بحركة دعاية . ولقد كان كثير من الكتاب والناشرين ، في عهد الثورة ، من أمثال كاميل دي مولان ومارا ولينغه ، يطالبون منذ ١٧٩١ ، بتدخل فرنسا لصالح شعوب أوربة . وعندما الف الجيروندبون حزبهم جعلوا من أسسه الكفاح في سبيل الحرية والدعاية للأفكار الفرنسية في أوربة . وعندما اثيرت قضية الالزاس بين الأمراء الالمان والامبراطورية

الجرمانية الرومانية المقدسة من جهة ، وفرنسا من جهة اخرى ، أرسل بريسُّو باسم اللجنة الدبلوماسية تعليماته في ٢٢ تشرين الثاني ١٧٩١ إلى ممثلي فرنسا في الخارج وفيها يقول :

« قولوا إلى الدول الأجنبية اننا نأخذ على أنفسنا عهداً دينياً بأننا لانبغي أي فتح ، واننا نحترم قوانينها ودساتيرها ، وإن كل مانريد هو أن يكون قانوننا محترماً . قولوا لها ان امراء المانيا إذا استمروا في تنشيط تعبئتهم ضد فرنسا فلن نحمل اليهم الحديد واللهب بل الحرية . وما عليهم الا ان يقدروا كيف يمكن ان تكون عواقب يقظة الأمم » .

وفي ٢٩ تشرين الثاني ١٧٩١صرح ايسنار، أحد كبار زعماء الجيروندين على منصة الجمعية التشريعية ، بقوله :

« لنقل الى أوربة إذا حضت الحكومات الملوك على حرب الشعوب فسنحض الشعوب على حرب الطغاة. وعندئذ تتعانق الشعوب أمام الطغاة المعزولين ، وقد تعزت الأرض وقرت عين السماء » .

وعندما أعلنت الثورة الحرب في ٢٩ تشرين الثاني ١٧٩١ على ملك بوهيميا وهونغاريا كان نص القرار الذي اتخذته يقول : « ان الثورة الفرنسية لا تساند حرب أمة لأمة بل تدافع عن حريتها ضد عدوان الملك الأثيم » . وفي اليوم نفسه صرح **كوندورسه** أمام المجلس باسم اللجنة الدبلوماسية التي جنحت إلى الحرب بما يلي :

« إن لكل أمة الحق وحدها في أن تسن قوانينها بنفسها ، كما لها الحق في تبديل هذه القوانين ، وان من يسلب هذا الحق من شعب أجنبي بالقوة انما يعلن عن عدم احترام هذا الحق عند الشعب الذي ينتمي اليه . وهذا يعني خيانة الوطن وعداء الجنس البشري » .

وقد وفق الثوريون بين منهبهم السلمي ، كما يظهر في دستور ١٧٩١، وهذه الحرب التي دخلوها على أساس فكرتهم التي عبروا عنها في هذه العبارة : « حرب على الملوك وسلام على الأمم » .

ثم انهم خطوا خطوة حاسمة : ففي آخر العام ١٧٩٢ انعقد المؤتمر الوطني واتخذ قراراً في ١٩ تشرين الثاني باسم الأمة الفرنسية وهو : « انها تقدم اخاءها ونجدتها لجميع الشعوب التي تريد استرداد حريتها وتكلف السلطة التنفيذية باعطاء القادة الأوامر الضرورية لنجدة الشعوب وحماية المواطنين الذين ينالهم أذى بسبب الحرية » .

وعلى هذا فالثورة الفرنسية تدعو الشعوب للقيام والسعي في توطيد حريتها وتعدها بالمساعدة ، وتوضح بأن هذه السياسة لا تؤدي إلى أي فتح وأنها ليست تدخلاً في شؤون الغير . وكذلك القرار الذي صوت عليه في ١٣ نيسان عام ١٧٩٣ بناءً على اقتراح **دانتون** يصرح : « ان الجمهورية لاتتدخل بشكل من الاشكال في حكم الدول الأخرى » ولقد عبر بوضوح عن نداء الشعوب إلى الحرية والقومية ونظرية احترام حق الشعوب في التعليمات التي أرسلها كارنو باسم اللجنة الدبلوماسية بشأن البلاد التي يمكن ضمها إلى فرنسا : « يجب الا يخول الانضمام إلى فرنسا الا الى البلدان التي تطلبه عن رغبة وحرية ، لان السيادة خاصة بجميع الشعوب ، ولا يمكن أن يكون هنالك وحدة أو اتحاد الا بموجب عقد صريح يجري بملء الحرية ، وليس لشعب الحق في اخضاع شعب آخر إلى قوانين عامة مشتركة دون رضاه الصريح » ثم يصرح : « ان مبدأنا هو ان كل شعب ، مهما كانت الأرض التي يقطنها ضيقة ، سيد شؤونه في بلده وانه مساو ، في الحق ، لاكبر الشعوب ، وليس لاحد أن يعتدي على استقلاله بصورة شرعية ». وهذا التصريح توكيد علني لمذهب وسياسة مثاليين .

هذا هو الصوت الذي تسمعه شعوب أوربة عندما تصيخ بسمعها اليه وهو الذي تتمسك به وتحفظه .

وهكذا عارضت الثورة ترتيبات القوة والمنافع ، التي تلابس سياسة الحكومات ، بمذهب جديد . وفي الوقت الذي كانت تدعم فيه مذهب حق الشعوب كانت الحكومات من جهة ثانية تظهر بوضوح انها حريصة على حقها القديم ، أمينة له ، لأنها كانت آنذاك تقوم بتقسيم بولونيا للمرة الثانية . لقد القت الثورة أمام سياسة الحكومات بنوعٍ من انجيل جديد عندما مزجت أفكار الحرية والقومية . ولقد طبقت الثورة ، في الانضمامات التي أجرتها ، هذا الحق الذي دل عليه كارنو ، وهو حق الشعب في ان يقبل اولا يقبل هذا التحويل . وباسم هذا المبدأ دعيت الشعوب التي حملت عليها جنود الجمهورية إلى التصويت على مقداراتها . وبفضل هذا التصويت ضمت مقاطعة السافوا . فعلى ٦٥٨ مدينة أعلنت ٥٨٣ مدينة انضمامها إلى فرنسا في ٢١ تشرين الأول ١٧٩٢ . وفي اليوم نفسه أجري استفتاء في نيس . وأعلنت ليبج في ١٦ كانون الثاني ١٧٩٣ انضمامها إلى فرنسا بـ ١١٠٠٠ صوت ضد ٤٠ صوتاً . وفي بلجيكا انعقد نوع من مجلس في شهر آذار لنفس النتيجة . وفي الضفة اليسرى لنهر الراين أجريت استفتاءات في المدن واستشارات في المجالس البلدية ، وانعقد مؤتمر ريناني في ٢١ آذار ١٧٩٣ وصوت على الانضمام إلى فرنسا . وكذلك طلبت مونبليار انضمامها في شباط ١٧٩٤ .

ولكن هذا المذهب المثالي ما لبث ان انحرف ، لأن الفكرة ايقظت في فرنسا الأهواء القومية وأهواء العظمة ، ومن جهة ثانية ، وجدت المثالية الثورية أمام مشاكل واضحة وضوحاً حسياً مثل : مشكلة ادارة الأراضي المحتلة ، ومشكلة التموين ، ومشكلة الدفاع . ثم ان الشروط

العسكرية تبدلت ، وبتبدلها وضعت مشاكل جديدة ، حتى ان ما كان في الأصل نضالاً فكرياً أصبح بالتدريج بعثاً ويقظة لتقاليد النظام القديم في السياسة الخارجية تحت غطاء النظرية الجديدة في حق الشعوب . ففي استشارات السكان ، التي سبقت ضم بلجيكا والضفة اليسرى لنهر الراين ، وجدت طرق كانت مدعاة للاعتراض عليها والطعن فيها . وفي بعض الأحيان كانت تدبر نتائج الاستشارات بمهارة ، وفي بعض الأمكنة كانت هذه الاستشارات في الحقيقة عبارة عن تصويت أقليات ولم تكن تصويت السكان جميعاً كما كان واقع الحال في الضفة اليسرى لنهر الراين وفي بلجيكا .

وفي بدء العام ١٧٩٤ سجلت مرحلة ثانية في قيام نظرية الحدود الطبيعية التي تقوم مقام المسلمات التاريخية التي بحث فيها في القرن الثامن عشر ، والتي تجعل فرنسا القديمة منطبقة على ما يسمى « غاليا » وبالتالي على حدود غاليا الرومانية التي تقف عند نهر الراين . وكان دانتون أول من قال بنظرية الحدود الطبيعية بصورة واضحة عندما صرح في ٣١ كانون الثاني ١٧٩٣ على المنبر بقوله : « لقد عينت الطبيعة حدود الجمهورية وسنصل اليها في جهاتها الأربع : الى المحيط ، والى شمال الراين ، والى الالب ، والى البيرينه . فالى هذه النقاط يجب ان تنتهي حدود جمهوريتنا ، وليس لأي دولة بشرية ان تمنعنا من الوصول اليها » .

وعاد البحث في نظرية الحدود الطبيعية خلال عام ١٧٩٤ و ١٧٩٥ في الخطب والمذكرات والكراريس التي كثرت خاصة بعد الثورة الترميدورية (ثورة ٢٧ تموز ١٧٩٤ التي تطابق ٩ ترميدور وكان منها سقوط روبسبير واستلام المعتدلين السلطة) .

ولكن نظرية الحدود الطبيعية غير نظرية حق الشعوب . ففي بدء

العام ١٧٩٥ ظهرت فكرة ثانية ، وربما كانت انحرافاً للنظريات الاولى ، وهي فكرة سلامة البلاد . ولقد وسع كامباسيريس هذه الفكرة على المنبر في ٥ آذار ١٧٩٥ بقوله :

« يجب ارجاع أوربة الى قواعد العدالة دون الاعتداء على حق الشعوب . حقاً ان السلم يجب أن يبيد بزور الحروب في المستقبل ، وان الجمهورية توجد مجاورة في الشمال الى ممتلكات أجنبية ، ولا شك أن حدود هذه الممتلكات وتحاسد الدول كانت سبباً في حروب عديدة على ممر العصور ، ولكنكم ترون ان نصائح الطبيعة وتجربة العصور لاتطلب إلا أن ترسموا بيد مطمئنة حدود الجمهورية » . وهكذا ظهرت فكرة تأمين سلامة فرنسا بحدود جيدة . وقد لخص **دوبوا دوكرانسيه** وزير الحربية في الدير كتوار في اليوم نفسه جميع النظريات التي رأيناها في هذه العبارة : « إن الطبيعة ورغبة الشعوب ومصلحة الجمهورية تتطلب من بلاد الضفة اليسرى لنهر الراين أن تبقى الى الابد مفتوحة للحرية » .

ووجه الأب سيس الى لجنة السلام العام في نيسان ١٧٩٥ مشروع معاهدة صلح يتناول نفس الحجج التي تؤمن الى فرنسا حدوداً طبيعية وتحافظ على سلامتها ، وهي نفس الافكار التي أوحت بالتعليمات التي أرسلها بارتلمي و ريناز رجل الدولة وكامباسيريس باسم المؤتمر الوطني في كانون الثاني ١٧٩٥ الى السفراء .

وان معاهدتي بال اللتين عقدتا بين فرنسا من جهة ، وبروسيا واسبانيا من جهة ثانية ، ومعاهدة لاهاي التي عقدت مع هولنده ، تنص على ضم بلجيكا والضفة اليسرى لنهر الراين الى فرنسا . وهذه الدول الثلاث ، مع فرنسا في ذلك التاريخ ، تعترف إذاً بممتلكات الجمهورية . ولتبرير معاهدتي بال أمام المجلس قام كل من كارنو و روبرجو وهو كاهن قديم ،

ومفاوض ماهر في المؤتمر الوطني وبواسي دانغلاس في شهر فانديميير (تشرين الاول) بتوسيع هذه النظريات في سلامة فرنسا وحدودها الطبيعية وفي حق الشعوب .

هذه هي الظاهرة الحقيقية لهجر النظرية البدائية . ان مايجول في فكر المؤتمرين (رجال المؤتمر الوطني) هو أن الصلح مع بروسيا ليس سوى واسطة لمواصلة الحرب ضد النمسا ، وان هذه الحرب يجب ان تحرر المانيا من ضغط النمسا . ونحن نجد في التعليمات التي ارسلت الى بارتلي العضو المفاوض في معاهدة بال في ١٥ كانون الثاني ١٧٩٥ مايلي : « لقد حان الوقت الذي تتخلص فيه المانيا من ضغط النمسا ، وان طموحها ، الذي ظل طوال ثلاثة قرون آفة اوربة يجب أن يكف عن تعكير صفوها وراحتها » .

وكتب الأب سيس في مذكرته عن الصلح : ان العدوين اللدودين، اللذين يجب أن تتغلب عليها فرنسا لتؤمن كيانها ، هما انكلترا وروسيا « عدوتي حق الأمم » . وللوصول الى هذه الغاية يمتدح سيس اعادة بناء المانيا على أسس حرة بشكل جمهوري . وبفضل هذا النظام تكف يد انكلترا ويتطلع نظر بروسيا والنمسا نحو الشرق لتشكيل الطليعة، الحصن، الذي ترد به أوربة هجوم الروس .

والمرحلة الأخيرة لهذا الانحراف هو ان حكومة الادارة (الديركتوار) سلكت سياسة واقعية تماماً ، سياسة المصلحة الصرفة وسياسة الحرب والشدة التي كانت غايتها تغذية ماليـة الدولة (الخزينة) بالفتوحات وتعهد اعاشة الجيش التي لاتملك واسطة إليها بسبب الأزمة المالية . وكانت هذه السياسة في سبيل غايات قومية وسياسية . فقد كان القصد منهـا المحافظة على الضفة اليسرى لنهر الراين وعلى بلجيكا ، وتأمين سلامة فرنسا وذلك بخلق مايسمى قديماً « الشوارع العسكرية » أي « الجمهوريات الشقيقة : هولندا سويسرا وقسم عظيم من ايطاليا ، التي تؤلف حول فرنسا وراء الحدود .

ومع هذا فان سياسة الدير كتوار ليست مناقضة تماماً الى مذهب الثورة لأن ما كسبته من بلجيكا والضفة اليسرى لنهر الراين يستند على استشارة الشعوب وتحويـــل هولندا الى **الجمهورية الباتافية** وهي جمهورية شقيقة للجمهورية الفرنسية وعلى طراز الدير كتوار أوجدها الهولنديون انفسهم . ولكن سياسة الدير كتوار كانت بعيدة عن هذه السياسة المثالية التي نادت بها الجمعية التأسيسية والتشريعية وبدء المؤتمر الوطني ؛ وأبعد منها كانت السياسة التي سلكها بونابرت في معاهـــدة كمبو ـ فورميو (تشرين الأول ١٧٩٧) .

وهذا الانحراف في السياسة الفرنسية هام من ناحية الفكرة ، وذلك لأنه يبين لنا ان فكرة الحرية والقوميـة لايمكن أن تبقى فكرة محضة ومذهباً صرفاً . فهي تتبدل وتنحرف بتماسها مع الواقـع . ومن الضروري الا تبقى في حيز التفكير المحض ، بـــل يجب الاهتمام ببعض العناصر المشخصة المحسوسة : كالعنـاصر الجغرافية والستراتيجيـة والاقتصادية ، وبالعناصر السياسية كقوة النظام الداخلي للدولة والتوازن الدولي . وعند المرور من النظر الى العمل يظهر أن الأشياء تصبح أقل بساطة مما تصورها المذهب ، وان مبدأ القوميات يمكن أن يكون قناعاً يخفي تحته الغرائز والارادات التي لاتكون في الغالب مثالية أو حرة ، ومن الممكن أن يكون شعوراً بالشخصية القوميـــة وارادة في التوسع تحت غطاء الفكرة القومية . وقد قامت الثورة الفرنسية بهذه التجربة التاريخية بنفسها ، كما سنرى ، في القرن التاسع عشر .

اثر مذهب الثورة في البلدان المجاورة

الواقع أن مذهب الثورة لم يبق في فرنسا بل انتشر في الخارج سواءً بتوسع الفكرة المحضة ام بالنتائج السياسية التي سببتها حرب الثورة. ومن الممكن أن يقال إن الثورة ادخلت عنصراً تفجيرياً في الحق العام وفي السياسة العامة وقلبت النظم القائمة في سياسة العصر . الا أن تأثيرها كان يختلف تبعاً للأوساط التي دخلت فيها : فهنالك بلدان وجدت مشمولة بترتيبات السياسة الفرنسية وهي البلدان المجاورة لفرنسا مثل ايطاليا وسويسرا والمانيا الرينانية . لقد وقعت الحرب في هذه البلاد وبدلت ظروفها السياسية .

ايطاليا . — بدأ التوسع الفرنسي في ايطاليا منذ عهد حكومة الادارة (الديركتوار) وأدت سياسة هذه الحكومة ونضالها العسكري ضد النمسا الى تعكير صفو ايطاليا . لقد عاشت هذه في النصف الثاني من القرن الثامن عشر عهداً سعيداً يعتبر بحق من أسعد وأهدأ عهودها التاريخية . فقد كان السلام يخيم عليها منذ معاهدة ايكس — لا — شابل ١٧٤٨ . لقد قسمت ايطاليا حينذاك الى عشر دول مختلفة لاتربطها رابطة سياسية . ولكن هذه الدول ، وإن اختلفت من حيث الشكل الظاهري للنظام السياسي ، كانت متفقة في المفاهيم . فقد خضعت جميعاً لنظام استبدادي يعتمد اجتماعياً على تسلسل الطبقات الاجتماعية ، وفكرياً على التكيف الفكري الذي يحافظ عليه بواسطة الكنيسة والمدارس والجامعات والاكاديميات ، وإذا مست الحاجة بواسطة السياسة . ولقد أوجد هذا النظام في مختلف الدول الايطالية الهدوء والنظام . وظهر أن عهود الفوضى التي عرفتها ايطاليا ، كعصر النهضة ، قد مضت ، لأن كل ما فيها يتراءى

أنه سائر ضمن بانتظام . ومن جهة ثانية **كانت ايطاليا غنية جداً** . وغنى ايطاليا في القرن الثامن عشر ناشيء عن تحسين طرق استثمار الارض سواء باتباع الزراعات على الأرصفة والمصاطب ، كما في شبه الجزيرة ، أم باتباع طرق الري ، التي وضعها لؤنار دو فانتشي ، كما في سهل البو . يضاف الى ذلك أن هذه الثروة الايطالية كانت ناجمة عن تراكم الرفاه والوفرة منذ ثلاثة قرون . ويرى هذا الغنى في ايطاليا بشكلين : **رؤوس الأموال** من جهة ، **والآثار الفنية** من جهة أخرى ، وهذه الآثار كانت تملأ الكنائس والمنازل الخاصة وقصور الأمراء ، فضلاً عن الأموال التي كانت تجبى من البلاد الكاثوليكية وتكدس في الكنيسة . وكانت هذه الثروة لصالح طبقة مختارة مؤلفة من الطبقة النبيلة والاكليروس وبوروقراطية الأمراء .

أما **الصناعة** فكانت ضعيفة ولا تشتغل ألا لسد الحاجات المحلية وأغراض الزينة . وكانت التجارة في حالة انحطاط بالنسبة الى ما كانت عليه في القديم . ومع هذا فإن الصناعة والتجارة ، وإن لم تكونا مزدهرتين كما في القرون الوسطى ، كانتا كافيتين لإعاشة الصناع والفلاحين دون كبير عناء ، ولا يشاهد في الطبقات الدنيا للشعب الايطالي فكرة تمرد او عصيان .

وأخيراً تظهر لنا ايطاليا بلداً ذا قيمة فكرية وعقل تقدمي . ففي القرن الثامن عشر وجدت في ايطاليا مدرسة علمية اشتهرت بعلمائها مثل سباللانزاني العالم في البيولوجيا (علم الحياة) وفولتا الفيزيائي . ومن هذه المدرسة خرجت حركة مزدوجة : فمن الوجهة الفكرية نرى المؤرخين **موراتوري وفيتشه** وفئة من النقاد والمؤرخين في الآداب مثل بتينيلي والغاروتي **وغوزي** ؛ ومدرسة الحقوقيين والاقتصاديين مثل **الأب غالياني وفيلان جييري** وخاصة **بسكاريا** . وبتأثير هؤلاء الاقتصاديين بدأ سادة أوربة

بتبديل القانون كما فعل جوزيف الثاني في ايطاليا الشمالية ، وخاصة ليؤبولد دوق توسكانه الأكبر ، وتعتبر قوانينه المسماة « القوانين الليؤبولدية» اكثر القوانين تقدماً من وجهة النظر الحقوقية والاجتماعية في كل أوربة

ومن جهة اخرى ، كانت في ايطاليا آداب راقية ومن أشهر مؤلفيها **كارلو غولدوني** (١٧٠٣ - ١٧٩٣) مؤلف الالاهي (كوميديات) والشاعر جيوسيب باريني (١٧٢٩ - ١٧٨٠) والفييري مؤلف المآسي (تراجيديات) الذي توفي عام ١٨٠٣ . وكان هؤلاء المؤلفون يعيشون في عهد الثورة الفرنسية وماتوا في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر .

كانت هذه الحركة الفكرية الايطالية على اتصال بالتفكير الفرنسي ، وكانت في الوقت ذاته عالمية ولها شخصيتها الايطالية الخاصة المتمثلة في وحدة روحية وفكرية معاً. واذا كان الفييري من بيمونت فقد أصبح ايطالياً وخرج عن بيمونتيته . وكان هؤلاء المفكرون ينزعون إلى تبني فكرة الحرية التي اتتهم عن طريق الفلاسفة الفرنسيين ، ولم يكن في ايطاليا قومية ايطالية بعد ، ولكن هؤلاء المفكرين كانوا يتكلمون عن **الوطن** حتى ان الفييري كان بالنسبة اليهم اكبر شاعر وطني حر .

وهكذا تظهر لنا ايطاليا ، في آخر القرن الثامن عشر ، زهرة فواحة لهذه الحضارة النقية الناعمة والارستقراطية التي تعتمد على أساس من الثروة الفنية لم تنقطع منذ عصر النهضة . بيد ان هذه البيئة الرقيقة الشفافة ، على ما فيها من جمال ، لا تلبث ان تنهار أمام اول صدمة تأتيها من الخارج ، ولا سيما اذا كانت الصدمة منبعثة عن قوة تهديم عظيمة . وهذا ما جرى فعلاً بعد ان دخلت الثورة الفرنسية ايطاليا .

ان دخول الفرنسيين ايطاليا ضرب حضارتها ضربة قاضية ، لأن الثورة الفرنسية احدثت فيها انهياراً هائلاً . فمن الوجهة السياسية والأرضية كانت

ايطاليا عرضة لغارتين فرنسيتين في ايطاليـا الشمالية : الاولى من ١٧٩٦ إلى ١٧٩٧ ، والثانيـة من ١٨٠٠ إلى ١٨٠١ . قوضت الغزوة الاولى دعائم الدوقية النمساوية في منطقة ميلانو ، وقضت على جمهورية البندقية، وضمت إلى فرنسا جمهورية جنوة ، ونالت من دولة البابا ، وأمتدت الغارة إلى ايطاليا الوسطى وايطاليـا الجنوبية وانشأت مؤقتاً إلى العام ١٧٩٩ جمهورية روما والجمهورية البارتنوبيئية مكان مملكة نابولي ، وبارتنوبيه هو الاسم القديم لنابولي .

واحتلت الجنود الفرنسية البيمونت وجعلت منهـا ومن جنوة ونيس موقعاً أمامياً للهجوم .

واما الغارة الثانية فقد بدأت عام ١٨٠٠ وأنشأت في ايطاليـــا الشمالية « جمهورية ماوراء الالب » (الجمهورية الايطالية) ، وضمت دولة البندقية القديمة إلى النمسا . وهاتان الدولتان تتجاوزان دول البـابا حتى الابنين . وفي الجنوب أعيـدت دول قديمة ولكنهـا ظلت مضطربة في حياتها .

وكذلك انهار المجتمع والبناء الاقتصادي كالنظام الأرضي والسياسي . لأن الجيوش الفرنسية نهبت الثروات المتراكمة في ايطاليا منذ قرون . من ذلك أن الجنود كانوا يصادرون كل ما يقع تحت أيديهم ويفيد تغذيتهم ويفرضون الضرائب على المدن والدول ، ثم ينهبون ويزودون خزانـة حكومة الادارة (الديركتوار) بقليل من المال . يضـاف إلى ذلك أن أموال الكنيسة عصرت أي أخرجت من حوزة الكنيسـة ودخلت حياة العصر وبيعث ، ووضع الجنود أيديهم على أموال مصارف المون دو بيتيه في ايطاليا الشمالية . وجردت هـذه الأعمال الطبقة الغنيـة في ايطاليا من أموالها .

ومن هنا نرى أن الثورة قد هدمت النظم السياسية والأرضية والاجتماعية والثروة في ايطاليا ، ولم تجلب لها إلا الدمار والخراب ، كما لم تقم فيها بأي عمل انشائي . على أن الثورة وان قوضت النظم الايطالية والحضارة الايطالية ، ولكنها من جهة أخرى ، فسحت مجالاً لبدء نظام جديد وتفكير جديد .

سويسرا . — لقد نال سويسرا أذى الثورة . ولم تكن سويسرا آنذاك دولة بل « كونفدراسيون » أي اتحاداً أو عصبة في سبيل الدفاع المشترك يتألف من ١٣ كانتون متحالفة فيما بينها . ولكن هذه العصبة لاتضم كل سويسرا لأن جونيف وفاليه والغريزون لم تكن داخلة فيها . أما نوشاتل فكانت تابعة إلى ملك بروسيا ، وسن غال إلى أب الدير ، وبال الى أسقفها . وهناك كانتونات مثل أرغوفيا وتورغوفيا وفود ، وتيسّن وفالتيلين كانت تابعة لغيرها .

أما نظام الكانتونات الداخلي فكان ارستقراطياً يخول السلطة إلى بورجوازية خاصة ممتازة ويبعد عن الحياة السياسية بقية ابناءالمدن أو الكانتون الذين ليس لهم حق البورجوازية ، كما يبعد المهاجرين الذين يأتون من الكانتونات الأخرى .

ويرى في آخر القرن الثامن عشر ، أي منذ العام ١٧٧٠ ، منازعات سياسية شديدة في داخل الكانتونات ، ولكنها كانت تنتهي بظفر الارستقراطية ، وابعاد عدد من المواطنين السويسريين الذين كانوا يذهبون إلى البلاد المجاورة لاجئين وخاصة إلى فرنسا . وقد لعب بعضهم فيها دوراً هاماً مثل كلافيير الذي كان وزيراً للمالية ، عقب نكّر ، قبيل الثورة ، وانتحر في عهد الارهاب ، وجان بول مارا محرر جريدة « صديق الشعب » ، الذي قتلته شارلوت كورداي .

لقد أحدثت الثورة في سويسرا ميلاً إلى المطالبة بالحكم الديموقراطي فتصدّت له الارستقراطية التي تقبض على زمام السلطة . أما في خارج سويسرا فان اللاجئين قاموا بحملة يطالبون بها الحكومة الفرنسية بالتدخل في بلدهم . ويريدون بذلك أن تدعمهم فرنسا في بلادهم سويسرا بتدخل دبلوماسي أو عسكري . وقد لبث هؤلاء المهاجرون طوال عهد المؤتمر الوطني يحضون الحكومة الفرنسية على هذا التدخل . وعظم تأثيرهم في عهد الديركتوار . حتى ان روبل الذي كان المدير الأول للسياسة الخارجية لحكومة الديركتوار ، بعد انقلاب فروكتيدور (٤ أيلول ١٧٩٧) ، اتصل بلاجئين سويسريين : الأول اوكس من مدينة بال ، والثاني هو الأديب لاهارب من مدينة برن .

لقد وجدت عوامل خاصة دفعت الحكومة الفرنسية إلى التدخل في سويسرا : فقد وجدت ان من الخير أن تهدم عش المكايد والدسائس التي تحاك فيها ضد فرنسا . لأن خصوم الثورة من الملكيين أسسوا في سويسرا وكالة للعمل وانضم اليهم من كان ضحيةً لانقلاب فروكتيدور ، وكانت انكلترا تمدهم بالمال وعلى رأس هذه الوكالة فرانسيس ديفرنوا السويسري وويكام الانكليزي . وهنالك عامل ستراتيجي ، وهو ان الجيوش الفرنسية كانت تقوم بالأعمال الحربية في ايطاليا الشمالية ، ولذا كان من الضروري تأمين المواصلات بين فرنسا وهذه الجيوش بطريق شعب سامبلون وبطريق جونيف .

وفي سنة ١٧٩٨ تبنت الحكومة الفرنسية سياسة التدخل وقبلت برنامج اللاجئين السويسريين الذي حرره أوكس في باريس ويضع لسويسرا دستوراً ديموقراطياً وموحداً على طراز حكومة الديركتوار . وهذا الدستور يقتضي تحرير الكانتونات التابعة لغيرها وتنظيم دولة موحدة ، ويضم إلى

فاليــه باسم كانتون إلى الكونفدراسيون ، كما يرمي الى تشكيــل حكومة ادارة (ديركتوار) مماثلة لما في فرنسا . وكنتيجة لما تقدم ان هذا الدستور يعد بمثابة بداية للمركزية في سويسرا .

دخلت الجنود الفرنسية سويسرا على حملتين : الاولى ، كانت موجهة ضد « برن » الكانتون الارستقراطيـة الاولى والعنصر الاساسي في الكونفدراسيون . وقد اضطرت هذه تحت ضغط الجنود الفرنسية أن تعترف في ٦ آذار بالدستور الجديد . ووضعت الجمهورية الفرنسية يدهـا على خزانة برن ، واستعملت نصفها في تمويل الحملة المصرية .

أما الحمـلة الثانية فكانت ضد الـكانتونات الجبليـة المتعلقة باستقلالهـا الديموقراطي مثـل كانتون شويتز التي رضخت في شهر أيار ، وانتهى الأمر بأن طبق الدستور وأنشئت الجمهورية السويسرية في ١٢ نيسان . وجعلت العاصمة موقتاً مدينة آرو وأجريت الانتخـابات بصورة حرة وشكلت حكومة في صيف العام ١٧٩٨ . وفي شهر آب من هذه السنة وقعـت الجمهورية السويسرية المتشكلة على هـذا النحو معـاهدة حلف مع فرنسا .

وبفضل هذا التدخل الفرنسي وجدت الجمهورية السويسرية أي وجدت دولة لكافة الـكانتونات . وإذا وجدت الدولة السويسرية فليس في ذلك مايدل على وجود القومية السويسرية لأن هذه ستنشأ مع الزمن رويداً رويـداً .

الاقليم الريناني . — لنلاحظ أولاً أن نظام هـذا الاقليم من ألمانيا لم يكن على شيء يستدعي تعلق الالمانيين به . فقد كانت رينانيـا من أكثر المناطق تجزئة وانقساماً وتنوعاً . نجد فيها دولاً كنسيـة أو دول أمارات مختلفة السعة وليس فيها امارة كبيرة . حتى أن أعظم الدول

الاكليركية لم تكن معتبرة" الا قليلا . وبوجه الاجمال كانت حالة هذه المنطقة متأخرة . فقد كان الفلاحون يفلحون الأرض في شروط تقليدية قديمة ، ولم يكن فيها أصناف مهنية ، وقل المتعلمون بين السكان ، والجمود عام في البلاد . ولذا لم يكن في هذا النظام شيء يؤسف عليه إذا ما ذهب وانهار . ويتجلى انحطاط هذه المنطقة معنوياً وسياسياً عندما دخل النفوذ الفرنسي اليها ولم يلق أقل رد فعل أو مقاومة . والعقبة الأساسية التي لقيها الفرنسيون في احتلالهم لهذه المنطقة الرينانية هي جمود السكان وخوفهم من تعريض أنفسهم للخطر . وقد بدىء من قبل في دول هذه المنطقة بتجربة جزئية للاستبداد المستنير ، ولكنها انقطعت بسرعة : وذلك لأن الناخبين الاكليركيين الذين حاولوا هذه التجربة انصرفوا عنها منذ نشبت الثورة في فرنسا . إلا ان هنالك مدناً مثل بون وماينس شهدت بعض « **الأنوار** » كما وجد هنا وهناك بعض العناصر الديموقراطية مثل الاستاذ **ايلوج شنيدر** وتلاميذه ، وهم ديموقراطيون عبروا عن أفكارهم في « نادي ماينس » في بدء الثورة وصوتوا ، في المؤتمر الريناني ، الذي عقد في آذار ١٧٩٣ ، على الانضمام إلى فرنسا . ولكن لم يبق شيء من هذين العنصرين ، لأن « الاستبداد المستنير » ذهب بفرار الامراء والنبلاء أمام الجنود الفرنسية ، كما تبدل الديموقراطيون في العام ١٧٩٣ بتبدل الأحوال والتجأ أكثرهم إلى فرنسا اما للبحث عن وظيفة أو للخوف من عقاب السلطات القائمة .

لقد تبدل الوضع في رينانيا في صيف العام ١٧٩٤ بحدوث حادثين: احتلال فرنسا العسكري بعد استئناف الهجوم ، واعدام روبسبير وتوطيد الدستور البورجوازي الذي يسمى عادة **دستور العام الثالث** (١٧٩٥) .

ففي شتاء ١٧٩٤ — ١٧٩٥ تشكلت في المدن الكبرى الرينانية

نوادي جمهورية . وهذه هي بداية **الحركة الجمهورية الرينانية** (١٧٩٧) **وهي حركة تعاون مع الفرنسيين** . فقد قام بها الشباب المثقف المملوء بالحماسة ، وأكثرهم من الطبقة الوسطى أي من الطبقة التي تأثرت **بفلسفة الأنوار** ، ويتعاطون المهن الحرة أو يتهيأون لها ، ويشكون من ابعاد الطبقة النبيلة والاكليروس لهم عن ادارة المدن . كان منهم أساتذة أحرار انتسب بعضهم إلى الكنيسة ثم مالبثوا أن انفصلوا عنها مباشرة" مثل **جان باتيست غايش** وكان استاذاً في كولونيا ثم في بون" ، وجان جاك هان وهو استاذ في تريف .

ونجد بينهم اكليركيين خلعوا لباس الكهنوت مثل « بيرغانز » ، ومحامين مثل كريستيان سومر وميشيل فينيدي في كولونيا . وبعضهم موظفون قدماء مثل جان باتيست هتزروت .

وأهم هؤلاء الشباب جوزيف غورز وسيلعب دوراً هاماً في الحركة الدينية في السنوات التي تلي عهد الامبراطورية .

ولد جوزيف غورز في كوبلانتز عام ١٧٧٦ من أسرة غنية تاجرة . وقد شاءت أن ينصرف ابنها لدراسة الطب . وفي السادسة عشرة من عمره كان يتردد على نادي ماينس ، ثم انتسب اليه عضواً ، وأصبح أميناً لسر النادي في كوبلانتز عام ١٧٩٧ . وكان يكره نفوذ الارستقراطية والاكليروس كرهاً شديداً ، ويتحمس للأفكار الفرنسية ، ويعبد الحرية وكانط . حاول أن يعبر عن أفكار « كانط » بمفهوم عملي ونشر في العام ١٧٩٧ كتاباً بعنوان « السلم الدائم ! مثل أعلى » وزعم أنه يحقق فيه فكرة كانط في السلام العام بتأسيس اتحاد (كونفدراسيون) الشعوب الأوربية بقيادة فرنسا .

كان المثل الأعلى لهذا الحزب الريناني ، من الوجهة السياسية ، سامياً والهامه الأول مستوحى من « فلسفة الأنوار » ، ويتضمن الحرية السياسية حسب المفهوم الفرنسي ، والقضاء على جميع الامتيازات الاقطاعية للامراء وضريبة العشر للاكليروس ، وحصر الاصناف الحرفية وانظمتها . ويطالب بحق الفلاحين في ملكية الارض ، الا انه يكره توزيع الاراضي ويدافع عن الملكية الخاصة .

ومن الوجهة الاقتصادية كان رجال هذا الحزب يطالبون بحرية التجارة الداخلية والخارجية .

وهذا البرنامج نراه عند الاحزاب الفرنسية ، كما نراه أيضاً عند الاحزاب الديموقراطية الالمانية الاخرى .

وإلى جانب هذه المطاليب السياسية نرى ان الصفة المميزة لهذا الحزب هي : **الالهام الكانطي والنزعة الأخلاقية** . ويقول رجاله : ان فريضة المواطن أن يستعمل الحرية وهو شاعر بواجبه ومسؤولياته ، ولا يكون الانسان اهلاً للحرية إلا إذا كان فاضلاً وسلك قانون الأخلاق . وإن فريضة الدولة أن تجعل الناس يحترمون قانون الاخلاق في المجتمع . وبعضهم ، مثل كريستيان سومر ، يريد أن يخول الدولة حق تنظيم الحياة الاجتماعية والحياة الاقتصادية لتنشر الأخلاق فيها . ويرى الرينانيون أن تمنح هذه الحقوق السياسية إلى المواطن ليستعمل حريته بتعقل . ولا يمكن أن توزع الحقوق السياسية بصورة استبدادية ، بل انها تتطلب بالمقابل ان يكون لدى المواطن اخلاق وتربية . فالحرية إذاً امتياز الاخلاق . وفي ذلك كله مفهوم الماني خاص يميز نهاية القرن الثامن عشر ونجد أصوله في فلسفة كانط .

هذا هو المثل الأعلى للرينانيين ، ولتحقيق هذا المثل ولّوا وجوههم شطر فرنسا ، اعتقاداً منهم أنها أهل لقيادة العالم في هذا السبيل .

وفي صيف العام ١٧٩٥ وفي العام ١٧٩٦ اوجدوا صحافة من الجرائد والمجلات نذكر أهمها : « صحيفة بون الفكرية » و « صديق الحرية » اللتين اسسها غايْش .

وأصدر هانف في كولونيا « صديق شعب كولونيا » .

وأصدر برغان جريدة مناوئة للاكليروس تسمى « بروتوس الحر » .

وصدرت صحافة مماثلة في المدن الالمانية الأخرى . وكانت هذه الجرائد تدعو إلى التعاون مع فرنسا ، وإلى سيادة الديموقراطية في المجتمع .

غير أن هذه الحملة اصطدمت ببعض الصعوبات :

١) ثقل الاحتلال العسكري الفرنسي ، وفداحة الضرائب التي فرضها القادة والمصادرات وسوء تصرف الدوائر العسكرية . فكان ذلك سبباً في برودة الحماسة لفرنسا .

٢) كراهية موظفي النظام القديم والاكليركيين لسياسة التعاون ، وكانوا يأخذون على الثورة حملتها على الاكليروس . وبدا سريعاً أن المستقبل لا يطمئن له . وصار يخشى رجوع النظام القديم ، لأن بونابرت بعد ظفره في ايطاليا كان يفاوض السلم مع النمسا على أساس المحافظة على سلامة الامبراطورية وبالتالي ارجاع السلطات الالمانية إلى الضفة اليسرى لنهر الراين . وأخيراً قام الجنرال هوش ، الذي عين قائداً عاماً للجيوش الفرنسية ، ودشّن سياسة شخصية ترمي إلى التقارب مع السكان واراد أن يقضي على مساوىء سلطة المفوضين الحربيين وأوجد ادارة مركزية على الضفة اليسرى لنهر الراين مع « لجنة وسيطة » في بونّ . لذا كله تفاهم الرينانيون مع هوش واعلنوا برنامج الجمهورية الرينانية في شهر حزيران

١٧٩٧ واوجدوا **مكتباً موكزياً** للكونفدراسيون الريناني في بون مع ملحقاته في كولونيا وكوبلانتز ونويس وغيرها من البلديات المحلية .

غير أن هنالك مدناً مثل تريف وايكس -لا- شابل بقيت بعيدة عن هذه الحركة وطالبت من تلقاء نفسها وبكل بساطة انضمامها إلى فرنسا . وأعلن الرينانيون في ١٣ تشرين الثاني « صك سيادة الشعب بين أنهار الراين والموز والموزيل » ، وجعلوا الناس في المدن يوقعون على عرائض للدعاية للجمهورية الرينانية ، واحدثوا جمعيات شعبية لهذا الغرض وحاولوا أن تسود مفاهيمهم في مؤتمر راشتاد الذي سيقوم بتنظيم المانيا الغربية بعد صلح **كمبو- فورميو** .

غير أن النجاح لم يكتب لهذه الجمهورية الرينانية لأن هوش الذي كان يرعاها توفي فجأة . وفي ١٩ ايلول ١٧٩٧ جرى في باريس انقلاب فروكتيدور واستلم حكومة الادارة أناس مثل روبل عرفوا بسياستهم الاستعمارية التسلطية .

وفي **كمبو- فورميو** فرض بونابرت على النمسا مادة سرية تتخلى بموجبها عن الضفة اليسرى لنهر الراين إلى فرنسا ، وتعترف بانضمامها اليها . وارسلت حكومة الادارة مفوضاً يدعى **رودلر** لادارة الضفة اليسرى لنهر الراين وتنظيمها . غير أن المفوض لم يستعن بالرينانيين رغم ما عرضوا عليه من تعاون في هذا الصدد ، بل انه استدعى ، لأسباب فنية ، الموظفين القدماء في رينانيا الذين انتهزوا الفرصة وانضموا إلى فرنسا وتركوا الرينانيين ، مستائين من هذا التصرف ، حتى ان غورز ذهب إلى باريس ليدلي الى الحكومة الفرنسية بمذكرة يبين فيها مطاليب الرينانيين ولكنه وصل اليها حين **انقلاب برومير** الذي كان منه استلام بونابرت السلطة ، وصرف النظر عن فكرة جمهورية الراين المستقلة .

على أن فكرة جمهورية الراين المستقلة لم تكتب لها اسباب الحياة. ولكن يجب إلا يظن بأن الرينانيين أقاموا بعض المصاعب في سبيل الانضمام إلى فرنسا ان هذه الفكرة لم تأتهم إلا مؤخراً ، وذلك عندما دارت الدوائر وتبدلت الأحوال وقامت الحركة القومية في المانيا وانتهى الأمر بسقوط نابوليون وزعم بعضهم أن محاولتهم في تنظيم جمهورية رينانية كانت ترمي إلى اجتناب الانضمام إلى فرنسا وفي ذلك دليل على وطنيتهم الالمانية . وقد قبل المؤرخون هذه الفكرة بسهولة . الا انها اصطدمت مع الواقع ومع تصريحات القائلين بها . فمن ذلك ان غورز في البرنامج الذي وضعه عن السّلام العام سنة ١٧٩٦ قبل بالانضمام إلى فرنسا وسيادتها ؛ وكذلك النداء ، الذي وجه إلى اعضاء الكونفدراسيون الريناني في كوبلانتز ، عندما دعاهم اوجيرو الى الانضمام الى فرنسا في ١٥ تشرين الثاني ١٧٩٧ ، كان يطالب بالانضمام إلى فرنسا لعدة أسباب :

١ً — الفائدة التي يحصل عليها الرينانيون باعتبارهم يؤلفون قسماً من فرنسا البلد العظيم الحر .

٢ً — ان هذا الانضمام يعتبر ضماناً لهم ضد رجعية ممكنة يقوم بها الأمراء والأكليروس .

٣ً — ان مصالح الاقليم الاقتصادية تدعوه للانضمام إلى فرنسا .

وكانت جرائد العصر تردد هذه الأفكار نفسها وخاصة جريدة « الصحيفة الحمراء » التي خلفت جرائد بونّ الاولى . وقد قبل الرينانيون منذ البدء بفكرة « الحدود الطبيعية » وبالتالي بفكرة ان الراين يجب أن يكون حداً لفرنسا .

وكتب هتزروت في هذا الصدد : « ان الأمم لاتستطيع أن تعتمد على عهد طويل للسلم وتعمل على تكامل تقاليدها الا بعد تحديد صحيح

لأراضيها ، وعندها تذهب الحدود وتتعاون الدول في عمل مشترك ، وهذا المفهوم هو مفهوم غورز ايضاً .

ويوضح هذه الأفكار ما يراه الرينانيون في فرنسا . فقد كانوا يعتبرونها مصدر « الأنوار » والحضارة . ويزعمون ، كالفلاسفة الألمانيين ، أنهم « مواطنون عالميون » ويرون أن ينضم « مواطنو العالم » الى فرنسا . وكتب هتزروت يقول : « أعتقد أن واجب مواطن العالم قبل كل شيء أن يدعم الحكومة التي تعمل حسب فلسفة الأنوار » . وهذه العبارة هي عبارة فيخته التي أفصح عنها عام ١٨٠٥ . ولا يرون ، في اعتقادهم هذا ، بأنهم مخالفون لمثلهم الأعلى الألماني ، بل على العكس إن هتزروت وفينيدي وغيرهما يعتبرون المثل الأعلى الفرنسي مثلهم الأعلى ، وان المثل الأعلى الألماني هو نفسه هذا المثل .

ولكن هؤلاء الرينانيين ، الذين انضموا إلى فرنسا ، ما لبثوا أن شعروا بعد بضع سنين بشيء من المرارة ، عندما رأوا فرنسا تضحي بالحرية في سبيل بونابرت . حتى أن غورز عندما أتى إلى باريس ، بعد انقلاب بروميير بقليل ، أبدى أسفه في كراس عنوانه : **« نتائج مهمة في باريس »** ونشره عام ١٨٠٠ . ولما رأى أن فرنسا تضحي بحريتها في سبيل سلطة القنصل الأول عدل عن اعتقاده بأن فرنسا تجدد البشرية . وهذا اليأس أفهمه الاختلاف الموجود بين المزاج الألماني والمزاج الفرنسي الذي لم يلاحظه بعد . وقبل أفكار هردر في اللغة ، وتوصل شيئاً فشيئاً إلى أن فكرة الدولة والشعب شيء واحد ولا وجود لدولة قوية إذا لم تستند على تقاليد شعبية . وهذا التحول في المثل الأعلى للقومية على طراز روسو إلى مفهوم القومية على نمط هردر جعل غورز في الطليعة بالنسبة إلى رفقائه السياسيين الأقدمين . أما باقي الرينانيين فمنهم من خنس واختفى في الظلام

مثل كريستيان سومّر ؛ ومنهم من دخل في الادارة الفرنسية وأصبح موظفاً عندها في ظل الجمهورية والامبراطورية .

وبقيت الحركة الرينانية حركة أقلية . وقد حسب أنها كانت تضم ما يقارب ٢٠٠٠٠٠٠ شخص على الاكثر . وكان هؤلاء السياسيون أو المفكرون يدعون في وسط جامد جداً . إن ثلاثة أرباع السكان بقيت دون حراك ودون رد فعل ، أو كانت تحقد على أعمال العدوان التي قامت بها الجيوش الفرنسية في البلاد . وإذا لم يتبع السكان حزب الرينانيين في مثلهم الأعلى الفكري والاخلاقي فقد تبعوا السياسة الفرنسية عندما سيرها بونابرت في اتجاه مضاد ، بما عمل من استتباب النظام وحماية الدين بعقد « الكونكوردات » وتشجيع التجارة والصناعة ، والرفاه الاقتصادي وخاصة في الزراعة . وهذه السياسة المادية كانت أشد وقعاً من دعاية الرينانيين ، وحفزت الناس إلى أن يكونوا إلى جانب الامبراطورية .

ونرى أيضاً في هذا الاقليم الريناني **أن ليس هنالك أية معارضة قومية** . ولن تظهر هذه الأخيرة في عهد الامبراطورية . وفي السنين التي تلت هذا العهد بقيت ذكريات الاحتلال الفرنسي عزيزة على الرينانيين . لقد تبنوا مفاهيم روسّو ومفاهيم الثورة . وإذا أبدوا في بعض الأحيان معارضة ضد فرنسا فذلك لأنهم أخذوا عليها ابتعادها عن مثلها الأعلى وعدم بقائها أمينة لرسالتها . ولم تقم معارضة الرينانيين إلا لانهم كانوا يزعمون أنهم فرنسيون أكثر من الفرنسيين أنفسهم .

أثر الثورة في البلدان البعيدة

هذا هو أثر الثورة في البلاد التي تلقت مباشرةً صدمة أفكار الثورة

ورجالها . غير أن الثورة أثرت بصورة غير مباشرة بعملها السيـامي في البلاد البعيدة وكان هذا التأثير بنتيجة عدوى فكرية .

على أن رد الفعل تجاه الأفكار الفرنسية لم يكن نفسه لدى الحكومات ولدى الشعوب . فمن جهة الحكومات ظهرت الثورة بسرعـــة خطراً عظيما ، لأنها شجعت المقاومات التي كانت تعمل ضد عمل الحكومات ، أو لانهـا استطاعت أن تفجر ثورات وحركات عصيـان . ولذا كانت الثورة ، بالنسبة إلى الحكومات فرصة سانحة لشد عزمها وتقوية سلطتها استعداداً للطوارىء . ومن هذه الوجهـة كان من الثورة أن أخرت نمو المطاليب السياسية و القومية أو أجلت نشؤوها : ففي المطاليب القومية نذكر حالة **هونغاريا** لأن الحكومة كفت عن عقد الدياط ، ووضعت رقابة ضابطية شديدة ، حتى أنها اكتشفت عام ١٧٩٥ مؤامرة مـدبرة من قبل جمعية سرية لتأسيس جمهورية في الدولة النمساوية . ولجأت الحكومة إلى إيقاف عدد عظيم من المشتركين في المؤامرة . وكان زعيم هذه الحركة استاذ هونغاري اسمـه مارتينو فيكس . وساهمت طبقة النبلاء في عمـل الحكومة النمساوية . ويمكننا القول ان الحركة الهونغارية ، حتى عام ١٨١٥ والحوادث التي تلت هذا العام ، قد توقفت عن العمل .

وتوقفت مطاليب الحرية خوفاً من الثورة . فمن ذلك أن الاصلاحات التي بدأ بها « الاستبداد المستنير » في **اسبانيا والبرتغال** قد توقفت فجأة . وفي **انكلترا** : أدى الخوف من الثورة ثم الحرب إلى استـــلام حزب **التوري** أي المحافظين زمام السلطة وإلى التوقف المفاجىء لاي اصلاح .

بولونيا

لقد ساعدت الثورة الحكومات على اتخاذ تدابير سياسية . فقد أفادت من ضعف فرنسا الموقت وانصرافها عن الشوون الدبلوماسية بسبب الثورة الداخلية وأنهت عملها في بولونيا. اذن كانت الثورة الفرنسية فرصة لجيران بولونيا للقيام بشروع تقسيم جديد ، وبالنسبة لبولونيا بداية لرسم حركة قومية . بدأت هذه الحركة القومية ترتسم قبيل الثورة. فقد كانت موجهة ضد روسيا واتسعت مع الثورة الفرنسية . وكان عناصرها شبيبة الطبقة النبيلة التي تربت في المدارس التي أحدثتها « لجنة التربية العامة » وكان منهاجها يعتمد على الافكار الفلسفية الفرنسية بالاضافة إلى عالم المفكرين والاساتذة الذين يسمون « الاكاديميين » وخاصة أساتذة جامعتي كراكوفيا وفيلنا ، وبورجوازية فارسوفيا . وأمام تقدم أفكار الاصلاح فى فرنسا قبيل الثورة وفي بدايتها اتسعت حملة المفكرين البولونيين في سبيل الدفاع عن الافكار الجديدة : فمن ذلك ظهور كراريس عديدة ، وخاصة كراريس « كوللونتاج » ، حتى أن أحدها لم يكن سوى نسخة عن كرّاس الاب سيس الشهير في « الطبقة الثالثة » . كذلك ذهب كثير من البولونيين واتصلوا برجال الثورة الفرنسية ليتعرفوا بمناهجهم ويذيعوه في بولونيا ونخص بالذكر منهم مالاكووسكي. وكانت أخبار فرنسا تنشر في الجرائد وتتلقفها البورجوازية البولونية بلهفة . ووضع برنامج اصلاحي في دياط (١٧٨٩ — ١٧٩١) وظهرت فيه الافكار الفرنسية من ثلاث نواح :

١ً — يجب تقوية الحكومة باعطائها شكلاً تمثيلياً وحذف السلطات السياسية التي تعارض الحياة القومية مثل « حرية رفض » النبلاء .

٢ً - يجب السماح للبورجوازية بالوصول إلى جميع الوظائف العامة والوصول إلى درجة النبل إذا قام أفرادها ببعض الوظائف العامة التي تؤدي إلى النبل .

٣ً - يجب القيام بالاصلاحات الضرورية لصالح الفلاحين .

وقد تحقق هذا المنهاج على أثر انقلاب جرى في ٣ أيار ١٧٩٥ على يد الملك « ستانيسلاس أوغست بونيا توفسكي » بالاتفاق مع حزب من الدياط . وأعلن دستور يقيم الملكية الوراثية في أسرة ناخب ساكس عند وفاة ستانيسلاس اوغست الذي لم يكن له وارث . وهذا الدستور مقتبس عن الدستور الذي وضعته الجمعية التأسيسية في فرنسا في ذلك الحين .

ومن الطبيعي أن تثير هذه الحركة الاصلاحية الروس . فقد تؤدي إلى بعث الدولة البولونية واعادة تأسيسها وتحول دون توسع مطامعهم في بولونيا . وما كادت القيصرة كاترينا الثانية تنهي حربها مع الاتراك بمعاهدة ياسّي في كانون الثاني ١٧٩٢ الا وتدخلت في بولونيا بشدة يدعمها الماغنات التقليديون الذين أوجسوا خيفة من اصلاحات الدياط الاجتماعية والسياسية . وارتمت طبقة النبلاء العليا البولونية في أحضان روسيا والفت (اتحـــاد كونفدواسيون) تاركوفيتز ، وزعمت أنهـا تدافع عن الحريات البولونية ، والحقيقة أنها تدافع عن الفوضى البولونية (آذار ١٧٩٢) . واعتمـد البولونيون على بروسيا لتسندهم ضد الروس ، ولكن بروسيا لم تشأ أن تتدخـل إلا بالاتفـاق مع الانكليز ، أو أن تزحف إلا إذا كان الانـكليز يسندون البولونيين عن طريق البحر ويعملون مع بروسيا في بحر البالطيك . ولكن الوزير الاول بيت رفض القيام بأي مبادرة . ولذا تخلى البروسيون عن البولونيين . حتى أن الحكومة البروسية في شهر شبـاط

طلبت من بولونيا أن تدفع لها مصاريف حربها مع فرنسا وأخبرت بذلك كاترينا الثانية في ١٥ آذار ١٧٩٢ . ولذا كان البولونيون دون أي عون لهم ضد روسيا . وفي ١٩ أيار بدأت غارة الروس على الحدود البولونية وغلب الوطنيون البولونيون في كل مكان واستولى الروس على فارسوفيا في شهر تموز ، وأعادت الحكومة الروسية في ٢٢ تموز الدستور التقليدي، حتى أن ستانيسلاس تخلى في الزمن الاخير عن الاصلاحات وفاوض الروس .

وهكذا نرى أن حركات الاصلاحات القومية ، التي شرع بها مفكرو بولونيا مع بورجوازيتها ، كانت سبباً في انزال مصيبة جديدة على بولونيا . فقد قامت روسيا وبروسيا بمفاوضات وأدت هذه المفاوضات الى تقسيم ثان لبولونيا عقد بين الروس والبروسيين في ٢٣ كانون الثاني ١٧٩٣ على أن يأخذ الروس اكرانيا وروسيا البيضاء أي ما يبلغ ٣ ملايين من السكان ؛ ويأخذ البروسيون دانتزيغ وتورن وبوزن وكاليسز أي مليون من السكان. وبعد أن كانت بولونيا قبل ١٧٧٢ دولةً مؤلفةً من ١٥ مليون نسمة ، أصبحت بعد التقسيم دولة مؤلفة من ٤ ملايين .

وانتهت الكارثة بقيام حزب قومي. واعدت حركة ثورة على يد العناصر الوطنية التي التجأت إلى ساكس أو فرنسا . وكان زعيم هذا العصيان كوسيوزكو الذي طلب المساعدة من المؤتمر الوطني الفرنسي. ولم يستطع الفرنسيون مساعدتهم لانهم كانوا في حرب مع أوربة . وكل ما أمدوهم به هو هذه النجدة الافلاطونية والتهليل لحركتهم دون أن يستطيعوا التدخل بصورة فعلية .

نشبت حركة الثورة في شهر آذار ١٧٩٤ ، في آن واحـــد ، في كراكوفيا وفارسوفيا . وفي ٢٤ آذار أعلن كوسيوزكو نداءً للامة

واستطاعت فارسوفيا أن تطرد الحامية الروسية . وهذا الخور الموقت في عزم الروس ساعد بروسيا والنمسا على التهيؤ والاستعداد للتدخل وزحف البروسيون إلى كراكوفيا واستولوا عليها وبدأوا بمفاوضات صلح مع فرنسا ليخلو لهم الجو وحدهم . وألف الروس جيشاً بقيادة « **سوفوروف** » وغلب « كوسيوزكو » في « ماسيجوفيتش » في شهر تشرين الأول . وفي ٤ تشرين الثاني استولى الروس على فارسوفيا . وكانت الجنود النمساوية محشودة في غاليسيا لدعم الحجج الدبلوماسية للحكومة . وبينا كان البروسيون يفاوضون فرنسا في معاهدة بال أدت المفاوضات بين النمسا وكاترينا الثانية إلى تقسيم بولونيا للمرة الثالثة . وعينت الحصص في المفاوضات التحضيرية على أن تكون حصة بروسيا فارسوفيا وشمال بوميرانيا إلى نهر نيمن . وهكذا سجل التقسيم الثالث في ٣ كانون الثاني ١٧٩٥ زوال بولونيا برمتها .

وهذا العصيان ، الذي أخفق وادى الى ازالة الدولة البولونية ، أخذ طابعاً جديداً مغايراً لطابع الاتحادات القديمة . فقد كان بحق حركة قومية ، ودل على ذلك تهيئة حركة العصيان . وذلك أن الشبيبة المأخوذة بحركة الدعاية الوطنية قد تزعمت هذه الحركة في المدارس : فمن ذلك أن تلاميذ مدرسة « ولودزيميرز في الجنوب كانوا ينشدون نشيداً يذكر قليلاً بالنشيد الفرنسي « لامارسييز » وهذا هو الدور الأول منه :

« ايها الشباب المتحدرون من شعب حر يذود دوماً عن حقوق الانسان المقدسة ضد العنف السائد في كل مكان ، ثقفوا جسدكم وروحكم » . وهذا النداء لحقوق الانسان وارد فرنسي .

ويذكرنا الدور الأخير لهذا النشيد بنشيد المارسييز أيضاً :

« الى السلاح يا أبناء كوديوسكي !
وعرق البطولة لآل سوبيسكي وآل تشارنيكي ؟
تعلموا الكفاح ولا تدعوا بلدكم يتمزق !
وأخيراً لنرتبط بهذه الأرض بحلف مقدس !
ليكن كل واحد جندياً وليهب وطنه من دمه وفكره وماله !
بمثل هذا نسحق قوى الاعداء أو نلحق بأجدادنا في القبر ! »

والقى الدباط بنداء إلى الأمة في ٢٠ أيار حرّره **بيراموفيكز وكوللونتاج** ونجد فيه نفس اللهجة القومية :

« ان بولونيا اليوم في حالة دفاع ضد الجيش الموسكوفي ... انكم تحاربون من أجل مذابحكم (كنائسكم) ، من أجل قوانينكم ، من أجل حريتكم ، ومن أجل أموالكم » .

وفي أوساط العصيان نجد عناصر المجتمع البولوني ممتزجة مع بعضها : ففي روسيا الصغيرة نجد الفلاحين مسلحين بمناجلهم قد طردوا الروس في واقعة راغلاويس في ٤ نيسان ١٧٩٤ . وفي جيش العصيان والسلطات التي تقوده والمجلس القومي الذي تألف حول كوسيوزكو في فارسوفيا نجد مختلف عناصر السكان : اساتذة الاكاديميات ، والبورجوازيين والنبلاء وانضم البروتستانت إلى الكاثوليك : فمن ذلك أن تورن ودانتزيغ وهما بلدان بروتستانتيان (لوثريان) قاوما الجيش البروسي . وانضم الكالفنيون إلى الكاثوليك للكفاح ضد الروس في ليتوانيا . وهذه هي المرة الاولى التي تنمحي فيها الديانات في سبيل العاطفة القومية المشتركة . وكانت بورجوازية المدن القوة الأساسية في العصيان . وفي هذه المرة نجد

البورجوازية إلى جانب الطبقة النبيلة في سبيل حركة وطنية . وهذا يدلنا على نشوء عاطفة قومية في بولونيا . وليس في ذلك ما يدل على ارستقراطية تتناحر في سبيل امتيازاتها ولا تنظر إلى صالح الدولة العام . وفي الوقت الذي اوشك الروس أن يأخذوا فيه بوزن قام طالب ووجه الى الجنرال الذي يقود الموقع خطاباً نقتطف منه هذه الجملة :

« ان اوربا لتعترف بأجمعها ان هذه الأمة لم تعوزها الشجاعة لتدافع عن نفسها ، ولا الحماسة للحفاظ بفكرها على ما لم تستطع ابقاءه بالقوة » .

وفي الحقيقة ان بولونيا ستتمسك بفكرها وبفكرها وحده لتستطيع الحياة . وذلك ان الوطنيين اضطروا أن يتفرقوا في كل اوربه وخاصة في فرنسا . ونراهم ينخرطون في الجيوش التي تكافح روسيا . وفي ايلول ١٧٩٨ اتفق الديركتوار مع كوسيوزكو بعد عودته من أميركا لتنظيم جوقات من المتطوعين البولونيين مع الفارين من الجيوش الروسية والنمساوية . وعلى هذه الصورة نجد أن فكرة القومية البولونية تتشكل بملء شعورها في الخارج بتماسها مع غربي أوربه . ولكن القضية ، في هذه الآونة وفي عدة سنين أيضاً ، لم تكن سوى ورقة لعب على المائدة الدبلوماسية حتى لدى الحكومة الفرنسية نفسها : ففي سنة ١٧٩٨ نرى ان الاب سيس ، سفير فرنسا في برلين ، يلمح إلى بروسيا ، ليكسب تحالفها ، بامكان اعطاء بولونيا كلها إلى البروسيين . وهكذا نرى أن الثورة الفرنسية كانت شؤماً على بولونيا ، لأنها كانت فرصة لتقسيمها وفي الوقت ذاته كانت يمناً عليها لأنها ولدت عندها العاطفة القومية البولونية .

وإذا نظرنا الى الثورة من جهة الشعوب لا من جهة الحكومات لأمكننا ان نعترف بأنها احدثت عند بعض الشعوب ، المتطورة نوعاً ما ، نداءً إلى الحرية والمساواة والاستقلال ، وانها جسدت حول هذه الافكار عاطفة الاستقلال أو الشخصية التي توجد من قبل . وعلى هذا النحو ولدت

الثورة أملًا ، واحدثت بدء عمل عند هـذه الشعوب المغلوبة على أمرهـا التي يسيطر عليها النفوذ الاجنبي . وهذه هي البارقة الاولى والحركة القومية الاولى التي ظهرت في افق اليونان وايرلنده والصرب الذين حاولوا أن يثوروا على الاتراك في العام ١٨٠٤ .

وظهر أثر الثورة في ثلاثة بلدان : المانيا واليونان وايرلنده تستحق أن تدرس دراسة دقيقة لنرى فيها مدى هذا الأثر .

المانيا

لم تبدل الثورة الفرنسية أو تأثيرها المانيا بل الامبراطورية . لقد كان من نتائج الثورة في المانيا ان اذكت حركة الافكار التي كانت سابقة لها . وهذه الحركة نمت عند الالمان على مسرح السياسة لاعلى مسرح القومية سواء أكان المقصود في ذلك الحكومات أم السكان .

لقـد كان رد فعل **الحكومات** الالمانية تجاه الثورة الفرنسية عدائياً منذ بدت الافكار التي نادت بها الثورة خطرةً على سلطتها ، حتى ان كل حركة اصلاحية حاول الاستبداد المستنير أن يقوم بها قد توقفت فجأة . ومنعت النمسا منذ ١٧٩٠ نشر الرسائل التي يمكن أن تحدث أقل هياج في الافكار ، ووضعت الرقابة ، ونظمت الجاسوسية ، وطهرت الدوائر من جميع العناصر الخطرة . وفي بروسيا تأثرت الحكومة باتجاه « الاتقياء » عندما قاموا برد فعل اكليركي شديد ، وحظرت الاقامة في بروسيا على كثير من المهاجرين الفرنسيين المشبوهين بافكارهم الفلسفية . وفي حزيران ١٧٩٢ منعت نشر القسم الثاني من أثر كانط الفلسفي « **الدين في حدود العقل** » . وفي خريف ١٧٩٢ منعت جميع المنشورات الفرنسية وحظرت على الصحف التكلم بالسياسة . وزادت مقاومة الحكومة البروسية خاصة

بعد أن قامت ثورة الفلاحين في سيليزيا عام ١٧٩٠ بسبب رسالة قدحية بعنوان : « رسائل ذهبية لرحالة » . ولوحقت الجمعيات السرية في المانيا مثل « فرقة أهل الكشف » في بافاريا . وعندما شكا دوق فيمار الاكبر أمر الجمعيات السرية ، ودعمته في ذلك بروسيا وساكس ، حكم الدياط بمنع جميع رابطات الطلاب في ٤ حزيران ١٧٩٣ ، ووضعت الجامعات تحت رقابة شديدة . واقيل فيخته استاذ الفلسفة في جامعة ايينا عام ١٧٩٨ من كرسيه لاتهامه بالالحاد . وعندما انتخب لؤبولد امبراطوراً عام ١٧٩٠ فرض الناخبون عليه امتيازاً وهو : « الا يتسامح بكل ما يخالف العقائد العامة والاخلاق القويمة » . وهكذا ظهر الخطر لحكومات المانيا مباشرة في الحقل الروحي والسياسي . وفي الناحية السياسية أدت الصعوبات إلى الحرب مع فرنسا ، واتخذت الحكومات تجاه الثورة الفرنسية موقفاً دفاعياً .

ونرى عند الشعب وخاصة عند المفكرين تشيعاً عاماً للأفكار الفرنسية . فمن ذلك أن الطبقات المثقفة والعليا في المجتمع ، على عكس الحكومات ، قد رحبت بالثورة الفرنسية ونظرت اليها لا من وجهة نظر المانية ، بل من وجهة نظر بشرية وعالمية . وقد سبق أن قلنا ان حركة الافكار في المانيا كانت على صلة بالفلسفة الفرنسية . وما « فلسفة الانوار » الالمانية الا مثيلة لحركة رجال الموسوعة الفرنسية . وكما أن الرأي الفرنسي كان يشعر بعطف زائد نحو الثائرين في امريكا ضد انكلترا ، كذلك كان الرأي الالماني يشعر بعطف نحو رجال الثورة الفرنسيين ، وشواهد هذا التحبيذ عديدة ونراها عند جميع طبقات المجتمع وعند المفكرين أولاً على اختلاف أنواعهم ، عند الشعراء الغنائيين وعند رجال العلوم المعنوية : فمن الشعراء الغنائيين نذكر اسم فيلاند وشتولبرغ . ومن المؤرخين

أو المعنويين نذكر اسم جان مولر وقد كتب : « ان يوم ١٤ تموز أجمل يوم وجد منذ سقوط النفوذ الروماني في العالم . ففي سبيل بعض قصور البارونات الاثرياء وفي سبيل حياة بعض الكبار ، واكثرهم مجرمون، اشتريت الحرية بسعر رخيص ! » وقد لمح بامكان امتداد الثورة إلى المانيا « وهل يسقط هؤلاء الذين يرتجفون اليوم من ملوك ظالمين وطغاة يسيؤون استعمال سلطتهم ! » .

ونشر « ارنست فردينـاند كلاين عـام ١٧٩٠ كراساً بعنوان : « الوفرة والحرية » كان بمثـابة دفاع عن أفكار الجمعيـة التأسيسية واصلاحاتها في فرنسا . وكان جورج فورستر ، قيم مكتبة ماينس ، لا يستطيع صبراً لانه كان يريد أن تجتاز الافكار الفرنسية نهر الراين ، وقد كتب اعجابه بفرنسا إلى غليوم هومبولدت العالم الاثري . وكان كانط يتتبع بشغف نمو الثورة الفرنسية، حتى اننا نراه في كتابه « نقد الحكم » الذي نشره عام ١٧٩٠ يلمح الى هذه الأفكار ويقول عن فرنسا : « إنها الامة التي ارتقت إلى درجه عالية في التنظيم » .

وكذا الفيلسوف فيخته ، الذي سيصبح في الآجل على رأس الحركة القومية الألمانية ، الف عـدة كراريس لصالح الأفكار الفرنسية . ففي عام ١٧٩٣ نشر « مطاليب حرية الفكر الموجهة إلى امراء أوربة الذين جاروا عليها حتى الآن » . وفي عام ١٧٩٤ نشر الكراس المسمى « تصحيح حكم الجمهور فيما يمس الثورة الفرنسية » . ولقد كتبت هذه الكراريس بلهجة خطابية فصيحة عنيفة واستلهمت من افكار روسّو القائلة : إن الدولة لا توجد الا بموجب « عقد » بـين المواطنين والدولة ؛ ليس القانون قانوناً الا بالمدى الذي يطيـع فيه الشعب ؛ يجب على الكنيسة

الا تنتظر أي سند من الحكومة ، وأي مال من الدولة ، ولكل الحق في الانفصال عن الكنيسة والمطالبة عند انفصاله بقسم من أموالها .

وهذا التشيع للأفكار الفرنسية نجده في سائر بلاد المانيا وفي جميع المدن الفكرية وفي جميع الطبقات : عند النبلاء مثل كرامر وقد ترجم عام ١٧٩١ الدستور الذي صوت عليه المجلس الفرنسي ، وعند الامراء مثل دوق ودوقة غوتا . ولكن الاكثرية بالطبع كانوا من الصحفيين والاساتذة ورجال الآداب : ففي ماينس نجد جان مولر وجورج فورستر على رأس الحركة . وفي كارلسروه نجد الاستاذ بوسّلت ، وفي سؤاب وفرانكونيا طلاب جامعة توبنغن ومنهم هيغيل وشيلنغ اللذان سيكونان في المستقبل فيلسوفين عظيمين ، مع رجال الآداب مثل شوبارت وهولدرلين و ربان .

وفي شمال المانيا ووسطها نجد تشيعاً مماثلاً في جميع المدن : ففي غوتنغن نجد شلوزر و شتولبرغ ؛ وفي دتمولد الكاهن إيفالد ؛ وفي هامبورغ كلوبستوك الشاعر القومي في ذلك العهد ؛ وفي فيمار هردر نائب رئيس المجلس الملي و فيلاند مدير جريدة « مركور » و جان - بول ريختر ، وغوته وشيللر اللذين كانا أقل حماساً من غيرهما في حركة التشيع إلى فرنسا ؛ وفي فريبورغ الفيلسوف جاكوبي ؛ وفي كيل كانت الجامعة منقسمة : فممن كان ضد الأفكار الفرنسية المؤرخ نيبور ، وممن كان عليها كرامر وايليرز . وكان في المانيا في ذلك العصر مايقارب سبعة آلاف كاتب واكثرهم كان مع الافكار الفرنسية .

وفي خارج الاوساط الفكرية نجد الحماس للافكار الفرنسية عند الشباب وعند النساء . فمن ذلك أن كارولين بومر كتبت الى أختها : « لا أدري كيف اتجه . ان صحف اليوم تنبيء بأشياء عظيمة جداً لم تسمع من قبل وفاخرة حتى انني خرجت وأنا التهب من هذه القراءة » .

ونظم في هامبورغ عيد في ١٤ تموز ١٧٩٠ بمناسبة الذكرى السنوية للهجوم على الباستيل وسار موكب طويل في المدينة . وخرجت النساء وهن يرتدين ثياباً طويلة بيضاء مزينة بالأزرق والاحمر أي بالألوان الفرنسية . ومشى على رأس الموكب كلوبستوك وهو يحمل الشعار المثلث الألوان ويردد نشيداً نظمه لهذه الغاية وفيه يظهر تقديره واحترامه لفرنسا ويعتذر بأنه كان يجهلها في الماضي ، وفي ذلك يقول :

« ان غاليا تزدان بتاج مدني لا يضاهيه تاج آخر ، هذا التاج الذي هو أشد ضياءً واشعاعاً من التيجان التي لطخها الدم . إن كل ما كنت أشعر به وانا طفل وحاولت التعبير عنه في اشعاري يثير الآن روح شعب » . وكانت الصحف تقرأ في كل المانيا بشغف وتناقش بحرارة . وفي معرض فرنكفورت كان اهم ما يستهوي المشترين تلك المناديل التي طبع عليها « حقوق الانسان » .

أما المهاجرون الفرنسيون الذين التجأوا إلى المانيا فقد استقبلتهم الحكومات والارستقراطيون ، بجفاوه وأقيمت لهم الاحتفالات والأعياد . ولكن الطبقات الاخرى كانت تنظر اليهم شزراً ، لأن الرأي العام كان يكرههم ويعيب حماقتهم ورذائلهم . كتب فيلاند بهذا الصدد : « ان الشيء الذي يعز عليك أن تعض بأسنانك الغضب الذي يتملكك عندما ترى هذه الفضائح التي سمح هؤلاء الناس لأنفسهم بها على أرضنا . ولربما يريدون أن يجربوا تجربة خطرة وغير مفيدة وهي أن يعلموا الدرجة التي لا يستطيع عندها الصبر الألماني أن يكتم غيظه » .

وبعد حين حصل بعض التردد في الرأي الألماني ، ولا سيا بعد مذابح ايلول والارهاب . فقد شعر الناس وكأن الثورة حادت عن طريقها ، وفقدت طبعها ، وانقسمت الآراء : فبعضهم تحول عنها وقد

أوجس خيفة منها ، وهذا هو رأي الاكثرية لأن الثورة اصبحت سفاحة . وهذه هي نهاية الآمال التي عقدت عليها . فمن ذلك ان هردر وكلوبستوك أخذا يبددان أوهامها . وكتب شتولبرغ : « اذن هؤلاء هم الفرنسيون انفسهم . ان الشعوب ليست أهلاً للحرية إلا بالأخلاق والفضيلة » . وفي العام ١٧٩٣ ترجم غانتز ، وسيلعب دوراً دبلوماسيا هاماً باعتباره عاملاً لمترنيخ ، أهاجي بورك في الثورة الفرنسية ، وفي المقدمة التي لاقت نجاحاً عظيماً ، عارض النظريين بحقوق الاراضي واختلاف حاجات الشعوب .

وكذا غليوم هومبولدت فقد تأثر بادىء بدء بالأفكار الفرنسية وما عتم أن تحول عنها ولزم دراساته في علم الآثار . ومرت كراريس الاهاجي والقدح في الثورة الفرنسية في المانيا . وهذا التطور في الأفكار نلمسه في صحيفة شهيرة لغوته في روايته « هرمان ودوروتيه » حيث تظهر حماسة الالمان في بدء الثورة الفرنسية وتبدد أوهامهم بعد الارهاب : « بعد قليل تظلم السماء . ويتنازع الظلم عرقٌ خبيث غير أهل لفعل الخير . يذبح بعضهم بعضاً ويبغون على جيرانهم بعد أن كانوا يدعونهم ليكونوا اخواناً ... ان الحيوان المفترس لأقل فظاعة » ،

أمام رد الفعل الآخذ بالازدياد ، وكان له مايبرره في أعمال الشدة التي قامت بها الثورة الفرنسية ، فرّ كثير من أحرار الالمان إلى باريس مثل ربمان وكرامر والبارون دوترانك و ريخاردت . ولكن الكثيرين ظلوا ، رغم تبدد الأوهام ، مخلصين للأفكار التي تلقوها . فمن ذلك أن بنجامن كونستان في برنشويك ، حيث بدأ أول عهده في الادارة ، والشاعرين الابداعيين تيك و واكنرودر ظلوا أمناء للمثل الأعلى الفرنسي . كتب واكنرودر إلى تيك : أشاطرك حماستك للفرنسيين ، والطم الناس

الذين يتكلمون عنهم بابتسام . ان اعدام الملك جعل برلين كلها تتخلى عن نصرة الفرنسيين إلا أنا فمازلت على تفكيري السابق » .

وكتب **فورستر** : « ان نتائج الفوضى ، مهما بالغ في تسويدها دعاة الاستبداد ، ليست سوى ألاعيب أطفال إلى جانب القباحات التي يرتكبها الطغاة » .

أما **فيخته وشيللر وكانط** فقد ظلوا محافظين على مثلهم الأعلى الأول . إلا ان هؤلاء الالمان الاحرار كانوا يحظرون على أنفسهم ادخال الاصلاحات مباشرة في الدول الالمانية قبل أن يربى الشعب تربية كافية .

وهذا الانفصال بين الفريقين أو هذا الشقاق بين الطبقات التي رجعت الى رد الفعل وبين التي بقيت أمينة على المثل الأعلى الديموقراطي الفرنسي جرى من الوجهة الاجتماعية والاخلاقية لا من الوجهة القومية والوطنية .

ومع هذا فقد تدخل عنصر جديد : وهو الحرب بين فرنسا والدول الالمانية وخاصة بروسيا والنمسا . ولم تبدل الحرب وجهة نظر الالمان الذين تشيعوا لأفكار الجمهورية . وبقيت ألمانيا لامبالية امام انكسار النمساويين والبروسيين . ولا أدلّ على ذلك من فقدان المتطوعين في الجيوش التي ذهبت تحارب فرنسا ، حتى ان أكثر الحكومات اضطرت ، لنجدة جيوشها بالجنود ، أن تطبق نظام القرعة . والسبب في أن الحرب لم تحدث حركة وطنية في المانيا ضد فرنسا يرجع أولاً الى أنه لم يكن أي حقد عرقي بين فرنسا والامبراطورية ، وأمر الحرب كان بين الامراء الالمانيين والثورة . وهذا الأمر لايهم الألمانيين خاصة بل يهم الحكومات لا الشعوب . ومن الوجهة الفكرية والسياسية ، ان مصلحة الشعوب الى جانب الثورة الفرنسية التي تمثل الاصلاحات والحرية السياسية ، لا الى جانب الحكومات التي تمثل

الضغط والعنف والسلطة . وأخيراً ان الرأي الالماني ، كما عبرت عنه أكثرية الكتاب ، قد ألقى مسؤولية الحرب على الأمراء الالمانيين أنفسهم لا على فرنسا . ولكن عندما تشكلت الحركة القوميـــة في المانيا مؤخراً اخذ المؤرخون الألمانيون ، إما عن ارادة أو عن خطأ في النظر ، يلقون تبعة حرب ١٧٩٢ و ١٧٩٣ على الفرنسيين . ولكن الالمانيين المعاصرين كانوا متفقين على أن المسؤولية تقع على كاهل الحكومات الالمانية نفسها .

وعدم الاهتمام أمام الحرب نجده أيضاً أمام عواقب الحرب وأمام الاصداء السياسية التي تركها الظفر الفرنسي سواء في مؤتمر راشتاد عام ١٧٩٧ أو بعد ذلك في تعديل الامبراطورية عام ١٨٠٣ . كما ان تعصير املاك الكنيسة أو نزع الملكيات من أيدي اصحابها كما جرى عام ١٧٩٧و١٧٩٨ و ١٨٠٢ لم يوقظ أي معارضة في المانيا بل لاقى تأييداً . وفي الواقع ان السكان ليس لهـــم مايشكون من ذهاب الدول الصغيرة أو دول الاكليروس . وفي الوقت الذي بدأت به الحرب عام ١٧٩٨ بعد مقتل مندوب فرنسا في راشتاد كتب فيلاند في رسالة : « الآن والا فلا . لقد حان الوقت لاجراء سياسة المانية حقيقية . ولكنني نسيت أننا لسنا أمة بل خليطاً من أكثر من مائتي شعب » .

وسبب هذه اللامبالاة ، أمام التبدلات الأرضيـة التي جرت في غربي ألمانيا ، نراه فيما كتبه فلاسفة العصر عن تدني الطباع في المانيا المعاصرة : فقد كتب فيختـه يعزو « انحطـاط التفكير والقلوب الى حكم الامراء السيء لأنهم لايعرفون للحياة الانسانية مثلاً أعلى غـــير الرفاه . ان كل واحد منهم يبحث ماأمكنه عن رفاهه في الحياة دون أن يراعي التعاون الذي يربطه بالضرورة مع مواطنيه أو الأناس الآخرين ، ودون ان يتساءل ما إذا كان هنالك استعمال للحياة بشكل أفضل . ان الفردية وبالتالي

الأنانية هما صفة الاخلاق السائدة . » وكتب هذا أيضاً عام ١٨٠٤ في الدرس الثالث من « أسس العصر الحاضر » . ولا مرية في ان ضعف الطباع المتعارض مع قوة التفكير كان صفة من صفات المانيا المعاصرة ، وقد ذكرت ذلك مدام دوستال في كتابها « من المانيا » .

إن عدم الاكتراث عند الالمان تجاه التبدلات الأرضية التي جرت في امبراطوريتهم لم يكن ناشئاً عن ضعف الدولة العام بل عن سبب أعلى : وهو أن مفكري الالمان المعاصرين حافظوا على هذه الفكرة النقية في العلاقات بين الناس ، هذه الفكرة التي اخذوها عن فلاسفة القرن الثامن عشر ، وهي أن يوضع من جديد تاريخ كل شعب في حياة الانسانية جميعها ليجد معناه ونموه . ولا يعرف شيللر القومية الا من وجهة النظر الفكرية . وفي هذه النقطة يكمن الانسجام بين جميع الأمم : « أسمي الفكر القومي لشعب من الشعوب تماثل واتفاق آرائه وميوله في أشياء تفكر فيها أمة أخرى بصورة مغايرة » كما كتب أيضاً : « انكم تؤملون عبثاً تشكيل أمة من الالمان فافيدو من ذلك لتكونوا رجالاً كاملين » .

وعلى هذا نرى أن الرأي الالماني كان مشتتاً تجاه فرنسا عندما أخاف الارهاب الالمانيين . فهنالك مصالح مختلفة وعواطف وسياسة ولكن لم يكن هنالك مصلحة قومية ولا عاطفة قومية . وكتب فيخته أيضاً في الدرس الرابع عشر من « أسس العصر الحاضر » : « واني لأتساءل أيضاً ماهو اذاً وطن الأوربي المسيحي المتمدن حقاً ؟ انه أوربة بصورة عامة ، وبخاصة الدولة التي توجد على رأس الحضارة . وما المهم اذا توقف شعب في تقدمه أو أسقط في يده أو تجاوزته شعوب أخرى . فليبق ابناء الارض وكل من يرون الوطن في التراب والنهر والجبل ، مواطني الدولة التي سقطت : انهم يحفظون موضوع حبهم حيث علقوا سعادتهم .

ولكن الفكر ، ابن الشمس ، ينجذب بقوة لاتقهر ويولي وجهه شطر النور والحق . ففي هذا المعنى الوطني العالمي نستطيع أن نشهد تقلبات التاريخ وكوارثه ونحن مطمئنون على أنفسنا وعلى اعقابنا الى إلى آخر العصور » .

وهكذا يرى الالمانيون ان العالمية هي الوطنية الحقيقية . وقد كتب شيللر في رسالة الى صديقه كورنر في ١٣ تشرين الأول ١٧٨٩ : « ان جميع الناس المثقفين يجب أن ينظروا الى فرنسا كوطن حقيقي لهم » .

وعلى هذا نرى أن الثورة الفرنسية لم تولد الوطنية الالمانية . وان « الأمة » الالمانية بقيت شيئاً مثالياً محضاً ولم تغير الثورة الفرنسية مفهوم الالمان في هذه النقطة .

الحركة القومية اليونانية الاولى

لقد هزت الثورة الفرنسية القومية اليونانية وهي لاتزال تجهل نفسها بعد ، رغم ما كانت عليه من توافر العناصر لتعرف نفسها .

وفي الحقيقة ان تدريب الأمة اليونانية على الشعور بنفسها أتى من الخارج . وأول جهد بذل لفهم الدولة الاغريقية وتحقيق هذه الدولة كان من الخارج أيضاً . ولذا تمتاز الحركة اليونانية بالجمع بين الدفع الخارجي والزخم الداخلي . ولقد كانت الثورة الفرنسية فرصة لأول حركة قومية في اليونان .

قبيل الثورة الفرنسية كانت العواطف وظواهر المفاهيم التقليدية مستمرة وتتجلى في الحركة الفنارية ورجال الثقافة والنخبة المرفهة الناعمة السياسية والدبلوماسية التي تستخدم الوظائف الرسمية لتدبر المكايد والدسائس في

الخارج مع الدول المجاورة . وفي هذا العهد أيضاً كان مركز الحركة اليونانية في الأمارات الدانوبية وفي شخص الهوسبودارين في البغدان والافلاق اللذين يقيمان في بخارست وياسي مع حاشيتيهما وجالية التجار والمفكرين.

كان الفناريون اليونانيون ينظرون خاصة نحو روسيا ويفكرون في الاستفادة من الصعوبات التي تتخبط فيها الدولة التركية مع جيرانها ، وخاصةً في الصعوبات التي كانت قبيل الثورة بين كاترينا الثانية وجوزيف الثاني من جهة وتركيا من جهة ثانية . لقد أفادوا منها ليدبروا مؤامرةً عام ١٧٨٥ وكان على رأسها ابنا الهوسبودار يبسيلانتي في الأفلاق وقد اكتشفت هذه المؤامرة . ولولا الهوسبودار وتشابك العلاقات لما نجا الشابان من العقاب . يضاف الى ذلك أن الهوسبودار نفسه كانت له ضلع في هذه المؤامرة لأنه قبض بعد قليل ، أي في الوقت الذي أوشك أن يعين هوسبوداراً في الأفلاق ، على رسائله مع روسيا وكان موضوعها تأسيس دولة بلقانية تحت حماية روسيا . وقامت حركة مماثلة على يد زميله مافروكورداتو في ياسي (في البغدان) ولكن هذه الحركة الفنارية لم تنفذ الى كتلة الشعب اليوناني الذي لم يكن ليهتم باليونان ولا البلقان والقسم القاري من شبه الجزيرة . وفي الحقيقة ان هذه الحركة اصطدمت بترتيبات وملابسات جمة ، وذلك ان الهوسبودارين الروسيي النزعة ، يبسيلانتي ومافروكورداتو ، عارضهما فناري آخر مخلصٌ للأتراك وهو الجنرال مافرويني الذي عين هوسبوداراً للأمارتين وعهد اليه بقيادة الجيش التركي لصد هجوم النمساويين والروس . ولكن الجيش الروسي غلب مافرويني فقطع السلطان رأسه عام ١٧٩٠ .

هذه هي المفاهيم القديمة السابقة للثورة الفرنسية . ولكننا نرى تحت

تأثير الثورة الفرنسية ، نشوء اتجاه جديد من الناحية السياسية ، لأن الحركة تأخذ طابعاً قومياً لم يكن لها في السابق .

انتشار الأفكار الثورية . — لقد انتشرت الأفكار الفرنسية في اليونان بشكل يصعب تحديده وإمساكه وذلك لأن انتشار الافكار كان بطريق الاخبار والعدوى . وهذا الانتشار لا يترك أثراً في الوثائق . ومع ذلك فاننا نستطيع معرفة نفوذ وتغلغل الأفكار الفرنسية وهي مارة عبر فينّا . فقد كانت للامبراطورية النمساوية ، بالنسبة لتركيا، أهمية جغرافية عظيمة وذلك لأن الاراضي النمساوية تحيط بالامبراطورية العثمانية من الشمال والغرب . وكان في المدن الكبرى النمساوية كثير من اليونان ، حتى ان الجالية اليونانية في فينّا كانت عديدة وغنية وتضم كثيراً من التجار . يضاف إلى ذلك أن الحكومة النمساوية اعترفت في كانون الثاني ١٧٨٧ بوجود الجالية اليونانية كحادث مشروع . ولم يقلق وجود هذه الجالية الامبراطور بعد أن الفى فيها وسيلة للتأثير والتدخل في الامبراطورية العثمانية . وفي تشرين الأول ١٧٩٦ اعترف رسمياً بوجود الكنيسة اليونانية في فينّا ، وسمح بعد بضع سنوات أي في العام ١٨٠٤ بافتتاح مدرسة اغريقية رسمية . وكان اليونان في فينّا يمدون بالمال المدارس التي تعلم اللغة اليونانية والأدب اليوناني إلى أطفال الجالية اليونانية . ومن كان غنياً كان يعين لأولاده مربياً يونانياً . وغدت فينّا مركزاً للقاء عدد عظيم من المثقفين ورجال الفكر اليونانيين . ووجدت في فينّا دور يونانية للنشر وكانت على اتصال بمفكري امارتي البغدان والافلاق . وكان وضعهم القانوني كنمساويين يتيح لهم بسهولة علاقات وروابط مما لاتسمح به الجنسية التركية . ولذا كانوا ، بفضل الجوازات النمساوية التي يحملونها ،

يستطيعون التجول في سائر أنحاء الامبراطورية النمساوية وفي الامبراطورية العثمانية أيضاً بأمان واطمئنان .

وفي زمن الثورة أصبحت فينّا الاغريقية نقطة توسع للأفكار الفرنسية . ففيها أسست أول جريدة يونانية . وأسس الأخوان بوليوس ماركيديس ، وهما يونانيان من ماكيدونيا ، جريدة « ايفيميريس » وقد ظهر أول عدد منها في ٣١ كانون الأول ١٧٩٠ ، وصدر برسم يمثل بعث اليونان . ونراه ، في أول مقال له ، يتوجـــه إلى « صديقه القارىء » بالعبارة التالية : « ها هي ذي الجريدة المنتظرة الموعودة منذ زمن طويل ، كتبت بلغة شعبيـة ، تنمو كالنبات الصغير شيئاً فشيئاً وتزهر ، وأخـيراً تحمل ثمارها المفيدة » . وكانت الايفيميريس تصدر مرتين في الاسبوع بأربع أو ثمان صحائف من القطع الكبير ، ثم بالقطع المتوسط من ١٦ الى ٢٠ صحيفة . وفي العـام ١٧٩٣ رجعت إلى غايتها وسميت « مجموعـــة أهم الحوادث المعاصرة وأصدقها في العالم أجمع ، تلقفت بدقة وبدون ملل على منوال النحلة » . وتقول انها لا تقبـل « بأن تكون أمتنا المجيدة وحدها ، الأمة التي أضاءت العالم بعقلها وعلومها » مجردة من الصحافة .

ومن الطبيعي أن تصطدم الجريدة ببعض الصعوبات كالرقابة النمساوية والضابطة التركية . ولذا اضطرت الايفيميريس أن تهذب أعدادهـا التي تمر بالامبراطورية العثمانية ولا تترك فيهـا أقل خـــبر عن الامبراطورية العثمانية نفسها . ومن جهة أخرى كان محرروها ، باعتبارهم مراقبين دوماً من قبـــل الرقابة النمساوية ، مضطرين للامتناع عن كل تصريح يتناول الحرية . ولذا كانوا يقومون بدعايتهم بشكل دراسات تاريخية تذكر دائماً بالحوادث الهامة في التاريخ الاغريقي وبمجد الجدود . ويعلمون قراءهم بحوادث الثورة الفرنسية مكتفين بتسجيلها ، وأحياناً بشجبها . ولكن

هذا يسمح على الأقل بعرضها . فهم يعرضون الظاهرات التي مرت في فرنسا ، والحوادث العظمى للثورة ، والاعدام في عهد الارهاب ، ومغامرات الجنود الفرنسيين . ويلقنون قراءهم درساً في الجمهورية وذلك بنشر وتحليل مناقشات المجالس الفرنسية في حقوق الانسان وتحليل القرارات أو الدساتير الفرنسية . وهكذا وجدت رابطه أو صلة بين اليونان في النمسا واليونان في الخارج . وقد شعت هذه الجريدة في كل الامبراطورية العثمانية . ولذا كانت أداة تربية ونضال بشكل حذر على قدر الامكان ودعاية ناجعة . وقد نبهت تقارير سلطات الضابطة الى هذه الدعاية وأظهرت الروح الثورية والافكار الفرنسية التي كانت تنتشر بواسطة هذه الجريدة . ويجب الا ننسى ان النمسا كانت في ذلك التاريخ في حرب مع فرنسا . وتقول تقارير الشرطة ان الجالية اليونانية برمتها مسمومة بروح الثورة . وسنرى في الواقع ان هذه الجالية اليونانية ستشترك في المؤامرة عندما تبدأ .

وفي خارج فينا كانت الافكار الفرنسية تنفذ إلى اليونان بوسائل أخرى مباشرة ، وبطرق يونانية خاصة . لأن اليونان انفسهم كانوا ينقلونها . وذلك أن **اصحاب السفن والملاحين اليونانيين** كانوا يمونون الموانئ الفرنسية ، او الموانئ التي تحتلها فرنسا ، عندما تحاصرها الأساطيل الانكليزية والنمساوية وبعدها الروسية . حتى أن بعض زعماء هؤلاء الملاحين اشتركوا فيما بعد بحركة الثورة اليونانية مثل مياؤليس . لقد كان هؤلاء الملاحون يترددون على الموانىء الفرنسية ويتصلون بأفكار الحرية ، وعندما يعودون إلى بلادهم يحدثون بما رأوا وما شاهدوا وسمعوا ، فكانوا دعاة للثورة ، وكما قال أحد اليونان : « انهم يبيعون الحنطة والحلوى ويأخذون بالمقابل

مفاهيم الحرية ومبادئها » . ونجحت دعايتهم في اليونان ، لا سيا وانها كانت مطابقة للنهضة الفكرية والجهد العام في احداث المدارس آنذاك . وكان بعض هؤلاء الملاحين أو التجار عملاء سياسيين . ففي العام ١٧٩٢ عينت السلطات الدبلوملسية عملاء يونانيين في خدمة فرنسا يجوبون الامارتين الدانوبيتين وكانوا في الوقت ذاته مخبرين ودعاة .

وتألفت وسيلة أخرى للنفوذ بواسطة المحافل (الالواح) الماسونية : فقد تأسست محافل ماسونية يونانية في اوديسا وبخارست وباريس وبعض مدن المانيا . وانتسب اكثر اليونان المقيمين في الخارج إلى هذه المحافل . ويلاحظ ان مثل هذه المحافل الماسونية كان موجوداً ايضاً في الامبراطورية العثمانية في اقليم تساليا في مدينة آمبيلاكيا عند وادي تامبه في الجزر السبع . هذه هي المحافل المعروفة على وجه التأكيد . ومن البديهي أن يكون غيرها كثيراً . وكانت الماسونية تسمح لليونان بلم القوميين والدعاية لا سيا وان سر الماسونية صالح لهذه الدعاية . ويجب أن نذكر ان جميع الناس الذين اشتركوا في جمعية أو رابطة ١٨٢١ كانوا ماسونيين .

وكانت مدينة فرنكفورت الالمانية ملتقى جميع حركات الدعاية اليونانية في الخارج واشعاع هذه الدعاية . ومما يبرهن لنا على قوة هذا النفوذ اليوناني في مختلف الجهات هو ان يونانيين أرسلوا في بعثة من استانبول إلى باريس ولندن وميلانو ليطلبوا مساعدة فرنسا لليونان وعرضوا على الحكومة الفرنسية ، مقابل هذه المساعدة ، ان يتخلوا لها عن بعض الجزر اليونانية في بحر ايجه ويتعهدوا بالا يتاجروا الا مع فرنسا . وقد دل على ذلك تقرير وجد في وثائق ڤينا وكتب عام ١٧٩٧ وذكرت فيه حوادث السنوات السابقة .

ومما يدل على قوة الدعاية قلق بطريركية القسطنطينية . فقد كانت البطريركية موالية للنفوذ الروسي ، لأن الحكومة الروسية ارثوذكسية ،

ولها علاقة مع الفناريين الاغنياء ، وساورها القلق من اللادينية الفرنسية ونمو الأفكار الفلسفية التي تنشرها المحافل الماسونية والأفكار الديموقراطية التي تؤلف خطراً على هؤلاء الملاكين الاغنياء و التجار والارستقراطيين الفناريين .

وقد وجه البطريرك غريغوار الثاني ، الذي سيشنقه الاتراك عام ١٨٢١ ، إلى المطارنة بلاغات لمكافحة الأفكار الفرنسية ، وطلب إليهم ان يدلوا اليه ببيان عن جميع النداءات والأغاني والكراريس التي تنتشر فيها الافكار الفرنسية ويبعثوا اليه بها الى استامبول ، وأسس مطبعة في القسطنطينية ليكافح الدعاية للأفكار الفرنسية الحرة .

وأخيراً في عهد حكومة الادارة (ديركتوار) أصبحت دعاية الافكار الفرنسية أداة عمل سياسي . فقد ارسلت الحكومة عملاءها في كل مكان ، وخاصة الى الاقليمين الدانوبيين . وغدت قنصلية فرنسا في بخارست مجمعاً للدعاة حول القنصل غودن الذي أصبح فيما بعد اميناً لسر السفارة الفرنسية في استامبول وتزوج يونانية من جزيرة ناكسوس .

وهناك عميل آخر للديركتوراه ، وهو يوناني اسمه ساتاماتي . فقد عين عام ١٧٩٦ قنصلاً لفرنسا في استامبول ، ولكن الباب العالي رفض قبوله قنصلاً نظراً لأصله اليوناني ورضي به مستشاراً. وقد ذهب هذا في آخر العام الى مقر القيادة العامة الفرنسية في ايطاليا ليتلقى منها تعليمات الحكومة الفرنسية .

يضاف الى ذلك أن جاه الجنرال بونابرت دفع بدعاية الديركتوار دفعة كبرى . فقد كان بونابرت في نظر اليونان الجنرال الذي حرر ايطاليا وطرد النمساويين واتى بالحرية الى الايطاليين . فلماذا لا يعمل مثل ذلك لليونان ? لقد قضى على جمهوريه البندقية التي سيطرت على اليونان طويلاً ولم يقبل بها اليونان بملء ارادتهم ، وقد صفقوا بحماسة لانهيار البندقية . وشوهد ان تاجراً يونانياً اشترى عام ١٧٩٧ في معرض ليبزيغ ثلاثمائة

صورة لبونابرت لينشرها في بلده . كما يذكر ان صورة بونابرت كانت تعلق في القرى اليونانية بجانب الايقونـــة (صورة العذراء مع القديسين في الكنيسة اليونانية) وينظر اليـــه كنوع من إلـه للحرية . وقد ساعد احتلال الجيوش الفرنسية للجزر الايونيـة وشاطيء دالماسيا على اتساع هذه الدعاية .

وتأثرت على هذا النحو بعض المناطق اليونانية بنفوذ الافـكار الفرنسية . وتأسست فيها مراكز لأفـكار قومية وثورية . فمن هذه المناطق : الاقاليم الدانوبية وماكيدونيا وتساليا وابيروس وبيلوبونيز وجزر بحر ايجه .

وهكذا نرى أن بلاد اليونان كلها قد تأثرت بنفوذ الأفـكار الفرنسية اليها فـكان يسود فيها في العام ١٧٩٦ و ١٧٩٧ والسنوات التالية غليان شديد لا ينتظر الا الاشارة ليقوم بالثورة ويطالب بالاستقلال . ولقد نقل اليونان إلى لغتهم النشيد الفرنسي « لا مارسييز » وأخذوا ينشدونه . وهاهو ذا مقطع من هذا المارسييز اليوناني :

هيا يا أبناء الهيلانيين .
لقد حان يوم المجد !
لنكن أهلاً لهؤلاء الذين أعطونا المبادىء .
لنزح بشجاعة نير الظـلم .
لنثأر للوطن من كل إهانة شائنة !
وهذا هو الدور :
لنأخذ السلاح ، لنمش يا أبناء الهيلانيين !
وليجر دم الاعداء على اقدامنا أمواجاً .

ولقـــد كان اليونان ينتظرون فرصة سانحـة أو يحاولون أن يوجدوها ، ولا ينقصهم إلا الزعيم . ولقد وجدوا الاثنين : الفرصة والزعيم في العام ١٧٩٧ .

وعندما استولى الفرنسيون على الجزر الايونية بعد القضاء على جمهورية البندقية وحسب معاهدة كمبوفورميو ، أرسلوا إليها الجنرال جانتيلي الكورسيكي الاصل ، وقد دلهم عليه بونابرت ليستلم الجزر ويدير شؤونها . والمهمة التي عهد اليه بهابونابرت هي أن يذكر اليونانيين دوماً بأصلهم وبذكريات اليونان القديمة ، وألحق به آرنول عضو المجمع الفرنسي ، وكلفه ان يترجم إلى الاغريقية النداءات الفرنسية . وهذه النداءات مفعمة بالذكريات القديمة ووعود الحرية .

فمن ذلك قوله : « أعيدوا إلى الاسم اليوناني سناه الأول باستجماع قوتكم القديمة » أو « الحقوق التي بموجبها تحتفظ لكم فرنسا ، محررة ايطاليا ، والأيادي البيضاء التي أؤمنها لكم باسم الجنرال بونابرت وبارادة الجمهورية الفرنسية ، الحليف الطبيعي لجميع الشعوب الحرة ... » . ومن الجزر الايونية شعت الدعاية بصورة منظمة . وأرسل العملاء إلى جميع الجهات . وعلى الشاطىء الدلماسي والايطالي نُظّم مركزان للعمل في **داغوزه** وأنكونه حيث أقام ساتاماتي ، القنصل القديم ، لتنظيم ارسال النداءات والعملاء .

وكانت السلطات الفرنسية في الجزر الايونية على اتصال مع اليونان في النمسا بواسطة تريستا . وحاول اليونان في بلادهم أن يكونوا على صلة بهذه السلطات : فمن ذلك أن ظنّت بك أرسل ابنه في بدء عام ١٧٩٧ الى بونابرت ليضع موانىء شبه جزيرة **مانيا** تحت تصرف الاسطول الفرنسي . وتلقى بونابرت رسالة ظنّت بك عند عودته إلى ميلانو بعد حملته في مقاطعة ستيريا (النمسا) وكان إلى جانبه عمال مخلصون الى القضية اليونانية مثل **السيدة جونو** التي ستصبح دوقة آبرانتس وهي من أصل يوناني وتدعي أن نسبها يتصل بأسرة أباطرة القسطنطينية .

واستعمل الجنرال بونابرت والديركتوار طبيباً عالماً في النبات ، كورسيكي

الأصل من قرية صغيرة تدعى كارجيز وتسكنها جالية من اليونان واليونان الكاثوليك . واسم هذا الطبيب النباتي تيموستيفانوبولي . وقد عهد إليه بمهمة علمية ، كما يدعون ، ووقف في مركز قيادة بونابرت في ميلانو وسلمه بونابرت جواباً إلى ظنّنت بك . وهذا الجواب يؤكد للبك التقدير الذي يكنه الفرنسيون لقضيته « ولشعب مانيا الصغير الشجاع والوحيد ، من اغريقية القديمة ، الذي عرف كيف يحافظ على حريته » . و« المانيون الجديرون بأن يكونوا أبناء اسبارطة الخلص » . ووضع ستيفانوبولي وظنّنت بك خطة للقيام بعصيان قومي واسع ، ودعوا زعماء المناطق الاخرى الذين أتوا الى مانيـــا من اثينه وكريت وابيروس وماكيدونيا واليونان الوسطى . وقبـل مجلس الزعماء فكرة الثورة بحماسة شريطة أن يمدهم الفرنسيون بنجدة مؤلفة من ستة آلاف رجل ، وأن يأتي الجنرال بونابرت نفسه على رأس جنوده ، وترسل فرنسا الاسلحة الضرورية لليونان . وفي حال توطيد الاحتلال الفرنسي في البلاد يضع زعماء اليونان شرطين : أن تحترم نساؤهم ، وأن تترك لهم بنادقهم . ومن الثابت أن اليونان في العام ١٧٩٧ ظنوا أنهم على أهبة التحرر بمساعدة الجنود الفرنسية .

وهذه المؤامرة الوطنية وجدت في السنة نفسها زعيماً يونانياً أصله من تسّاليا اسمه **ريغاس فيليستينليس** أي من مدينة فيليستينو .

ريغاس . — يجمع ريغاس في شخصه كل العناصر التي تشكلت منها الحركة القومية اليونانية ويزيد عليها ايضاً الخصائص التي ستظهر فيما بعد في الحركة الاستقلالية . فقـــد ولد في **تسّاليا** حوالي ١٧٥٧ من أسرة تشتغل بالتجارة ونشأ في بيئة مثقفة ، وذلك لأن اقليم تسّاليا ومدينة فيليستينو كانتا مركزين من المراكز الفكرية في اليونان ، ونجد مكتبات

كبرى في زاغورا وآمبيلاكيا . بدأ ريغاس حياته معلماً واضطر لحادث لا نعرفه جيداً — كأن يكون شجاراً وربما كان قتلاً لتركي — أن يفر هائماً على وجهه في البراري والغابات وله من العمر سبع عشرة سنة . ثم ذهب الى القسطنطينية حيث عاش في الحي الفنـــاري بين حاشية أسرة يبسيلانتي وكان مربياً لأحد أبناء الهوسبودار . وفي هذه البيئة تعلم اللغات الأجنبية : الفرنسية والألمانيـة والافلاقية (الفالاشية) أي الرومانية . وعندما عين يبسيلانتي هوسبوداراً على الأفلاق أخذه معه أميناً لسره . وفي بخارست خالط الاوساط المثقفة وتعرف خاصة بالقانوني والعالم في فقه اللغة **كانتا تزيس** . وفي هذا الوسط أتم ثقافته الفكرية وثقافته السياسية . وكان واقفاً على المؤامرة التي دبرها آل يبسيلانتي عام ١٧٨٥ لأن الصداقة التي تربطه بزعـيم المؤامرة قسطنطـين يبسيلانتي ابن الهوسبودار ، والتي بقيت حية فيما بعد ، لدليل على ذلك . وكان على صلة أيضاً بالفقيه اللغوي **فانتوتيس** الذي كان في **ياسي** قاعدة البغدان (مولدافيا) ونشر آثاراً اغريقيـة ، وألف معجماً وكان يراقب المطبوعات الاغريقيـــة التي تنشرهـا مكتبة باومياسر في فينّا .

واشتغل ريغاس امينـــاً عند فناري آخر وهو **مافرويني** وكان لهذا اتجاهٌ سياسيٌ مغاير لآل يبسيلانتي لانه كان عاملاً للأتراك . ويبدو أن ريغاس قد تأثر لمقتل ما فرويني اثر انكساره أمام الروس وأوشك أن يعدم حياته لولا أن أنقذه الباشا التركي **باسفان اوغلو** . وبعد موت مافرويني بقي ريغاس في بخارست حيث اتصل برجـال الآداب وكبار الاغنيـاء اليونان في المقاطعتين الدانوبيتين . وقام بعدة رحلات الى النمسا وخاصة الى فينّا عام ١٧٩٤ . وانصرف إلى الدراسات الادبية والفلسفية والسياسية. وفي العام ١٧٩٠ نشر كتابين من آثاره ، الاول اسمه « مدرسة العشاق

اللطاف » وهو أثر درامي صغير . والثـاني تبسيط علمي وعنوانه « عناصر الفيزياء » حيث يبسط باللغة اليونانية الفيزياء الفرنسية والالمانية . وأعقب هذين الاثرين بكثير من الآثار الادبية .

إن كل ما نعرفه عن حياة ريغاس إنما هو قل من كثر ولكننا نستخلص منه صورة واضحة تقريباً عن شخصيته . فقد كان مثقفاً كبيراً ووطنياً يلتهب وطنية ، وواقفاً على كل ما يتعلق بالعالم اليوناني الفناري والاقليمين الدانوبيين وحتى النمسا . وعندما بدت النظريات الفرنسية في الأفق الفكري هام بالافكار الديموقراطية والافكار القومية . وخاض ، منذ البدء ودون أيّ تحفظ ، غمار الحركة التي نشأت عن الثورة الفرنسية . فقد اتصل منذ العـام ١٧٩٢ بدعاة الافكار الفرنسية ، وأكثرهم من اليونان ، الذين كانوا يجوبون البلاد للدعاية ، واحتك في زمن ما بالقنصلية الفرنسية وخاصة مع ساتاماتي . وتحمس لبونابرت وأرسل اليه هدية ، علبة تبغ مصنوعة من غار وادي تامبه . وعلى ما يظهر أن هذه الهدية لم تصل بونابرت . واختلط ريغاس بجميع الاوساط التي تهتم بالافكار الديموقراطية والافكار الثورية وعمت شهرته الآفاق .

كانت إرادة ريغاس ثابتة وترمي إلى تحرير اليونان فكرياً قبـل تحريرها سياسياً . وقد كتب عام ١٧٩٠ في هذا الشأن : « ولم أكتف بحبي لليونان أن أبكي حالة أمتي بل أردت أن أساعدها حسب وسائلي » . والشيء الهام أن ريغاس في آثاره يستعمل اللغة الشعبية التي يرفعها ، نوعاً ما ، الى منزلتها القومية . وقد كتب : « إن الشعب لا يحس بالذين يكلمونه عن منافعه إلا إذا خاطبوه باللغة التي يعرفها منذ المهد » . ولم تكن اللغة الميلانية في ذلك العهد إلا لغة اقليمية . بيد أنها أصبحت ، لغة الادب في آثار هذا العصر ، . وأراد ريغاس أن يوقظ عند اليونان

حب الوطن فترجم لهذه الغاية كتاباً ألفه الأب بارتلمي (١٧٧٩) وكان له في نهاية القرن الثامن عشر نجاح عظيم في فرنسا وأوروبة ، وعنوانه « رحلة الشاب آنا خارسيس » وأرفق ريغاس هذه الترجمة بتعليقات وشروح لجميع التلميحات التاريخية التي يتضمنها وجعل منه أثراً انتقادياً وأثراً تربوياً لابناء بلاده وأضاف اليه وثيقة تاريخية ، وهي مصور للعالم الهيلليني مع مخططات المدن والمداليات القديمة وجميع الدلائل الاثرية المكتشفة آنذاك . ويتألف المصور من اثنتي عشرة ورقة ، وهو أثر له قيمته العلمية لانه أول مصور لليونان ، وله معناه من حيث أنه يوضح لنا أفكار ريغاس . ففيه نرى مصور الهلنية البيزنطية لانه يشمل شواطىء آسيا الصغرى والقسم القاري للبلقان .

ولكن ريغاس كان ينتقل إلى العمل متى أمكنه ذلك . وقد رأى مشاريع بونابرت في ايطاليا ودعاية الديركتوار في العالم الشرقي . ففي العام ١٧٩٦ — ١٧٩٧ الذي كان بالنسبة اليه عام حملة ودعاية سياسية ، الف رسائل لينشرها فيما بعد في فينا بصورة سرية . وفي آب ١٧٩٧ ذهب إلى فينا ، وقد أعلم قنصل النمسا في بخارست حكومته بسفر ريغاس ، وأشار إلى انه كان على صلة عميقة بعملاء الثورة الفرنسية . ومذ وصوله إلى فينا جمع حوله الموجودين في فينا والنمسا وخاصة الشباب ودبر معهم مؤامرة وحركة دعاية كبرى وبذل في ذلك جهداً عظيماً : عقد الاجتماعات وجاب النمسا كلها ، وجمع الأموال من تجار فينا الأغنياء . وأصبحت جريدة « ايفيميريس » ، التي تأسست منذ عشر سنوات داعية هذه الحركة ، وكانت الأفكار التي تنشرها خطرة . وأعلم قنصلا النمسا في بخارست والقسطنطينية حكومتيها بها . واشترك ريغاس مع صاحب

الجريـــدة **بوليوس ماركيديس** سراً في طبع كراس ثوري ودستور لليونان ونشيد حربي اسمه « **توريوس** » .

وهيأ ريغاس دستوراً لاعلانه عنـــد تفجر الثورة في اليونان . وهو يتضمن توطئة مؤلفة من ٣٥ فقرة ودستوراً من ١١٤ مادة . ويرمي إلى تأسيس دولة يونانيـــة بلقانية تشمل اليونان الأصلية والقسم القاري من بلاد البلقان أي بلغاريا وماكيدونيا وجنوب صربيا الحالية . وجميع العناصر في هذه الدولة سواسية دون تمييز في العرق والدين . ويمنح الدستور في هذه الدولة البلقانية السلافيين ، وحتى الأتراك ، الذين يقون فيها جميع السلطة التي يمنحها لليونان . وهذا الدستور مستوحى من الدستور الفرنسي لعام ١٧٩٣ مع اقتباسات أخذها عن دستور العام الثالث للثورة الذي كان دستور فرنسا في ذلك العهد . وبمقتضى ذلك يكون على رأس الدولة الهللنية ديركتوار مؤلف من خمسة أعضاء . ويستند الدستور على سيادة الشعب وتحول فيه جميع السلطات إلى الانتخاب .

ومن ناحية الأرض نرى أن الدولة تشمل اليونان والبلقان وآسيـــا الصغرى . والفائدة الوحيدة التي يحصل عليها اليونان هي ان اللغة اليونانية تصبح لغة الدولة الرسمية . اذن نرى في هذا الدستور عنصرين هامين :

١ً — تقاليد الامبراطورية البيزنطية وهـذا ما سيسمونه في اليونان « الفكرة الكبرى » .

٢ً — تبني الافكار الفرنسية .

أما النشيد الحربي توريوس الذي طبع مع الدستور . فسيكون عنصراً أساسياً للدعاية بحفظه وغنائه وترديده على الاسماع في جميع الأوساط لنشر الأفكار القومية والثورية وخاصة في الطبقات غير المتعلمة الأمية

التي لاتصل اليها الدعاية بطريق الكراريس أو الصحف . ويتألف هـذا النشيد من ١٢٦ بيتاً ويذكر فيه ريغاس العبودية ، ويمجد الكلفت الذين يقاومون الأتراك : وقد كتب في بيتين شهيرين :

« إن ساعة حياة حرة لخير من أربعين سنة عبودية وسجناً » . وفيه يدعو جميع اليونان ، وحتى الذين يعيشون في الخارج ، أن يكافحوا في سبيل الحرية ، وفي ذلك يقول : « ان الهلاك في سبيل الوطن أجمل من تعليق شذور الذهب في سيف يخدم الأجنبي » . وينادي أيضاً جميع المغاوبين على أمرهم في الدولة العثمانية ويذكر اسمهم في قصيدته ، كما يهيب بسلاف البلقان حتى « باسفان اوغلو » باشا مدينة « فيدين » (في أقصى الشمال الغربي لرومانيا) الذي ثار على السلطان ، وجميع المشايعين أن يقسموا اليمين أمام الله ضد الظلم والفوضى . ولا يوضح ريغاس أكثر من ذلك لأن قصيدته تتوجه إلى اليونان والسلافين والارثوذكس والمسلمين وإذا دعت الحال إلى الكاثوليك ، وأخيراً يدعو الجميع إلى الاتحاد لتحرير اليونان .

حاول هؤلاء المتآمرون ، وعلى رأسهم ريغاس ، بمختلف الطرق أن يتصلوا بالفرنسيين . فمن ذلك أن ريغاس بعث إلى بونابرت ، وهو في مقر القيادة العامة في ايطاليا ، عدة رسائل ، لم تصله على ما يبدو ، بواسطة تاجر من بال . وكتب إلى سيس وبارتلمي ابن أخ الاب بارتلمي مؤلف « رحلة الشاب آنا خارسيس » والذي أصبح مديراً في حكومة الديركتوار . وأرسل جان مافروييي ، ابن اخ الهوسبودار السابق ذكره ، الى باريس في ايلول ١٧٩٧ ليتصل بوزير الشؤون الخارجية الفرنسية دولاكروا . وقد مر في طريقه من فرنكفورت التي كانت مركز اجتماع ودعاية هلينية وماسونية ولبث فيها شهرين تغيرت فيها

الحوادث وأخذت مجرى آخر . أما ريغاس نفسه فقد غادر فينا في شهر كانون الاول ١٧٩٧ إلى تريستا ، ومنها أراد أن يذهب إلى اليونان ليلتحق بالمتآمرين على فرض أنه يعرفهم ، أو أنه يحاول أن يثير اليونانيين . ومن الثابت الاكيد أن ريغاس أيضاً اعتمد على المساعدة التي يمكن للفرنسيين أن يمدوه بها لتحرير بلاده .

ولكن جميع هذه الاماني وكل هذه المحاولات التي قام بها اليونان قد اخفقت لسوء الحظ . فمن ذلك ان ستيفانو بولي الذي كان عميلاً وسيطاً بين بك مانيا والفرنسيين عاد إلى باريس مجهزاً بالوثائق التي أخذها من لاكونيا ولما وصل اليها وجد ان السياسة الفرنسية قد تبدلت لان بونابرت لم يرغب بان يكون على رأس ثورة كبرى في الشرق بل يتصور في ذهنه ترتيبات وتدابير أخرى . ولم يشأ الديركتوار مساعدة اليونان . لذا ارجىء مشروع الثورة الذي اشترط للقيام ٦٠٠٠ جندي فرنسي . وأخفقت الحركة ولم يحدث عام ١٧٩٨ سوى بعض ثورات صغيرة هنا وهناك علم في اثنائها موت ريغاس .

أما ريغاس فقد غادر فينا كما أسلفنا في الايام الاولى من كانون الاول ١٧٩٧ ووصل تريستا في العاشر منه .وسبق أن كتب عدة رسائل ليعطي تعليماته إلى مختلف اليونانيين في المدينة وفي جوارها . ولم يفطن ولاشك لصيغتها . ولسوء الحظ قبضت هذه الرسائل واوقف ريغاس ليلةوصوله إلى تريستا. ولم تترك الوثائق ، التي وجدت في متاعه ، من الكراريس السياسية ، والنشيد الوطني توريوس ، والدستور ، وقائمة المتآمرين ، مجالاً للشك في نواياه . وهذه الوثائق التي القي القبض عليها ساعدت على اجراء تحقيق في فينا واوقف ما يقرب من عشرين شخصاً ، ثمانية منهم رعايا أتراك .

وكانت النمسا في ذلك الحين في مفاوضات مع الاتراك لايجاد حل لبعض المشاكل ؛ منها ان النمسا كانت تريد خاصة من تركيا أن تسلمها الثوار البولونيين الذين التجأوا في الامبراطورية العثمانية . وكانت تفاوضها بشأن السفن التجارية التابعة للاسطول البند قي القديم الذي أصبح نمساوياً بموجب معاهدة كامبو - فورميو ، ولم تحصل هذه السفن بعد على رخصة للملاحة من الامبراطورية العثمانية . ولذا فان ايقاف الثوار اليونانيين كان موضع مساومة بالنسبة للنمسا مقابل البولونيين والسماح بالتجـــارة للسفن النمساوية . وسلمت الحكومة النمساوية الى الحكومة التركية ريغـاس والرعايا الاتراك الموقوفين فشنقوا في بلغراد في ٢٤ حزيران ١٧٩٨ . ومن الطبيعي عقب افتضاح هذه المؤامرة أن تستيقظ الشرطة النمساوية بما ألفت فتقضي على الدعاية وتشدد على الرقابة . فمن ذلك أنهـا الغت جريدة ايفيمريس وصادرت المطبعة .

وأخيراً كان الفرنسيون أنفسهم في حالة حرجة : لان التألب الثاني والحرب دارتا على السياسة الفرنسية . وضاعت ايطاليا بجيوش الديركتوار وأخذ الباشا التركي علي تبلين ثلاثة حصون أيونية على شاطىء دلماسيا. ووقف الاسطولان الروسي والتركي أمام كورفو في شهر آذار ١٧٩٩ وانضم اليها نبلاء كورفو حول كابو ديستريياس واضطرت الحامية الفرنسية رغم دفاعها إلى التسليم . ولذا لم يكن بالامكان انتظار أي مساعدة من الحكومة الفرنسية . وعادت الجزر الايونية الى تركيا على شكل جمهورية مستقلة استقلالاً ذاتياً وتابعة لتركيا على أن تحتلها الجنود الروسية . ومنحت الجزر دستوراً اريستقراطياً وساندت العناصر النبيلة النفوذ التركي والروسي لتعارض العناصر الديموقراطية التي ساندت النفوذ الفرنسي .

وهكذا انهارت أحلام اليونان سواء فيما يتعلق بمؤامرة مانيا أو ريغاس أو المساعدة الفرنسية . ولكن بقي من كل ذلك أمل واسطورة . ان شخصية ريغاس أخذت مكانها في سجل الشهداء اليونانيين . فمما ينسب اليه عند موته هذه الجملة التي لم يلفظها وعلى كل حال لم يستطع أحد أن يسمعها وينقلها وهي :

« لقد بذرت وستأتي الساعة التي يقطف فيها بلدي ثمرة جهودي الشهية » وأصبح ريغاس بطلاً قومياً ورمزاً للاستقلال . وفي العام ١٨٠٦ نشر على شرفه كراس صغير الفه طبيب شاب اسمه **كوليتيس** وسيكون له شأن عظيم في الثورة اليونانية المقبلة . أما النشيد الوطني « توريوس » فقد انتشر بسرعة فائقة في جميع العالم اليوناني وتعلمه الناس وثقفوا به الفكرة القومية ، وبقي حتى عام ١٨٢١ نشيد اليونان ويذكر لنا الرحالة والسياح أن الاهلين كانوا يبكون كلما سمعوا رجلاً ينشده .

ولا شك في أن عمل ريغاس والثوار كان سابقاً لاوانه . الا ان الفكرة القومية لم تنطفيء والمدارس والحركة الفكرية مازالت مستمرة . فقد تأسست في بخارست مدرسة ثانوية يونانية عام ١٨١٠ **وجمعية أصدقاء الآداب** . وأسس المفكرون اليونان في فينا مجلة أدبية صرفة ، لانه لم يعد بالامكان نشر مجلة سياسية ، تصدر مرتين في الشهر وتسمى « **هرمس العالم** » وصدر العدد الاول في ١ كانون الثاني ١٨١١ . وكان يديرها عالم اسمه **آنتيم غوازيس** . وهي نوع من موسوعة أدبية وعلمية في كل ما يتعلق باليونان ، وبصورة عامة تحليل لحركة الافكار المعاصرة وأرسلت هذه المجلة الى جميع المدارس وقرئت باقبال زائد ودامت ثلاث سنين .

وفي الوقت نفسه صدرت جريدة أسمها **البرق الهلني** أسست في ٢ تموز ١٨١١ ، وظهرت في بادىء الامر مرتين في الاسبوع ثم أصبحت يومية بعد ١٨١٢ . وكانت بين حين وآخر تنشر ملحقاً أدبياً . وفي العام ١٨١٢ ، أثناء الاحتلال الفرنسي الثاني للجزر الايونية صدرت جريدة باللغة الايطالية تدعى **جريدة الجزر الايونية الحرة** ولكنها كانت تنشر في كل شهر خلاصة باللغة اليونانية .

وهذه الجرائد ، التي تأسست في القارة في عهد الامبراطورية ، ستولد في المستقبل جرائد تصل هذه الحركة القومية الاولى بحركة الاستقلال : ففي ١٨١٩ ظهرت في فينا ايضاً مجلة اسمها « كاليوبي » أي « شيطان الشعر الحماسي والفصاحة » . وفي باريس عام ١٨١٨ تأسست مجلة اسمها « آثينا » وجريدة عام ١٨١٩ اسمها ميليسّا أي (النحلة) وبهذه السلسلة من الجرائد في فينّا والجزر الايونية وباريس تم الاتصال الفكري بين الحركتين القوميتين .

نرى مما تقدم ان مركز الحركة اليونانية انتقل الآن إلى الخارج ولكن اليونان لم تكن منعزلة عن ابنائها المهاجرين لأن جميع هذه الأفكار التي تظهر في الخارج ، تنفذ الآن إلى اليونان . ولم يكن اليونانيون ليصموا آذانهم عن اخبار هذه الحركة . ولكن الحركة بدلت شكلها ، لأن القضية لم تعد تحقيقاً سياسياً ، بل ان الحركة القومية اليونانية أصبح يفهم منها الآن أن التعليم والتحرر الفكري والوعي القومي يجب ان تسبق الحركة السياسية . وعندما تم تربية اليونان الفكرية يمكن الانتقال من العمل الروحاني إلى العمل الثوري . ولذا فان العمل الثوري أوقف بتمامه وأرجىء إلى المستقبل .

كوريه . — أما الرجل الذي يجسد هذا الشكل الجديد للحركة القومية فهو عالم اسمه **آدا مانتيوس كوريه** بمثل الهللنية في عهد الامبراطورية الفرنسية . وكان وطنياً متحمساً وعالماً محضاً . أصله يوناني ينتمي إلى أوساط فكرية واقتصادية . وأسرته من جزيرة كيو أكبر مركز فكري في اليونان حيث المكتبات الضخمة وحيث كان جده مولعاً بالكتب ويمثل في الوقت ذاته طبقة التجار . وكان أبوه تاجراً في ازمير حيث ولد آدامانتيوس عام.١٧٤٨ . وهو وان كان يوناني الاصل إلا انه كان اوربي الثقافة . أرسله أبوه إلى اوربة ليتعلم الطرق التجارية ، فذهب إلى امستردام لدراسة التجارة والمصارف ، وبقي فيها عدة سنوات . ومن هولنده رجع إلى بلاده ماراً بفينّا وتريستا والبندقية وأقام فيها ردحاً من الزمن وبقي سنتين غائباً عن ازمير . ثم ذهب عام ١٧٨٢ إلى مونبليه فى فرنسا وأقام فيها حتى ١٧٨٨ ودرس الطب وتتلمـــذ في الكيمياء على العالم شابتال . ومن مونبليه ذهب إلى باريس التي يسميها « آثينه الجديدة » حيث أقام نهائياً في الوقت الذي بدأت فيه الثورة الفرنسية في باريس .وفي فرنسا . وتحمس كوريه للأفكار الجديدة . إلا أنه كان على خلاف اليونان الآخرين في ذلك العهد . وعندما استولى نابوليون على السلطة في انقلاب بروميير كره كوريه ظلمه . وفي العام ١٧٩٨ الذي شنق فيه ريغاس نشر رسالة صغيرة أعرب فيها عن استيائه من النمسا التي سلمته للأتراك ، ونادى بالثورة وعرّف حالة اليونان في مذكرة عظيمـة عن حالة الحضارة اليونانية في ذلك العهد وقدمها عام ١٨٠٣ الى الجمعية العلمية التي تسمى : **جمعية مراعي الانسان** . ولكن هـذا الاتجاه الجديد نحو الثورة لم يدم طويلاً لأن كوريه انصرف الى عمل أعمق وأعظم وهو أثره الفكري .

وفي الحقيقة ان كوريه جعل من اللغـة اليونانية الحديثة لغـة أدبية

ولغة حضارة ، أي أنه اعطى بلاده هذا السلاح السابق لغيره وهو اللغة والشعور الادبي . وذلك بترجمته إلى اليونانيـة آثاراً في الطب انكليزية والمانية ؛ ثم ترجم الكتاب الذي أطلق شهرته وهـو مطوّل بـكاريا في « **الجرائم والعقوبات** » (١٨٠٢) . وفي الوقت الذي كان يترجم فيـه هذه الآثار العلمية والحقوقية الى اليونانية كان يقوم بنشر المؤلفين الاغريق القدماء . بدأ بنشر سترابون واستهل ترجمته بمقدمـة علمية عظيمة ، ونشر وترجم الفيلسوف **تيوفراست** عـام ١٧٩٩ ثم الطبيب هيبـو قراط ، والروائي **لونغوس** والمؤرخ الاديب **بلوتارك** وغيرهم . وفي ١٨٠٧ أسس مكتبة يونانية تحتوي آثار المؤلفين الاغريق الاقدمين المشهورين وثابر على ذلك حتى وفاته. وتضم هذه المكتبة ٢٦ مجلداً . وعمر كوريه طويلاً ومات عام ١٨٣٣ في سن الخامسة والثمانين .

وكان أثر كوريه الاساسي ان يعرف أوربة المفكرة بالفكر اليوناني. وهو أول من قام بالحركة التي سميت فيما بعد « **حركة محبي الهلنية** » . حقاً لقد شعرت القومية اليونانيـة بنفسها ووعت ذاتها . ولكن اثنينية الروح والجسد مازالت قائمة لأن ، روح اليونان في الخارج ، والجسد العاجز تحت النفوذ التركي . ولن تتولد حركة الاستقلال الا عندما ينضم هذان العنصران الى بعضها في حركة الجمعيات السرية السياسية والثورة عام ١٨٢١ واذا اجهضت الحركة القومية اليونانية الأولى في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر فهذا لايمنع من أن طابعها كان بخاصة قومياً .

ايرلنـــده

اذا كانت الثورة الفرنسية فرصة سانحـــة لليونان شعرت فيها بنفسها وحاولت ان تحقق قوميتها فقد كانت الحال على العكس ، فيما يتعلق بتأثيرها

في ايرلنده ، لأن الثورة الفرنسية حمّستْ الايرلنديين وقسمتهم على انفسهم بنتيجة الأخطاء التي جعلتهم يرتكبونها . ومن جهة آخرى ، أحدثت الثورة في انكلترا خوفاً وذعراً وجعلتها تزيد في حيطتها التي اتخذتها حيال الايرلنديين منذ قرون .

قبيل الثورة ومنذ ١٧٨٢ أي منذ أن خول الاستقلال التشريعي الذاتي الى برلمان دوبلن بين ١٧٨٢ و ١٧٩٠ كان يؤمل بتحسين في الوضع . وبدا رغم ذلك يظهر في الناحية الاقتصادية لأن امكان تصدير الحنطة وسع الزراعة قليلاً وساعد على تقدم صناعة القماش . ولكن هذا قليل من كثير ، لأن الحكومة الانكليزية ظلت مغلقة ابوابها دوماً في وجه المطاليب الايرلندية : فمن ذلك أنها طرحت في العام ١٧٨٥ مشروعاً تقدم به بيت وكان من الممكن أن يلغي التشريع الاقتصادي ويسمح بحرية المبادلات . وكان الصناعيون الانكليز يرغبون في بقاء سعر اليد العاملة الايرلندية المهاجرة مخفضاً ليساعد على انطلاق الاقتصاد الايرلندي . ولم يحدث أي تبدل في النظام القانوني الذي يثقل كاهل الفلاحين . ومع الأزمة الاقتصادية المستحكمة منذ ١٧٨٧ نرى عودة ظهور عصابة « الفتيان البيض » التي لاقت من ظلم برلمان ايرلندة ما كانت تلاقيه في السابق من البرلمان الانكليزي . ولم تفد من الاصلاحات التي اجريت في ايرلندة الا فئة الجنتري البروتستانتية التي وطدت عزمها على بقاء امتيازاتها والحفاظ عليها . ولذا فان المشكلة الايرلندية لم تمس مطلقاً . وابدى برلمان دوبلن أمام الحكومة الانكليزية كل انصياع واطاعة عمياء لأنه كان بروتستانتياً ولم تفد الكتلة الكاثوليكية من الاصلاح . وقد وضع غراتان برنامجاً للاصلاح الانتخابي يؤمن للكاثوليك بعض الاصوات ، إلا أن البرلمان الايرلندي المزعوم رفضه . ولم يشأ البروتستانتيون الذين يوجهون ايرلنده أن يجعلوا

للكاثوليك أقل امكان للاسهام في السلطة التنفيذية والسلطة الادارية وبقيت ايرلندة على هذه الحال تحكمها الارستقراطية البروتستانتية وتعامل اتباعها الكاثوليك بقليل أو كثير من العطف حسبما ترغب وتشاء .

وفي هذا الوسط ، على مافيه على مساوىء ، انتجت الثورة الفرنسية نتائج سحرية ، فقد هبت في ايرلنده عاصفة وطنية ومطاليب . وكان زعيمها محامياً شاباً من بلفاست بروتستانتي الأصل اسمه **تيوبالد ولفتون** جمع الايرلنديين الثوريين في جمعية تأسست عام ١٧٩١ وتسمى « **الايرلنديون المتحدون** » تديرها لجنة تنفيذية أشبه ماتكون بديركتوار تنفيذي وتتألف من خمسة أشخاص . وأعلن الايرلنديون المتحدون « حقوق الانسان » وطالبوا باصلاح البرلمان والمساوىء وقاموا بحملة كبرى ضد ظلم اللاندلوردات ورجال الكنيسة الانغليكانية . واتحد في هذه الحركة الموجهة ضد الارستقراطية الحاكمة ، المشيخيون الديموقراطيون في « اولستر » والايرلنديون الكاثوليك وأسسوا جمعيات سرية حديثة مثل : جمعية « فتيان الفجر » . وكان زعماء هذه الحركة تلاميذ روسو مثل **تاندي** و **اميت** و **اوكونيل** و **فيتزجرالد** . وتشكلت رابطات سياسية عديدة ، وبخاصة في شباط ١٧٩٢ ، مثل « اللجنة الكاثوليكية » التي حاولت أن تجمع في اتحاد فدرالي هذه الرابطات السياسية ، وطالبت بالغاء قانون تيست وبحق التصويت للكاثوليك ، وعرض غراتان هذا المشروع على البرلمان فرفضه . وطالب فريق في بلفاست الانفصال عن انكلترا .

وكانت انكلترا في صعوبات . فقد قامت حركة شعبية ديموقراطية في البلاد على أثر المحصول الرديء وغلاء الخبز في شتاء ١٧٩١ — ١٧٩٢ . وفي الربيع انفجرت الاضرابات في جميع المدن الصناعية . وسبب الاضطراب في انكلترا انتشار الافكار الفرنسية . وتأسس فيها حزب

راديكالي تبنى الافكار الفرنسية وطالب بمؤتمر قومي انكليزي ، وعقد في ايكوسيا مؤتمراً في تشرين الاول ١٧٩٣ اشترك فيه ممثلون ايرلنديون . وتبنى هؤلاء الديموقراطيون الانكليز فكرة منح ايرلنده حريتها . وقلق بيت البريطاني الاول من هـذه الحركة وحال دون توسعها بمنح بعض الامتيازات : ففي عام ١٧٩٢ خول الكاثوليك حق الوصول الى أن يكونوا محلفين . وفي عام ١٧٩٣ منح حق التصويت لمن يدفع ضريبة مؤلفة من ٤٠ شلناً كما في انكلترا . ولكنهم لم يمنحوا الحق في أن يكونوا مُنْتَخَبِين . وأرسل في عام ١٧٩٤ الى ايرلندة فيتزوليم الحر ليحكمها نائباً عن الملك . ولكن حركة الامتيازات هـذه اوقفت بسرعة لأن الانكليز خافوا من انتصار الديموقراطية في فرنسا . حتى ان ثورة ١٠ آب وانتخاب المؤتمر الوطني بالتصويت العام بعد اعدام الملك بقليل ومبالغة الافكار الفرنسية في الاتجاه الديموقراطي فصلت عن فرنسا عطف الانكليز وودهم . وتولدت في الوقت نفسه تعقيدات دبلوماسية بين البلدين . وقلق الانكليز من فتح مجرى الايسكو الاسفل في سبيل الملاحة الحرة . وأدت التعقيدات الى اعلان الحرب بين فرنسا وانكلترا في بدء شباط ١٧٩٣ .

ودفع الايرلنديون ثمن هذه المشكلة بين الدولتين ، لأن انكلترا قامت بحركة رد فعل شديدة ضد الأفكار الحرة وضد الايرلنديين . ومما يعرف عن الملك جورج الثالث انه كان يكره الكاثوليك ، وعن بيت أنه كان مسالماً قليلاً أو كثيراً . أما في هذه المرة فقد سلكا مسلك العنف والشدة . وطلب لوردات ايرلنده استدعاء فيتزوليم فعزل من منصبه في شباط ١٧٩٥ ، وحلت الحكومة جمعية « الايرلنديون المتحدون » واضطر فيتزجيرالد و ولف تون إلى الالتجاء الى فرنسا .

ونرى من جهـة أخرى ، ان العنصر البروتستانتي الحر في ايرلندة

انفصل عن الكاثوليك . وقلق الاكليروس الكاثوليكي من الاضطراب الذي انتشر في الارياف وحقد على فرنسا مكافحتها للاكليروس وتخلى عن ثوار ايرلنده بعد أن هاجته شدتهم وأخافته في شتاء ١٧٩٥-١٧٩٦ .

فكرت فرنسا أن تفيد من هذا الوضع . وقد حرّض ولف تون ، الذي التجأ الى فرنسا ، الحكومة الفرنسية أن تستخدم ايرلنده واسطة حرب ضد الانكليز ، وأرسلت « لجنة السلام العام » إلى ايرلنده القس جاكسون . الا ان السلطات الانكليزية اوقفته وسمم نفسه في السجن . وذهب ولف تون الى الولايات المتحدة لجمع الأموال اللازمة على أن يعود في شباط ١٧٩٦ ويقوم بقيادة العمليات في ايرلنده . ودبرت حركة داخلية ايرلندية وخارجية فرنسية . وحشدت الجنود الفرنسية في بريست تحت قيادة هوش مع اسطول يتألف من ٣٠ بارجة و ١٥ سفينة تحت قيادة الاميرال المساعد بوفيه . ولكن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح ، فقد وقف معظم الاسطول والحملة أمام جون بانتري في ٢١ كانون الاول ١٧٩٦ ولم تسمح حالة البحر بالانزال واضطر الاسطول بعد ثمانية أيام إلى الرجوع . وذهب هوش مع قسم من الحملة الى المكان الموعود فلم يجد سوى سفينتين وعاد الى لاروشل في ١٣ كانون الثاني ١٧٩٧ . ولكن مساندة الفرنسيين للايرلنديين جعلت الانكليز يعتبرون الايرلنديين اناساً متمردين . واجريت محاولة أخرى في بحر عام ١٧٩٧ على اثر أزمة مالية وسياسية انكليزية لا سيما وان السياسة الانكليزية آنذاك كانت تعطف على الايرلنديين لأن « اليعاقبة » الانكليز تبنوا الفكرة الايرلندية. وانفجرت ثورة قام بها الملاحون الانكليز في سبيتهد في نيسان ١٧٩٧ ، وخشى الانكليز امكان نزول الفرنسيين في شواطئهم فعقدوا مفاوضات مع حكومة الديركتوار في مدينة ليل في تموز ١٧٩٧ .

وليتخلص الانكليز من الايرلنديين بذروا بذور الشقاق الديني بين الكاثوليك والبروتستانت فكان ذلك عاملاً قطعياً في الفصل بين الايرلنديين والانكليز .

وتألفت عام ١٧٩٥ في منطقة اولستر « الجمعية الاورانجية » ونظمت العصابات لمكافحة الكاثوليك ودعت الحاكم فيتز غيبون إلى اضطهادهم . ويظهر أن الحكومة الانكليزية ارادت ان تثير العصيان لتقضي على ايرلنده دفعة واحدة ، وأرسلت لايرلنده حاكماً شديد البأس يسمى كاستريغ . وغاية هذه الحركة في اولستر أن يطرد الفلاحون الكاثوليك من كونتيات الشمال الشرقي في ايرلنده التي كانت في حدود اولستر وكونتية أرماغ المجاورة ، لأن فلاحيها الكاثوليك يشتغلون في حقول يملكها البروتستانت . وطاردت العصابات البروتستانتية العصابات الكاثوليكية خلال عامين واخرجتها من هاتين الكونتيتين ولم تبق أي صلة بين الراديكالية المشيخية والايرلنديين الكاثوليك . وتحالف البروتستانتيون طوال القرن التاسع عشر مع الحكومة الانكليزية ضد الايرلنديين ولم يعد أي امكان لتوحيد ايرلنده ، بل وجدت كتلتان : كتلة الايرلنديين الكاثوليك من جهة . وكونتيات الشمال الشرقي البروتستانتية من جهة أخرى .

ودفع البؤس والسياسة الانكليزية الايرلنديين إلى الثورة عام ١٧٩٨ ولكنهم اخفقوا . وكان هذا الاخفاق سبباً في حمل انكلترا على تغيير راديكالي في وضع ايرلنده السياسي بتقويض استقلالها الذاتي واتحادها مع انكلترا بموجب قانون الاتحاد .

عصيان ١٧٩٨ . — ويرجع إلى نفس المصادر التي ذكرناها آنفاً وذلك ان وولف تون دفع الديركتوار الى حملة ثانية ضد انكلترا ، ولكن السياسة الفرنسية كانت منهمكة في الحملة المصرية . وطيب باراس خاطر

الايرلنديين بمعسول كلامه فتشجعوا خطأ على الثورة . وأخبر خائن الانكليز بكل ماسيجري فارادوا استباق الحوادث . وفي ٢١ شباط ١٧٩٨ اوقفوا في دبلن زعماء الحركة وتمكن فيتزجيرالد من الفرار . وفي ٢٤ أيار انفجر العصيان في الجنوب في مقاطعة لينستر . وشق الفلاحون عصا الطاعة بدافع البؤس يقودهم الكاهنان مورفي ودوش وبروتستانتي يدعى هاوفيه . وكان العصيان عظيماً في كونتية ويكسفورد وكيلدار . وأرسلت الحكومة الانكليزية ٣٠٠٠٠ جندي بقيادة كورنواليس ، الذي اشترك في الحرب الاميركية ، فقاومه الثوار مقاومة يائسة وغلبوا في فينغار هيل و نيورروس ودحروا في جبال ويكلو . وفي الشمال اخمدت الثورة بسهولة وشنق الزعيمان ماك كريكن و مونرو ، والقي القبض على فيتزجيرالد ومات في السجن من جرحه .

وعندئذ نظمت حملة فرنسية ولكنها أتت متأخرة . وقسمت هذه الحملة على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : اجتمع في روشفور تحت قيادة الجنرال همبير ونزل في ٢٢ آب في كيلالا في مقاطعة كونوت ولم يكن لديه سوى الف رجل ، وغلب في أول الأمر ولكن جنوده طوقت واضطر للتسليم في ٩ ايلول .

القسم الثاني : ذهب من بريست وكان تحت قيادة هاردي و ولف تون . ولكنه تأخر لأن الانكليز اشتروا مفوض مالية الحملة فأعلمهم بخبرها وأخر الإبحار بابطائه في سير المعاملات القلمية . وما كان من الانكليز الا أن استقبلوا الحملة بالبحر وقبضوا عليها وانتحر وولف تون في السجن .

القسم الثالث : احتشد في دونكرك ولم يغادرها .

لذا كان العصيان والحملة الفرنسية دون أي نفاذ ، ورد الانكليز على المحاولة

بالذبح والقتل دون اشفاق أو رحمة وسحقت ايرلنده واستنفدت جميع قواها وسقطت في حالة اعياء شديد وفقدت كل أمل ، وكما قيل سقطت « جثة على مائدة التشريح » .

ورأت الحكومة الانكليزية أن تطمئن نفسها من ناحية ايرلنده بصورة نهائية فأخذت على عاتقها ادارة الجزيرة مباشرة . وكان بامكانها أن تفرض على ايرلنده نظام القوة ، إلا أنها رجحت أن تستعمل الرياء والمداهنة مدعية بأن ايكوسيا شهدت الرفاه والخصب بانضمامها إلى انكلترا وهذا ما سيطبق في ايرلنده . وأول عمل قامت به تطهير الوظائف العامة من الايرلنديين الوطنيين . واشترت بالجملة ، أي بالمئات ، ما سميناه المدن الفاسدة (المعفنة) لتكسب أكثرية الأصوات وباعت الألقاب « القاب الشرف » ، كما يقال ، الى الجنتري بمليون ونصف جنيه. ووعدت الكاثوليك بالتحرير مباشرة عقب ربط ايرلنده بانكلترا . واستطاعت بهذه الطريقة أن تجد لها انصاراً بين زعماء الايرلنديين الكاثوليك مثل رئيس أساقفة دوبلن . وبعد حصولها على الاكثرية جعلت البرلمان الايرلندي يصوت على « قانون الاتحاد » في ٥ شباط ١٨٠٠ ، وصدق عليه برلمان وستمنستر في شهر أيار ودخل في حيز التنفيذ في ١ كانون الثاني ١٨٠١ .

حذف قانون الاتحاد برلمان ايرلنده ، ومثلث هذه في مجلس اللوردات بـ ١٠٠ نائب بمعدل نائبين عن كل كونتية ، والباقي عن ٣٦ مدينة . وجعل حق التصويت بشروط خاصة إلى أعضاء الأصناف والمتصرفين في الأرض ، والى اللاندلوردات بكل بساطة .

وأقر قانون الاتحاد أيضاً حرية المبادلة المطلقة بين بريطانيا العظمى وايرلنده . ووزعت الضرائب على ايرلنده بنسبة $\frac{٢}{١٠}$ الميزانية الانكليزية . ولم تمزج الديون بل أن دين ايرلنده بقي عليها وحدها .

وأخيراً ترك مرسوم الاتحاد النظام القضائي مستقلاً .

ولكن التمثيل الايرلندي في البرلمان الانكليزي لم يكن ليمثل بحق ايرلنده . وأكبر دليل على ذلك أن النواب كانوا انكليزاً . ففي عام ١٨٠٧ مثلاً وجد على ٢٦ نائباً عن المدن أن ١٣ منهم انكليز . ولذا فان السلطة التشريعية كانت بيد انكلترا . ولما كانت السلطة التنفيذية والادارية بيدها من قبل فاذا لم يبق للايرلنديين شيء من السلطة المحلية . وكل ما ترك للايرلنديين هو وجود أمين لهم في الوزارة . واختلط الجيش والكنيسة بالنظم الانكليزية ولم يبق للايرلنديين أقل حماية سياسية ضد النفوذ الانكليزي .

بقيت ايرلنده بعد هذا في حالة ركود وجمود . وقد كتب شيللي : « ان ايرلنده تعيش في راحة فاسدة وتدعو الى الانحطاط ، ويقف كل واحد من الايرلنديين كالمحكومين بالأشغال الشاقة في بحر هادىء . ويبدو أن نبض الأمة قد توقف وأصيبت البلاد بالشلل الى القلب » . ومع هذا فقد كانت تعتري ايرلنده بعض هزات للدفاع عن الشرف أكثر مما تأتي بعظيم نفع وتثور دون أي أمل بالنجاح ولم تأت أية نجدة من فرنسا . أما الايرلنديون المهاجرون فقد الفوا في الجيش الفرنسي جوقة تسمى « الجوقة الايرلندية » وستقاتل مع بقية الجنود في عهد القنصلية .

ولكن هذه الحركات العصيانية كانت سبباً في تطبيق قوانين جزائية صارمة ضد الايرلنديين وخاصة بفرض القانون العسكري وتمديده . وزادت رقابة الانكليز للايرلنديين وكانت لهم مصلحة اقتصادية في ذلك بسبب الحصار القاري ، وساعدهم في تطبيق هذه السياسة الاولستريون (سكان اولستر) . وهكذا قامت هوة سحيقة بين أهل أولستر (الاورانجيون) وباقي ايرلنده .

غير أن الوسيلة الوحيدة الممكنة لمقاومة الانكليز أو السند الوحيد للحياة القومية الايرلندية هي الكنيسة . فقد رضخت الكنيسة في البدء لان حالتها المادية كانت سيئة ، ولم تكن هنالك كنائس بل قابلات ، وكان الكهنة الايرلنديون مضطرين لاقامة شعائرهم الدينية في الهواء الطلق أو في الاكواخ والأنبار المتوهنة المتهدمة . ثم ان حقد الثورة الفرنسية على الاكليروس باضطهادها للكهان فصل الاكليروس الايرلندي عن الافكار الحرة ، حتى أن بعض الاحبار وقسماً من « الجنتري » الكاثوليك اخذوا بوعود بيت بعد أن ادعى أنه سيعوض تحرير الكاثوليك بالاتحاد وقر الرأي أن تجري مفاوضة لعقد كونكوردات . وان المثل الذي سيضربه بونابرت في عقد الكونكوردات مع البابا كان بطبيعة الحال مشجعاً لهم بالسير في هذا السبيل . وفي سنة ١٧٩٩ بدأت محادثات بين عشرة اساقفة وبين الحكومة الانكليزية دون ان يستشيروا رأي زملائهم أو رعاياهم . وحبذت روما ذلك ودفعت للمفاوضات نائب البابا جون مونر ورتبت المسائل كما يلي: على الحكومة الانكليزية أن تدفع رواتب الكهان الكاثوليك ، وبالمقابل يعترف لها بحق « الفيتو » أي حق الاعتراض على تعيين الاساقفة . وهذا يعني ان الحكومة الانكليزية لها الحق في أن تعترض على قائمة المرشحين للاسقفية قبل أن تعرض هذه القائمة على روما ، وعلى الحوارنة أن يقسموا يمين الولاء للحكومة الانكليزية بين يدي الاسقف الذي يبلغهـا ذلك . وطالت المفاوضة وأثارت حولها ضجة بعد أن استاء بقية الاساقفة بعدم اشتراكهم في المفاوضات ، ونخص بالذكر منهم اوريلي رئيس اساقفة أرماغ وموبلاند رئيس أساقفة كورك ، اللذين قاما في وجه تروي رئيس اساقفة دوبلن وكان يدعم المفاوضات . واثارت المفاوضات سخط العلمانيين وبخاصة صوت محام شاب ظهر اسمه لاول مرة وهو اوكنيل .

تجاه هذا الاستياء العام أبدى الاساقفة المفاوضون تراجعهم واجتمع رجال الاسقفية وصرحوا بالاجماع أن لاسبيل إلى تبدلٍ في حالة الكنيسة . وبقيت القضية معلقة .

على أن بعض الهويغ الانكليز كانوا يحبذون إلى حدٍ تحرير الكاثوليك ، مثل فوكس ، زعيم حزب الاحرار . وفي ١٨١٢ أخذت اكثرية الهويغ بعين الاعتبار اقتراحاً قدم لتحرير الكاثوليك مقابل ضمانات تطلب من الايرلنديين . الا ان هذا الاقتراح رفضه البرلمان عام ١٨١٣ . ولم يعد الايرلنديون يعتقدون بامكان الاتفاق مع الهويغ . ولما كان بلاط روما ينصح بوجوب سياسة التوفيق والمسالمة فقد ارسل اليه الاساقفة مذكرة شديدة اللهجة : « اننا لا نستطيع أن نتصور بأن خوفنا على سلام الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في ايرلنده يمكن أو يجب أن يزول بقرار من الكرسي الاقدس يتخذ دون مساعدتنا فحسب ، بل يخالف ما عزمنا عليه مراراً » . ومن بين المعارضين لكل مفاوضة نذكر دويل اسقف كيلدار الذي سنتكلم عنه عندما نتكلم عن الحركة الغائلية السلتية .

وهكذا نرى أن اساقفة ايرلنده ، بعد الانصياع في البادىء ، أخذوا يقاومون ولم يشاءوا ان يضحوا بالقضية الايرلندية في سبيل نفع قريب تجنيه الكنيسة ، ولا سيا بعد أن عرفوا ان المطالبة بأي امتياز يرفضها الانكليز . يضاف إلى ذلك ان الملك كان مناوئاً لاي طلب من هذا النوع . وكلما اثير شيء من هذا وقف الانكليز كتلة واحدة ضد ايرلنده .

وتطورت على هذا النحو أفكار الاكليروس الايرلندي وأخذت اتجاهاً قومياً واضحاً : فمن ذلك انه أخذ على عاتقه تثقيف رجاله . وبفضل القانون ١٧٩٥ استطاع ان يفتتح عام ١٧٩٦ مدرسة اكليركية في ماينوث وكان اساتذتها الاوائل كهان أتوا من فرنسا ، وهم دكاتره من جامعة الصوربون

مثل الاب دولاهوغ من باريس، وآهرن من شارتر، و دلوست من بوردو . وكانوا بتعاليمهم الغاليكانية يبشرون بالانصياع إلى الحكومة . وانتسب إلى هذه المدرسة الاكليركية ابناء الفلاحين . وكان هؤلاء يعرفون بؤس عائلاتهم وثقل الحكم الانكليزي عليهم ويحقدون على اللاندلوردات ، فلم تؤثر التعاليم الغاليكانية فيهم من الناحية القومية . وتخرج من هذه المدرسة خوارنة واساتذة واساقفة قوميون متحمسون يلتهبون قومية . وأول عمل قاموا به انهم أجبروا الزعماء الانتهازيين على لزوم الصمت وانكروا عليهم كل أفعالهم . وتزعم الاكليروس في النصف الاول من القرن التاسع عشر حركة المقاومة والمطاليب والتف وراء اوكنيل للقيام بحركة التحرر ، واهتم بمشاكل التربية، وعمل على تثقيف وتربية الجمهور الايرلندي ، واوقف حركة الدعاية الانغليكانية التي قامت منذ صك الاتحاد : فمن ذلك أن الانغليكانيين أسسوا جمعيات روحية وانسانية لجلب عطف الايرلنديين بالهدايا والمنح والاعطيات وتوزيع الاغذية . وسميت هذه الحركة التي قام بها الانغليكانيون باسم غريب « الشوربية » ولكن الايرلنديين لم يبيعوا روحهم القومية بالشوربا . وأسس الكهان عام ١٨٠٢ جمعية « الاخوة المسيحيون». وفي ١٨٠٧ « معهد اخوة القديس باتريك » وكلتاهما تهتمان بتربية الاطفال والتعليم الابتدائي . كما اهتمت « اخوات الاحسان » بتثقيف الفتيات .

لاشك ان الحصول على النتيجة المتوخاة من مثل هذه المؤسسات يحتاج الى وقت ، ولذا لانرى حتى عام ١٨١٥ قوة يتمثل فيها رد الفعل . لأن الايرلنديين لم يشعروا بعد بالتماسك والتضامن الكافيين . الا ان الروح القومية استيقظت ولن تمحي ابداً ، وستظهر بحركات مفاجئة ، وينتظر الايرلنديون الفرصة للقيام ، ولهم شهداؤهم ولهم اساطيرهم التي يغذون.

بها تقاليدهم . لقد تجسدت الفكرة الايرلندية بالكنيسة ؛ والروح الايرلندية بالكاثوليكية والعاطفة الدينية . وهكذا وجدت القومية الايرلندية شكلها الأول في الدين .

هذه هي الحركات التي نرى فيها تأثير الثورة الفرنسية. واذا استثنينا المانيا الغربية وايطاليا نرى ان الثورة اثرت بأفكارها اكثر من أفعالها . فقد نشرت فلسفة روسّو السياسية وبعثت فيها قوة اتساع لاتقاوم .
ولكن ماهي نتيجة هذا التأثير من وجهة النظر القومية ؟

ان الثورة الفرنسية بالنظر الى طابعها العقلي والعام تنزع الى ابداع فكرة جديدة مغايرة من حيث الاساس للفكرة المسيحية في القديم . وهذه الفكرة الجديدة هي الوحدة الروحية الأوربية . وذلك لأن الافكار التي ألهمت رجال الثورة يمكن ان تطبق على أي انسان وأي بلد . فمن ذلك نرى ان الجمعية التأسيسية في قرار ٣٠ تشرين الثاني ١٧٩٠ تمنح الجنسية الفرنسية من تلقاء نفسها لكل أجنبي يقيم في فرنسا منذ خمس سنوات وحصل على ملكية أو تزوج فرنسية اوتعاطى فيها التجارة . والشرط الوحيد الذي كان يفرض عليه هو اليمين المدنية . وعندما كانت فرنسا تحارب ضد أوربة أي ضد النمسا وبروسيا اتخذت الجمعية التشريعية قراراً تمنح ١٨ رجلا عظيماً ومفكراً أجنبياً . والاسباب الموجبة لهذا القرار ذات معنى ، وتساعد لتفهم آراء رجال الثورة وسلامة نيتهم ومثاليتهم وايمانهم وها هو ذا نصها :

« بما ان الرجال الذين خدموا قضية الحرية وهيأوا تحرير الشعوب بمؤلفاتهم وشجاعتهم لايمكن ان ينظر اليهم كأجانب من أمة حررتها أنوارها وشجاعتها ؛ وبما ان اقامة خمس سنوات في فرنسا تكفي الأجنبي

للحصول على صفة مواطن فرنسي ، فان هذه الصفة يصح منحها الى الذين ، مهما كانت الارض التي يقيمون عليها ، رصدوا سواعدهم وعناءهم للدفاع عن صالح الشعوب ضد استبداد الملوك وطرد اباطيل الارض والحد من طغيان القوى البشرية؛ وبما انه ليس بالامكان ان يؤمل في ان الناس يؤلفون ، في يوم ما ، أمام القانون كما في الطبيعة ، أسرة واحدة ورابطة واحدة ، فان اصدقاء الحرية والاخاء العام يجب ان يكونوا على الأقل اعزاء على أمة أعلنت عزفها عن كل فتح ورغبتها في التآخي مع سائر الشعوب ؛ وأخيراً ، بما ان المؤتمر الوطني سينعقد يوما ، فمن حق الشعب الكريم الحر ان يدعو جميع الأنوار ويمنح حق الاسهام في أعمال العقل الكبرى الى أناس أظهروا بعواطفهم ومؤلفاتهم وشجاعتهم انهم بحق اهل لذلك . »

اذاً نرى فيهذه الافكار، التي نشرتها الثورة الفرنسية فياوربة ،مثلا أعلى للاخاء العالمي بعيداً عن فكرة القومية .

ومع هذا فان الثورة الفرنسية ، في النداء الذي وجهته إلى الشعوب ، كانت ترمي إلى تحليل دول النظام القديم لتركيب عناصرها على أسس أخرى ذات طابع قومي. ولذا يمكن اعتبار الثورة الفرنسية في هذا المعنى فرصةً وعنصراً لمطاليب القوميات المغلوبة على أمرها . ولكن المثل الاعلى عند رجال الثورة بقي يهدف إلى تأسيس جمعية أمم حرة . وفي عملية التحليل هذه ثم التركيب على أساس قومي لا تخرج الثورة عن مثلها الاعلى في الاخاء العالمي الذي تتضمنه نظرياتها .

وفي كلتا الحالين كان تأثير الثورة في عالم الافكار يفوق عملها المادي .

لقد اثرت في أوربة في ذلك الحين وفي الآجل البعيد . وعاشت الثورة بعد ان انقضت ، و بقيت عالقة في ذهن الشعوب كقصص الابطال والاساطير . لقد بقيت كفكرة قوة ومنهاج ، ولذا كان من الحق ان ينسب أصل الفكرة القومية إلى الثورة الفرنسية .

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع

أوروبة النابوليونية والقوميات

انتهت الثورة الفرنسية بانتهاء السنوات الاخيرة من القرن الثامن عشر . وتبعها حكم نابوليون . ولكن هل كان نابوليون تتمة للثورة أو لم يكن ؟ لقد انقسم المؤرخون : فمنهم من يقول ان نابوليون يشخص الثورة ، ومنهم من ينفي ذلك . ويرى الاستاذ جورج لوفيفر مؤلف كتاب « نابوليون » من مجموعة « الشعوب والحضارات » أن اوربه تنظر الى نابوليون نظرها إلى الثورة، وان ما يسميه « سياسة نابوليون القارية » ان هو إلا تحويل نابوليون لاوربه على أسس الافكار الثورية . ونستطيع في عالم القوميات ان نحقق هذه النظريات : وذلك لان الامبراطورية عملت على تفتح القوميات اكثر من الثورة سواء في النتائج المباشرة التي حصلت عليها ، اما لانها أرادت هذه النتائج أو لان هذه النتائج كانت بمثابة رد فعل ضد الامبراطورية ، أم في « الاسطورة النابوليونية » التي وضعها الامبراطور في جزيرة القديسة هيلانة وفسرها لويس نابوليون ابن اخيه أو المعجبون به . ولكن هل أراد الامبراطور حقاً هذه السياسة في خلق القوميات ؟ ان أول ما يجب علينا هو الحذر مما قاله نابوليون عن نفسه ، لاننا نجد في تصريحاته كثيراً من التناقض . ولذا ينبغي قبل البت برأي حاسم ان نرى عن كثب ما هو فكر نابوليون وما هي سياسته ؟ .

أفكار نابوليون وسياسته . — إذا أخذنا نابوليون ككل ونظرنا إليه جملة وجب أن نأخذ بعين الاعتبار تطوره مع الزمن والظروف وتبدل طباعه التدريجي وتبدل شخصيته ، لأن ما يكون حقيقة في زمن ما من حياة نابوليون لا يكون حقيقة في زمن آخر . ولذا يجب أن نميز الأدوار التي مر بها نابوليون لأن مفاهيمه تبدلت مع الزمن .

لقد كان نابوليون عقلاً مشخصاً حسياً ، وكانت ثقافته من جهة أخرى اتباعية . درس التاريخ في مؤلفات **هينو** رئيس برلمان باريس (١٦٨٥ - ١٧٧٠) واليسوعي الفرنسي **فيللي** (١٧٠٩ — ١٧٥٩) . ولهذه الأسباب المختلفة لم يكن لديه مفهوم فكري عن الوطن كما كان للثورة . فالوطن بالنسبة اليه الأرض والبلد . وكل ما حفظه عن نظريات الثورة الفرنسية هو « الحدود الطبيعية » وقد بقي متعلقاً بهذه الفكرة طوال عهد الثورة والقنصلية . وإذا ما استثنينا ضمه لجزيرة **البا** في ٢٦ آب ١٨٠٢ **وبيمونت** في ١١ ايلول من السنة نفسها وضمه في عهد الامبراطورية جنوة (١٨٠٥) فان نابوليون يزعم بأنه بقي أميناً لمذهب الحدود الطبيعية . وسواء تصنّع أو بقي مخلصاً فهو يزعم خلال مرات عديدة أنه مؤمن بفكرة فرنسا في حدودها الطبيعية . ولقد صرح عام ١٨٠٧ إلى وفد من البورجوازيين في برلين : « إنني لم أشأ الحرب . إن الراين يكفيني » وعندما ضم **هامبورغ ولوبك** إلى الامبراطورية في كانون الأول ١٨١٠ صرح أيضاً بما يظهر متناقضاً تماماً لما يفعل : « لقد رأينا ألا ندع مجالاً للشك في نيتنا ، إن دولنا المباشرة لا تتجاوز الراين » . حتى انه في مفاوضاته عام ١٨١٣ — ١٨١٤ مع الحلفاء كانت فرنسا بالنسبة إليه فرنسا الثورة ، فرنسا الالب والراين .

ولم يكن مفهوم الثورة الفكري والعام مفهوم نابوليون ، لأن مفهوم الثورة لفرنسا جغرافي محدود بالبيرينه والالب والراين . أما نابوليون فقد أظهر منذ البدء تلاعباً بحق الشعوب : فعندما أجرى الاستفتاء في هولنده على الدستور الجديد الذي تقدمت به القنصلية إلى الهولنديين وجد (٢٥٠٠٠ لا) و (١٦٠٠٠ نعم) . وهذا يعني أن الهولنديين رفضوا الدستور . ولكن نابوليون تخلص من المشكلة بضم الممتنعين وعددهم ٣٤٧٠٠٠ . واعتبرهم في حكم « نعم » . يضاف إلى ذلك أن نابوليون كان يضم البلاد دون استشارة الشعوب ، على عكس ما رأينا زمن الثورة . فقد حوّل الجمهورية الايطالية إلى مملكة في ١٢ تشرين الثاني ١٨٠٢ دون أن يستشير شعب ايطاليا الشمالية . وفرض على كانتون فاليه في سويسرا دستوراً في ٤٨ آب ١٨٠٢ دون استشارة الشعب . ولنذكر أن هنالك فرقاً أساسياً بين الاستفتاء النابوليوني الذي كانت غايته التصديق على الأمر الواقع والاستشارات أو الريفراندوم التي ترمي إلى إظهار ارادة الشعب . ولذا يمكن القول ان نابوليون كان يبيع بثمن بخس نظرية « العقد » الثورية التي تجعل الوحدة القومية مستندة على الرضى الحر والاتفاق الحر بين الشعوب .

ولكن الامبراطورية بعد هذه السنوات الاولى جنحت نحو مفهوم آخر وهو مفهوم « الوحدة الأوربية » . فمنذ ١٨٠٥ — ١٨٠٦ بدأ نفوذ فرنسا السياسي بالتوسع وتتابع حتى ١٨١٠ عندما أصبح أكثر من نصف أوربة تابعاً لفرنسا من الوجهة العملية . لا شك في أن هذا النفوذ الفرنسي يعتبر نقضاً لنظرية القوميات إلا إذا كان مفهوم الوحدة الأوربية عند نابوليون يعني مفهوماً اتحادياً (فدرالياً) بين الأمم ، أي مفهوم الدول المتحدة الاوربية .

ولقد كانت الدعاية التي يقوم بها نابوليون في تصريحه إلى أوربة أن انكلترا اضطرته إلى التوسع في أوربة القارية إلى ما وراء الحدود الفرنسية ، وأن هـذه الوحدة الأوربيـة موجهة ضد انكلترا . وأفاد نابوليون من انتشار هذه الفكرة في أوربة لأنها كانت تستند على الحقد الذي أنمته حروب الثورة ضد انكلترا في نفوس الفرنسيين . ولكن مفهوم الوحدة الأوربية التي اريد تحقيقها ضد انكلترا لم تناقشه آراء العصر وكل ما في الأمر أنه قبل في فرنسا وفي أوربة هـذا التفسير للسياسة النابوليونية . وإذا تركنا جانباً مشكلة القاء التبعة في هذه الحرب فما هو الحقيقي في هذه الفكرة ؟ إن بنود معاهدة **برسبودغ** (كانون الأول ١٨٠٥) ومعاهدة **تيلسيت** (٨ تموز ١٨٠٧) ومعاهدة **فينتا** ترمي إلى أشياء مغايرة للكفاح ضد انكلترا ولا يمكن ايضاحها بهذه الفكرة . إن الشيء الوحيد الذي يوضح السياسة الفرنسية هو **الحصار القاري** لأن هـذا الحصار ، وهو سلاح اقتصادي ضد انكلترا ، يفرض الوحدة الأوربية ويفرض أن أوربة كلٌ اقتصادي يعارض الجزيرة الانكليزية ويغلق أبوابه في وجهها . وفي الواقع ان نابوليون اضطر ، لتطبيق الحصار القاري ، إلى وضع يده على الشواطىء ليغلقها في وجه الانكليز . وإذا وجد حقيقةً في الحصار القاري فكرةٌ في وحدة القارة ضد انكلترا فان نظام الحصار كان متأخراً وقصيراً جداً ولم يكن بامكانه احداث تضامن أوربي حقيقي ، وان صعوبات تطبيقه زادت في قوة المعارضة التي نجمت ضد نابوليون بسبب فرض نظام القرعة والخدمة العسكرية الاجبارية والضرائب وثقل الحكم الفرنسي . وفي الحقيقة ان الحصار القاري لم ينمّ العاطفة الأوربية لتحل محل الوطنيـة العالمية التي نادت بها الثورة الفرنسية أو لتزيل الخصائص القومية الموجودة

من قبل . ولذا فان فكرة الوحدة الأوربية ضد انكلترا يجب ألا تعتبر في ميزان القومية .

لقد وضع الامبراطور أفكاراً مختلفة ومتناقضة جنباً إلى جنب . فقد كانت النظريات والمفاهيم تظهر تباعاً في سياسته مع تسلسل الحوادث والظروف والفرص . ويتوضع بعضها فوق بعض . ففي البادىء ، كما رأينا ، وجد تراث الثورة وهو فرنسا المعرّفة بحدودها الطبيعية مضافاً إليها ما احتلته في ايطاليا . ولكن يجب أن نعلم أن هذا المفهوم ليس سوى مفهوم موسع لفرنسا لأننا نجد عنصراً أجنبياً أوجده نابوليون بنفسه وهو « الجمهورية الالبيه » التي أصبحت فيما بعد « الجمهورية الايطالية » وكانت في فكر نابوليون منذ البدء نقطة انطلاق لنفوذ شخصي لأن نابوليون فكر منذ ذلك الحين باحداث مملكة له ، ولكن هذه الفكرة سرعان ما ذهبت لأنها أصبحت عديمة النفع بعد أن ساعدت الظروف نابوليون على أن يكون سيد دولة أوسع بكثير وأكثر أهمية مما يمكن أن تكون هذه الدولة الايطالية ، وهي دولة فرنسا بعد انقلاب برومير. وفي العام ١٨٠٥ صارت الجمهورية مملكة ايطالية .

وعلى هذه القاعدة الاولى للامبراطورية الفرنسية يرتفع مفهوم جديد وهو مفهوم « التفوق القاري » المستوحى من أفكار مماثلة لأفكار لويس الرابع عشر أي مفهوم دولة كبرى قومية تستند بموجبه فرنسا على دول مستقلة استقلالاً ذاتياً ولكنها في الواقع تحت الحماية الفرنسية وترتبط معها بعلاقة شخصية. وهذه الدول التي تحتمي بظل فرنسا الكبرى هي: جمهورية هولنده بدستورها القنصلي عام ١٨٠٢ والجمهورية الهلفتية عام ١٨٠٣ والاتحاد الريناني (تموز ١٨٠٦) . وهذان الأخيران يرتبطان برابطة شخصية مع

الامبراطور الذي يعتبر « وسيطاً » للجمهورية السويسرية (الملفتيـــة) و « حامياً » للاتحاد الريناني . وهذا المفهوم الثـــاني ، الذي ليس هو مفهوم الثورة ، يذكرنا بمفاهيم القرن السابع عشر وسياسة لويس الرابع عشر الكبرى .

ولكن نابوليون لم يقف عند هذا الحد ، بل عمل حسب مفهوم آخر يستند على « ميثاق العائلة » ، ميثاق عائلة بونابرت . فقد جعل نابوليون اخوته وأصهاره ملوكاً تابعين له وأدوات للسياسة الفرنسية . فمن ذلك أنه أحدث **دوقية برغ الكبرى** (تموز ١٨٠٦) لصهره مورا ونصب أخاه **جوزيف** ملكاً على نابولي (آذار ١٨٠٦) وأخاه **لويس** ملكاً على هولندة (حزيران ١٨٠٦) ، وأخاه **جيروم** ملكاً على مملكة وستفاليا . ونرى أن الامبراطورية سويت بشكل اتحاد (فدرالي) ممزوج بشكل سلالي. ثم إن الاتحاد الريناني امتد فشمل تقريباً ألمانيا كلها ووزعت التيجان الملكية على بافاريا وفرتمبرغ وهانوفر وغيرها . وفي الشرق بعث في بولونيا دوقية فارسوفيه الكبرى — التي تعتبر عنصراً قومياً وتاريخياً في آن واحد — وترك ادارتها لناخب ساكس . وهكذا نرى أن الامبراطورية عام ١٨٠٧ اتجهت نحو مفهوم جديد وهو مفهوم اتحاد الدول الاوربية .

ولكن هذه السياسة لم تدم لأن نابوليون بعد ١٨٠٩ — ١٨١٠ رجع إلى « مفهوم الادماج » أي أخذ أقسام من أوربة ودمجهـــا في الامبراطورية الفرنسيـــة . فقـــد سلك نابوليون سياسة الضم لتطبيق الحصار القاري . ففي عام ١٨٠٩ ضم دول البابا وفي ١٨١٠ ضم هولنده وفي نفس السنة ضم المقاطعات الهانسية والمقاطعات الالليرية أي الشاطىء الشرقي لبحر الادرياتيك وأدمج البرتغال في الادارة الفرنسية .

وإلى هذه المفاهيم المختلفة يجب أن نضيف مفهوماً جديداً وهو « المفهوم

الاقطاعي » لأن نابوليون في داخل أوربة كان يمنح الاقطاعات ، وخاصة في ايطاليا وألمانيا ، إلى ماريشالاته وإلى خدامه الأوفياء .

وعلى هـذا نرى أن الامبراطورية النابوليونية تشكلت حسب مفاهيم مختلفة وفي بعض الأحيـان متناقضة ليس بينهـا أقل رابطة سوى طموح الامبراطور الشخصي وحبه للنفوذ . والرابط الوحيد بـين هذه الأجزاء المختلفة هو المصالح العسكرية والمالية والاقتصادية التي فرضت على هـذه الدول مهما كانت مفاهيمها في الحق العام تجاه السياسة الفرنسية . ومن الجلي الواضح أننا لا نرى في هذه الامبراطورية المتشكلة على هذا النحو من المفاهيم أي مكان للمفهوم القومي ومفهوم « القوميـات » .

ومن الممكن أن نوضح بأكثر من ذلك هذه السياسة النابوليونيـــة ونتائجها الحقيقية باتباعنا طريقة تجريبية . ولاجراء التجربة يجب علينا أن نعرف جيداً كيف كان هذا الحكم النابوليوني بالنسبة إلى رجال العصر وألا ننسى أن كل هذه التبدلات الأوربية جرت في مدة قصيرة جداً أي في خمس سنوات من ١٨٠٥ إلى ١٨١٠ وبين الحروب ، حتى ان كثيراً من الأراضي كانت تمر من نفوذ إلى آخر دون إبداء أي رد فعل عميق من قبل السكان . والمفاهيم الوحيدة التي كانت تسود هذه التبدلات هي مقتضيات المصالح الستراتيجية والسياسية وتلاعب نابوليون بزبائنه إن شاء أن يكافئهم أو يجازيهم . وفي هذا استبداد وحكم مطلق . ولا شك أننا ندرك جيداً مدى تلاعب هذه السياسة وأثرها في رجال العصر لأنهم فقدوا كل عاطفة بالطمأنينة والاستقرار . والشيء الذي نستنتجه هو أن حـالة أوربة كانت قلقة ، والشعور الذي يتملك الجميع هو الشعور بالاضطراب الذي دلت عليه أم نابوليون بقولها « شريطة أن يدوم » . ومن الجلي

في مثل هذه الأحوال أن التغييرات الاوربية لم تكن تسمح بانشاء بناء سياسي ثابت . لذا وجب أن نرى النتائج التي احدثتها هذه التبدلات في البلاد التي كان تأثيرها اكبر مما في غيرها اي في المانيا وايطاليا .

أثر الامبراطورية في ألمانيا . ـ إن الملاحظة الاولى التي نبديها في التغييرات التي اجريت في المانيا هي ان هذه التغييرات الأرضية العديدة والتحويل السياسي الذي تمثل بزوال الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة ، إن كل ذلك جرى دون ان يؤدي الى حركة في الرأي العام . والاحتجاجات الوحيدة التي ارتفع صوتها ضد هذا التغيير اتت اما عن منافع مسلوبة او منافع لم تشبع رغبتها بصورة كافية قام بها بعض بارونات الامبراطورية الجرمانية ولم تنشأ عن الرأي العام بكامله . ولا يكفي ان نقول ان هذه الحوادث لم تعقب احتجاجاً ، بل انها لم توقظ اي امل ، لأن الرأي العام بقي ، الى حد ما ، محايداً غير مبال بما يجري .

تعديل الامبراطورية الجرمانية (٢٣ شباط ١٨٠٣) . ـ ان اول هذه التبدلات شبيه من حيث النتائج بمعاهدات وستفاليا (١٦٤٨) نظراً لسعة التغيرات التي حدثت . وسبب هذا التنظيم الجديد في المانيا هو ضرورة اعطاء تعويضات إلى أمراء المانيا الذين أصبحوا بعد ضم الضفة اليسرى لنهر الراين مجردين من أملاكهم . وظهرت هذه العملية **كمساومة** كبرى قام بها الامراء الالمانيون في باريس في مكتب **تاليران** مع مايخالطها من رشاوى ومكافآت .

وقد أجري هذا التعديل باتفاق بين روسيا وفرنسا ضد النمسا ، وتم في ١٨ آب ١٨٠٣ وقدم إلى بلاط فينا .

جرى معظم هذا التعديل في ألمانيا الغربية خاصة ، أي في أكثر

المناطق تجزئـة وانقساماً حيث يوجد عديـد من الدول الصغيرة : دول بارونات الامبراطورية والأمـارات الكنسية . وقد اتخذت في هذا التبديل ثلاث تدابير :

الأول : تغيير الامبراطورية الجرمانية المقدسة . فقد أصبح عدد الناخبين عشرة: وذلك بتسمية أربعة ناخبين محدثين وهم : رئيس أساقفة سالزبورغ ، دوق باد ، دوق فرتامبرغ ، دوق هس — كاسّل .

وازيل ناخبان اسقفيان وهما : ناخبا كولونيا وتريف أما الستـة البـاقون من الناخبين القدماء فهم : ناخب بافاريا — بالاتينا ، بوهيميا ، **براندبورغ** ، هانوفر ، **ساكس** ، **ماينس** .

وفي هيئـة الناخبين هذه نرى **أربعة ناخبين كاثوليك** وهم : رئيسا أساقفـة ماينس **وسالزبورغ** وملك بوهيميا **وملك بافـاريا** . وستة ناخبين بروتستانت : هانوفر ، براندبورغ ، **ساكس** ، فرتامبرغ ، هس — كاسل ، باد .

أما هيئة ناخبي المدن فقد حذفت ولم يبق منها إلا القليـل . ففي السابق وجد (٥١) مدينة حرة . أما الآن فلا يوجد سوى ست بروتستانتية : فرنكفورت ، هامبورغ ، بريم ، لوبك ، نورامبرغ ، اغسبورغ .

وبنتيجة هذه التبدلات الأرضية تغيرت هيئة الأمراء ، لأن الانفصال عن الامبراطورية أدى إلى الغاء تمثيل الدول الصغيرة . وأضعف التعصير تأثير الكنسيين لأن الدول الكنسية التي كانت تمثل في هيئة الأمراء ٣٧٪ قد الغيت . وفي الهيئة الجديدة يوجـد ٧٠ صوتاً بروتستانتياً ، و ٥٤ صوتاً كاثوليكياً . وقسمت الامبراطورية إلى ثماني دوائر عوضاً عن عشر . وبدلت هذه التغييرات سيماء الامبراطورية من الناحيـة السياسية وأصبح الدياط بروتستانتياً ، ولم يبق للكاثوليك إلا تمثيل ضئيل وتأثير ضعيف .

الثاني : تركيز الأراضي بزوال الدول الكنسية والطبقة النبيلة . فلم يبق من الدول الكنسية سوى ماينس التي اقتصرت على ممتلكات الضفة اليمنى لنهر الراين ، واسقفية راتيسبون ، ودول سيد الطريقة التوتونية ورئيس الطريقة المالطية .

أما طبقة بارونات الامبراطورية والفرسان التي تسمى « ريتر شافت » فقد زالت تماماً . وفي هذا الوقت نفسه تضخمت بعض الدول الكبرى وأهمها : بافاريا ، فرتامبرغ ، دوقية باد ، دوقية هس — درمشتاد وبروسيا التي كانت مساحتها ٢٧٥٠ ك ٢ وأصبحت ١٢٠٠٠ ك م٢ وازدادت نفوسها من ١٢٥٠٠٠ نسمة إلى ٥٠٠٠٠٠ نسمة . وكذلك **هانوفر** .

وبنتيجة هذا التمركز في الأراضي سقط عدد الدول الألمانية من ٣٦٠ الى ما يقارب ٨٠ .

الثالث : إن تنظيم الامبراطورية المقدسة ساعد على اخراج النمسا من ألمانيا ، فقد أخذ منها معظم ممتلكاتها الشخصية التي كانت موزعة في نقاط مختلفة في الامبراطورية مثل : « مدن الحدود الرينانية » ، وعدد من الأملاك الصغيرة في منطقة الغابة السوداء ، والمدن الصغرى التي كانت تملكها في سؤاب . ومن جهة أخرى تخلت إلى بعض أقربائها في ايطاليا ، كتعويض عن أراضي كانت تملكها في المانيا . ولم يكن هذا سوى ترتيب موقت : فمن ذلك أن أعطت **بريسغو واورتينو** إلى دوق مودينا . ووضعت دوق توسكانا الاكبر على امارة سالزبورغ في الاسقفيات التي تعصرت . وبالمقابل أخذت بعض أراضي في الالب : **ترانت وبريكسن** وقسماً من اسقفية باسّو .

وعلى هذا النحو فقدت النمسا معظم ممتلكاتها في ألمانيا . وفقدت نفوذها السياسي . وأخيراً استحالت الامبراطورية المقدسة إلى امبراطورية النمسا لأنها لم تشأ أن ينالها الصّغار عندما ترى الامبراطور الفرنسي بجانب امبراطورها الوحيد في أوربة حتى ذاك الحين . وبدأت النمسا تبتعد عن ألمانيا وتجعل لنفسها حياة خاصة . وسيتوسع هذا المفهوم لديها خلال القرن التاسع عشر وستضطر إلى التخلي عن ألمانيا لبروسيا .

يعتبر تعديل الامبراطورية نقطة ابتداء لألمانيا الحديثة نظراً لوجود كتل كبرى في داخلها وحذف النظام الاقطاعي القديم : الريترشافت ، طبقة بارونات الامبراطورية والفرسان ، ودول الكنيسة . ولكننا لا نرى في داخلها أي **عاطفة قومية** . وليس هنالك مجال للقول بقومية ألمانية .

ولكن هذا التبدل الذي طرأ على الامبراطورية كان قصير الامد ولم يدم في شكله الارضي ولا في شكله السياسي . فمن الوجهة الأرضية نرى أن تبدل الامبراطورية كان حركة اولى لتبدل دائم في الاراضي يجريه نابوليون : فمن ذلك أننا نراه يلغي دولاً أحدثها بنفسه ، ويحذف في ١٨٠٦ ثلاث مدن حرة . ولم يبق سوى ثلاث : هامبورغ ، بريم لوبك ، . وفي ١٨١٠ زالت هذه المدن جميعها . ويحذف دولاً وجدت في السابق مثل دولة هس — هامبورغ (١٨٠٦) ، ودوقية برنسويك في (١٨٠٧)، ودوقية اولدانبورغ (١٨١٠) . وفي (١٨٠٦) الغى تبعية الأمراء للامبراطورية . فقد قرر أن جميع الامراء أو البارونات ، الذين لا يقبلون شخصياً في كونفدراسيون الراين ، يجب أن يعتبروا أنفسهم تابعين للدول التي هم عليها لأن التجنس بجنسية الدولة التي هم عليها اجباري . ولم يبق في ألمانيا مواطنون أو أمراء يرتبطون رأساً بالحكومة المركزية ، بل

ان لكل منهم تابعية محلية . ولكننـــا نجد نابوليون يزيل الدول التي ساعد على خلقها : مثل ناخب هس – كاسل الذي أحدثـــه في تعديل الامبراطورية وحذفه عام ١٨٠٧ .

وأخيراً أبعد السويد عن ألمانيا بعد أن كانت تملك فيها بوميرانيا . وجزئت بروسيا حتى فقدت نصف أراضيها . وأزالت هذه التبدلات الكثيرة أكثر من نصف ما تركه تعديل الامبراطورية، وذلك أن عدد الدول الالمانية سقط من ٨٠ إلى ٣٨ في آخر الامبراطورية ، واقصيت العناصر الأجنبية عن ألمانيا . ولم يؤلف تعديل الامبراطورية ميثاقاً أرضياً دائماً ، ولم يدم النظام الذي أحدثه نابوليون في المانيـــا : لقـد فرض زوال الامبراطورية المقدسة على النمسا في **معاهدة برسبورغ ، واعلن في ٦ آب ١٨٠٦** . وكان منه أن أقصى النمسا عن ألمانيا نابوليون . وفي الوقت نفسه ، كان نابوليون يمنح التيجان الملكية إلى بافاريا وفرتامبرغ . ويحل الكونفدراسيون الرينـــاني محـل الامبراطورية المقـدسة في ١٢ تموز ١٨٠٦ ، هذا الاتحاد يشمل ١٦ أميراً من ألمانيا الغرب والجنوب . ثم وسع هذا التدبير السياسي في السنوات التالية : ففي ١٨٠٨ ضم الاتحـاد ٣٧ عضواً أي ما يقارب جميع الدول الألمانية عدا بروسيا والنمسا .

وجعل للاتحاد الريناني **دستوراً** يبين حقوق الدول الاعضاء وواجباتها المتبادلة **ورباطاً** لادارة المصالح العامة . وفي الواقع لم يقم دستور الاتحاد بوظيفة ، وسمي نابوليون حامي اتحاد الراين ، فهو الذي يدير فيه السياسة الخارجية ويستطيع أن يضع فيه فرقاً عسكرية . هذا ويظهر لنا أن أن الكونفدراسيون الريناني كان بمثابة دولة ألمانية ويمثل شكلاً من الوحدة إذا ما قيس بالنسبة الى التجزئة القديمة .

ولا نرى في كل هذه التبدلات شيئاً يشبه مبـــادىء الثورة وحق الشعوب في تجمعها بعقد واعترافها بحكومتها ، أو أن هنالك شيئاً يدل على القومية . بل إن هذه التدابير والترتيبات السياسية استبدادية ، وأهم دليل على ذلك هو تبدلها الدائم وعدم استقرارها . لقد كانت حلولاً وقتية مستوحاة في الواقع من مطامع نابوليون ، وليس فيها ما يدل على أن لنابوليون مفهوماً في القومية الالمانية .

وبالرغم من أن نابوليون لم يكن له مفهوم في القومية الالمانية إلاأن أثره استطاع أن يفيد في تشكيل القومية الالمانية . وهنا لا بد لنا من أن نتساءل **لأي درجة أحدث أثر نابوليون العاطفة القومية الالمانية ؟**

يجب أن نلاحظ أولاً أن تركيز الاراضي الذي حدث في المانيا واسقط الدول الألمانية من ٣٦٠ إلى ٣٨ يعتبر من هـذه الوجهـة خطوة أولى ومرحلة مقطوعة ، لأن ألمانيا لن تعود إلى تجزئتها ولن تكون فيها دول كنسية ومدن حرة . ولم يبق في ألمانيا النابوليونية إلا ثلاث دول صغرى يبلغ نفوس الواحدة منها (٥٠٠٠ نسمة) قـد نجت بفضل أسباب شخصية وذلك لعلاقات قرابة مع اخوة نابوليون وهي دوقية جيرولدسك ودوقيـة ايزنبورغ ولشتنشتاين .

ومن جهة أخرى يمكن أن تعتبر **التغيرات النابوليونية مهيأة للوحدة.** ان التغيرات الارضية وعدم الاستقرار السياسي هدمت الروابط التاريخية التي يمكن أن تقول بشرعية خصائص كل دولة على حدة، وقضت على التقاليد التاريخية التي يمكن أن تتأسس عليها عاطفة التقليد السياسي أو أي نوع من وطنية محلية . وهنالك نتيجة هامة وهي أن **هذه السياسة استأصلت قسماً من الطبقة النبيلة الألمانية من بادونات الامبراطورية والفرسان .**

وكان هؤلاء تابعين مباشرة للامبراطور ، وليس لهم الآن قومية ممكنة الا الالمانية وذلك لانهم انتزعوا من أراضيهم الخاصة . ولذا فان هذه الطبقة النبيلة ، التي رفعت عنها تابعية الامبراطورية الجرمانية ، لم يعد لها حياة سياسية كحالة البارون شتاين الذي سنرجع اليه ويمثل لنا الالماني الراغب في الوحدة .

هذه هي حقائق واقعة الا انها ستؤتي ثمارها في المستقبل ويظهر أثرها في الوحدة .

أثر الامبراطورية في ايطاليا . — ان سياسة نابوليون في ايطاليا أوضح منها في المانيا وذلك لأن نابوليون كان حراً في عمله . وسنرى ان سياسة الامبراطور فيها كانت سياسة قومية ، وان نابوليون اثبت ارادته في ايجاد امة في ايطاليا ، حتى ان اسم ايطاليا الذي اعطاه الى « جمهورية الالب » والى المملكة التي نابت منابها يدل على ارادة نابوليون على تمديد هذا الشكل السياسي على شبه الجزيرة الايطالية كلها . وعندما أتى مالزي رئيس الجمهورية القديم يقدم الى نابوليون تاج ايطاليا عام ١٨٠٥ قال نابوليون : **« كانت نيتي دوماً ان اوجد الأمة الايطالية حرة مستقلة . انني اقبل التاج واحفظه في الزمن الذي تقتضيه مصالحي »** ، فاذاً ايطاليا هي البلد الوحيد الذي اراد نابوليون ان يوجد فيه أمة . ولكن هل أوجدها ؟ ان نقطة انطلاق سياسة نابوليون في ايطاليا هي المنفعة الشخصية : كان يحلم في السابق ان يكون له مكان في ايطاليا ، وكانت ايطاليا اول ميدان لطموحه ، ومنها كان يفكر بترتيبات خاصة في سياسة البحر المتوسط والسياسة الشرقية . ولذا كانت ايطاليا عنصراً ضرورياً لسياسته في البحر المتوسط والشرق . وكان بامكانه تنظيم ايطاليا كما يريد . ولقد رأينا ان الثورة هدمت ايطاليا التقليدية اي ايطاليا التاريخية ، ومنذ ١٨٠٥ طردت

النمسا من ايطاليا ، بموجب معاهدة برسبورغ ، ولذا كان نابوليون طليقاً فيها فماذا فعل ؟

نرى نابوليون في ايطاليا ينهج مناهج مختلفة ، ويندفع في سياسته اندفاعاً متناقضاً . ولم يكن لديه على وجه التأكيد اقل فكرة في الوحدة ، وكل مايريد أن تكون خاضعة لادارته الخاصة . ونجده يتبع نفس المزيج من المفاهيم الغريبة والمتناقضة التي رأيناها في المانيا . فالشكل القديم هو مملكة ايطاليا التي احدثت عام ١٨٠٥ وشملت منطقة البندقية في صلح برسبورغ والمندوبيات البابوية في شمال آبنين . وهذا الترتيب يبدو كتشكل لوحدة ايطاليا الشمالية . اما جنوة وبيمونت فقد ادمجتا في الامبراطورية الفرنسية .

وحوّل دوقية توسكانا الى مملكة ايتروريا لصالح ابن دوق بارما ، ولكن هذا توفي وأصبحت زوجته ماري لويز وصية على المملكة لصالح ابنها (١٨٠٣) .

وفي ١٨٠١ منح نابوليون الى اخته اليزا باكشيوكشي جمهورية لوقا ودوقية ماسّا — كاراريه . وأخيراً قرر نابوليون في شهر كانون الأول ١٨٠٥ سقوط آل بوربون في نابولي واعطى هذه المملكة الشاغرة الى اخيه جوزيف في (٣٠ آذار ١٨٠٦) وفي (١٨٠٨) استعاض عنه بصهره مورا .

كما أن نابوليون اقطع اثني عشر اقطاعاً لماريشالاته ، وامارتين : الاولى وهي أمارة بينيفن الى تاليران . والثانية وهي أمارة بونت — كورفو (في كامبانيا) الى برنادوت .

اذن نرى ان نابوليون اتبع اربعة مفاهيم :

١ — مفهوم شخصي : وهو تأسيس مملكة خاصة بشخص نابوليون وليست مملكة فرنسية .

٢ — مفهوم فدرالي : شبيه بالذي رأيناه في المانيا باعتبار الدول التي الفها تشكل اتحاداً تحت حماية نابوليون .

٣ — مفهوم سلالي : وذلك بايجاد مملكة نابولي لأخيه وامارة لوقا لأخته

٤ — مفهوم اقطاعي : كما فعل لماريشالاته ولتاالليران وبرنادوت .

غير أن بعض التغييرات طرأت على هذا النظام بعد صلح تيلسيت (٧ تموز ١٨٠٧) : فقد حذف الامبراطور مملكة ايترووريا وضمها الى الامبراطورية بعد أن جعلها دوقية كبرى ونصب عليها اخته اليزا (٢٤ أيار ١٨٠٨) ، كما ضم بارما وبليزانس . وفي نيسان ١٨٠٨ ضم املاك البابا المحصورة بين الريف الروماني والادرياتيك الى مملكة ايطاليا . واحتلت روما في شباط ١٨٠٨ وأدمجت دول البابا في الامبراطورية في (٢٧ أيار ١٨٠٩) .

وبعد هذه الدراسة نستطيع ان نتبين الاختلاف الذي تبديه ايطاليا عن المانيا . ففي ايطاليا كان كل شيء تحت حكم نابوليون بالقاب مختلفة ثلاثة :

١ — دول شخصية : محكومة بنائب ملك (كمملكة ايطاليا) وتوسكانا التي تحكمها اليزا اخت نابوليون .

٢ — دول تابعة مباشرة لنفوذ فرنسا : روما ، جنوة ، بيمونت ، التي تؤلف جزءاً من الامبراطورية الفرنسية .

٣ — دول متعلقة بشخص وسيط أو دولة تابعة : مملكة نابولي .

ولذا فان نظام ايطاليا السابق قد زال. ولم يعد في ايطاليا الا تركيز في الأراضي : **المملكة ، توسكانا ، دول البابا القديمة ، ومملكة نابولي** ولكن الوحدة لم تعمل رغم انه كان بالامكان عملها وايجادها .

ولذا لانستطيع ان نقول ان لنابوليون في المانيا او ايطاليا سياسة قومية او انه احدث قومية .

ولكن ماهي السياسة التي اتبعها نابوليون في اوربا ؟ ان التجزئة التي رأيناها يمكن ان تكون مرحلة لدولة موحدة لو ان نابوليون في التغييرات التي أجراها جنح الى القومية . لقد عرض الاستاذ لوفيفر نظرية السياسة النابوليونية وعرض نظريتهافيا سماه «سياسة نابوليون القارية» بعد تيلسيت . فهو يرى أن نابوليون في سياسته أراد توحيد اوربه بادمـــاج اجزائهـــا بالامبراطورية الفرنسية التي اوجدت عام ١٨٠٥ . وبهذا الشكل تتحول الامبراطورية شيئاً فشيئاً الى الامبراطورية على الطراز الروماني ، الامبراطورية الموحدة وعلى رأسها الامبراطور ولها سياسة واحدة . ويظهر ان نابوليون في هذه الامبراطورية الفتية اراد ان يعمل على تنظيم الادارة والشرائط الاجتماعية ، وهذه الفكرة هي التي اوحت اليه وضع « القانون المدني » أو « قانون نابوليون » .

ان هذه الفرضية جذابة ، ولقد وسعها الأستاذ لوفيفر في كتابه « نابوليون » . ولكن اذا نظرنا الى هذه الفرضية من وجهة النظر القومية اي من وجهة النظر التي تشغلنا وقلنا اذا صحت فرضية الأستاذ لوفيفر لكانت مناقضة لمبدأ القومية ، لأنها نوع من تجديد لموضة القرن الثامن عشر عن فكرة **الملكية العامة** التي ازدهرت في القرنين السادس عشر والسابع عشر لصالح شارلوكان ولويس الرابع عشر . ومفهوم السياسة القارية ، من وجهة النظر الفرنسية ،ليس سوى الحاق اوربة وادماجها بفرنسا

ومن الثابت ان نابوليون لم يتصور من ذلك الا فائدة فرنسا لافائدة اوربة . لأن التعليمات ، التي يعطيها الى الملوك والملكات، الذين يعهد اليهم بالملك في اوربا ، واحدة : فقد قال إلى أخيه لويس : «عليك أن تكون فرنسيا » . وكتب إلى مورا « تذكر انني لم اجعلك ملكاً الا من اجل سياستي » وكتب إلى أخته كارولين : « اريد قبل كل شيء ان يعمل ما يلائم فرنسا ، واذا فتحت الممالك فلتستفيد منها فرنسا » . واذا لم يعمل هؤلاء الملوك بالسياسة التي يراها نابوليون ضرورية لفرنسا ، كان ينكر عليهم سياستهم ويعزلهم وإذا مست الحاجة كان يضم إلى فرنسا الدول التي أعطاهم إياها كما فعل في هولنده .

وفي الحقيقة ان سياسة نابوليون كانت متناقضة لأنها لم تكن هي نفسها في كل الامكنة أو في كل الظروف . وكانت تأتلف مع كل دولة بصورة تختلف عن الاخرى .

وقد يحدث ان يترك نابوليون في سياسته مجالاً لفكرة القومية، غير انه كان يستخدمها كواسطة . فمن ذلك اننا نراه يلقى نداءً إلى الهونغاريين بواسطة شاعر هونغاري اسمه باكساني في ١٥ آب ١٨٠٩ : « أن يشعروا بوجودهم كأمة » ولم يجب الهونغاريون على هذا النداء لأنه لم يكن سوى وسيلة .

غير أن كلام نابوليون إلى اخيه لويس ملك هولندة يبين بوضوح فكرة نابوليون في القومية . فهو يعرض عليه الفوائد التي يمكن الحصول عليها لهولندة لو كان اكثر انقياداً وطاعة . ولو كان لويس طيعاً لأدمج نابوليون في هولنده شمال غربي المانيا . ويضيف : « لكانت نواة للشعوب التي كانت تنفر من الروح الألماني . وهذه غاية سياستي الاولى » .

(٢٠ أيار ١٨١٠) . وهذا عكس السياسة القومية لأنه كان يتصور أن يفقد الالمانيين الروح الالماني .

أثر الامبراطورية في بولونيا . — ان احسن مثال يظهر فيه نابوليون مفهومه عن القومية وتلاعبه بها هو بولونيا. ان وجود بولونيا لم يكن في الحقيقة سوى ورقة لعب دبلوماسية وعسكرية بين نابوليون وقيصر روسيا. أما من جهة القيصر فالدلائل عديدة : فمن ذلك ان تشارتوريسكي وجه الى القيصر الكسندر الأول في كانون الثاني ونيسان ثم في كانون الأول ١٨٠٦ مذكرات وحاول ان يقنع فيها القيصر ببعث مملكة بولونيا كدولة، وان يؤلف حول روسيا اتحاداً فيدرالياً سلافياً تحت حماية روسيا . وأوضح أن هذا الحل أحسن قاعدة للسياسة الروسية التي تريد السيطرة على تركيا والبحر المتوسط . الا ان القيصر اهمل هذا الاقتراح ولم يبعث بولونيا .

ومن جهة نابوليون كانت بولونيا شيئاً مماثلاً . لأن بولونيا وتركيا بالنسبة إلى السياسة النابوليونية تحدان روسيا من جهة الغرب والجنوب وتعزلانها وتبعدانها عن البحر المتوسط واوربة . وبقيت بولونيا آلة بيد نابوليون. ففي آخر ١٨٠٨ كانت المفاوضات مع القيصر بشأن زواج نابوليون من اخته الدوقة كاترينا. وكانت بولونيا موضع مساومة . وقد رضي نابوليون ان يقدم بولونيا للقيصر مقابل زواجه من اخته . وفي العام ١٨٠٩ قدم نابوليون إلى القيصر غاليسيا ، حصة النمسا ، رغبة في تحالفه مع الكسندر ضد النمسا . وليس في هذا ما يدل على أن نابوليون راعى وجهة النظر البولونية. وفي عام ١٨٠٩ نرى في العمليات الحربية ، التي قام بها الروس والبولونيون ضد النمسا في غاليسيا، أن الصدام كان يحدث بين الفرق الروسية والبولونية مما يدل على ان السياستين كانتا متضادتين . وفي معاهدة فينا (١٤ تشرين الاول ١٨٠٩) أخذ القيصر قسماً من غاليسيا التي

اخذت من النمسا . ومع كل هذا فان البولونيين تحمسوا لنابوليون وكما يقول البير سوريل « ان قوة وهم البولونيين لا يعادلها الا قوة تضحيتهم » فقد التف البولونيون حول نابوليون عندما أتى إلى فارسوفيا بعد اندحار البروسيين عام ١٨٠٦ ودخل قسم كبير منهم في الجيش الفرنسي ووثقوا بنابوليون وأملوا بأنه سيبعث بولونيا . على ان ما فعله نابوليون عقب تيلسيت وهو ايجاد دولة دوقية فارسوفيـة الكبرى لم يكن ما يؤمله البولونيون . وقد نظمت دوقية فارسوفيا الكبرى من قبل فرنسا لا من قبل دوقها الجديد ملك ساكس الذي بقي في درسدن دون أن يهتم في دولته الجديدة .

وحصل البولونيون على دستور في ٢٢ تموز ١٨٠٧ جعل السلطة التشريعية في مجلسين : مجلس الشيوخ ومجلس النواب : الأول يتألف من النبلاء والثاني من النواب بالتصويت لمن يدفع ضريبة معينة . وهـذا التمثيل البولوني لم يكن شيئاً عظيماً لأن دورة انعقـاده كانت ١٥ يوماً في كل سنتين . وإلى جانب هذه الحكومة المركزية أوجد نابوليون في بولونيا أوضاعاً ونظماً مستوحاة من النظم الفرنسية ومديريات عامة ومصالح عامة . ولأول مرة في التاريخ وجد لبولونيا سلطة مركزية وهيئة موظفين مسلكيين . يضاف إلى هذا ان الامبراطور ادخل القانون المدني في دوقية فارسوفيا الكبرى عام ١٨١٠ ، بعد أن الغى القنانة . وهذا كل ما عمله من أجل الفلاحين .

وتتصف بولونيا النابوليونية هذه بطابع ارستوقراطي . ومع هذا فقـد ظل النبلاء ، إلى حد ، قلقين من السياسة النابوليونية . لأنهم كانوا يخشون من ان يذهب نابوليون بعيداً في تحرير الفلاحين . حتى ان الماغنا أي ان كبار الملاكين كانوا منقسمين : فبعضهم مثل تشارتوريسكي كان يكره

فرنسا.وبقي اميناً للسياسة الروسية ؛ وبعضهم على العكس انحاز الى الفرنسيين مثل بونيا تووسكي. اما الاكليروس فكان فيموقف مبهم : وذلكلان الحكم الفرنسي كان ملائماً للاكليروس الذي بقي محافظاً على أمواله ومركزه في الدولة . ولكن الاكليروس قلق من جهة ثانية لما كان يرى في دوقية فارسوفيا الكبرى من اعلان لحرية العبادة والوجدان وتوسع في المحافل الماسونية . وقلق للحقوق الممنوحة لليهود . ولكن موقفه تغير بعد أن اضطهد الامبراطور البابا .

لقد وضعت أمام نابوليون مشاكل كثيرة في دوقية فارسوفيا الكبرى . ولكن هذه الدوقية دامت قليلاً لنحكم عليها . ولا تسد بولونيا ، بشكلها الجديد ، رغبة القومية البولونية إلا قليلاً ، ومع هذا فقد كانت شيئاً عظيماً بالنسبة للبولونيين الذين بقوا دون شعوب اوربة امناء على عهد نابوليون . فقد قدموا لنابوليون في البادى ٥٣٠٠٠ جندي . وفي الحملة الروسية كان الجيش الفرنسي يضم ٩٠٠٠٠ بولوني فيهم ١٣ جنرالاً قتل منهم اثنان احدهما المارشال بونيا تووسكي الشهير . و ٦ زعماء بولونيين في جيش نابوليون صاروا جنرالات فيجيش فرنسا بعد ١٨١٥. وبقي قسممن هذا الجيش البولوني في فرنسا بعد سقوط نابوليون بصفة مهاجرين يخدمون في الجيش الفرنسي .

ان بولونيا تمثل سياسة نابوليون العظمى في القوميات . ولذا لا يمكن القول بأن نابوليون ساعد الحركة القومية في اوربة ، أو على الاقل لم يساعدها ملء ارادته . وفيالحقيقة ان القوميات لم تكسب شيئاً من حكم نابوليون بل ان رد الفعل ضد هذا الحكم هو الذي ساعد القوميات على النهوض .

رد الفعل القومي ضد الحكم الفرنسي

اذا استثنينا بالطبع المنافع ، التي تضررت من الثورة ، سواء من جهة الحكومات أو من جهة اصحاب الامتيازات ، نرى أن اوربة بوجه الاجماع قد رحبت بالثورة . بيد أن هذا التفوق الروحي الذي حظيت به فرنسا سرعان ما استحال على يد نابوليون إلى طغيان مادي، وظهر رد الفعل من كل جانب ، وأوحى العاطفة الوطنية أو ولدها عند الشعوب الخاضعة بالقوة كما ولد عندها العاطفة القومية . وهكذا لم يولد نابوليون القوميات بل ان القوميات نشأت ضد نابوليون نتيجة لرد الفعل .

على أن رد الفعل لم يكن متماثلاً، ولم يحدث في وقت واحد، ولم يكن له في شتى البلدان نتيجة واحدة . وسندرس رد الفعل هذا حسب طبيعته .

اسبانيا

بدأ الكفاح ضد نابوليون في اسبانيا قبل غيرها بشكل رد فعل وطني. ومما يلفت النظر ان نابوليون لم يتوقعه ، أو انه على كل حال احتقره . لقد شهدت اسبانيا هادئة جميع التدابير السياسية التي كانت تقوم بها حكومتها من الملكة ماري لويز ومحظيها غودوا . الا ان رد الفعل ظهر مباشرة مذ حاول النفوذ الفرنسي ان يضع قدمه في اسبانيا . ولقد أظهر نابوليون في القضية الاسبانية من الجهد والوحشية والرياء ما لم يظهره في غيرها ، وجهل أن للاسبانيين سياء خاصة ، ولقد قال « ان الاسبانيين كسائر الشعوب وسيكونون جد سعداء بقبولهم انظمة الامبراطورية » . ومن جهة ثانية احتقر الثائرين وامكانية الاعمال التي يقومون بها . وباحتقاره هذا بعثر قواه في انحاء شبه الجزيرة الايبرية ولم يرسل عدداً كافياً من

الجنود ليخمد حركة الثوار نهائياً . ولم ينظم جيشه بصورة كافية كالمعتاد ، حتى ان شرائط اسبانيا الجغرافية والمسافة التي يجب على الجنود قطعها كانت عاملا في الخذلان في عدة مواقع . يضاف إلى ذلك ان نابوليون لم ينظم قيادته ، لأن عمل الزعماء لم يكن منسجماً موحداً ، وكل جنرال يعمل مستقلاً عن الاخر ، الا إذا وجد الامبراطور فانهم يوحدون جهودهم . ومما لاشك فيه أن الجيوش النظامية في اسبانيا أو الثائرين لم يكن باستطاعتهم التخلص من الجيش الفرنسي لولا مساندة الانكليز لهم . فسيادة البحار ، التي احتفظ بها الانكليز ، ساعدتهم على امداد الحرب ضد فرنسا والذهاب بها حتى النهاية .

وليس غرضنا الكلام عن حوادث اسبانيا بل ان كل مايهمنا ان نبحث عن رد الفعل القومي فيها . ان نقطة انطلاق الحوادث الاسبانية هي احتلال شمال اسبانيا بحجة تأمين مواصلات الجيش الفرنسي ، في البرتغال ، الذي يقوده الجنرال جونو في آخر ١٨٠٧ وأول ١٨٠٨ . ثم دخل مورا مدريد في ٢٣ آذار ، ورافق ذلك تعقيدات سياسية وما اليها من تنازل الملك شارل الرابع عن العرش ومقابلة بايّون حيث أكره نابوليون فرديناند ابن شارل الرابع على التخلي عن العرش . وفي ٥ أيار اعطي التاج الى نابوليون ونصب هذا أخاه جوزيف ملكاً على اسبانيا وانتخب مجلس (خنته) اسباني . ولاشك أن الحكومة الفرنسية هيأته وانتقته من بين طبقات الناخبين الثلاث . ولذا كان قليل العدد . فعلى ١٥١ عضواً فيه لم يحضر سوى ٥٩ . وقد وضع هذا المجلس دستوراً للملكية الاسبانية بعد ان قبل بجوزيف بونابرت ملكاً ودخل هذا مدريد في ٢٠ تموز ١٨٠٨ .

ظهر رد الفعل الاسباني مباشرة ضد الحكم الفرنسي . فمنذ ١٧ آذار و ١٨ منه قامت حركة عصيان في ارانجوويز وقلبت حكومة غودوا .

وبعد شهر على دخول الفرنسيين مدريد انفجرت حركة في ٢أيار، إلا أن مورا أخمدها بفظاعة في اليوم الثاني . وانطلق الاسبانيون في ثورتهم .

ولكن مم يتألف مجموع الثائرين ؟

لايوجد في اسبانيا بورجوازية الا في بعض الموانئ وخاصة في قادس . ولذا كان ينقص اسبانيا العنصر الذي يمكن أن يتقبل النفوذ الفرنسي كما في باقي أوربة . في الحقيقة إن جميع عناصر المجتمع الاسباني تألبت ضد فرنسا :

الجيش النظامي . — يجب الا ينظر إلى الثورة الاسبانية كعصيان شعبي بسيط، لأن الجيش الاسباني الرسمي وقف مباشرة ضد فرنسا وانقسم إلى قسمين من الشمال إلى الجنوب : في الأندلس من جهة ، وفي غاليس وكاتالونيا من جهة ثانية . وكان لهذا الجيش الاسباني قادته : كاستانوس بالافوكس وغالوزّو . ولو ترك هذا الجيش وقواه الفردية لما استطاع ان يعمل شيئاً تجاه الجيش الفرنسي ، إلا انه كان يلقى نجدة الجيش الانكليزي الذي نزل في البرتغال .

ونرى في اسبانيا ، خلافاً لما رأيناه في ايطاليا والمانيا ، عدم وجود تعاون عسكري بين الاسبانيين والفرنسيين .

الشعب . — لقد برهن الشعب الاسباني منذ زمن طويل على كرهه الاغراب وعلى تعصبه الديني ، حتى ان هذه العاطفة ظهرت ضد الانكليز كما ظهرت ضد الفرنسيين . وقد وجهت ضد فرنسا لعدة أسباب : أولاً بسبب الغزو والأضرار المادية التي سببها الغزو للسكان . ولكن يجب أن نلاحظ أن العصيان انفجر في البدء في المقاطعات التي لم تجتحها فرنسا . ولذا فان العاطفة الوطنية كانت في اساس العصيان إلى جانب الآلام

المادية التي سببها الاحتلال . ولقد بدأت الحركة في أقاليم آستوريا وغاليس والأندلس .

وهنالك سبب آخر في قيام الشعب وهو تأثير الأكليروس الذي أثار الفلاحين ضد الفرنسيين. ومما يؤثر عن الشعب الاسباني أنه يكره الأجنبي، هذا الأجنبي الذي يمثل كل ما يناقض التقاليد الاسبانية . ولذا فان حركة الثورة أخذت حركة شعبية بدا فيها الشعب الاسباني كله ضد الجيش الفرنسي .

الطبقة النبيلة . — كان للطبقة النبيلة عاطفة كبرياء قومية اسمى بالطبع مما هي عند الشعب ، وزادتها الأهواء السياسية اضطراباً ضد النظام الفرنسي الذي اقصاها عن السلطة . ولهذا السبب نفسه ثارت ضد غودوا ثم ضد فرديناند عندما علمت أنه تعاهد مع العنصر الأجنبي . يضاف إلى ذلك ان هذه الطبقة كانت تكره كل اصلاح لأنها ترى النظام الفرنسي متمثلاً فيه : لقد كان النبلاء الاسبانيون يدافعون عن امتيازاتهم وخاصة امتيازاتهم الاجتماعية وحتى عندما يجنح البعض الى اصلاح سياسي على الطراز الانكليزي . فالحكم الفرنسي والغاء الحقوق الاقطاعية والمساواة بين الناس تمثل ، بالنسبة الى النبلاء الاسبانيين ، نهاية نفوذهم الاجتماعي . وهكذا اعلن الماركيز سانتا كروز العصيان في اوفيدو في بدء حزيران ١٨٠٨ .

الاكليروس . — كان الاكليروس عنصراً أساسياً في العصيان وقد سماه نابوليون « عصيان الرهبان » . لقد كان الاكليروس في اسبانيا عديداً وقوياً . وجد فيها ٦٠٠٠ عصري و ١٠٠٠٠٠ نظامي . وهو يكره الحكم الفرنسي والافكار الفرنسية لعدة أسباب :

١ً - لأن الثورة اضطهدت الاكليروس .

٢ً - لأن النظام الفرنسي يمثل علمنة الدولة والمجتمع . أما نابوليون

نفسه ، اثناء القضية الاسبانية، فقد بدأ باضطهاداته ضد البابا التي أثارت الرأي العام الكاثوليكي عليه . وإذا استثنينا بعض الأحبار فاننا نستطيع القول بأن الاكليروس الاسباني كله ثار على فرنسا ، وان زعماء الاكليروس نظموا حركة النزاع . وقد كتب رئيس أساقفة اشبيلية من روما إلى زميله في ٢٠ حزيران ١٨٠٨ : « انك تشعر جيداً بانه يجب علينا الا نعترف بملك ماسوني هرطقي لوثري كهؤلاء البونابارتيين والأمة الفرنسية » . وفي العصيان نفسه كان الدور الأول لبعض الأحبار وبخاصة رئيس أساقفة غرناطة ، ورئيس اساقفة اشبيلية واسقف سانتاندر . وكان الاساقفة يرسلون بلاغاتهم إلى الاكليروس المحلي ليملوا عليه الموقف الذي يجب عليه اتخاذه . وقد قبض على بعض هذه البلاغات وعرف بهذه الطريقة تأثير الاكليروس الأعلى . وفي العصيان نفسه كان الكنسيون في الغالب رؤساء الثوار المحليين ، مثل الكاهن القانوني كالفو، فقد كان على رأس الثورة في فالانسية حيث قتل ٣٣٨ فرنسياً . وغالباً ماكان يترأس الحركة آباء أو رهبان بل راهبات . ومع هذا فان النظام الفرنسي احترم ، في الأصل ، وضع الاكليروس : ففي دستور بايّون لم تكن قضية علمنة الدولة موضع بحث بل ان الديانة الكاثوليكية هي الديانة الوحيدة المعترف بأنها ديانة الدولة . إلا ان نابوليون ، عندما استولى على مدريد الغى محكمة التفتيش وحذف الاديرة وصادر أموالها . وكان هذا سبباً جديداً لقيام الاكليروس عليه .

وهكذا نرى انه لايوجد في اسبانيا ما يدعم الأفكار الفرنسية . ولقد كان الطلاب في القالة وسالامنكا وفاللادوليد في أول المحاربين . لقد ثار النظام الاسباني القديم ببنائه الاجتماعي والديني على النفوذ الفرنسي . ولا يوجد في المجتمع الاسباني المعاصر ما يمكن أن يعارض حركة المقاومة ضد

الفرنسيين . ولذا يمكن القول ان جميع عناصر المجتمع الاسباني كانت مجمعة على مقاومة النظام الفرنسي .

على ان هذا النزاع كانت له طباع خاصة يجب ايضاحها .

أولاً : فظاعة النزاع . — وهذه الفظاعة تتضح بطباع الاسبان ومبالغة الاسباني والآلام التي سببها الحكم الفرنسي في اسبانيا . أخذ النزاع شكل المذابح والاغتيالات . وكان السجناء يعذبون . وأحسن مثال على ذلك ما جرى بفرقة الجنرال دوبون . فقد وقع هذا على اتفاق يسمى « تسليم بايلن » في ٢٢ تموز بعد أن حوصر وأضناه الجوع والعطش والحر . وبموجب هذا الاتفاق يجب ان تعاد الفرقة إلى وطنها بطريق البحر . إلا انها على العكس زجت في سجون جزيرة كابريرا وحكم على الأسرى بالموت جوعاً . ومن الطبيعي أن يقابل الفرنسيون هذه الشدة الاسبانية بالمثل والقتل بالجملة وحرق القرى. بدأ النزاع فظيعاً وهذه الفظاعة تتضح بشدة العاطفة الوطنية التي ثارت وتجلت بعدة أشكال ، ويكفي أن نذكر حصار سرقسطة . فقد دام شهرين ووجب الاستيلاء على المدينة بيتاً بيتاً في كانون الثاني وشباط ١٨٠٩ وقد قتل فيها ٦٠٠٠٠ نسمة ومات ٥٨٠٠٠ نسمة من المرض .

ثانياً: شمول الحركة . - لقد خرجت الحركة من غاليس ومن مقاطعات آستوريا من جهة ، ومن الأندلس من جهة أخرى ، ثم انتشرت بعد ذلك في شبه الجزيرة كلها وفي كل مكان بآن واحد . وبدا شكل العصيان بتأليف لجان محلية تسمى « خونته » (اللجان الثورية) التي تضم العصابات وتسلحها. وكانت هذه العصابات تجوب البلاد أو ان اللجان الثورية تقوم بمهمة الشرطة الأهلية (مليشا) . وهذه العصابات مع المليشا تسند عمل الجيش النظامي. او انها تحارب بنفسها عندما لا يوجد الى جانبها جنود

نظامية . وتألفت على هذا النحو ١٧ لجنة ثورية في مختلف انحاء اسبانيا باشتراك جميع السكان . وقفت العمليات العسكرية الفرنسية عاجزة تجاه شمول الحركة ودوامها . ورغم ان الجنود الفرنسية كانت تحرز النصر في كل عملية حربية الا ان الظفر في مكان لايعني شيئاً لأن النزاع يستمر في غيرها . وكان من الممكن الا يحصل الاسبان على نتائج قطعية لولا مساعدة الانكليز ، ولكن قوى العصيان وحدها كانت كافية لتظهر عجز الجيش الفرنسي .

ثالثاً : يقظة النعرة الاقليمية . — ان الاجماع على الثورة لايعني الوحدة. فقد كانت اللجان الثورية « الخونته » ينافس بعضها بعضاً . ويميز دوماً فريقين : فريق الشمال وفريق الجنوب . وقد الحق خونته غاليس به خونته استوريا وخونته ليؤن وقشتالة القديمة ، ولكن هاتين الأخيرتين انفصلتا بسرعة . وفي الجنوب ادعت خونته اشبيلية أنها « **خونته اسبانيا والهند** » ، الا أنها لم تؤلف حكومة مشتركة حتى ان الجنرال الكونت تيللي لم يقبل بأن يخرج جيش الخونته من المقاطعة . ولم يشأ خونته غرناطة المجاور الخضوع أو الاعتراف بسلطة خونته « اسبانيا » . وفي ايلول ١٨٠٩ اقترحت خونته مورسيه التي يوجهها **فلوريدا بلانكا** ، عقد مجلس يمثل خونته الأقاليم في آرانجوويز وقد تألف المجلس من النبلاء والكهان ، واحتدمت المناقشات السياسية وتعارض فيه مفهومان سياسيان : مفهوم الاستبداد المستنير الذي يمثله فلوريدا بلانكا ؛ ومفهوم الملكية على النمط الانكليزي ويمثله جافيللانوس وتم الاتفاق اخيراً على إحداث وزارة اسبانية ولكن بدون قيادة عامة لأن الجنرالات ارادوا ان يبقوا مستقلين وفي الواقع ان الخونته المركزية التي تشكلت على هذا النحو لم تستطع أن توطد سلطتها وادارتها إلا في مقاطعتين : ليون وقشتالة القديمة . وهذه

النتيجة هامة : لأنها تبين لنا نزعة اسبانيا الغريزية إلى الانقسام وظهور النعرات الخاصة والاقليمية المحلية ، إذا ما ذهب الاستبداد المركزي . وهذه صفة مميزة للحركات الاسبانية في القرن التاسع عشر كله وفي الجزء الأول من القرن العشرين .

ونجد في هذا العصيان بذور الانقسام السياسي الذي ظهر أثره فيما بعد. ففي عام ١٨٠٩ استطاع جافللانوس أن يقتلع من الجونته المركزية الموافقة على اجتماع الكورتز أي المجلس القومي ، واجتمع الكورتز في قادس في ٢٤ ايلول ١٨١٠ . وانتخب اعضاء الكورتز من قبل الجونته في الأقاليم . أما الأقاليم التي تحتلها الجنود الفرنسية ، حيث لايمكن اجراء الانتخابات فان اعضاءها تعينوا في قادس من قبل لاجئي هذه المقاطعات أو مباشرة من قبل مجلس الوصاية . وبهذه الطريقة نفسها عين ٣٦ مندوباً يمثل المستعمرات الاميركية . وهذا ما يوضح لنا التشكل الحر لهذا المجلس. وكانت قادس المنطقة الوحيدة في اسبانيا التي يوجد فيها بحق بورجوازية هامة وأفكار متقدمة بالنسبة إلى مجموع اسبانيا . ولذا فان هذا المجلس الذي يضم اعضاءه على هذا الشكل لايتفق مع الرأي العام في اسبانيا ولا مع تركيب العصيان ، لأن العصيان كان مضاداً للثورة ومتعلقاً بالنظام القديم . وسيضع هذا المجلس دستور ١٨١٢ الذي هو نسخة عن دستور فرنسا عام ١٧٩١ مع تبديل واحد وهو : الاعتراف بالديانه الكاثوليكية ديانة وحيدة في البلاد وتحريم الديانات الأخرى . ورغم هذا التقيد الديني رفض الاكليروس الدستور وقرر اعضاء الكورتز حذف محكمة التفتيش وقللوا عدد الأديرة . وهذا الدستور الحر (١٨١٢) الذي تبنته اسبانيا الرجعية ترك آثاره : فقد كان أساساً للانقسامات السياسية في اسبانيا في الاعوام التي تلت العهد الرجعي . وفي خلال النصف الأول من القرن

التاسع عشر كان الاسبانيون يتقاتلون سياسياً من أجل أو ضد دستور ١٨١٢ . وسيكون لهذا الدستور شأن أوسع لأنه سيكون برنامجاً سياسياً للثوار في ايطاليا على الملوك المستبدين وعلى الحلف المقدس .

نرى في هذه العناصر المختلفة للحركة القومية الاسبانية شيئاً اسبانياً خاصاً . وهو شدة العاطفة القومية الاسبانية التي تمتزج مع الوطنية الاسبانية والتقاليد الاسبانية . وهذا يعني اننا أمام رد فعل شديد جداً الا انه بسيط من الوجهة الفكرية لأنه رد فعل الوطنية ضد الأجنبي الفاتح .

روسيا

نرى في روسيا شيئاً مشابهاً لما في اسبانيا . يسمي الروس عادة حرب ١٨١٢ « الحرب الوطنية » . وفي الواقع ان الحملة الروسية كانت اول غزو وأول خطر هدد روسيا منذ حرب السويد ضد بطرس الأكبر . وربما كان خطأ نابوليون في خوفه من شعبنة الحرب ، إذ لم يجرأ ان يشعبنها لدى البولونيين عندما نادوا باعلان مملكة بولونيا وضم الأقاليم التي استولى عليها الروس في دوقيه فارسوفيا الكبرى ، وارادوا اتحاد ليتوانيا وبولونيا . واراد نابوليون أن يوالي مفاوضاته مع الروس بهذا الشأن ولم يجرأ أن يقرر ذلك . ولم يجرأ أيضاً أن يجلب اليه الفلاحين الروس بالغاء القنانة وتقسيم الاراضي . ولو أنه أخذ بهذين الرأيين لاستطاع ان يجعل الفلاحين الروس وعامة البولونيين إلى جانبه . ولكنه لاعتبارات سياسية اضاع هذه الفرصة .

لقد ظهر الطابع القومي في حرب ١٨١٢ بشكل لامع في آخر أثر للمؤرخ الروسي تارليه وعنوانه « حملة ١٨١٢ » .

نرى في رد الفعل القومي ضد الفرنسيين ان الرأي الروسي كان مجمعاً على رفض المفاوضات التي حاول نابوليون افتتاحها مع حكومة القيصر الكسندر حتى آخر دقيقة . وقد وضعت أمام الروس في حملة نابوليون قضيتان :

١ ـ اما الاقتصار على الدفاع وتخليص الاراضي الروسية الأصلية ، وهذا هو مفهوم المارشال العجوز كوتوزوف وشيوخ الروس .

٢ ـ واما على العكس يجب متابعة القتال ، بعد خلاص الارض الروسية ، الى سقوط نابوليون وخلاص أوربة منه . وهذه هي وجهة نظر القيصر والحاشية التي تحيط به والأجانب اللاجئين في بلاطه .

ان الأشياء تظهر لنا بوضوح اكثر في كتاب تارليه : وهي ان حركة العصابات القومية هي التي غلبت الجيش الفرنسي : ان ابادة المؤن والقرى امام الجنود الفرنسية والمجاعة هي التي سببت انكسار فرنسا وليس البرد كما تريده الاسطورة . وذلك لأن شتاء تلك السنة لم يكن قاسياً مدة طويلة ، ولأن البرد الشديد لم يبدأ الا بعد ان وصلت الجيوش الفرنسية في تراجعها ، الى سمولنسك وبعدها . وعندما هلك الجيش تقريباً كان الطقس معتدلا ، وعندما مر الجيش من نهر بيريزينا لم يكن النهر قد تجمد بعد . واذن لم يهلك البرد الجيش الفرنسي بل العصابات ومقاومة الروس أنفسهم .

وفي روسيا نجدنا أمام رد فعل غريزي وطني ضد الفاتح الغازي الذي ساعد على تماسك الأمة الروسية ، وعلى رد فعل فكري ضد موضات الغرب وتفكيره . وتعرف هذه الحركة باسمين شهيرين احدهما موسيقي وهو غلنكا والاخر مؤرخ وهو كارامزين ، وكانا مؤسسين لجرائد ادبية في روسيا . ولقد تشبعا بالافكار الفرنسية وبعقلية الأنوار والوطنية العالمية كما رأينا عند مفكري الألمان ، الا انهما أمام الفاتح انقلبا وقاما برد فعل وطني .

هولنده

لقد كانت التقاليد القومية في هولنده قومية وازدادت قوة أثناء الحكم الافرنسي . فقد طبقت الجمهورية الباتافية الاصلاحات السياسية الأساسية واستطاعت ان تحمي استقلالها الذاتي تجاه فرنسا . وعندما فرض نابوليون اخاه لويس ملكا على هولنده خالف لويس ارادة اخيه وانحاز الى جانب هولنده ضد فرنسا وأضاع بهذا العمل تاجه . كما ان الهولنديين عارضوا مشروع اصلاح الاراضي الذي اراد الفرنسيون فرضه عليهم . يضاف الى ذلك ان المصالح الاقتصاديه الهولندية قدتضررت ، ابتداء من عام ١٨١٠ ، بسبب الحصار القاري الذي فرضه نابوليون بالقوة . وزاد ضرر المصالح الاقتصادية في شدة العاطفة القومية القديمة . فلم يرض الهولنديون بادخال « القانون المدني » والقوانين الفرنسية وتخفيض ثلث فائدة الدين عام ٨١٠ وادخال الضرائب الفرنسية عام ١٨١٣ . ولذا فالفوائد المادية لم تعمل هنا الا في اثبات او زيادة رد الفعل المعنوي السابق .

وكان من نتائج الحكم الفرنسي في هولنده شعبية السلالة القومية وهي أسرة آل أورانج وطبعها بطابع قومي جعل الشعب يقبل بها عام ١٨١٥ في بداية العهد الرجعي .

نلاحظ في هذه الحالات التي أتينا على ذكرها رد فعل وطنيا منبثقاً عن شعوب لها قوميتها القديمة عند البعض . ونلاحظ عند الاخرى مظاهر الحقد ولكننا لا نجد فيها فكرة شاعرة بالقومية . وليست هذه المظاهر الا دلائل على المقاومة الفردية أو على الوطنية الخاصة ضد الاحتلال النابوليوني . ورد الفعل الفردي هذا نجده آتيا اما عن بعض الحكومات او عن الافراد انفسهم .

واذا كان رد الفعل آتياً عن الحكومات فأهميته انه يزيد في مركزية الدولة وقوتها ، ولكنه في الوقت نفسه يكون عاملا في تقوية النعرة الخاصة لهذه الدولة ويحول دون صهر هذه الدولة المحلية في وحدة أعلى. ونأخذ تاييداً لهذه الفكرة مثالين : بافاريا وبروسيا .

بافاريا

وصلت بافاريا في ظل الحكم الفرنسي إلى مرحلة الدولة الحديثة بفضل الاصلاحات التي قام بها الوزير البافاري الكونت دومونجلاس والتي بدأت منذ ١٨٠٠ وتوالت في المملكة ابتـــداءً من ١٨٠٧ وتوجت بدستور ١٨٠٨ . وقد جرت هذه الحركة الاصلاحية بتعاون معفرنسا. وكان من هذه الاصلاحات أن قوّت بناء الدولة: وذلك بأن الفت بافاريا مصالح عامة للاسعاف والتعليم والعدلية والبريد والموازين والمكاييل وجعلت لها دواوين خاصة . ووحدت اقتصادياتها وضرائبها : فمن ذلك أنها فرضت الضرائب المباشرة في المملكة كلها وحذفت الجمارك الداخلية وشرعت مصلحة المساحة (الكاداستر) بأعمالها لتعيين الضريبة العقارية. وتألفت الحكومة المركزية بشكل وزارات وبشكل مجلس دولة مع مجلس تمثيـلي وهمي لأن الحكم فيها لم يكن برلمانياً . وقسمت البلاد إلى « دوائر » ولكل منهـا إدارة وبلدية . وفصلت أملاك الملك والمبالغ المخصصة لمصاريفه الشخصيـة عن مجموع الدولة . وتألف على هذا الشكل بناء الدولة الحديثة في بافاريا .

وتبدل الوضع الديني أيضاً : ففي عام ١٨٠٣ ادخل التسامح الديني، وفرض على المدارس أن تضم أبناء أديان مختلفة عام ١٨٠٥ ، كما جعل للبروتستانت وضع خاص ١٨٠٩ . وعصرت أموال الاديرة (من ١٨٠٢ — ١٨٠٣) . وعملت الحكومة البافارية بتعاليم « اليوسفيـة ».

(التي تجعل الكنيسة خاضعة للبابا من ناحية العقيدة وأعضاءها خاضعين للدولة ١٧٨١) وأخذت عنها مرسوم التسامح الديني عام ١٨٠٩ وجعلت قانون العلاقات مع روما يتجه اتجاهاً حكومياً. ولم يؤد هذا التدبير إلى كونكوردات مع البابا لأن روما لم تقبل بهذا التحديد .

وقامت بافاريا أيضاً بالاصلاح الاجتماعي ولكنها اندفعت في هـذا السبيل أقل مما اندفعت في الاصلاح السياسي : حذفت الطبقات الممتازة ١٨٠٧ — ١٨٠٨ مع مجالسها والغيت القنانة والضرائب الشخصية . إلا أنه ابقي على امتيازات البارونات الذين فصلوا عن الامبراطورية الجرمانية وجعلت للطبقة النبيلة أوقاف ، واحتفظت ببعض الحقوق العدلية : فمن حقها أن ترفض دفع أجرة السخرة وحق استملاك الاقطاع من قبل الفلاحين . ورغم أن هذا الاصلاح لم يندفع حتى النهاية في الحقل الاجتماعي إلا أنه دليل على زوال النظام القديم والبناء الاقطاعي وتشكيل فردية سياسية جديدة عصرية ومتينة يمكنها أن تقف حائلاً في سبيل الوحدة في السنوات المقبلة .

ونجد شيئاً مماثلاً لهذا في الدول المجاورة مع مراعاة بعض الاختلافات والسيماء الخاصة بها كما هي الحال في « فرتامبرغ » ودوقية « باد » اللتين يمكن أن يعتبر وجودهما كبافاريا مانعاً قوياً في تشكل الوحـدة الألمانية . ففي هذه الحالات نرى مركزية في الدولة ، بينما في السابق لا نجد إلا فرديات سياسية صغيرة . وهذه المركزية تعتبر تقدماً من ناحية القوميـة ، ولكنها قومية محلية لها محاذيرها عندما يراد تأسيس الوحدة القومية .

بروسيا

وهذه الحالة نفسها تنطبق على بروسيا ، ولكن النتائج اعظم فيها مما في غيرها . نرى في بروسيا تغيراً داخلياً شخصياً له نتائجه الكبرى في كل ألمانيا مباشرة وفي المستقبل ، وذلك لأن تنظيم بروسيا تنظيماً حديثاً يهم ألمانيا كلها أكثر من تنظيم بافاريا . وإذا كانت الاثنتان تحت نير فرنسا ومراقبتها إلا أن بروسيا كانت الدولة الألمانية الوحيدة التي بقيت حقيقة مستقلة ، رغم رجوعها إلى نصف مساحتها السابقة ، وما زالت تحتفظ بتقاليد عظمتها القديمة . يضاف إلى ذلك أن الجهد الذي بذل في تجديد بروسيا كان يراد منه خلق أداة عمل ضرورية لتحرير ألمانيا من فرنسا لان هذه الحركة كانت ضد فرنسا بصورة واضحة سواء أوجدت إرادة عند القائمين عليها للكفاح ضد فرنسا أم أن الآلام التي سببها الجيش الفرنسي للسكان جعلتهم راضين عن هذا التغيير . وسيكون لتجديد بروسيا ، بنتيجة هذه الحوادث ، تأثير قومي . ولكن هذا التجديد كان عملاً بروسياً ولم يكن نتاج ثورة ، بل من عمل الدولة أي من عمل الدواوين والجيش . ولم يكن هذا الحزب القومي البروسي سوى الحزب القديم المحب للحرب الذي ما زال موجوداً في البلاط البروسي ولكنه تجدد في هذا العصر بدخول العناصر الأجنبية التي أتت من مختلف نقاط ألمانيا . وقد عمل هذا الحزب على تأسيس القوة البروسية من جديد رغم الظروف الصعبة التي أحاطت به لأن الحكومة التجأت في كونيكسبرغ وبقي الجيش الفرنسي محتلاً براندبورغ حتى عام ١٨٠٨ .

ينطوي تنظيم بروسيا على الأمور التالية :

تأسيس الجيش . – وقد قام بهذا العمل **شارنهورست** ، وهو من هانوفر

والتجأ في بروسيا ، **وغنيزنو** السكسوني ، مع الاستعانة برجال بروسيا وضباطها مثل **كلوزويتز** . وانصرف جهد شارنهورست وأعوانه إلى تطهير القيادة العليا للجيش وتنظيمها ، وجعل الجيش البروسي مؤلفاً من ٦ جيوش ، وأنشأ مدرسة حربية وقيادة عامة ونظاماً جديداً للمشاة مستوحى من النظام الفرنسي ، وجدد المدفعية واخترع الاحتياطي ، وبواسطته حولت القيادة العليا البروسية بنود المعاهدة التي تجعل الجيش البروسي لا يتجاوز ٤٢٠٠٠ . وتقرر لزيادة الجنود أن تعطى التعاليم العسكرية إلى الفلاحين الذين لم يُطلبوا للخدمة في الجيش العادي . وكان هؤلاء يدعون لقضاء شهر في الخدمة العسكرية ثم يعودون إلى بلادهم حيث يتلقون التعاليم العسكرية التي يقوم بها الضباط ، ممن هم في أوقات العطلة ، أو الجنود القدماء المتحررون . إن هؤلاء الجنود الذين يدخلون الجيش مدة شهر واحد ثم يعودون ويتعلمون الحياة العسكرية على هذا النحو يسمون كرمبر أي « **خيول النجدة** » . وبفضل هذه الطريقة استطاعت القيادة العامة البروسية أن تعلم سواد الفلاحين الحياة العسكرية وتشكل احتياطياً للجيش في حالة التجنيد. وحاولت ان تجدد **ملاك الجيش**با دخال البورجوازيين في هيئة الضباط بعد مرور الفحص والتعلم في مدارس خاصة للضباط . ولكن الجيش البروسي ، وان جدد حسب بعض المفاهيم الفرنسية وحسب المفاهيم القومية الخاصة ، بقي جيش بروسيا القديم وجيش الطبقة النبيلة لا جيشاً شعبياً وجيشاً قومياً . لأن النبلاء مازالوا يحتفظون بالرتب العسكرية ، باستثناء الملك الذي يمكنه ان يمنح الرتبة الى غيرهم . وهؤلاء الضباط يستطيعون ان يقدموا مرشحيهم الى المناصب الشاغرة ، ويتعلقون دوماً بمحكمة الشرف و يحتفظون بهيئة الضباط القدماء ، هذه الهيئة المدفوعة بروح جديدة وروح وطنية ضد فرنسا .

اصلاح الحكومة والادارة . — وفي خارج الجيش تضمن التجديد اصلاح الحكومة والادارة ، وقد كان هذا عمل شتاين ثم تممه وحوّله هاردنبرغ . لقد حذف نظام الحكومة القديم ، الذي يرجع عهده الى فريديريك الثاني ، وهو حكومة مجلس الملك، وبدل بست وزارات . كما بدل نظام الاقاليم وجعل لكل منها حاكم . وفي ١٨١٠ استلم السلطة هاردنبرغ وعين مستشاراً ووحد الوزارة بيده . وفي ١٨٠٨ قام شتاين باصلاح البلديات وجعلهـــا تحت وصاية السلطة الادارية وأوجـــد لها مجلساً منتخباً يعين رئيس البلدية ومساعديه . ويتألف هذا المجلس على أساس الضريبة لاحسب نظام الأصناف القديمة . وفي ١٨١٢ تألفت في الأقاليم فرق « **الدرك**». وأصبح على هذا النحو للحكومة سلطة قوية قضت على بلبلة سياسة فريديريك غليوم الثالث وعلى جميع المنافسات الداخلية التي تشكلت حوله وأظهرت عجز بروسيا . وقد قال شتاين : « يجب على الدولة الا تكون آلة بل هيئة » .

الاصلاح الاجتماعي . — ان الاضرار التي سببتها الحرب في بروسيا الشرقية جعلت اصلاح الاراضي اجبارياً واضطرت الأمراء الى جمع الاراضي المبعثرة واسترجاع الاقطاعات . ففي تشرين الأول ١٨٠٧ تقرر بأن للأمير الحق في اقصاء فلاحيه عن الارض ، وله الحق في ادماج اقطاعات الفلاحين الصغيرة في ملكيته ، وانه في حل من حماية الفلاحين مقابل الغاء القنانة وتأسيس اشكال جديدة لتمليك الفلاح . و يجب على الأمراء ان يحدثوا لفلاحيهم **مزارع** بعدد الاقطاعات التي اضطروا لتخليتها . وفي هذا العمل نوع من حل وسط بين حذف النظام الاقطاعي وبين الحقوق التي ابقيت للطبقة النبيلة .

وفي الوقت نفسه احدثت ضريبة الدخل لتأسيس موارد للدولة من

جديد . وهذان الاصلاحان ، اصلاح الاقطاعات والضريبة ، صادق عليها مجلس (لاندتاغ) بروسيا الشرقية حيث زادت الحكومة تمثيل البورجوازيين وجعلت التصويت فردياً لا بحسب الطبقة . ثم عمم هذا الاصلاح فيما بعد على سائر الأقاليم بمراسيم . كما حُرِّر في ١٨٠٧ الفلاحون في املاك الملك من القنانة . وأضاف هاردنبرغ الى هذا الاصلاح اصلاحاً ثانياً عام ١٨١١ وهو : تمليك المتصرفين في الاراضي وحذف الاتاوات الاقطاعية والسخرة على ان يتخلى الفلاح عن ثلث وأحياناً عن نصف اقطاعه للأمير ، كما يتخلى عن مساعدته وحمايته . وحذف القنانة مقابل قسم من الاقطاع كان من نتيجته تحويل الفلاح الى عامل يومي .

الا ان هذه الاصلاحات الاجتماعية لاقت مقاومة النبلاء البروسيين ، حتى ان شتاين وهاردنبرغ ارادا ان يعتمدا على الرأي العام لفرضها . وتصور شتاين ان يصلح المجالس في الاقاليم وان يحدث مجلساً قومياً يتألف حسب الطبقات على ان يكون التصويت بحسب الرأس . ولكنه اضطر للعدول عن هذه الفكرة أمام المعارضة . أما هاردنبرغ فانه أحدث بدوره مجلساً من الوجهاء عام ١٨١١ وجمعه ليستشيره في الاصلاحات . ورغم معارضة النبلاء جمع عام ١٨١٢ **مجلساً انتخابياً** جعل التمثيل فيه عن كل اقليم بنبيلين ونائبين عن المدن والأرياف على ان يكونا ملاّكين وفي الواقع كان هذا المجلس دون سلطة ولا يوجد فيه أي أساس للتمثيل السياسي .

لذا بقيت بروسيا دولة ارستقراطية وعارضت الطبقة النبيلة المحلية التنظيم القومي واعتبرته ثورة ، حتى انهـــا فرحت عندما اقيل شتاين بأمر نابوليون في ٢٤ تشرين الأول ١٨٠٨ . وقد كتب يورك في ٢٦ من الشهر نفسه بهذا الصدد مايلي :

« هاهو ذا رأس من رؤوس المجانين يسحق . ان باقي عش الافاعي سيهلك بسمه الخاص . وأطمن من هذا وأعقل هو انتظار الحوادث السياسية بهدوء وسكينة . ان مهاجمة العدو واثارة مخاطره جنون محض . . . ان المانيا ليست مستعدة ابداً الى المذابح الصقلية ١٢٨٢ او الى حرب في فانديه . ان الفلاح البروسي لايعمل شيئاً الا اذا تلقى الأمر من ملكه ورأى الى جانبه كتائب ضخمة . . . ان حالتنا بدأت تتحسن في الخارج والداخل»

واستطاع اليونكرز أي النبلاء البروسيون ان يجمدوا اصلاحات هاردنبرغ ، عدا ما يتعلق بالضريبة والتدابير الاقتصادية ، ودعمهم الملك في ذلك.

وهكذا ارادت بروسيا ان تبقى على ما هي عليه تنظر من وجهة نظر بروسيه لا قومية. ورغم بقائها ضد فرنسا فهي لا تتوانى ، إذا اقتضت الحال في الحقل السياسي والدبلوماسي ان تتعاون مع فرنسا : فمن ذلك أن الحكومة البروسية عام ١٨٠٨ ارتأت ان تدخل في كونفدراسيون الراين مؤملة من ذلك الحصول على جلاء القوات الفرنسية عنها . وفي ١٨١٢ اشتركت مع فرنسا في الحرب ضد روسيا وقدمت جنوداً إلى « جيش الامم » .

نلاحظ في بافاريا وبروسيا ان رد الفعل قامت به الحكومات وحدها بصورة منفردة ضد النفوذ الفرنسي . كما نلاحظ تأسيس قوى سياسية متينة وحديثة . إلا أنه لا يمكن القول بانها قوى قومية . وسنرى ايضاً أنه رد فعل وطني فردي دون أن يكون له أي الهام قومي .

من الطبيعي ان الحكم الفرنسي والاصلاحات التي رافقته قد اضرت بكثير من مصالح الريتر شافت (بارونات وفرسان الامبراطورية المباشرين) الذين رفعت عن اراضيهم تابعيتها للامبراطورية وحذفت سيادتهم ، مثل البارون

شتاين . كما أعدمت **الطبقة النبيلة و البورجوازية** بتبديل سعر الفائدة وحذف الحقوق الاقطاعية والاتاوات على اختلاف انواعها . وهنالك كثير من الضباط والموظفين الذين سرحتهم الحكومات اثناء تنظيم الادارة تحت الحماية الفرنسية . وقلق الشباب بعد أن رأوا أن الوظائف التي يؤملون بأن يشغلوها أصبحت مغلقة في وجوههم . يضاف إلى ذلك ثقل الاحتلال الفرنسي وضرائبه ومصادراته المختلفة . وباختصار ان عاطفة الحقد الوطني استيقظت إما من نفسها أو تحت تأثير هذه المنافع . ومَثَلُ اسبانيا ، عندما ابتدأت الحرب ثانية مع النمسا ، كان عاملاً آخر في تنبيه الافكار .

المقاومات الفردية . — وتحت هذه المؤثرات المختلفة حدثت ثورات ومقاومات فردية في قسم من أوربة النابوليونية . وأول مثال على ذلك : قيام كتبي باڤاري اسمه بالْـمْ ، فقد نشر كراسات ضد فرنسا وأوقف عام ١٨٠٦ وأعدم رمياً بالرصاص . وكثرت هذه الحوادث اثناء الحرب مع النمسا : ففي قصر شنبرنْ ، بعد سقوط ڤينّا في ١٢ تشرين الاول ١٨٠٩ ، حاول شاب اسمه فريديريك شتابز ان يغتال نابوليون . وقام ضباط الجيش البروسي والوستفالي بحركات عصيان وثورة ، فمن ذلك أن أثار الملازم الاول كات رجاله وزحف على ماكدبورغ واوقف في شتاندالْ في ٣ نيسان ١٨٠٩ . وأثار الزعيم دورنبرغ ، رئيس حرس الملك جيروم في وستفاليا ، رجال فرقته في ٢٢ نيسان ١٨٠٩ . ولكنهم تفرقوا بسهولة بالقرب من كاسّل . وبعد عدة أيام قام الماجور البروسي شيل مدرب فرقة الفرسان في ٢٩ نيسان ١٨٠٩ وسار باتجاه كاسّل ولكن الطريق سدت في وجهه فاضطر إلى الصعود نحو الشمال وألقي القبض عليه في ٣١ أيار من شترالسند . وأخيراً دوق برنشويك — اوبز ، الذي كان يقود فرقة هسية

(من هس) في بوهيميا احتل ليبزيغ وتوصل إلى اجتياز ألمانيا كلها وأبحر من ساحل البالطيك حيث استقبلته السفن الانكليزية . وسميت فرقة الجنود التي كان على رأسها « **الجوقة السوداء** » .

ولا شك ان هذه الحركات جميعها كانت منعزلة ، ولم تترك صدى في الرأي العام ، وليس لها اقل معنى قومي . وليست في الحقيقة سوى حركات مقاومة فردية .

الحركة التيرولية . — وأهم مما تقدم الثورة التي قامت في التيرول على يد صاحب فندق يدعى **اندرياس هوفر** وراهب كبوشي يدعى **هاسبنغر** ، والتي أصبحت شهيرة بين أساطير التيرول . أثار هذان البلاد ولبثا في الجبال عدة أشهر من نيسان إلى تشرين الأول ١٨٠٩ . ثم عادت الحركة ثانية والقي القبض على اندرياس هوفر واعدم بالرصاص في ميلان حيث جيء به في ٢٠ شباط ١٨١٠ . وكانت هذه الحركة التيرولية ثورة قام بها مجموع السكان، ولكن يجب ألا تعطى معنى الوطنية الألمانية ، لأنها كانت عصياناً ضد بافاريا التي شملت التيرول . وسببها سياسة بافاريا المركزية التي حذفت اللاندتاغ وادخلت عند هؤلاء السكان الكاثوليك مفهوماً يوسفياً للادارة الدينية وحذفت الأديرة ومؤسسات الاحسان الكنسية. فضلاً عن أن الحصار القاري سبب الشقاء في هذه الجبال .

هذه هي أسباب الثورة . وإذاً فانفجار التيرول كان ضد الاستبداد والسياسة المركزية في بافاريا وليس ضد الحكم الفرنسي . ولا شك أنه كان لهذه الثورة صداها فى ايطاليا الشمالية في وادي الآديج وروماني .

عصبة الفضيلة . — وآخر حركة نستطيع أن نجعلها في هذه المجموعة هي حركة الرابطة السرية التي تسمى « **توغندبوند** » أي « **عصبة الفضيلة** » التي تأسست في كونيكسبرغ . وأصل هذه الرابطة ماسوني

وقد أحدثها ثلاث رجال : **ليهان و باددلين و بادش** . وغاية التوغندبوند أن تراقب وعند الاقتضاء أن تعلن عن الألمان الذين يتعاونون مع الادارة الفرنسية . وحافظت هذه العصبة ، نظراً لأصلها الماسوني ، على أنظمتها المعقدة وأصول تدريبها السري . ويبدو أن غاية هذه الرابطة مبهمة ويعبر عنها بعبارات بسيطة . وهذه الحركات الابداعية كانت عنصر نجاحها . ومراكزها الهامة في كونيكسبرغ وبرلين وسيليزيا . ففي عام ١٨٠٩ كان لديها ٢٥ « **غرفة** » (فرقة) سرية يمكن أن تضم على أعظم تقدير ٧٠٠ مشترك وحسب بعض المؤرخين النقاد من ٣٠٠ الى ٤٠٠ مشترك فقط . وقد تقدم رجال التوغندبوند إلى ملك وملكة بروسيا فاعجبا بفكرة هذه الحركة . وعلى عكس ذلك رجال الحكومة الذين نظروا اليهم شزراً مثل شتاين وشارنهورست . وفرقت الحكومة البروسية أعضاء التوغندبوند وحذفتها عام ١٨١٠ .

إذاً نرى بما تقدم وجود قلاقل وطنية في ألمانيا . لقد كان الحكم الفرنسي فيها غير شعبي ودليل ذلك رد الفعل الوطني الذي يظهره . ولكن يجب ألا نرى في هذه الحركات شيئاً عظيماً أو شيئاً قومياً . غير أن الألمان عندما يبحثون في المستقبل عن ألقاب المجد لقوميتهم نراهم يعودون فيجعلون لهذه المظاهر المختلفة قيمة وشأناً .

لقد كانت المقاومة الوطنية أبسط شكل للعاطفة القومية الآخذة بالنشوء . ولكن هذه العاطفة القومية بلغت مرحلة متقدمة لدرجة يمكننا القول ان رسم القوميات بدأ يظهر للعيان . وذلك لأن مرحلة الوطنية البسيطة قطعت بحركة فكرية ، بالرغم من أننا لا نرى أقل امكان للعصيان بعد صلح فيّنا الذي انهى الحرب مع النمسا وبعد زواج نابوليون بالارشيدوقة ماري — لويز . فقد ذهب كل أمل في مقاومة الحكم الفرنسي ، ووقع

الألمان في حالة استسلام وخور . وصرحت الملكة لويز زوجة فريديريك الثالث بقولها : « لا أستطيع أن أؤمل بشيء » . ولكن قلق الألمان المادي كان آخذاً بالازدياد : لأن الحصار رفع الأسعار وخاصة في مواد غذائية لها أهميتها مثل القهوة . فقد بلغ سعر الكيلو ٥٥ فرنكاً ؛ والسكر ٣٠ فرنكاً ؛ والكاكاو ٨٠ فرنكاً . ورغم كل هذا ،ورغم جميع الآلام كان السكان في حالة جمود . إلا أن حركة جديدة بدأت تظهر عند بعض الطبقات الفكرية في ألمانيا . وسبب هذا التغير عند المفكرين يرجع إلى انهيار بروسيا التي تعتبر آخر حصن ممكن ضد الحكم الفرنسي . غير أن المفكرين ، أمام انهيار بروسيا وفي وسط اللامبالاة العامة ، كانوا يرون في هذه الكارثة بداية لتغير جديد في الاتجاه الوطني .

الوطنية الأدبية . — وفي الواقع تشكلت وطنية أدبية . لقد ولد هردر الابداعية ، وجذبت هذه الابداعية في بادىء الامر المفكرين بغريبها وتصويرها . ولكن الجيل الابداعي الثاني شغف بماضي ألمانيا . ولم تعد الأغراض الأدبية التصويرية وحدها تستهوي المفكرين ، بل انهم أخذوا بهوى التاريخ وخاصة تاريخ بلادهم . لذا نرى إلى جانب رجال الآداب المحضة ازدهار المؤرخين وفقهاء اللغة الذين يشتغلون في مختلف نواحي ألمانيا وأهم مركز لهم مدينة هايدلبرغ .

في **هايدلبرغ** أسس الأديبان **برنتانو** و **آرنيم** عام ١٨٠٦ مجلة باسم غريب « بوق الطفل العجيب » وهي مجموعة أغاني شعبية ظهرت من ١٨٠٦ — ١٨٠٨ . وفي ١٨٠٨ أسسا جريدة « صحيفة الناسك » . والى جانبها اجتمع لفيف من رجال الآداب مثل **لاموت** — **فوكه** وهو فرنسي الأصل ينتسب إلى أسرة بروتستانتية هاجرت إلى ألمانيا عندما ألغى لويس الرابع عشر « مرسوم نانت » عام ١٦٨٥ ، وقد بعث اسطورة

سيغورد من بين أساطير ألمانيـــا القديمة ؛ وغودز الريناني الذي ارتد عن فرنسا لتخليها عن الحرية ، والتحق بهم عام ١٨٠٧ وبدأ بنشر قصص أخذها عن الكتب الشعبية الألمانية .

وهناك مركز آخر وهو مدينة **كاسل** التف حول الأخوين غريم قيمّي مكتبة المدينة . وقد بدآ بنشر الأساطير والقصص الألمانية مثل « أساطير الأولاد والدار » .

وكذلك مركز **كولونيا** حيث كانت الحركة بشكل دراسة للآثار المسيحية . فقد بعث العصر الوسيط الديني في المانيا على أيدي الأخوين **بواسسيريه** . وفي هذا المعنى كتب شتاين فيما بعد : « من هايدلبرغ اشتعلت النار التي طردت الفرنسيين » .

ومن هذه المراكز الكبرى خرجت الحركة الوطنية الأدبية التي تمجد ماضي ألمانيا وانتشرت تقريباً في ألمانيا كلها : ففي عام ١٨٠٧ ظهرت في **درسدن** (في ساكس) **مجلة « فوبوس »** تحت ادارة **آدام مولر** ، البروسي « لحفظ الفن والعلم الألمانيـين » .

وفي فينـّا قام **اوغست شليغل** صديق مدام دوستال ومربي طفلها ، بسلسلة محاضرات في الأدب الالمـــاني هـاجم فيها التقليد الفرنسي بشدة وحاول أن يخلص الادب الالمـاني من تأثير الغرب .

وعقب رجال الآداب والمؤرخين وفقهاء اللغة انطلق اناس كثيرون يتحرون الوثائق ويقومون بالدراسات مثل المؤرخ **داومر** الذي درس آل **هوهانشتوفن** (أسرة أباطرة المانيـا وأصلها من فرتامبرغ حكمت من ١١٣٨ — ١٢٥٠) ، والقانوني **سافيني** الذي عارض مفاهيم الحقوق الفرنسية بالعرف الجرماني ، ورأى ، في هذا العرف الجرماني المعاكس للقانون الفرنسي ، الحرية الجرمانية الغريزية . وأناب الطريقة التاريخيـة مناب

طريقة العرض البدائية في الحقوق . وأسس **هاغن** و **بوشنغ** « متحف الأدب والفن في المانيا القديمة » . كما كان يُعمل في كل مكان على ترجمة وشرح الملحمة الألمانية « **نيبيلونغن** » التي ظهرت كنشيد قومي الماني . وهنالك بعض الشعراء ممن وقفوا شعرهم على الغرض الوطني : مثل **كورنر** الذي لقب بلقب تيرته (شاعر آثيني) المانيا ، وقتل في صفوف الحلفاء في واقعة لايبزيـغ . والمؤلف الدرامي **هنري كلايست** (١٧٧٧ — ١٨١١) وهو ضابط بروسي ترك الخدمة العسكرية بعد واقعة ايينا (تشرين الأول ١٨٠٦) وانتحر عام ١٨١١ . وقد ألف درامات استوحى الهامها من ماضي المانيا وأشهرها : « كفاح آرمينيوس » . وفيها يلمح ، تحت ستار قيام ارمينيوس ضد الرومانيين في العام التاسع بعد الميلاد ، بامكان القيام ضد الحكم الفرنسي النابوليوني . وله درامة اخرى تسمى « أمير هامبورغ » وهي تعد مع « كفاح آرمينيوس » من أبدع آثار كلايست . إلا أنها لم تمثل في حياته ولم تظهر إلا عام ١٨٢١ . وقد أوحى اليه بهذه الدرامات حقده على الأجنبي واحتقاره للأمراء الالمانيين الذين يرضخون لنابوليون ويبشرون بسلامة المانيا في التجمع والنظام .

وأشهر هؤلاء الشعراء الوطنيين ممن كان له تأثير في حينه وفي المستقبل هو **آرندت** . كان في الأصل استاذاً للتاريخ في جامعة **غرايفسفالد** (في بوميرانيا) ومنها ذهب إلى السويد اثنـاء الاحتلال الفرنسي وبقي فيها مدة ثم ذهب إلى روسيا ليلتحق بالبارون شتاين عام ١٨١٢ . كان آرندت في السابق مواطنا عالمياً كسائر مفكري الألمان . نشر عام ١٨٠٢ مؤلفاً مماثلاً لأثر فيخته في الوطنية العالمية واسمه : « المانيا واوربه » غير أن البؤس جعله يرتد ويعتنق الوطنية . ولقد كره نابوليون والفرنسيين . وعبر عن هذا الكره في مؤلف يختلف كثيراً عن السابق واسمه « روح

العصر » ظهر عام ١٨٠٧ . وفيه يمجد بعصر المانيا الاكبر وهو القرن السادس عشر ، كما يراه ، ويبحث عن اسباب أفول المانيا منذ ذلك العصر فيجدها في ضعف الطباع وفي التأثير المشؤوم الذي تركه الكتاب والفلاسفة الذين تعلقوا بأذيال الأجنبي . ويأخذ عليهم وطنيتهم العالمية وحبهم البشرية . وهو يرى أن « لابشرية دون شعوب ، ولاشعوب دون مواطنين احرار ، ولا عظماء دون شعوب عظمى ، ولا شعوب عظمى دون وطنية » . ويهاجم بروسيا بشدة لأنها لم تقم بما خلقت له ويقول : « لم يكن فريديريك الثاني ملكاً المانياً بل ملكاً بروسيا لم يبحث عن خير المانيا ، بل على العكس بحث عن الهامه عند الأجنبي في فرنسا» . كما يهاجم الأمراء ويلقبهم بـ « الخدم » و « المباعين » ويصرخ قائلا : « يالكم من مجرمين . انكم لم تثقوا بالمانيا ولم تعرفوها . وإذا لم توجد وذهبت آخر عاطفة باللغة المشتركة والاصل المشترك فذلك من عملكم وخطاياكم » . وفي روسيا نظم قصائده في تمجيد الوطنية الألمانية ودعا مواطنيه إلى الثورة والعصيان . ومن قصائده المشهورة : « الراين نهر وليس حداً لالمانيا » و « تعاليم الجندي الدينية » . وفي حرب ١٨١٣ نشر عدة قصائد جمعت تحت اسم « أغاني الحرب » .

اذاً نرى عند هؤلاء الشعراء وطنية المانية تشمل المانيا بمجموعها ، ولم تكن وطنية اقليمية كوطنيـــة التيروليين الذين ثاروا ضد بافاريا . حقاً لقد كانت الوطنية الالمانية تلهم هؤلاء الشعراء .

فيخته . — وبين هؤلاء المفكرين كان فيخته عظيم التأثير في ردته ، ويعتبر أحسن مثال لهذا التحول في الفكر الألماني بعد نكبة المانيا في « اينا ». ولقد فكر فيخته اثناء الحرب ان يلتحق بالجيش ، لا كجندي ، بل ليقوم فيه بدور المبشر والعضد المعنوية بين الجنود . التحق بعد النكبة

بالبلاط الملكي في كونيكسبرغ ، ثم ذهب مدة والتجأ في كوبنهاغن وعاد سريعاً الى برلين رغم الاحتلال الفرنسي ورغم الاخطار التي يمكن ان يواجهها . والحق يقال ان فيخته كان رجلاً تتمثل فيه روح البطولة . لقد قبل بالخطر ولم يبال بالسلطات الفرنسية التي تركته يلقي محاضراته دون ان تبدي ملاحظاتها اليه . وفي شتاء عام ١٨٠٧–١٨٠٨ باشر « دروسه » التي عرفت تحت عنوان : « خطب الى الأمة الألمانية » . فهو اذاً يتوجه الى الأمة الالمانية لا الى البروسيين ولا الى مستمعيه . وكانت الوحدة الألمانية فكرة ملهمة له . ولقد قال في خطابه الأول : « انني اتوجه الى الالمانيين عامة دون استثناء ولا أعرف الانقسامات البائسة بين الالمانيين التي ادت الى نكبتنا ؛ انني أكلم الغائبين كما أكلم الحاضرين وآمل بأن يصل صوتي الى أقصى حدود المانيا » . وقد احتفظ بشيء من مفهومه الفلسفي القديم ، وهو مفهوم كانط في الارادة والواجب المطلق ، والقى بنداء حار الى جميع طبقات السكان ليذكرهم بواجبهم في مقاومة الغازي . ونراه يذكر الشباب خاصة بقوله : « ان كل فرد مسؤول أمام الأجيال الآتية عن حرية المانيا وسلامتها » ؛ ويرى الا تعتمد المانيا على أي مساعدة خارجية ، بل يجب أن تستقي الهامها من ارادتها الخاصة وتفهمها لمعنى الواجب . وبهذه الوطنية تستطيع أن تؤمل في سلامتها .

ولصنع هذه الارادة الالمانية من جديد لابد من شرط ضروري وهو اصلاح التربية . ورأيه في ذلك مستلهم أيضاً من كانط ويقول : « ان صنع الروح الالمانية يجب أن يكون باصلاح المعارف العامة ، والقيام بالتربية القومية لحفظ الثقافة الألمانية ، هذا التراث المشترك للوطن كله ، واتمامها »

وهو يذهب إلى بعيد في مشاريعه في اصلاح التربية . ويرى ان يجنب الجيل

النـــاشيء عن الرذائل القديمة التي أودت بالمانيـــا ، وذلك بأن يفصل الاطفال عن اهلهم فصلاً كلياً ويعهد بهم إلى الدولة التي تربيهم لنفسها في مؤسسات داخليـة بعيدين عن عائلاتهـــم حيث يتلقون معارف واحـدة في عالم مغلق ينتج ما هو ضروري لهم من زراعة وتربية حيوانات واغذية وملابس وأدوات ضرورية ، وما زاد عن الحاجة يباع ويؤخذ ثمنه ويوضع في صندوق المؤسسة الداخلية . وبهذه الصورة يتألف مجتمع صغير يعيش وحده منعزلاً عن باقي المانيا ويربى حسب روح جديدة بعيداً عن عدوى الروح العامة التي أفلست واخفقت . وفي هذا النوع من التربية نرى مزيجاً من التربية الفكرية والتربية اليدوية ، وهو من خصائص القرن الثامن عشر . ولا شك ان اصلاح التربية على هذا النمط فيه كثير من الوهم والخيال ، ولكن يجب الا ننسى ان الشرط الأساسي ، بالنسبـــة إلى فيختـه ، لنهوض المانيا هو تجديد القوة المعنوية التي يأمل ان تنشأ عليها الاجيـال الصاعدة .

وهنـــا ايضاً نجد الهـــام كانط ، ولكن الشيء الجـديد هو ان فيخته تبنى مفهوم هردر في القومية . فقد تكونت عنده فكرة سـامية عن القومية الألمانية وجعل منهـا عنصر البشرية الأسمى والانقى . ويرى الدليل على ذلك في اللغة الالمانية التي يقول عنها انها الوحيدة الأصيلة ، الوحيدة التي ظلت على نقاوتها البدائية . وهي لغة أصلية بدائية يتكلم بها الالمان والشعوب التي ادمجت في المانيا ، لغة المانيا البدائية . وهي اللغة الأم على نقيض اللغات الرومانسية التي هي لغات غير بدائية بل مشتقة من اللاتينية مثل الايطاليـة والاسبـانية والفرنسية ، أو على العكس ، لغات خليطة من عناصر مختلفة كاللغة الانكليزية . وهذه اللغات الرومانسية تنحو نحواً اصطناعياً خنق عفوية الحياة فيها وجعلها تجنـح الى التقليد .

أما اللغة البدائية النقية الالمانية فقد حافظت على أصالتها . ونقاوة اللغة الالمانية ، بالنسبة إلى فيخته ، دليل حي على نبل القومية الألمانية وتفوقها . ويرى أيضاً ان المانيا شعب بذاته ، شعب بدائي كلغته البدائية ، وهو الشعب الذي حافظ أحسن من غيره على نبته الكمال التي غرسها الله في الناس . ولذا كان يرى في الأدب الألماني والثقافة الالمانية رسالة الله الى البشرية ، ويرسم في خطبه دور المانيا المجيد في التاريخ وخاصة في عصر الاصلاح الديني حيث يرى أثر الاخلاص الألماني الذي لايأتلف مع الكذب الذي الفته الشعوب اللاتينية والرومانسية ، ومع تزييف الكنيسة للمسيحية . ويستخلص من كل هذا فكرة « رســالة المانيا » التي يجب الا تهدر فتذهب سدىً ، وذلك لصالح المانيا ولصالح البشرية نفسها . لأن المانيا هي التي تدل العالم على طريق التوفيق بين الانسانية والعقل ، وهي التي تحل له قضية الدولة الحديثة ، لأن العقلانية الفرنسية والفكر الفرنسي لم يؤديا إلا إلى التفكير والالحاد والثورة .

هذه هي خلاصة أغراض فيخته في محاضراته « خطب إلى الأمــة الالمانية » وفيها نرى ان وضعه السابق قد تبدل تماماً . لقد ارتد وبدل وضعه وأخذ يصرح الآن بأن الانسان كلما كان المانياً الى اقصى حد ممكن كلما خدم البشرية ، بينا كان « الوطنيون العالميون » يصرحون في الماضي بان الانسان كلما كان مواطناً للبشرية كلما كان في الوقت نفسه المانياً . وهكذا ألف فيخته « كلاً » من الحضارة والأمة والدولة وتوصل بذلك إلى فكرة القومية الكاملة .

وكان لخطب فيختــه تأثير عظيم في بروسيا والمانيا الشمالية . فقد أوجدت للالمانيين امكان الاعتقاد بحقهم القومي وعلمتهم امكانيات المستقبل . وتحمس الشباب خاصةً لتبشير الفيلسوف .

وفي الوقت ذاته كان في برلين قس بروتستانتي اسمه **شلير ماخر** يدعو في وعظه منذ ١٨٠٨ إلى افكار مماثلة لأفكار فيخته . ويظهر أن أفكار فيخته ومذهبه ومذهب شليرماخر غذت نشاط المحافل الماسونية والجمعيات السرية . ومما يجدر ذكره خاصة ان تأثير هذه الافكار لبث طويلاً ودام مع الزمن . فقد أصبح فيخته لا أحد انبياء القومية الألمانية فحسب بل نبي الشكل الخاص الذي أخذته هذه القومية وهو « الجامعة الجرمانية ». إن الوطن الألماني في نظر فيخته شيء لامتناه ، وفي نظر آرندت كل مكان يطن فيه صوت اللغة الالمانية . وهذا التبشير الذي نراه ينشأ في ١٨٠٨ — ١٨٠٩ يعتبر نقطة البدء لعقيدة أخذت تنتشر في القرن التاسع عشر الالماني وكان لها في ذلك الحين تأثير عظيم لاسيما وانها وجدت لها مركزاً ولساناً في جامعة برلين المحدثة .

الجامعات . — لقد كان لعالم الاساتذة في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر والسنوات التي تليها أهمية عظيمة في المانيا . فقد لعبت الجامعات دوراً هاماً في كل آن في الفكر الالماني ومن الممكن القول في الحياة السياسية . وكان مفكرو المانيا العظماء في الغالب من أصل جامعي . وعن الجامعات انبثقت جميع الحركات الفكرية العامة في المانيا : ولنذكر أن لوثير كان استاذ جامعة ، وأن آل هوهنتزولرن عرفوا هذا الدور في كل مرحلة من مراحل تشكل الدولة البروسية . فقد انشئت في الأصل جامعة كونيكسبرغ ثم تلاها جامعات أخرى . وعندما حصل ملوك بروسيا على التاج الملكي ، في عهد فريديريك الأول ١٨ كانون الثاني ١٧٠١ ، أسسوا جامعة في هالليه . وعندما ذهب نصف المانيا بعد تيلسيت قال فريديريك غليوم الثالث : « يجب على الدولة أن تعوض

القوى المادية التي فقدتها بالقوة الفكرية » . وكتب شليرماخر من هاليه في ١ كانون الأول ١٨٠٦ : « ان التأثير الذي يمارسه استاذ الجامعة على عقل تلاميذه يظهر لي أعظم من غيره . انني متأكد من ان المانيا ، قلب اوربة ، ستأخذ بعد قليل شكلاً جديداً وأجمل مما في السابق » ثم انتقل إلى برلين وبدأ سلسلة خطبه الدينية وشرع في الوقت ذاته بجمع المفكرين في مركز جديد . وفي سبيل هاتين الغايتين : الغاية السياسية والغاية الفكرية أسست جامعة برلين . والقصد من ذلك تحقيق الاصلاح المعنوي والفكري الضروري لنهوض المانيا ، وكما قال شلير ماخر : « ستصبح برلين مركز النشاط الفكري في المانيا الشمالية والبروتستانتية وأرضاً مهيأة لأداء الرسالة الخاصة بالدولة البروسية » .

لقد وجد في برلين عدد من المدارس الخاصة ولكن لم يكن فيها جامعة . كما وجدت في هاليه جامعة كبرى حديثة ، الا ان بروسيا فقدت هذه المدينة بموجب معاهدة تيلسيت . ولم يبق في براندبورغ سوى هذه المدارس وجامعة فرنكفورت على الأودر وهي جامعة صغيرة وغير كافية للغاية المرسومة . وبعد انفصال براندبورغ ارسل اساتذة هاليه وفداً إلى الملك في ميميل ليرجوه في نقل جامعة هاليه إلى برلين . ولكن مثل هذا العمل يمكن أن يحدث صعوبات مع فرنسا ، لان نابوليون لا يمكن أن ينظر بعين الرضى إلى نقل هذه الجامعة الى القسم الذي لم يمسه من بروسيا . غير أن الملك فكر بعمل شيء جديد لا بنقل الهيئة الجامعية من مدينة إلى أخرى . وأجري تحقيق على امكان تأسيس جامعة فوجد ان هنالك بعض الصعوبات :

١ ـ **الصعوبة المالية** : صعوبة الانفاق ، لأن الدولة كانت في انهيار ، ووجدت

أمام وهدة مالية سحيقة لاقبل لها بها، لاسيا وان المال سيصرف في سبيل مشروع لايبدو أساسياً كغيره .

٢ — **الصعوبات المعنوية** التي احدثتها معارضة جامعة فرنكفورت على الاودر التي لاتريد أن ترى منافساً لها .

٣ — **معارضة بلدية برلين** التي كانت تخشى من أن وجود الطلاب فيها يفسد اخلاق البرلينيات .

٤ — **تعيين وضع أساتذة الجامعة الجديدة والحافهم بها .**

وأخيراً حلت الصعوبات شيئاً فشيئاً . ونوقش مشروعان في مفهوم الجامعة : مفهوم فيخته ، وهو يريد أن يجعل من الجامعة نوعاً من دير علماني ؛ ومفهوم شليرماخر ويريد أن يجعل منها جامعة بشكل عادي . وكان منشىء هذه الجامعة الفقيه في اللغة والاثري غليوم هومبولدت الذي تسلم عام ١٨٠٩ وزارة المعارف (التعليم) العامة البروسية .

لقد حفظ هومبولدت من وطنيته العالمية بعد النظر واتساع الادق واحترام الاستقلال الفكري ، ولكنه تبنى ايضاً فكرة الوطنية : « عندما يتحكم في المانيا سيد اجنبي ولغة أجنبية لايوجد ملجأ للعلم الالماني . لذا يجب أن يفتح فيها ملجأ ويدعى اليه رجال المواهب الذين لايعرفون اين يلتجئون ». وحصل من الدولة على التضحيات الضرورية . وجعل مقر الجامعة في قصر الأمير هنري أخي فريديريك الثاني، وهو قصر من أجمل قصور برلين . وخصص للجامعة (٥٦٠٠٠ فلورن) وجعل للأساتذة وظائف كافية ليجلب اليها اشدهم مراساً واكثرهم صعوبة . واهتم عند انتقاء الاساتذة خاصة باخلاصهم لبروسيا، وعين فيخته رئيساً للجامعة وبقي فيها بضعة أشهر كما عين شليرماخر . وجلب اليها اناساً مشهورين من مختلف انحاء المانيا مثل الطبيب ميفيلاند والمشرح رايل والقانوني سافيني والفقيه

اللغوي والفيلسوف فولف الذي ساوم كثيراً بقبوله الاستاذية . ودشنت الجامعة في تشرين الأول ١٨١٠ بـ ٢٥٦ طالباً ، ولم تتجاوز هذا العدد قبل ١٨١٤ — ١٨١٥ . حتى ان عـدد الطلاب في صيف ١٨١٣ وشتاء ١٨١٣ — ١٨١٤ نزل إلى ٢٣ و ٢٩ طالباً . وهذا النقص يتضح بحرب الخلاص من نابوليون لأن الطـــلاب انخرطوا في سلك الجندية . ولذا يجب الا نرى، فيالسنوات الاولى لجامعة برلين ، مركزاً فكرياً كبيراً . ولم يكن كل ذلك سوى انطلاق اكثر مما هو نتيجة . ولكن جامعـة برلين كانت مركزاً فكرياً وموطناً متحمساً حاراً للوطنيـة وعنصراً من عناصر التجديد المعنوي والنهوض بألمانيا .

رجال العمل . — على مثل هذا الشكل ارتسمت عند المفكرين فكرة القومية الألمانية . ولكننا نجد شيئاً مماثلاً لهذا عند فريق آخر من الناس وهم رجال العمل . ولا شك ان رجال الفكر يعتبرون شيئـاً هاماً في تشكل الفكر الالماني والقومية الألمانية . ولكن لرجال العمل الذين يتألبون للكفاح القومي ، تأثيراً مباشراً . وكان شتاين أشـدهم حرارة وتقدماً في الفكرة القوميـة ويعتبر في هـذا المضمار قائداً ورائداً وموجهـاً .

ولد **شتاين** عام ١٧٥٧ . وهو أحد بارونات الامبراطورية الجرمانية . كانت اراضيه في وادي لاهن ورفعت سيادته عنها وأدمجت في ناسو عام ١٨٠٤ . لذا فقد شتاين كل صلة تربطه بدولة خاصة في المانيا وأصبح تابعاً لألمانيا نفسها دون أن يكون تابعاً لدولة المانية معينة . أخذ عن أصله هذا تقاليد فرسان الامبراطورية وقوة الرجعية ولم يعمـل شيئاً في سبيل فلاحيه . وهو يكره فلاسفـة ولاهوتيي الاستبداد المستنير وأشد من ذلك الوطنية العالمية ويخشى الأفكار الاجتماعية التي أتت بها الثورة .

ومن جهة ثانية ، كان رجلاً تقياً . اتم ثقافته الفكرية في جامعة غوتنغن حيث شغف بدراسة التاريخ . وعندما اعتزل الحياة السياسية أسس عام ١٨١٥ بجموعة الوثائق المسماة « **مجموعة أصول التاريخ الالماني** » . وفي الحقيقة ، تجمعت في شتاين عناصر التقاليد الالمانية . دخل في خدمة بروسيا مهندساً ومـديراً وأصبح عام ١٨٠٤ وزير دولة وخبر تجربة الادارة . ولم يكن ليهتم بالدقائق والتفصيلات بل كان يتركها لمن كان تحت أمره من الموظفين . ولقد رأى في فساد الحكم البروسي وفي نكبة ايينا التي دهورت الدولة ماجعله يكتب إلى الحكومة والملك المذكرة تلو المذكرة يشكو فيها فساد الحكم وعيوبه ويقترح علاجاً له . وقد طالب بالاصلاح التام للحكومة والغاء الجهاز الحكومي الذي يرجع عهده إلى فريديريك الثاني ، بعد أن تبين فساده وافلاسه . ثم ذهب واعـتزل في ناسّو في آخر آذار ١٨٠٧ ومن ناسو أرسل إلى الملك مذكرة هـامة تسمى : « مذكرة ناسّو » عرض فيها اصلاح الدولة وطلب دعم هـذا الاصلاح بالرأي العام الذي يتمثل بالهيئات المحلية . وفى هذه المذكرة يظهر اصل الاصلاحات التي قام بها في بروسيا . فقد دعاه الملك للوزارة ليقوم مقام هاردنبرغ في٣٠ ايلول١٨٠٧ وبقي فيها حوالي ثلاثة عشر شهراً. ويظهر أثره فيها باعلان مرسوم تحرير الاقنان ، ولم يعمل فيه شيئاً لأنه حضر قبل وصوله للحكم؛ وباصلاح البلديات في١٩ تشرين الثاني ١٨٠٨ والاصلاح الاداري في ٢٦ كانون الاول ١٨٠٨ . ثم غادر السلطة في٢٤ تشرين الثاني ١٨٠٨ بناءً على أمر نابوليون لأن السلطات الفرنسية اكتشفت ان له ضلعاً فيتهيئة الثورة في سيليزيا ويريد تدخل بروسيا الى جانب النمسا في الحرب التي آذنت بالوقوع .

لقد ظهر دور شتاين الأساسي خلال وزارته في ادخال الفكر الجديد في الحكم وطرد البوروقراطية (الديوانية) ، وبفضـــل ارادته انتهت

الاصلاحات بسرعة . وبعد سقوط وزارته اضطر لمغادرة المانيا لأن نابوليون طرده خارج الامبراطورية فالتجأ إلى النمسا وفيها اخذ يعاضد عمل الاصلاح الذي قام به الوزير شتاديون الذي كان يتأهب للانتقام والثأر من فرنسا . التجأ اولاً في برون ثم في براغ وكان يحرض ويدعو إلى قيام المانيا ضد فرنسا . وكان على اتصال بهاردنبرغ والوطنيين البروسيين . وعندما فسدت المصالح نهائياً بين نابوليون والكسندر غادر براغ وأقام في جوار القيصر في سان بطرسبورغ (أيار ١٨١٢) ولم يظهر في المانيا الا بعد نكبة « الجيش العظيم »، جيش نابوليون ، في روسيا، وبعد ان انشقت الجنود البروسية التي يقودها الجنرال يورك في ٢٢ كانون الثاني ١٨١٣ ورجع إلى كونيكسبرغ .

لقد قضى شتاين شطراً عظيماً من نشاطه السياسي في خدمة ملك بروسيا ولكن وجهة نظره وعمله لم تكن بروسية بل ألمانية ، وهذه هي أصالة شتاين وصفته المميزة التي يختلف فيها عن هاردنبرغ وشارنهورست والوطنيين البروسيين . وعندما احتج على رفع سلطته عن أراضيه ، لم يبحث عن فائدته الخاصة بل كان يقول : إن استقلال ألمانيا واستقرارها لا يربحان شيئاً من هذا التخلي الذي يقوم به تعديل الامبراطورية ، لأن ما يهمه وجهة النظر الألمانية لا وجهة نظر المنفعة الخاصة . ولتفيد ألمانيا من هذا التخلي كل الفائدة يجب ألا يبقى في ألمانيا سوى دولتين كبيرتين : **بروسيا والنمسا** . وكان عدواً للدول الصغرى والمتوسطة ، قاسياً على جبن الأمراء الذين سعوا لدى فرنسا في زيادة أراضيهم . ولكن الذي يؤمله في تعديل الامبراطورية هو أن يطلب إلى الأمراء بتضحية شيء لا نفع فيه لغاية نبيلة وعظيمة وهي الخير للأمة جمعاء .

لقد أراد شتاين اصلاح الحكومة البروسية ليجعل من هذه الحكومة

قوة قادرة على استئناف القتال ضد فرنسا . وهو يصرح في مذكرة إلى شتاديون : « يجب أن يذكر كل ألماني بواجباته نحو الوطن المشترك ، وأن يجبر على القيام بها والشروع بمكافحة عدو الجنس البشري وألمانيا ». ونجد له في مذكرة مؤرخة في شهر آذار ١٨١٠ اتجاهاً خاصاً وهو ضرورة تربية الشعب الألماني من جديد ، ويعتبر ذلك شرطاً أولياً في نهوض ألمانيا لأن القوة المعنوية تنتهي مع الزمن بالتغلب على القوة الطبيعية و « إن المؤلفات تؤثر في الألمانيين أكثر من تأثيرها في الشعوب الاخرى ، وإذا حصل المبدأ السيء — ويعني فرنسا — على ظفر موقت بقوة السلاح فمن الممكن الوصول إلى النصر بالفكر والرأي » . وفي المذكرة التي قدمها لقيصر روسيا في ١٨ ايلول ١٨١٢ عبر عن مفهومه لألمانيا ، ألمانيا التي يجب أن تخرج بعد الظفر على نابوليون : « يجب قبل كل شيء ألا يعاد بناء الحالة القديمة . لقد كانت معاهدات وستفاليا شؤماً لأنها وصلت بألمانيا إلى درجة العجز أكثر من قرن ، ومن صالح ألمانيا وأوربة ألا تكون ألمانيا مشلولة » . إن الحل الذي يريده هو وحدة ألمانيا في دولة واحدة أي ملكية ألمانية وسلطة واحدة ذات سيادة يخضع لها الجميع باستثناء الحقوق المدنية والسياسية لجميع الناس الأحرار . وإذا كانت هذه الوحدة التامة غير ممكنة ووجب أن يبقى بين النمسا وبروسيا عدد من الدول فعلى الأقل يجب أن يكون هذا العدد صغيراً، على أن تدخل الدول التي تقوم مقام الوحدة في اتحاد (كونفدراسيون) : دول الشمال في اتحاد حول بروسيا ، ودول الجنوب في اتحاد حول النمسا. وبذا تفقد هذه الدول الصغرى إمكانية الاستقلال ووجود سياسة خاصة بها ، والتعاهد مباشرة مع الأجنبي .

وفي آخر السنة نفسها أجاب في كتاب إلى كونت مونستر مؤرخ في

٢٠ تشرين الثاني عام ١٨١٢ على المآخذ التي أخذت عليه بأنه يعمل لصالح بروسيا ويسيء استعمال نفوذه في ألمانيا لصالح البروسيين بقوله : إنه يشتغل لصالح ألمانيا لا لصالح بروسيا : « ليس لي إلا وطن واحد يسمى ألمانيا أخلص له من كل قلبي . وفي رأيي ، في هذا الوقت العصيب ، إن جميع السلالات سواسية وليست سوى أدوات . إن كل ما أرغب فيه هو أن تكون ألمانيا قوية وتستعيد استقلالها وحريتها وقوميتها وتدافع عن هذه القيم رغم وضعها بين فرنسا وروسيا . وهذه هي مصلحة الأمة وأوربة » . ويقول : « إن غايتي الوحدة وإذا لم تمكن الوحدة فعلى الأقل انتقال وسير نحو الوحدة . ضعوا من تريدون مكان بروسيا . قووا النمسا باعطائها سيليزيا وباد وبراندبورغ وألمانيا الشمالية ، باستثناء المبعدين ، وأرجعوا بافاريا وفرتامبرغ وباد إلى حالتها قبل عام ١٨٠٢ وبكلمة واحدة اجعلوا النمسا سيدة ألمانيا ، إنني أقبل بذلك إذا كان هذا صالحاً ، إذا كان هذا عملياً : ولكن كفاكم التفكير في منازعاتكم القديمة ، منازعات **مونتيغو وكابوليه** ! » . فهو إذاً يبيع بثمن بخس مصلحة الحكومة البروسية . وإذا كان يقول بصالح ألمانيا فهو لا يتصور ألمانيا ويفهمها دون النمسا . إن فكرة شتاين في ألمانيا هي التي تسمى في المستقبل « ألمانيا الكبرى » .

إن فكرة شتاين تمثل فكرة الوحدة القومية الألمانية في مفهومها الأممي الواعي . ولكن يجب أن نقول ان شتاين متقدم كثيراً على الآخرين في وجهة النظر هذه ، ومتقدم على مصالح حكومات ألمانيا الجنوبية والغربية التي ارتاحت لانهيار بروسيا وألفت التعاون مع فرنسا ، ومتقدم على الرأي العام الذي بقي غير مبال بفكرة القومية ، ومتقدم من هذه الوجهة على لفيف الوطنيين البروسيين، الذين يشتركون معه في

حقدهم على نابوليون ، ولكنهم ظلوا بروسيين لاألمانيين. وقد تبعه إلى روسيا كلاوزويتز و بوين . أما غنيزنو فكان مثله ألمانياً إلا أنه كان من نوع خاص . فر إلى انكلترا وقدم للأمير الوصي في آب ١٨١٢ مذكرة طالب فيها بانزال جنود انكليزية على شاطىء ألمانيا واحداث امبراطورية ألمانية كبرى تشمل الغرب والشمال . أما الباقون ممن لم يلحقوا بشتاين في روسيا ولا غينزنو فقد بقوا في أمكنتهم يتابعون عملهم وحاولوا أن يهيؤوا عصياناً في سيليزيا مثل كرونر ، أو أنهم لبثوا ينتظرون الوقت المناسب الذي سيجدونه في اخفاق حملة ١٨١٢ . اما الحكومة البروسية فكانت تلعب على الحبلين : لأن هاردنبرغ سلم الوطنيين إلى الشرطة النمساوية وتحالف مع نابوليون باتفاق مع مترنيخ ، في حملة روسيا ، وواظب على علاقاته مع الوطنيين . وعندما تأكدت نكبة الجيش النابوليوني في روسيا وظهرت للعيان تحرر الحزب الوطني البروسي من ارتباطه مع فرنسا وحاول ان يضع قوة بروسيا الجديدة ضد نابوليون للانتقام منه .

ايطاليا

لم تعط ايطاليا في هذه الفترة منظراً واضحاً بيناً كالمنظر الذي شهدناه في المانيا . غير اننا مع هذا نجد فيها بداية للفكرة القومية .

لقد قامت ضد النفوذ الفرنسي حركات في الرأي وفي الواقع أيضاً ، غير أن هذه الحركات لم تكن قومية بالمعنى الصحيح : كعصيان كالابر الذي امتد فيما بعد الى مملكة نابولي كلها . وقد هيأت الملكة ماري — كارولين هذا العصيان ضد جوزيف بونابرت ودعمه انزال جنود انكليزية في تموز ١٨٠٧ . وكان زعماؤه خليطاً من كل جنس . فمنهم نبلاء مثل روديو ، وأشقياء مثل فراديا فولو ، وكهان . كما وجدت فيه عناصر شغب مثل « المافيا » في جبال الجنوب ، ومهربون ، ورعاة وفلاحون

انخرطوا في العمل حباً في السلب والنهب ، ومستاؤون ثاروا من شدة المصادرات التي أثقلت كاهلهم ، ومن قساوة النظام والاسلحة التي كان يتطلبها الملك منهم . وفي الحقيقة كانت هذه الحركة نوعاً من الفوضى التقليدية المتعارف عليها في مملكة نابولي تحت غطاء من الحركة الوطنية . وتشكلت جمعيات سرية ضد النفوذ الفرنسي وخاصة جمعية عرفت فيما بعد وأصبحت ذات شهرة واسعة وهي جمعية « **الفحامين** » . ويبدو أن أصلهم كان جمعية سرية بهذا الاسم وهو : « **أبناء العم الفحامون الصالحون** ». وأصلهم من فرانش — كونته . ويظهر أن هذه الجمعية أخذت ، في عهد حكم مورا ، بفكرة الوحدة الايطالية .

وبهذا المعنى نجد أن الجمعيات السرية كانت عنصراً للمستقبل ، لأننا نجدها تقود « حركة الحرية » بين ١٨١٥ و ١٨٤٨ . ومن جهة ثانية كان مورا يداري ويصانع نعرة رعاياه الخاصة : فمن ذلك أننا نراه يحاول أن يأخذ حيال نابوليون وضعاً مستقلاً وكان يقول : « لست ملكاً لأطيع ». فقد أحاط نفسه بايطاليين مشبوهين بعدائهم لنابوليون ، مثل وزيره غالو ومدير شرطته ماغهلا ، وكان هذا على اتصال بالجمعيات السرية ، ويبدو انه كان يفكر بايطاليا الموحدة تحت صولجان مورا . وكذا يجب ألا نرى حركات قوميــــة في معارضة حكومات آل بوربون اللاجئة في صقلية وساردينيا ، وفي نزاع الكهان وموظفي الحبر الاعظم ضد النفوذ الفرنسي عندما أعلن ضم دول البابا .

ومن جهة ثانية ، أحدث النفوذ الفرنسي تبدلات عميقة في الشروط الاجتماعية والسياسية في شبه الجزيرة . وهذه التبدلات يمكن أن تعتبر نوعاً من عمل تحضيري للوحدة . ومن الطبيعي أن نجد في ايطاليا ، كما هي الحال

في المانيا ، كثيراً من المتناقضات والاختلافات في النظم التي أخضع نابوليون بموجبها ايطاليا . ورغم الاختلاف من حيث التاريخ والبلد يمكن القول بصورة عامة **ان الاقطاعية أُلغيت** : فقد أبدل حق العدالة الخاص بالأمراء الى مصلحة عامة . وخضع النبلاء الى القانون العام فيما يتعلق بأراضيهم وأشخاصهم ، وألغيت ضريبة العشر التي تدفع الى الاكليروس ، والاتاوات الشخصية التي تدفع للأمير ، كما وجد في بعض مواطن من ايطاليا ظهور اصلاح في نظام الاراضي . وبسّط النفوذ الفرنسي كثيراً من المشاكل والأعمال الادارية التي كانت ثقيلة على السكان : فمن ذلك أنه حذف عدة وظائف لا فائدة منها ونظم العمل الاداري تنظيماً جيداً ، وخاصة فيما يتعلق بالسجلات والحسابات العامة ، وأصلح جهاز الموظفين وأخضعه لقواعد ونظم مقتبسة من النظام الفرنسي .

هذا ويمكن القول ان نظم وقواعد الحياة القومية في ايطاليا قد تشكلت أثناء الاحتلال الفرنسي ودام أثرها طويلاً : **كمجموع الموظفين** الذين يؤخذون بصورة عامة من الطبقة البورجوازية ويتعاونون مع السلطة المحتلة . كان هؤلاء الموظفون يجتمعون في الألواج الماسونية التي اتحدت كتلة واحدة وسميت باسم « الماسونية الملكية والايطالية »، ويرجع أهلها الى ايطاليا الشمالية .

ومن هذه النظم ايضاً **الجيش** . لقد كان نظام القرعة هاماً في ايطاليا وقد احصى أنه مات ٦٠٠٠٠ ايطالي في الجيوش النابوليونية . وبفضل القرعة وجدت شعوب مختلف النواحي الايطالية في تماس مع بعضها لاول مرة . وكان عدد الجيش في المملكة الايطالية الشمالية ٤٩٠٠٠ نسمة في عام ١٨١٠ . وفي العام ١٨١١ كان ٩١٠٠٠ . ووجد ان حشداً من الناس

اتوا من مختلف انحاء ايطاليا وهذا مالم تره ايطاليا في السابق . ولاول مرة وجد النابوليون والميلانيون والجنويون والسارديون بتماس مع بعض ، ولاول مرة تنصهر هذه العناصر وتختلط فيما بينها . اماالضباط فقد اخذهم نابوليون من الطبقة النبيلة او البورجوازية . وحاول ان يجذب النبلاء اليه باحداث حرس، الشرف واجبرت الاسر النبيلة على تسجيل اسماء ابنائها فيه. وأخيراً يمكن القول ان وحدة النظام الاقتصادي الذي فرضه نابوليون بنتيجة الحصار كان آخر عنصر في لم شعث الايطاليين وجمع شملهم .

وهكذا فان النفوذ الفرنسي ، وان لم يوجد القومية الايطالية ، جمع شمل الايطاليين والف بينهم ووحد كلمتهم ، وفي ذلك أساس لكل قومية مستقبلة .

الحياة الفكرية والمعنوية . — هذا ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار عنصراً عظيم الأهمية : وهو الحياة الفكرية والمعنوية . فقد رأينا في ألمانيا في هذه البيئة تشكل النبتات الاولى للقومية . أما في ايطاليا فنجدنا في آخر عصر الآداب الاتباعية (كلاسيك) قبل أن تنشأ فيها الابداعية . فما زال يوجد بعض كتاب يهتمون باللغات الاقليمية ويبحثون عن الهامهم في العناصر المحلية وفي تمثيل الحياة الشعبية . غير أنهم كانوا آخر من يمثلون مدرستهم ،مثل **نيلي** وهو صقلي من بالرمو عاش من ١٧٤٠ إلى ١٨١٥، **وكارلو بورتا** (١٧٧٧—١٨٢١) من ميلانو . وكلاهما يعتبران كاتبين اقليميين. وكان معظم كتاب ايطاليا ، في خدمة فرنسا ، موظفين لدى الحكومة او يتقاضون من حكومة الامبراطور مساعدات او رواتب ، وبعضهم اساتذة في الجامعات الايطالية في **بافيا**، **ميلانو** ، **فلورنسا** ، وبعضهم نواب في الهيئة التشريعية للمملكة الايطاليا مثل **بورتا** ، أو كانوا مشبعين بالافكار

الديموقراطية التي نهلوها من النظريات الفرنسية ، وأحياناً يكتبون لتمجيد الثورة . وبعضهم كانوا مداحين لنابوليون .

وكان اثر هؤلاء الكتاب، فيالعصر الامبراطوري في ايطاليا،قومياً من عدة وجوه . فهو قومي بسنأ هذه الآداب وجمال الشكل والفن وفي كل ما يجعلها تدخل في التراث الايطالي الذي يؤمن لهؤلاء الكتاب نجاحاً دائماً حتى في الوقت الذي ينسخ فيه هذا الشكل الفني وتبطل موضته . وهو قومي ايضاً لان كثيراً من هؤلاء الكتاب يكبرون فيه الفكرة الوطنية وحب البلد ، حتى ولو كانوا من أصل خاص ولهم نعرة اقليمية او كانوا ممن دخلوا في خدمة الفرنسين . فمن اشهر كتاب هذا العصر **اوغو فوسكولو** و **فيشانتو مونتي** .

عاش **فوسكولو** من ١٧٧٨ الى١٨٢٧ وكان شهيراً بروايته المسماة : « آخر رسائل جاكوبو اورتيز » التي صدرت في عام ١٨٠٢ وموضوعها الألم الذي يتملك وطنياً بندقياً من ضياع وطنه واخفاقه في الحب . وكلا هذين الاخفاقين يؤديان به الى الانتحار . و اشتهر فوسكولو بسلسلة من القصائد تسمى « القبور » صدرت عام ١٨٠٧، وفيها يمجد الارض المقدسة بقبور الرجال العظام موحي الجمعيات الذين يربطون الادارة بأرض الميلاد.

أما **مونتي** فكان معاصراً لفوسكولو واقدم منه بقليل . ولد عام ١٧٥٤ ، وأثره الشعري عظيم ومتنوع ، وفيه نجد وحياً سياسياً يتطور حسب الزمن والظروف والحوادث : نظم قصائد عام ١٧٩٣ بمناسبة وفاة القائم بالاعمال الفرنسي باسفيل اثر مقتله في روما ؛ ثم نظم قصائد على شرف العالم بالرياضيات الشاعر **ماسشيروني** . ولتمجيده نظم عدة اغاني وطنية تمجد رجال ايطاليا العظام منذ القديم . ثم أصبح مونتي مداحة

نابوليون ونوعاً من شاعر رسمي . وبعد ١٨١٤ استسلم لعرض النمسا وتخلى عن حركة الحرية (الليبرالية) . ولذا لانجد وحدة في وحيه السياسي . غير انه كان دوماً وفي كل آن بل وفي كل مرحلة من مراحل النمو يبحث ويجمع عناصر عظمة ايطاليا والوطن ومنفعته الخاصة .

وأخيراً كانت هذه الآداب قومية لانها اتمت العمل اللغوي الذي بوشر به في ايطاليا منذ زمن طويل . وتشكل نوع من قومية لغوية . فقد كان الكل يجتمعون مهما تباينت اصولهم ونزعاتهم في دراسة الايطالية وتطهير اللغة ، وحتى من تشيع منهم للفرنسيين وانضم اليهم مثل مونتي وميزادوتي أو ممن بقي مستقلا تماماً مثل فوسكولو اوكوؤكو الذي تبنى افكار هردر فيما يتعلق باللغة والاناشيد الشعبية ، أساس الأمة ؛ أو ممن بقي عدواً للنفوذ الفرنسي بصورة صريحة مثل نيقوليني . وساروا بواسطة الدروس والدراسات النقديه ودراسة النحو في عمل تطهير اللغة . وأساس هذه اللغة ، اللغة الطوسكانية ، وكانت منذ زمن بعيد اللغة الايطالية الرسمية . وقد حاولوا ان ينقوها من جميع الشوائب الاجنبية ويردوها إلى نقاوتها . وساعدهم نابوليون في عملهم هذا واستطاعوا ان يلاقوا بعض النجاح عام ١٨٠٩ . وفرضت اللغة الايطالية في المحاكم وحتى في الاراضي التي ألحقت بفرنسا . وفي عام ١٨١٢ قبل نابوليون باعادة تأسيس الاكاديميا الفلورانسية المعروفة باسم اكاديميا كروسكا التي تأسست في العام ١٥٨٢ . وكانت هذه الامجاد الادبية تؤلف عزاً ايطاليا يضاف إلى التراث القديم . ويجب ان يضاف اليه مجد معاصر من الفنانين ، مثل كانوفا والموسيقيين .

وهكذا ظلت الفكرة القومية في ايطاليا شيئاً لفظياً ولم تنتقل الى

الحقل السياسي الا قليلاً . وكل مافي الامر انها أضيفت الى تراث ايطاليا العام ، وليس هنالك مايدل على انها أهل لتصبح فكرة قومية نظراً لتعاونها مع الفرنسيين . غير ان هذه العناصر التي أتينا على ذكرها سوف تستوحي الفكرة القومية منها الهاماً في المستقبل .

حروب التحرير . — هذه هي الآثار التي نستطيع الكشف عنها في مختلف اقسام اوربه من نشأة القومية بدراستنا رد فعل الشعوب تجاه النفوذ الفرنسي . غير ان هذا النفوذ قد انهار في العام ١٨١٣ و ١٨١٤ في الحروب التي سميت « حروب الخلاص » : من ابادة « الجيش الكبير » في روسيا وغزو المانيا وتحلل النمسا . ويمكن القول ان مارأيناه ان هو الا اختبار للعواطف القومية التي ظهرت في مختلف اقسام اوربه . واننا لنتساءل بعد هذا لاي درجة ساهمت الشعوب في الحركة السياسية والعسكرية التي قلبت نابوليون وطردته من اوربه الوسطى اولاً ، وكسرت فرنسا أخيراً في العام ١٨١٤ ؟ للاجابة على هذا السؤال يجب ان نتتبع عن كثب المظاهرات، والمرور من حيز القوة الى حيز العمل ونلاحظ الفكرة القومية في تحقيقها العسكري والسياسي ونرى كيف انها نشأت على أنقاض الامبراطورية الفرنسية .

بولونيا . — ان أول بلد نطرح فيه هذا السؤال هو البلد الذي طرد منه النفوذ الفرنسي قبل غيره ونقصد به بولونيا . فبينا كانت العناصر العسكرية أي القادة، وعلى رأسهم بونياتوسكي ، أمناء على عهد نابوليون ، كانت العناصر السياسية تحاول ، خلال العواصف التي تحدق ببولونيا ، أن تحافظ كما يظهر ، على الأقل ، على وجودها القومي ممثلاً في دوقية ڤارسوفيا . وكان تشارتوريسكي المعروف بانحيازه لروسيا ، ومن الممكن

القول لبولونيا ، يطلب الى القيصر الكسندر الاول أن يعيد تأسيس التاج البولوني ويرجع المملكة وذلك بأن يعهد بالتاج الى أحد اخوته أي الى الدوق الاكبر في روسيا : « عندما تتوقع الامة البولونية الاخذ بالثأر من الفاتح وتمد جلالتكم اليها يد المساعدة وتقدم وسائل الكفاح تكون النتيجة سحرية وتتجاوز ما تنتظرون منها . واني لآخذ على عاتقي أن أوقع كل شيء دون تأخير » . ومن جهة أخرى تعرض الحكومة البولونية بأن تعطي نفسها الى روسيا شريطة أن يعاد تأسيس بولونيا ، حتى ولو كانت تحت حكم روسي ، متحدة مع ليتوانيا ولها دستور .

وكان يناهض هذه العروض البولونية بشدة روس وطنيون مثل نيسلرود ، والبارون شتاين، الذي التجأ الى سن — بطرسبورغ، وكان من مشاوري القيصر . وقد كتب في ٧ تشرين الثاني ١٨١٢ : « لنمنع مهما كلف الامر تشكل المملكة البولونية ! ولتجتمع انكلترا والنمسا لمعارضة هذه الرغبات الوحشية » وذلك لانه يخشى خاصة من أن اعادة تأسيس بولونيا يمكن أن تعكر الصفو بين النمسا وروسيا فتحول بهذا دون تأليف حلف ضد فرنسا . وتحت تأثير نيسلرود من جهة ، وشتاين من جهة أخرى دفع القيصر عرض البولونيين واكتفى بأن طيب خاطرهم بالكلام في ١٣ كانون الثاني ١٨١٣ ، وكان ذلك كافياً لعدم قيام البولونيين بأي حركة، بل انهم وقفوا يشاهدون سقوط دوقية فارسوفيا الكبرى دون احتجاج وأخذ الروس فارسوفيا دون كفاح في ٩ شباط من هذا العام .

ومن تدخل شتاين يجب أن نلاحظ هذا الحادث الذي مازال رسماً ولم يتضح الا قليلاً وهو ان القومية الألمانية تعارض القومية البولونية ، وان الألمان يأبون على البولونيين أي فائدة من الحياة القومية التي يتطلبونها لأنفسهم . ومن هذا

التعارض بين القومية الألمانية والقومية البولونية ، الذي نرى ظهوره منذ البدء، يمكن القول بوجود شيء ثابت في العلاقات بين الالمان والسلاف .

بروسيا الشرقية . — لقد كانت بروسيا الشرقية ثاني بلد طرد منه النفوذ الفرنسي . وأول ظاهرة للقومية الالمانية كانت بقيام هذا الاقليم . ويجب أن نلاحظ أن الكارثة التي مني بها نابوليون في روسيا لم تدرك بصورة طبيعية حالاً في الامبراطورية ، بل ان الخسران الهائل الذي أصاب نابوليون في روسيا كان يلاحظ تدريجياً ، لأن الخطوط الفرنسية اخذت تتراجع تباعاً، وبانسحابها تخلصت الأرض الألمانية . فقد تراجعت الجيوش الفرنسية على خط الفيستول ، ثم من الفيستول الى نهر الاودر في آخر شباط ١٨٣ ، ومن ثم الى ما وراء الايلب . وكان على الجيوش الفرنسية الموجودة في اقصى الشمال ان تنطوي على نهر النيمن في النصف الثاني من شهر كانون الأول : ففي ١٨ كانون الاول ١٨١٢ تلقى ماكدونالد ، الذي يقود اقصى اليسار ، الأمر بأن ينسحب الى تيلسيت . ومن هذا الانسحاب الذي تم من النيمن الى الفيستول كان خلاص بروسيا الشرقية .

وعلى هـذا فالحوادث جعلت ثورة بروسيا ممكنة : كان ماكدونالد يقود الجناح الأيسر أي الجيش العاشر من الجيش الكبير ، وقد احتل كورلاند . وفي هذا الجيش العاشر اشتركت الجنود البروسية تحت قيادة الجنرال يورك.وكان هذا ارستقراطياً بروسيا محافظاً يكره كل حركة ثورية ويصرح بأنه لا يوجد في المانيا « مذابح صقلية او حروب ڤاندية » . وهو ضابط فريديريكي يحتفظ بتقاليد جيش فريديريك الكبير ويشكو بالطبع في شخصه العسكري الكارثة التي وقع فيها الجيش البروسي .

كان يقود في الجناح الأيسر الفرقة البروسية في الجيش الفرنسي ويتلقى الأشياء بأسرع من رئيسه ماكدونالد . وبينما كان ماكدونالد يعمه في الجهالة والانعزال ، كان يورك ، بحسب وضعه في المؤخرة ، في آخر ايلول ١٨١٢ موضع عروض روسيا،وخاصة حاكم ريغا الروسي،وهو ايطالي اسمه بولوكشي، وكذا القائد العام للجيوش الروسية . وقد بقي دون تعليمات من برلين مع العلم بأنه طلبها منها فلم يأته شيء . وظل خلال شهرين وهو في حالة جذب بين الروس الذين يحاولون ان يجذبوه اليهم، وبين ماكدونالد الذي كان ملحقاً به . ورأى يورك ان يوسع المفاوضة التي عرضت عليه واراد ان يحصل على ضمانات للمملكة البروسية كلها . فحصل على تعهد رسمي صريح من القيصر ، في ١٨ كانون الاول ، بأن لا تلقي روسيا سلاحها قبل ان يعاد تأسيس بروسيا ، واذا لم يكن ذلك في مجموع اراضيها ، فعلى الاقل ، في شروط تجعلها تستعيد وضعها الذي كان لها بين الدول العظمى قبل عام ١٨٠٦. وهكذا نرى أن القائد المنعزل يحول المفاوضات العسكرية ، التي ربما كان غرضها الأصلي تعليق السلاح ، إلى مفاوضات سياسية . وعندما تلقى في ٢٩ كانون الأول أمر ماكدونالد ان يأتي ويلتحق، في تيلسيت وراء النيمين ، تردد قليلاً ثم وقع تسليمه بين ايدي الروس في (توروغين) في ٣٠ كانون الاول ١٨١٢ . ويعتبر تسليم توروغين حادثاً أساسياً ونقطة ابتداء في الحركة الألمانية ، وله أهمية عسكرية كبرى لأنه اجبر ماكدونالد ، وقد كشف من يساره ، على التراجع من نهر النيمين إلى الفيستول ، وبالتالي إلى التخلي عن بروسيا الشرقية . وفي هذا الحادث الحاسم ، الذي يتمثل بخيانة الجنرال يورك ، يجب ان نرى رد فعل عسكرياً ووطنياً قام به قائد بروسي ، لاحركة المانية قومية .

تبدل الوضع سريعاً بعد تسليم توروغين . فقد كانت بروسيا الشرقية ضحية الحرب بصورة خاصة : اجتاحتها أولاً في حملة ١٨٠٧ ، أي حملة **ايلو وفريدلاند** ، وأثناء عمليات ١٨١٢ في تعبئة الحملة الروسية ، وسحقتها المصادرات التي أجرتها فرنسا بها . ولذا كانت في حالة سيئة ولديها من المبررات ما يجعلها تكره فرنسا . ومن جهة ثانية شهدت انكسار الجيش الفرنسي والهاربين الذين كانوا يجتازونها وهم في حالة أعياء رهيب. وقد اطلقت، في بعض جهاتها ، عيارات نارية على هؤلاء الفارين . وأخيراً كان الموظفون في بروسيا الشرقية وطنيين بروسيين . لهذه الاسباب المختلفة قام هذا الاقليم بالثورة : وكان رئيس الادارة فيها **شون** عضواً في جماعة الوطنيين التي تشكلت حول شتاين وشارنهورست وغنيزنو ، فامدّ العصيان بمساعدة الادارة . وكذا الجنرال **بولوف** وكان قائده في بروسيا الغربية . أخذ على عاتقه ان يدعو الجنود إلى الخدمة وهم في حال عطلة . ثم ان يورك بدأ بتشبثه الخاص بمهاجمة مؤخرة الجيش الفرنسي مع الجيش الروسي، في حين أن حكومته كانت مخالفة لنابوليون . في كل هذا نجد **الادارة والجيش** أي الاطارين التقليديين في الدولة البروسية يعملان دون أخذ رأي حكومتها . والحادث الهام الحاسم هو وصول شتاين إلى كونيكسبرغ ، في ٢٢ كانون الثاني ، وهو مخول بمطلق السلطات من قبل القيصر اسكندر الأول ضد الفرنسيين . ولقد رأينا ان شتاين، في فكرته الالمانية ، لايبالي ببروسيا ويجعل منها سوقاً رخيصة . وكان مدفوعاً بكرهه للفرنسيين ، ونراه هو وغنيزنو يلومان شون عند وصوله لأنه لم يعمل السيف في الفرنسيين الذين اجتازوا اقليمه . وعلى هذا فإن ثورة بروسيا الشرقية ، في نظر شتاين ، ليست سوى وسيلة لتحقيق عمل أعظم وهو خلاص المانيا وتنظيمها من جديد : رفع رأساً الحصار الذي يثقل الشواطيء

البروسية ، وفرض الضرائب ، وأمر بالتداول الاجباري للأوراق الروسية ، واوجد الوسيلة الضرورية لتنظيم المقاومة : فقد جمع مجلس الاقليم وطلب منه التصويت على دستور الجيش، وبالجملة أراد ان يؤسس من العناصر المحلية نوعاً من حكومة نظراً لغياب الحكومة الملكية .

اجتمع مجلس الاقليم في ٥ شباط وصوت في ٧ منه على المشروع الذي هيأه شتاين وقدمه اليه . وعندئذ غادر شتاين الاقليم والتحق بالروس وترك لأصدقائه أمر تنظيم العصيان . وكان مجلس الاقليم يتألف من سبعين شخصاً : نصفهم يمثل الطبقة النبيلة ، والنصف الآخر يمثل المدن والصناعات الحرة . وفي الواقع كان هذا المجلس مجلس نبلاء ولم يكن للشعب اسهام فيه ، وبقي اجنبياً عن هذه الحركة . غير أن مجرد اجتماع هذا المجلس واتخاذ مقررات به جعل منه نوعاً من ثورة على حقوق الملك : لأنه كان يجتمع دون دعوة من الملك ويتخذ قرارات كقرارات الحكومة . ولقد حاول عبثاً تعداد تصريحاته في ولائه للملك وخضوعه له ، لأن التشبث الذي قام به ثوري .

نجد في هذا المجلس صفتين مميزتين وسنراهما في الحركة البروسية كلها وهما :

١ً — ان هذه الحركة البروسية كانت حركة نبلاء ، أي حركة طبقة عليا .

٢ً — ان هذه الحركة لاتخشى ان تعمل خارجاً عن ارادة الحكومة وتدعو إلى محاولات ثورية .

اللاندوهر .— اما العمل الذي قام به هذا المجلس فهو انشاء «اللاندوهر» أي الجيش البري . فقد تقرر انشاؤه في ٧ شباط ١٨١٣ . ويهدف ، حسب مقدمة المرسوم ، إلى تنظيم جيش العصيان خارجاً عن الجيش النظامي ، وذلك لأنه ما زال يسود الطبقات المستنيرة في بروسيا زعم

ضد العسكريين وضد الجيش المحترف ، هذا الزعم الذي يميز آخر القرن الثامن عشر . وعلى هذا « اللاندوهر » أن يكون اداة دفاع عن الاقليم ، واداة ثورة عندما يهاجم العدو حدود البلاد . ويدخل فيه من يتراوح عمرهم بين الثمانية عشر عاماً والخامسة والأربعين من المتطوعين وممن تصيبهم القرعة مع القدرة على الاستعاضة . ولم تكن هذه الأخيرة في مشروع شتاين الأصلي ، غير انها فرضت من قبل ممثلي المدن ومن الجنرال يورك . وبعد ان صوت على هذا القانون بوشر بالتنفيذ ، وتألفت لجنة عامة دون ان تنتظر موافقة الملك الذي كان بعيداً .

وانا لنتساءل عن مدى تأثير هذا العصيان على الاقاليم الأخرى في دولة بروسيا ؟ كان الملك قد غادر برلين إلى بريسلو في ٢٢ كانون الثاني بعد ان عزل يورك عن قيادته وعنف القرارات التي اتخذها مجلس كونيكسبرغ . ولذا نجد أمام هذه الحكومة المستسلمة تشكل نوع من حكومة مناوئة تتألف من الوطنيين في مقاطعة براندبورغ . ثم ان الجنرالين، اللذين رأيناهما على رأس العصيان وهما يورك وبولوف ، اتفقا مع القائد الاعلى (ويتغنشتين) على الزحف على نهر الاودر ضد الفرنسيين . وهذه الحركة الثورية اضطرت الملك ان يعمل اكثر مما يستطيع : ففي ٣ شباط استدعى المتطوعين ليزيد في عدد الجيش ، وفي ٩ منه علق الاستثناء من الخدمة لمن سنه بين الـ ١٧ و ٢٤ سنة . وكانت نتيجة هذه الحركة التي فرضت هذه المقررات حمى حقيقية أخذت تتمشى بجسم البروسيين .

تنظيم اللاندوهر . — لقد كان هذا الجيش محكاً للعاطفة الوطنية البروسية .. ففي الطبقات المستنيرة الفكرية ، التي لمسنا عندها أول امارات القومية الألمانية ، نرى أن فكرة تبني التسلح ضد فرنسا قد تمت بهوى وشغف زائد . وكان اساتذة الجامعات يوسعون مرسوم الدعوة إلى المتطوعين ،

ونخص بالذكر منهم فيخته في برلين وشتيفانس في بريسلو. وكذا الأمر في جامعة هالليه وكونيكسبرغ ، وحتى في بروسيا القديمة التي أصبحت الآن في جملة الدول الفرنسية ، وفي ايينا في شهر آذار . ونفذت الحركة خاصة إلى الشبيبة : فقد كان شباب الجامعات اول من انخرط في الجيش حتى ان جامعة برلين خلت تقريبا من طلابها في بضعة أيام ، ولم يبق فيها اكثر من ٢٣ طالباً . ورافقت البورجوازية والطبقة النبيلة الشبيبة في هـــذه الحركة الـتي ضمت الأوساط الفكرية والطبقات العليـا : كانت نفوس برلين آنذاك ١٥٠٠٠٠ وقد تقدم منها ٦٠٠٠ متطوع . وبصورة عامة خلت الجامعات والكليات من طلابها : ففي سيليزيا ارادت ادارة الكلية أن تنخرط كلها في الجيش وطلبت أن يقوم مقامها في وظائفها كليـات أخرى . وهنالك جنرال شاب اسمه لوتزوف الف فرقة « القناصين السود » ليحشد المتطوعين في باقي المانيا . ويبدو ان الحركة اقلقت الحكومـة : فمن ذلك ان مترنيخ أبدى تخوفه من هذه « الحركة الفظيعـة » الـتي قامت في سيليزيا وبوهيميا ووستفاليا والتيرول : فقد كتب في ١٨ شباط ١٨١٣ « انني لا اتعامى عن نتائج هذه الحركات الشعبية التي اثـــيرت باسم شرف المانيا واستقلالها،فلن تتأخر عن فصم الروابط السياسية والاجتماعية ». وهذا القلق الذي ساور الحكومة انما هو القلق من حركة شعبية توشك ان تنقلب إلى ثورة .

وهاجت الجوقات البروسية بهذه الحركة الكبرى التي ظهرت فيهـــا الأهواء الوطنية والكراهية والاحقاد على النظام النابوليوني الذي أثارهـا وبذرها في المانيا . وهاجت المانيـا الشرقية والشمالية ووصلت الحركة إلى هامبورغ والاقاليم الهانسية .

واضطرت الحكومة البروسية أن تعمل مرغمة أمام هياج الاهواء ،

على حين انها كانت ترى بأن تبقى متحفظة وتربط مقدراتها بالنمسا ، وتقف من روسيا ومطامع القيصر موقف الشك ، كما وقفت حيال هذه الطرق الثورية التي تبنتها الحركة الوطنية . غير أن مجيء شتاين إلى بريسلو ضغط على فريديريك غليوم وفرض عليه التحالف مع روسيا بمعاهدة كاليش (٢٨ شباط ١٨١٣) التي كانت تقلق الحكومة البروسية ، لان القيصر تعهد ان يعيد بروسيا قوية كما كانت عليه قبل عام ١٨٠٦ ، دون أن يؤمن لها نفس الاراضي التي كانت لها ، الامر الذي اوقع الحكومة البروسية في مغامرة كبيرة الاخطار دون أي ضمان لرجعى تامة . ثم أن مجيء القيصر نفسه الى بريسلو في ١٥ آذار حدا بفريديريك غليوم إلى اعلان الحرب على فرنسا في ١٦ آذار واتخاذ قراره الاساسي في ١٧ منه : وهو أن يعمم اللاندوهر الذي احدث في بروسيا الشرقية على جميع أقاليم المملكة مع التشديد ، وذلك بحذف القدرة على الاستعاضة التي اقرها اللاندوهر البروسي . وأخيراً في ٢١ نيسان أقر النفير العام وفرض **اللاندشتورم** اي الخدمة الاجبارية التي فرضت على البروسيين خلال الحرب كما جرى ذلك ابان الثورة الفرنسية في ١٧٩٢ و ١٧٩٣ .

وهذه الحركة البروسية تظهر لنا حركة عفوية من نوع اخلاقي معنوي وتتصف بالصفتين اللتين استخلصناهما سابقاً وهما : المقاومة البروسية للنفوذ الفرنسي أي المقاومة الوطنية البروسية . ومن جهة أخرى ، فكرة البعث ، أي التجديد المعنوي الذي باشر به زعماء المانيا المفكرون ، ويهدف إلى النهوض بالمانيا ونفخ الروح القومي فيها .

وهنا نتساءل إلى أي مدى ساهم مجموع المجتمع البروسي في هذه الحركة ، ومجموع المانيا في القيام ضد فرنسا ؟ ان الجواب الذي نحصل عليه يكون بدراسة التنظيم العسكري الذي احدث في بروسيا بنتيجة هذه الحوادث .

فما هو الاثر الذي انتجته هذه المقررات ولاي درجة وضعت موضع التنفيذ ؟

في النقطة الاولى ، نجد عنصرين متميزين : **المتطوعين** من جهة ، **واللاندوهر** من جهة أخرى . فقد نظم المتطوعون فرقاً خاصة منعزلة ، لها رئيسها ولم تدخل في مجموع الجيش . والسبب في ذلك يرجع إلى الأخذ بهذا الزعم الذي يكره الجيش المحترف والذي مازال موجوداً في الطبقات المستنيرة والغنية في بروسيا . وعلى هـذا أسس المتطوعون فرقاً منفصلة وجيوشاً حرة ولم يشاءوا الانخراط في الجيش كسائر الجنود بل كانت فرقهم خاصة بهم . وهذا نوع من منحة خصت بها الطبقات الموسرة والمثقفة . ففي شهر آذار وشهر نيسان وجد ما يقارب ١٥٠٠٠ متطوع وهو عدد ضخم . ومن هؤلاء ٧٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ متطوع كانوا على أهبة الاستعداد للاسهام في العمليات في شهر أيار . واما الجيش ، الذي حارب في الربيـع وكسره نابوليون في بوتزن ولوتزن ، فهو الجيش البروسي وقد تضخم بالمتطوعين ونجدة **الكرومبر** ، أي بجيش يقارب الـ ٣٥٠٠٠ جندي .

وعلى هذا فالمتطوعون كانوا كثراً واستجابوا لداعي الوطن مذ ناداهم . اما **اللاندوهر** فلم ينظم الا ببطء وبصورة متفاوتة . وكان مجموعه يؤلف الجيش القومي . وفي الواقع كان للاندوهر طابع اقليمي وذلك لانه نظم من قبل مجالس الاقاليم . فقد الفت **لجان** أو **دوائر** ، من نبيلين وممثلين عن العوام ، وظيفتها تعيين الضباط . وكان تنظيمه متفاوتاً : ففي سيليزيا **وبروسيا الغربية** أي في **بروسيا البولونية القديمة** ، شوهد عدد عظيم من الفارين . وكان الناس البولونيو الأصل يجتازون الحدود ويفرون عوضاً عن ان ينخرطوا في اللاندوهر . وفي **بروسيا الشرقية** وجد كثير من الاستعاضات . وهذا يدل على الناس كانوا يفرون من التجنيد جهد المستطاع . وفي بوميرانيا المحاذية لشاطيء البلطيق ركب كثير من الفـارين البحر

والتجأوا في السويد أو في الجزر الدانيمركية . وفي المواقع كان الفلاحون يخضعون لأنهم كانوا يمتثلون لأوامر الجونكر . وكان نجاح اللاندوهر في الثغور البروسية اكثر مما هو في غيرها لأن الكثيرين كانوا ينخرطون في الجندية قبل ان تصيبهم القرعة ، وهذا الدخول في اللاندوهر يمكن أن يتخذ دليلاً على التسارع الوطني في الخدمة العسكرية. واذا اخذنا معدل نسبة المنخرطين في اللاندوهر إلى نسبة القرعة لكانت ١٢ ٪، وهذه النسبة ليست عظيمة . وفي بروسيا الشرقية والثغور الجديدة وهما أشد الاقاليم هياجاً بالوطنية كانت النسب ٢٧٪ و ٢٣٪ . وفي الثغور الناخبية أي في قلب براندبورغ كانت النسبة ١٤ ٪ . وفي بقية الاقاليم ٨ ٪ تقريباً . واذاً وجدت هزة قومية. إلا ان هنالك مقاومات هامة . ولم تكن القومية عامة عند جميع السكان ، بل ان قسماً عظيماً منهم دخل الجندية مرغماً بالقوة بعد المقاومة . وفي اللاندوهر حافظت الطبقة النبيلة على ملاك الضباط ودثر النبلاء الأمر واقصوا البورجوازيين عن رتب الجيش . وكان جيش اللاندوهر يتراوح ما بين ١٢٠٠٠٠، و ١٣٠٠٠٠ على ٢٧٠٠٠٠ جندي مجموع الجيش البروسي . ووقف في ساحة القتال في شهر آب وكان يؤلف نصف عدد الجنود . فأحدث ذلك تبديلاً في طابع وسيماء الجيش البروسي الذي مازال حتى ذلك الحين جيشاً محترفاً . غير انه لم ينشأ عن ذلك انصهار لمختلف طبقات المجتمع في الفرق العسكرية ، كما أن هذا اللاندوهر لم يكن يرمي إلى غاية أو اتجاه او قومة ديموقراطية، وانما كان منظمة عسكرية انشئت في سبيل الحرب فحسب لا لغاية أخرى . والشيء القومي الحقيقي والوطني في هذا اللاندوهر هو عنصر المتطوعين. وهكذا تبدو الحركة الوطنية البروسية ناقصة كما بدت ناقصة قبل الاصلاحات الاجتماعية والاصلاحات الادارية التي قام بها هردانبرغ والحكومة البروسية . وعلى

هذا فاللاندوهر ، على ما ابدى من معنويات ووطنية ، بقي رغم ذلك كله وسيلة عسكرية .

هذا هو اثر التنظيم العسكري في بروسيا . ولكن ما هو أثره في خارجها ؟ لقد حاول شتاين وجماعته أن يثيروا عصياناً عاماً في كل ألمانيا، فكرروا نداءاتهم وتهديداتهم . وكان شتاين يريد ان يجعل من هذه الحركة حرباً قومية في جميع المانيا ضد فرنسا . فباسم المليكين القى شتاين ونيسلرود في ١٩ آذار «نداء الى المانيا» وبينا فيه أن الغرض من الحرب هو خلاص المانيا ودعوا إلى هذا الخلاص الشعوب والسادة واعلنا حل اتحاد الراين الذي سيعوض عنه بلجنة موقتة مهمتها ادارة الاراضي الالمانية تدريجياً كلما تخلصت من النفوذ الفرنسي . وتتألف هذه الادارة من مجلس مندوبين عن روسيا وبروسيا والحكومات الاخرى التي تنضم اليها وسمي شتاين رئيساً لها . ووضع مشروعٌ لتقسيم البلاد إلى خمسة أقسام :

١ً) الساكس ، ٢ً)وستفاليا، ٣ً) دوقية برغ الكبرى ، ٤ً) مناطق الليب ، ٥ً) مناطق أفواه الايلب وميكلامبورغ . وكل أمير الماني لا يستجيب لهذا النداء يهدد بضياع دوله . وفي ٢٥ آذار القى الجنرال الروسي كوتوزف ، الذي ترك القيادة الى ويتغنشتين ، بدوره ، نداء الى المانيا وبين فيه ان غرض الحركة يرمي إلى مساعدة شعوب المانيا وأمرائها على على استرجاع تراث الشعوب الذي سلب منها وهو حريتها واستقلالها وشرفها ووطنها . « وعلى كل الماني خليق بهذا الاسم ان ينضم الينا بسرعة وقوة » ودعا الأمراء والنبلاء وسائر افراد الشعب : « وكلما تكيفت قواعد هذا العمل ومبادؤه حسب روح الشعب الألماني القديم ، استطاعت المانيا الناشئة القوية المتحـــدة ان تظهر بين أمم أوربة » . وفي هذين

النداأين (١٩ و ٢٥ آذار) نجد نوعاً من لغة ثورية جديدة في المانيا . وقد فسرها الالمان بتعهد مزدوج : تعهد لصالح الحرية السياسية وتعهد لصالح الوحدة القومية .

وهذه الحركة القومية التي دعي اليها الألمان فسرت مباشرة بنوع من حركة غنائية وطنية . وهب للحال جيل من الشعراء نخص بالذكر منهم **تيودور كورنر** ، جمعت اغانية في ديوان عرف بهذا الاسم « **القيثار والسيف** » وقد قتل في واقعة ليبزيغ . وكذا **روكوت** نشر « **السونات المدرعة** » ١٨١٤ ، **وشانكاندورف واوهلاند** وغيرهم . وعلى عكس ذلك بقيت الحكومات متحفظة ولم يتبدل موقفها إلا بعد انكسار نابوليون أو بعد ان كان انكسار نابوليون أكيداً ، كما حصل ذلك في الخريف ، إلا في شمال المانيا فقد كانت الحركة سريعة في **هامبورغ** التي ثارت في ١٨ آذار ،وفي **ميكلامبورغ** الصغيرة التي قدمت بمفردها ٦٠٠٠ متطوع .

أما **بافاريا** فلم تنقلب على نابوليون الا في ١٧ ايلول ، واعلنت عليه الحرب في ٨ تشرين الأول . وكذا **فورتمبرغ** فقد انتظرت واقعة ليبزيغ لتتخذ موقفها العدائي من نابوليون في ٢٣ تشرين الأول . والسبب في ذلك ان الحكومات كانت تتجه بأنظارها نحو النمسا لا نحو روسيا وبروسيا .

غير ان هذه الحركة لم تنفذ إلى غرب المانيا بل ظلت في المانيا الشرقية والشمالية وبقيت بلاد الراين غريبة عنها . فمن ذلك ان بونيو المدير الفرنسي لدوقية برغ الكبرى يذكر في يومياته ان الطبقات العليا الرينانية فرحت بانهيار الجيش في روسيا ، وعلى عكس ذلك سواد الشعب فقد كان جد حزين منقبض . ولكن الادارة الفرنسية تركت في هذه المنطقة الرينانية آثاراً عميقة وستظهر من جديد بعد عام ١٨١٥ .

على ان المنافع والمصالح مالبثت ان قامت تسد الطريق في وجه هذه الحركة الثورية . فمن ذلك ان مترنيخ اخذ احتياطاته فألحق شتاين ولجنته إلى « لجنة دبلوماسية » . وكذ أصحاب البنوك الالمانيون اخذوا يضعون العراقيل والصعوبات لقبول أو المتاجرة بأسناد الدين التي تودعها انكلترا للحكومة الألمانية بسعر ٦٪ ، وكان بامكان هذه الاسناد ان تمول العمليات الحربية التي جرت فيما بعد . وأخيراً لم تكن هنالك عصابات وراء الجيوش الفرنسية في المانيا ، ولم يكن ما يشابه ما مر معنا في اسبانيا .

ولا جدل في ان المانيا قامت ، بالجملة ، بحركة وطنية كبرى ضد فرنسا . ولكن هذه الحركة لم تكن عامة في المجتمع كله ولا في المانيا كلها . ولذا يجب الا نبالغ فيها ، فلها قيمتها ، ولكن يجب الا نقحم الالفاظ وتقبل بكل سذاجة اسطورة قومة المانيا بكليتها ضد نابوليون .

يظهر لنا ان العاطفة القومية الالمانية تستند في أساسها على كره النفوذ الفرنسي واحتلاله . واننا لنتساءل بعد هذا ونقول ما هي الافكار التي اعتنقها هذا الحزب القومي وعبر عنها في صلح عام ١٨١٤ ؟

لقد طالب شتاين في مشروع عام ١٨١٢ ، الذي قدمه إلى القيصر، بنهر ألموز واللوكسمبورغ والموزيل والفوج حدوداً ، وأضاف اليها من جهة أخرى قسماً من الدانيمرك . وفي العام ١٨١٤ دعم المزاعم الروسية والبروسية في بولونيا والساكس . وفي الوقت نفسه وسع المانيا من جهة الغرب . وفي العام ١٨١٥ اراد أن يقنع القيصر الكسندر الأول أن أمن ألمانيا يتطلب حدوداً إلى نهر الموز . وفي مذكرته المؤرخة في١٨آب ١٨١٥ يذكر بأن لويس الرابع عشر قد تصور التخلي عن الالزاس اثناء

انكسارات حرب الوراثة الاسبانية في المفاوضات التي جرت في مدينة جيرترويدانبرغ في منطقة برابان الشمالية من البلاد المنخفضة .

وكتب غورز أحد مؤسسي القومية الالمانية سلسلة مقالات في الصحيفة المسماة «مركورالريناني» وصرح في الأعداد ١٣ و ١٤ بأن ارجاع فرنسا إلى ما كانت عليه حسب دستور ١٧٩٢ انما هو حل باطل ؛ ان أمن المانيا القومي يتطلب حدود الفوج والآردين . واثناء حكم المائة يوم كتب مقالاً عنوانه : « فرنسا المقسمة أو فرنسا المكبّلة » وصرح فيه بأن اوربه لن ترى الأمن الا عندما يجعل من فرنسا دولة من الدرجة الرابعة . وكتب في العدد ١١٢ : « لا أمن ممكن ضد هذا الشعب الا في عجزه وفي تفوقنا الساحق الذي لايناقش . ان الفرنسيين ليسوا اهلاً للأخلاق ، وليس فيهم جوهر للاعتماد عليهم . وبالتالي يجب أن نأخذ منهم املاك شارل المتهور ، والا فالالزاس واللورين وتوابعها » .

وطلبت جريدة « دويتش بلاتر » بكل مـــا انفصل عن ألمانيا مــع مرور الزمن أي : البلاد المنخفضة والدانيمرك والمقاطعـــات البالطيكية وكورلاند . « في أي مكان تعيش فيه العائلات الألمانية بجانب بعضها ، من الالزاس إلى ليفونيا ، ومن الغريزون إلى شليزفيـــك ، تطلب اللغة والأخلاق والطباع وعبقرية الشعب أن يكون هنالك شكل سياسي مشترك يمتد بحمايته على بلجيكا وهولنده في الغرب ؛ وعلى جوتلند في الشمال ، ويحده في الغرب غابة الآردين والفوج والجورا ؛ وفي الجنوب جبال الالب الريتيه والنوريه والجولينيه إلى بحر الادرياتيك ؛ وفي الشرق جبال الكاربات . وفي داخل هذه الحدود يجب ألا تكون إلا لغـــة واحدة ومثل أعلى سياسي واحد » . ونرى هنا نسخة عن نظريات هردر التي تعتمد في القومية على اللغة ولكن مع شيء من التوسع .

على أن ما يجدر ذكره بصورة خاصة هو أن القومية الألمانيـــة ، منذ فجرها ، كانت ما يمكن أن نسميه « **جامعة ألمانية** » كما كانت ذات **طابع ديني** . وكان شعاراللاندوهر : « مع الله ، للملك ، للوطن » . ومنذ انخرط الجنود الجدد في العسكرية وجهوا إلى الخدمة الدينيـة . وقد كتب الجنرال بولو في شهر آذار ١٨١٣ إلى أحد أصدقائه يقول : « أستطيـــع مثل كرومويل أن أعطي إلى كل من فرساني كتاباً مقدساً ليحمله في سرجه » . وعلقت في كل كنيسة لوثرية لائحة باسماء قتلى الحرب . ونحن نرى ، منذ أن تفتحت الوطنية الألمانية ، ميـــلاً يرمي إلى جعل ألمانيا أداة الله .

حروب التحرير في البلاد الأخرى.— أما البلاد الأخرى فلم تبد رد فعل شديداً وقوياً كما هي الحال في ألمانيا .

في اسبانيا . — كانت حركة التحرير عملاً عسكرياً انكليزياً . ففي ربيع ١٨١٣ تقدمت حركة العصيان في بيسكاي ونافار حتى ان قسماً من الجنود الفرنسية وجدت محاصرة تحت قيـادة الجنرال كلوزيل ، وان زحفاً جريئاً من **ولنغتون** على سالامنكا من جهة ، والذهاب ابتداءً من دورو إلى غاليس لمساعدة العصاة من جهة أخرى ، كان من نتيجته أن أجبر جوزيف على الانسحاب من مدريد مع جيوشه إلى نهر الايبر . يضاف إلى ذلك أن الشاطىء بعد تحرره أصبح يساعد الانكليز بانزال الجنود وتغذيتهم من هذه الجهة . فقد استطـــاع ولنغتون أن يظفر على الجيوش الفرنسية ظفراً عظيماً في **فيتوديا** في ٢١ حزيران . وهـــذا الظفر أجبر جيش الوسط ، جيش جوزيف ، على التراجـع والتخلي عن اسبانيا بتمامها ؛ وكذا جيش غاليس ، جيش كلوزيل ، أن يلتحق به ،

بينما انسحب جيش **سوشيه** إلى روسيون . وبالاجمال إن مـــا نراه في اسبانيا إنما هو تعاون الثورة القومية مع جيش الحملة الانـكليزية .

وفي شمال غربي أوربه كانت الحوادث العسكرية غير حاسمة، إلا أن الحوادث السياسية بصورة خاصة وصدى الحوادث العامة على سياسة هذه البلاد أدت إلى التحرر . ومن وجهة التاريخ والتقويم كان تحرر شمالي غربي أوربة بعد تحرير اوربة الوسطى . ووجود العنصر السياسي ، الذي كان أهم من العنصر العسكري،يهمنا نحن بصورة خاصة فيهذا الموضوع الذي ندرسه وهو البحث دوماً عن نشأة القوميات .

في هولنده . — غادر الحاكم الفرنسي ، لوبرن ، القنصل القديم ، العاصمة في ١٦ تشرين الثاني ١٨١٣ . وكانت خطة الانـكليز أن يزحف برنادوت ، قائد أقصى الجناح الشمالي لجيش الحلفاء ، بسرعة على هولنده ليخلصها من الفرنسيين ويساعد الانـكليز الذين ينزلون اليها من جهة البحر؛ غير أنه رجح الزحف على هولشتاين في سبيل مصالحه الخاصة وأراد أن يجبر الدانيمرك على التخلي له عن النورفج وتوصل إلى ذلك . وكان من ذلك أن خلص الهولنديون أنفسهم بجهودهم الخاصة . وخلاص هولندة على هذا النحو أخذ طابعاً قومياً في أساسه . ففي ١٧ تشرين الثاني انفجرت الثورة في لاهاي وامستردام وتألف ثالوث حكومي تحت ادارة رجـل سياسي يسمى **هوغندورب** . وطلب الثالوث مساعدة لندن ودعا أمـير أورانج أن يأتي ويستلم زعامة الحركة . ونزل الأمير في **شيفينينغن** في ٣٠ تشرين الثاني ١٨١٣ بين حماسة السكان ، وفي وقت كان القائد البروسي **بولو** قد وصل من الغرب ودخل هولنده في أول كانون الاول ووصل اوترخت ، ومنها القى بنداء الى البلجيكيـين في ٩ منه . أما الموظفون

الفرنسيون فكانوا يبادرون بالجلاء عن البلاد منذ منتصف تشرين الثاني وأول كانون الاول .

وكما نرى لم يكن سقوط الحكم الفرنسي في هولندة حادثاً عسكرياً . إن قيام هولندة الذي خلص البلاد كان منه أن نقل الدفاع الفرنسي الى بلجيكا دون أن يتعلق بهولنده ، وأكسب اسرة آل أورانج شعبية جديدة ، واستقبل الهولنديون حكومتهم الجديدة بكل حماسة وعادوا الى ماضيهم القومي المستقل .

في بلجيكا . — منذ أن توطد النظام الديني في بلجيكا بالكونكوردات وقطف البلجيكيون ثمار الاصلاحات الاجتماعية والادارية التي أجراها الفرنسيون ، والرفاه الاقتصادي الذي جنوا فوائده بنتيجة الحصار القاري في أول الأمر ، والسلام الداخلي الذي خيم عليهم ؛ ان كل ذلك جعل البلجيكين يقبلون بالحكم الفرنسي دون صعوبة . لقد فقد الشعب كل ذكرى وكل ميل الى النظام السائد قبل الثورة وذلك لأن الحكم النمساوي في هذه البلاد كان ثقيلاً ، كما كان اضطهاداً وقسراً للشعب على يد الأمراء والاكليروس ، ومن وجهة النظر الكنسية كان سيطرةً للحكومة على الكنيسة . فلا نجد في الحكم النمساوي بلاداً منخفضة أو أي شيء قومي يمكن أن يعلق البلجيكين به أو يمكن أن يبقى في ذكرياتهم . غير أننا في السنوات الأخيرة أي عندما ثقل الحكم الفرنسي وانهارت الامبراطورية نرى رسماً أولياً لما سيكون في المستقبل قومية بلجيكية ويقدم في الدور ١٨١٥ — ١٨٣٠ العناصر التي تخرج منها الدولة البلجيكية بعد ثورة آب ١٨٣٠ .

والعنصر الأول والأساسي ، الذي نراه فيما بعد ، هو **المعارضة**

الدينية التي قامت في وجه الحكومة الامبراطورية . وسببها الأول هو ادخال التعليم الديني الامبراطوري الذي لم يقبله الاكليروس والشعب البلجيكي ، ثم الاستياء الذي سببه النزاع بين الامبراطور والبابا واضطهاد البابا بيوس السابع . وقامت حركة عميقة أثارت معارضة الكنيسة والشعوب الكاثوليكية منذ ١٨١٠ وقادها اسقفان من أصل افرنسي وهما : سيادة دوبروي ، اسقف مدينة غاند ، وسيادة هيرن اسقف تورنيه ، ونوابهما الكبار ، مثل فاندفيلد ودوفيفيه .وهذان الاسقفان هما اللذان وجها المعارضة لخطط نابوليون في مجمع ١٨١١ عندما حاول نابوليون اجبار الاسقفين أن يأخذا على عاتقهما أمر «التقليد الكنسي» الذي رفض البابا منحه . وبنتيجة معارضتهما للمجمع أوقفهما الامبراطور . وحصل في بلجيكا عصيان حقيقي معنوي بين اعضاء الاكليروس : فمن ذلك ان اكليروس الأبرشية رفض قبول الاسقفين اللذين حلا محل الاسقفين الموقوفين كما رفض قبول الاسقفين اللذين عينا في مالين ولييج من قبل الحكومة ولم يقلدا مهام وظيفتهما الروحية من قبل البابا ، وهما الأب دوبرادت والأب ليجاس ، ولبث طلاب المدارس الاكليركية لا تلين لهم قناة وفضلوا أن ينخرطوا في الجيش من أن يعترفوا برؤسائهم الدينيين المحدثين . فمن ذلك أن ١٩٣ طالباً في غاند زجوا في أقبية حصن فيزيل على نهر الراين وكثير منهم أودى به . ورفض الخوارنة أن ينشدوا في آخر القداس نشيد « ليسد سلام الامبراطورية » . وحاولوا أن يثيروا الفلاحين . وفي كل مكان كان يتحدث عن الخوارق التي تظهر اشارة « السماء » ضد الامبراطور . وجاب المبشرون المتجولون الأرياف ، وكانوا يحملون تحت اورديتهم الكراريس المناوئة ويوزعونها على الناس . ودعم هذه المعارضة الاكليركية الرأي العام فذهبت الى بعيد .

والعنصر الثاني ، الذي سبب الاستياء والمعارضة للنظام النـابوليوني ، هو **الازمة الاقتصادية** التي وسعت أبعاد الاستياء في أصله الديني وذهبت به إلى الطبقات المناوئة للاكليروس وإلى الطبقات التي تبنت أكـثر من غيرها الأفـكار الفرنسية في عهد الخصب والرفاه . ويجدر بنا أن نذكر أنه يوجد في بلجيـكا ، عدا الرأي الـكاثوليكي والسكان المتدينين ، قسم آخر من السكان مضاد للاكليروس وعقلاني ، ويوجـــد في سكان بلجيكا هذا التضاد بين عنصرين متباينين من حيث الفكرة . وقد وجد هذا التضاد في ظل حكم البلاد المنخفضة النمساوية ، وسنراه فيما بعد أيضاً ، وذلك لأن هاتين النزعتين نجدهما في أساس تكوين الأحزاب السياسية في بلجيـــكا الملكية . وفي العام ١٨١٣ انفجرت الأزمة الاقتصادية وطغت على الصناعات القطنية التي لم تستطع ، بنتيجة الحصار القاري ، استيراد موادها الأولية . واضطر أصحاب المناسج في غاند مثلاً أن يسرحوا ١٣٠٠ عامـل دفعـة واحدة . وفي خريف ١٨١٣ امتـــدت الأزمة أيضاً إلى صناعة الأقمشة البلجيـكية ، حتى ان هذه الصناعة اقتصرت بسرعة على عشر انتاجهـا . ولم يبق في مقاطعة الديل ، أي في بروسيـّـل وضواحيها ، إلا ٩٠٠٠ عامل عوضـاً عن ١٥٠٠٠ عامل . ومنذ عام ١٨١١ تعددت حـالات الافلاس في أوساط المصارف وفي أوساط التجار . ووقعت المواني بالطبع وخاصة في اوستـاند وآنفرس بنتيجة الحصار القـاري ، في حالة ضعف وانحطاط . وأدت هذه الأزمة الاقتصادية إلى غلاء الحياة بنتيجة الأزمـة نفسها وفداحة الرسوم التي فرضتها الحكومة الفرنسية والحصار الذي حال دون وصول المواد الأجنبية . وتألم الشعب بصورة خاصة من جراء الازمة الاقتصادية . وزاد الشعب استياءً ثقلُ الخدمة العسكرية . فقد انتزعت القرعة في العام ١٨١١ من هذا الشعب البلجيكي الصغير ١١٠٠٠٠ رجل ؛

وفي العام ١٨١٢ العدد ١٢٠٠٠٠٠ ؛ وفي العام ١٨١٣ ، العدد (١٦٠٠٠٠٠) وإلى هذا يجب أن نضيف (١٠٠٠٠٠٠) للحرس الوطني كانوا في حالة الفاعلية . وحاول الشباب الفرار من الخدمة . ولذلك وجب تنظيم فرقة من الدرك ، لأن البلديات كانت تشارك المناوئين ولا تساعد على التجنيد . وفي شهر نيسان ١٨١٣ وقعت حادثة في بروج بين حوادث عديدة وهي أن المطلوبين للخدمة أعلنوا عصيانهم واضطهدوا رئيس شعبة التجنيد ومزقوا السجلات . وامتد ثقــل التجنيد إلى العائلات الموسرة والوجهـــاء : فكان يؤخذ أبناء البورجوازية ويوضعون في المدارس العسكرية . وفي ١٩١٣ فرض عليهم نابوليون تشكيل حرس الشرف حتى حدث في الأسر البورجوازية ، عند حد تعبير أحد المحافظـين « نوع من ذعر » : لأن الأثرياء الذين دفعوا مبلغ خمسة أو ستة آلاف فرنك لاعفاء أبنائهم من الخدمة العسكرية ، وجدوا أنهم قد انتزعوا منهم رغم تضحيتهم .

والعنصر الثالث الذي سبب الاستياء ، هو **نظام الشرطة** الذي أصبح تعسفياً ، ووجد « تفتيش » مدني حقيقي على الأفكار والأشخاص . ففي عام ١٨١١ نظمت في بلجيكا **« الشرطة العليا »** مع **مفوضيات خاصة** والمفوضـون العامون ، الذين هم في الواقع غير تابعين لمديري الشرطـة العامين ويعملون بصورة مبـــاشرة ، كانوا يتلقون الأوامر من باريس واحياناً ضد المديرين ويُشْعِرون هؤلاء بثقل الجاسوسية . لقد كان الظلم سائداً في كل المرافق وعلى جميـع الناس . غير أن البلجيكيين كانوا شديدي التعلق بحريتهم الفردية ، وهذا التعلق بالحرية الفردية كان ، مع تقاليـد الاستقلال البلدي الذاتي ، صفـة من الصفات الاساسية ، وعاطفـة من عواطف الشعب العميقة في السياسة . وفي آخر عهد الامبراطورية حدثت فضيحة صارخة أهاجت الشعب ، وهي توقيف **فيربروك** عمدة مدينـــة

آنفرس ، الذي اشتبهت به الشرطة خطأ" وظلماً بمساعدته التهريب ضد الحصار . ورغم مدير الشرطة الذي كفله منـــع من ممارسة وظيفته ثم أوقف بأمر نابوليون الشخصي وأحيل للقضاء وفي الوقت ذاته القى الحجز على أمواله بصورة غير مشروعة . ورغم الاحتياطات التي اتخـــذت في اختيار الحكام وتأليف لجنة المحلفين الذين ظن بأنهم مواتين ، فان محكمة الجنايات في بروسيّل برأت عمدة آنفرس في ربيـع عام ١٨١٣ ، ودافع عنه محام فرنسي اسمه بريبه وهو أبو المحامي الفرنسي العظـيم نيقولا بريبه الذي سيدافع عن الماريشال ني أمام محكمة الشيوخ عام ١٨١٥ . وحيا الرأي العام هذه البراءة بظاهرات صاخبة . غير أن نابوليون ، وكان منهمكاً بسير العمليات الحربية في ساكس ، تملكه الذعر ، ومن درسد أمر مجلس الشيوخ بالغاء قرار محكمة بروسيّل واحالة العمدة إلى محكمة أخرى ، وأوقف فيربروك من جديد وزج في السجن . وكان مسناً فمات قبل أن يستطيع المثول أمام هذه المحكمة الأخرى . ولكن الامبراطورية انهارت في هذه الفترة .

تحت تأثير هذه الأسباب المختلفة : **الدينية و الاقتصادية و السياسية** ارتدت حالة الرأي البلجيكي في عامي ١٨١٣ و ١٨١٤ تماماً على فرنسا . وهاجت جميع طبقات الشعب ، وتحت تأثير هذا الاستيـــاء استيقظت ذكرى الماضي وأخذ الرأي يفكر بالعودة إلى الاستقلال الذاتي الذي كانت تنعم به بلجيكا في السابق . فبعضهم ، وهم رجال الطبقات المحافظة والمسنون ، يجنحون إلى عهد الحكم النمساوي الأبوي وذهبت بهم الذكرى إلى هذا النظام . وما عرف الناس بخبر تراجع جيش موسكو إلا وروّج مديرو الشرطة « الاشاعات الغادرة » في كل مكان وخاصة في مقاطعـة الليْس وفي المنطقة الفرنسية الاكثر من غيرها في بلجيكا وهي مقاطعـة

الاورط أي منطقة ليبج ، وأذاع المحافظ توماسّن بأن « **الأمنية العامة هي تشكيل دولة منفصلة** » . وفي نيسان ١٨١٣ عندما أرسل المحافظ الجديد الكونت **دوديتو** إلى بروسّيل ، ذعر ، عند وصوله ، لما رأى في كل مكان من اعلانات ولوحات نارية ضد الفرنسيين . ويظهر من مجموع تقارير المحافظين أن ٦/١٠ السكان في مقاطعة الاورط كانوا متعلقين بالفرنسيين قبل واقعة ليبزيغ ، ولكن في المقاطعات الاخرى كانت ٨/١٠ السكان على العكس معادية بعد واقعة ليبزيغ ، لأن روح التمرد والعصيان انتشرت كالبارود .

ولقد كان أثر الثورة الهولندية عميقاً في بلجيكا . فقد انفجرت هذه الثورة كما رأينا في ١٧ تشرين الثاني : وفي ٢١ منه أوجس خيفة محافظ مقاطعة الديل من ثورة عامة كثورة منطقة برابان (منطقة بروسيل) عام ١٧٩٠ . فقد رفض دفع الضرائب ، ولم ترض المجالس البلدية أن تبعث إلى الامبراطور بالبيانات التي طلبت منها ، ورفض المدعون للجندية الالتحاق بالجيش ونظم في المدن « حرس مدني » للدفاع مبدئياً عن الأرض ضد المجتاح ولكن محافظ جيماب تساءل فيما إذا نظم هذا الحرس لمساعدة الحلفاء عند مجيئهم . وفي آخر كانون الاول بدت طلائع جنود الحلفاء في بلجيكا . أما الجيوش نفسها فوصلتها في شهر كانون الثاني ، ودخلت بروسيّل في غرة شباط عن طريق الشمال . وتوالت العمليات العسكرية في بلجيكا إلى ما يقارب آخر آذار .

ولكن ما هي رغبات هؤلاء البلجيكيين ، الذين نراهم الآن مجمعين تقريباً ضد الحكم الفرنسي ، فيما يتعلق بمقدراتهم في المستقبل ؟ ان القضية البلجيكية لن تحل مطلقاً على أيدي البلجيكيين ولكنها ستحل

بالطبع من قبل الحلفاء لاعتبارات سياسة عامة كالتوازن الاوربي دون أن يفكروا البتة باستشارة البلجيكيين أو بالتفاهم معهم . وعندما أراد الجنرال بولو الدخول إلى بلجيكا وجه من اوترخت « دعوة لقيام البلجيكيين » . وكذا دوق ساكس — فيار ، الذي عين حاكماً في أول الأمر لبلجيكا ، القى ببيان في ٧ شباط ١٨١٤ في بروسيل . وكتب في هذا البيان ما يلي : « لقد انتهى حكم الاستبداد ؛ وسيستتب النظام ، ولا شك في استقلال بلجيكا » ودعـا البلجيكيين إلى تحرير أنفسهم . وفي الواقع كان الشعب ينتظر النهاية دون أن يساهم في الحل . ولم تتبع أي مدينة مثال امستردام ولاهاي وسائر مدن هولندة . والشيء الذي يميز موقف البلجيكيين ، على نقيض الهولنديين ، إنما هو هذا الجمود التام . ولم يساهموا في الحرب لا ضد الفرنسيين ولا مع الفرنسيين ، بل تركوا كل شيء يمضي ولبثوا ينتظرون النتيجة .

ولذا فان زعيم العصيان الهولندي هوغندورب كان يتكلم بازدراء عن هذا السلوك الذي سلكه البلجيكيون . وفي شهر كانون الثاني ١٨١٤ كتب : « إذا كان للبلجيكيين قوة كافية لطرد الفرنسيين بأنفسهم فانهم يستحقون أن يقرروا مصيرهم ، غير أنهم يقولون لك من كل جهة بانهم يريدون أن يروا جنود الحلفاء أي أنهم يريـدون أن يفتحوا » . وفي الحقيقة يوجد لدى البلجيكيين خلاف بين فريقين :

١ً) الشيوخ المحافظون الذين يريدون ارجاع النظام القديم ويطالبون باجتماع « سنديكات الأمم » الذين كانوا ممثلي الشعب في بروسيل واجتماع مجلس برابان ومجلس هينوت . وفي شهر شباط سعوا لدى الامبراطور النمساوي فرنسوا وفهموا منه بأن الرجعى ستتم لأن النمسا كانت تملك البلاد المنخفضة قبل الثورة الفرنسية .

٢ً) وعلى العكس ، الشباب الذين لم يعرفوا النظام النمساوي ، والنفوس الصناعية التي أصبحت ذات مصالح جديدة ، كانوا أنصار حقوق الانسان وعدم فسخ بيع الأموال القومية . ومن جهة ثانية كان الحلفاء يحكمون بلجيكا بمفوضين نمساويين غير أنهم يحافظون أو انهم يتظاهرون بأنهم يحافظون على ميكانيكية النظام الاداري الفرنسي دون تبديل أي شيء : فمن ذلك أنهم أنابوا أبناء البلاد مناب الموظفين الفرنسيين الكبار ، وأبقوا على اللغة الفرنسية لغة رسمية وإذا مست الضرورة ، في الأجزاء الفلاماندية ، كانوا يترجمون النصوص الرسمية إلى اللغة الفلاماندية . والقرار ٧ آذار ١٨١٤ الغى الكونكوردات وعهد إلى الكنيسة بادارة الشؤون الدينية . ففي هذا العمل نشاهد سياسة كانت غايتها احترام أماني الشعب وملاطفة رغبته في الاستقلال . ولكن سرعان ما بدا احتلال الحلفاء ثقيلاً كالاحتلال الفرنسي إن لم يكن أثقل منه وذلك لأن الحلفاء كانوا يعرفون بأنهم غير باقين ولذا لم يتورعوا من المصادرات التي أثقلوا بها كاهل البلجيكيين وما عتم الاحتلال ان أصبح بغيضاً في أعينهم كالنظام الفرنسي الذي تخلصوا منه .

وفي الحقيقة ، بقي البلجيكيون دون حراك وسط هذا الاضطراب الأوربي . وقد كتب البارون فانسان ، المفوض العام النمساوي الذي حكم بلجيكا حتى تسوية مصيرها ، في الأشهر الأخيرة من مهمته ، ما يلي عن البلجيكيين : « إنهم أناس شديدو الهوس بالقضايا العامة لئلا تتعرض السلطة للخطر إذا وجدت نفسها بين **تصادم المزاعم الديموقراطية** ، **وتذكر الدساتير** ، لأن كلا هذين النوعين خطر إذا استيقظ » وفي هذا دليل على الخلاف العميق بين حزبي الشعب البلجيكي ، بين المحافظين المتعلقين بالماضي ، والأجيال الناشئة المتعلقة بالاصلاحات التي أدخلتها الثورة

الفرنسية ، هذا الخلاف الذي ابتلى البلجيكيين بالعجز وأثار بينهم المنازعات .
ومهما يكن من أمر فيجب أن نعترف كما اعترف الحاكم النمساوي أن كلا الجانبين كان يتطلع إلى الحرية، ولكنها حرية محلية ضيقة . لأننا نجد عندهم « مزاعم العزلة والاقليمية » ، ومن جهة أخرى « كثرة مزاعم بلجيكا القومية » . ولكن ليس هذا الا من قبيل الرغبات التي لم تكن أهلاً للعمل ، ومن قبيل المحاولات المضطربة . وفي كل هذا نجد نوعاً من فوضى في العواطف والأفكار ، لأن البلجيكيين لم يصلوا بعد إلى مرحلة الدولة . لقد كانوا متعلقين بحريتهم الاقليمية والبلدية ، وليس لديهم ارادة أعلى من أن يكونوا أحراراً في شؤونهم الموضعية الصغيرة ، ومن جهة أخرى نجد في بلجيكا مصالح واضحة : مصالح **اقتصادية أو مدنية** يرجع عهدها إلى الثورة الفرنسية وستدوم إلى ما بعد سقوط فرنسا . ولكننا لا نجد في بلجيكا « قومية بلجيكية » بل إن كل ما نراه في هذين الحزبين اللذان يرتسمان في الشعب ، إنما هو نبتات لما يولد في المستقبل العاطفة القومية .

في ايطاليا . — أما ايطاليا فتعطينا منظراً لتشابك الدسائس السياسية . وقد أفاد بعض هذه الدسائس كوسيلة أو كان موضوعاً لفكرة ايطاليا الموحدة ولكن دون أن تتفق هذه الفكرة مع أي حركة من قبل الجماهير ، ودون أن تصل إلى مرحلة الوعي السياسي والعمل على يد الطبقات التي هي اكثر تطوراً من غيرها من الوجهة السياسية ، أي التي نجد عندها على أي حال **فكرة ايطاليا** . وتتألف عناصر هذه الفكرة القومية من عدة فئات ظهرت وحاولت ان تستفيد من اطماع رجال السياسة ، او من الذين ولدّوا هذه الاطماع . وكان بعض هؤلاء مدفوعاً بمنفعة شخصية ، وآخرون كانوا اناساً مثاليين وعندهم بحق افكار قومية . وقد تجمع هؤلاء

حول **اوجين بوهارنيه** نائب ملك المملكة الايطالية في الشمال ، او حول **مورا** في الجنوب . وإلى جانب هذه الفئات التي نجد عندها الفكرة القومية ، نرى ثلاث دسائس متشابكة : **الاولى** وقد حلت بأسرع من الاثنتين الأخريين وهي مكيدة **اوجين بوهارنيه** ، وتعاونت الأخريان في اول الأمر ثم بدأتا تتنافسان وهما مكيدتا **مورا ومترنيخ** . ولقد وضعت سياسة هذه الشخصيات الثلاث القضية الايطالية على بساط البحث . فقد فصلوا عنها نوعاً ما الدول القارية التي لاتهتم بالقضية الايطالية . ومنذ بداية ١٨١٣ تخلت الدول القارية للنمسا وحدها حل القضية الايطالية . غير أن هنالك دولة كانت تهتم بهذه القضيـة ، وهي **انكلترا** التي كانت تدعم اسرة آل بوربون التي التجأت في صقليـة ، ونخص بالذكر سفير انكلترا في نابولي ، اللورد **بانتينك** الذي كان يعمل من نفسه وخارجاً عن حكومته ، حتى انه فرض إرادته على فرديناند ملك صقلية ووجه السياسة الايطالية ضد مورا .

في ايطاليا الشمالية كانت رغبـة اوجين ان يحتفظ بمملكة ايطاليا بصفة شخصية ويجعل هذه المملكة دائمة ويبقى عليها ملكاً . وبعد واقعة لايبزيـغ دخل ميلانو ، ورفض خلافاً لأوامر نابوليون ، الجلاء عن ايطاليا الشمالية والعودة إلى فرنسا مع الموظفين الفرنسيين . وكان من الوجهـة العسكرية بين النمساويين ، الذين أتوا اليه من جهة نهر الدراف ، عندما غادروا المقاطعـات الايلليرية ، والنمساويين ، الذين انحـدروا من نهر الأديج ، فاضطر بحكم الضرورة إلى الانطواء في لومبارديا بينا احتـل النمساويون على هذه الصورة رومانيو من جهة والالب من جهة أخرى . غير أن اوجين ، بالرغم من رغبته بالبقاء على عرشه ، كان متردداً : إذ لم يجرأ أن يخون نابوليون بصورة علنيـة ، ولم يجرأ أن يجمع

البلاد حوله ويدعو الهيئات الانتخابية ليدعمه الشعب . وكل ما في الأمر هو أنه حاول ان يتفاوض مع الحلفاء في ميلانو . ورغم ان القيصر دعمه حيناً من الزمن إلا انه اضطر اخيراً ، عندما تنازل نابوليون عن العرش ، أن يستسلم عسكرياً إلى الجنرال النمساوي ، **بيللغاود** في ٢٦ نيسان ١٨١٤ وتشكلت في ميلانو في هذه الحقبة أحزاب سياسية :

١ — **الحزب النمساوي** : ويتألف من اناس يرغبون في السلام ولا يريدون عنه بديلاً . وهم من الوجهة السياسية رجعيون يريدون اعادة امتيازات النظام القديم ؛ وبعضهم كانوا يأملون من النمسا « حكماً ذاتياً » في لومبارديا وقاموا بدعاية لصالح النمساويين .

٢ — **الحزب الايطالي الحر** : وهو حزب يضم اكثرية النبلاء في اقليم ميلانيا ويريد استقلال ميلانيا ، ميلانيا الموسعة ، اي المملكة الايطالية في ظل أي أمير كان ، وذلك لأن الأمير لايهمهم إلا قليلاً سواء أكان نمساوياً ام انكليزياً أم ايطالياً ، إن مايهمهم هو المحافظة على استقلال المملكة ، والابقاء على ميلانو عاصمة وعلى نفوذها في ايطاليا الشمالية ، وزعيم هذا الحزب الحر هو **كونفالونييري** . وعندما تنازل نابوليون عن العرش أثار هذا الحزب السكان في ميلانو ليجبروا مجلس الشيوخ على اجتماع الهيئات الانتخابية . وفي هذا الهياج الشعبي قبض الجمهور الثائر على **برينا** وزير المالية ومزقه ارباً في ٢٠ نيسان ١٨١٤ . والف المجلس البلدي في ميلانو حكومة وصية وأرسلت هذه كونفالونييري إلى باريس للمباحثة مع الحلفاء والحصول على استقلال مملكة ايطاليا الشمالية وعلى دستور . غير أنه وصل متأخراً لأن النمساويين كانوا الغالبين من الوجهة العسكرية ، وقرر الحلفاء تسوية القضية دون الاصغاء الى أماني الايطاليين . ودخل بيللغارد ميلانو في آخر أيار وخاطب سكانها بكلام

هذب ولكنه اتخذ احتياطاته العسكرية بالخلاص من جميع الجنرالات الذين يشتم منهم رائحة المقاومة .

وفي الحقيقة ليس في وسع هذا الحزب الايطالي ان يكون قوياً الا إذا وجدت في ايطاليا حركة ايطالية عامة ، غير ان هذا الحزب الميلاني كان حزباً محلياً ، ولم يكن حزباً ايطالياً ولم يفهم مجموع ايطاليا . لقد كان حزباً وطنياً موضعياً مؤلفاً من الجيش الذي كان على استعداد ليمد يده لمساعدة حكومة الاستقلال إذا تشكلت . وكان طموح اعضائه يذهب بهم إلى أبعد من ميلانيا والبندقية . وعندما اجتمعت الهيئات الانتخابية كانت مقتصرة على المناطق التي تتكلم « اللغة اللومباردية » المحضة .

في ايطاليا الجنوبية كانت الحركات التي استعملت مورا أو التي اثيرت حوله أو ترتيبات مترنيخ تدعو ، على العكس ، الى مفاهيم أوسع بكثير مما ذهب إليه الحزب الميلاني ، وإلى توحيد جهود مورا ومترنيخ بصورة وثيقة . فقد ذهبا الى مفاهيم واسعة كادت تخرج منها ايطاليا .

لقد كان مترنيخ يرغب قبل كل شيء بفصل ايطاليا عن نابوليون ، وفصل مورا عن الامبراطور ليتخلص من اوجين والفرنسيين الذين يحكمون ايطاليا الشمالية . ويمكن أن نعتبر وجهة النظر هذه كنقطة ابتداء لسياسة مترنيخ . وما دامت هذه خطته الخاصة فهو على استعداد عند الحاجة إلى التفاهم مع مورا . أما مورا فقد بقي في نابولي بعد الانسحاب من روسيا في ٤ شباط ١٨١٣. وكل ما كان يريده هو الحفاظ على تاجه . وكان يعرف بأن نابوليون يشتبه به لما أظهره من استقلال ، حتى ان نابوليون هدده بالعزل . ولذا كان على استعداد ، في سبيل الحفاظ على تاجه ، ان يتخلى عن نابوليون إذا اقتضى الأمر . ونراه منذ عودته إلى نابولي يرسل

إلى فينا الأمير **كادياني** بمهمة ليحصل منها على ضمان لصالحه ويصرح بأنه على استعداد بالمقابل ان يسهل سير الجنود النمساوية في ايطاليا .

وتجمع حول مورا أناس أخذوا يغرونه : فمنهم **رجال الكاربوناري** الذين يمثلون العنصر الثوري . وهم وان كانوا جمهوريين قليلاً أو كثيراً إلا انهم يكرهون كل رجعة للامتيازات أو أي عودة للنظام القديم . وإلى جانب هؤلاء الثوريين الكاربوناري نجد **الوطنيين** الذين نجد عندهم بحق فكرة ايطاليا وهم : البورجوازيون من الطبقات المستنيرة الذين يريدون انقاذ الحرية المدنية والاصلاحات الحرة التي ادخلت في ظل الحكم الفرنسي ، وكانوا مسوقين في تفكيرهم بروح وطنية وقومية . ونجد ايضاً **اضداد الثوريين** وسيلعبون عند الحاجة سياسة قبيحة ، وهم الذين يدفعون مورا ويقولون إذا انفجرت الثورة فان النمساويين الذين يكونون في ايطاليا يعيدون النظام اليها . ونجد أخيراً تدخل ومورابة اللورد بانتينك **السفير الانكليزي في صقلية** الذي اتصل بمورا وأراد أن يستخدمه ضد الفرنسيين وعرض عليه نجدة تقدر بخمسة وعشرين ألف جندي انكليزي شريطة ان يسلمه غاييت لينزلهم بها . وفي الواقع خدع اللورد بانتينك مورا : وذلك لأنه كان يعمل لصالح الملك فرديناند من آل بوربون وجعله يعتقد بأن بريطانيا العظمى على استعداد لأن تساند كل مشروع ضد « الطاغية » . واحاطت هذه الجماعات على اختلافها مورا بسياج من الملاطفة والوداعة وزينت له المجد الذي يناله إذا جعل من نفسه محرراً لايطاليا ودفعته أن يكون بطل الحرية الايطالية . وتردد مورا ، وعندما دعاه نابوليون للحرب في المانيا ، نراه فجأة ينضم اليه ويكافح في صفه في واقعة ليبزيغ . غير أنه أمام خذلان نابوليون عزم على التخلي عن نصرته نهائياً ، وتركه في ارفورت وقفل راجعاً إلى

نابولي في ٤ تشرين الثاني ١٨١٣ وصمم في هذه الآونة على فصل قضيته عن قضية نابوليون والعمل لمصلحته الخاصة .

ونرى مورا في ١٠ تشرين الثاني ١٨١٣ يقترح على نابوليون أن يعلن استقلال الايطاليين وتوحيد ايطاليا في أمة واحدة . وسواء أراد من هذا الاقتراح أن يحصل على رفض نابوليون لينتحل عذراً لانفصاله عنه ، أم اراد ان يلعب هذا الدور بنفسه فان هذه الاقتراحات تتلخص كما يأتي : « إن غاية الملك أن تكون ايطاليا مستقلة ... وقد جعلت جلالتكم منها أمة ، وإن أكثر الايطاليين يرغبون بأن يكون لهم وجود سياسي . أما وقد لاحظ ملك ايطاليا ذلك بأم عينه فانه سيستعمل كل شيء لينشر هذا الرأي في كل مكان وليوحد ، إذا استطاع ، جميع أعضاء ايطاليا ». وهذه هي المرة الاولى التي نرى فيها ظهور فكرة ايطاليا الموحدة المستقلة تحت صولجان مورا .

أما النمسا فكانت عازمة على ان تعمل كل شيء لتفصل مورا وتنزع ايطاليا من نابوليون . وبينا كانت الحرب مشتعلة في المانيا كان مترنيخ يتفاوض مع كارولينا زوجة مورا . ومنذ أن عاد مورا الى نابولي برضا روسيا وانكلترا ارسلت اليه النمسا الجنرال نيبرغ سفيراً ، وقررت سفره في ١٠ تشرين الثاني ١٨١٣ ووصل إلى نابولي في ٣١ كانون الاول جرت بينه وبين مورا مفاوضات ، وبسرعة أدت هذه المفاوضات إلى عقد معاهدة بين مورا والنمسا في ١١ كانون الثاني ١٨١٤ ، وعقد حلف مشترك بينهما : تعهدت النمسا الى مورا بالمحافظة على تاجه ووعدته بأن تعمل ما في وسعها لاقناع الحلفاء بذلك . والحق بهذه المعاهدة **اتفاق سري** وبموجبه تحاول النمسا الحصول على تخلي فردينـاند بوربون عن نابولي والحصول من انكلترا على الصلح مع مورا ؛ وقبلت بأن يزداد عدد نفوس

مملكة مورا في نابولي بأربعمائة الف نسمة تؤخذ من أراضي الحبر الاعظم. وفي الواقع استحصل مترنيخ من اللورد بانتينك على عقد هدنة بين الانكليز ومورا في ٣ شباط ، بينا قطع مورا علاقاته مع نابوليون على اثر المعاهدة منذ ١٤ كانون الثاني ، واعلن عليه الحرب وبدأ بالعمليات الحربية فاحتل روما في ١٩ كانون الثاني ،وفي ٣٠ منه دخلت جنوده انقونه ، وفي ٣١ منه بولونيا ، بينا احتل النمساويون المفوضيات البابويه . وهكذا انهار الحكم الفرنسي في ايطاليا الوسطى كلها وفي معظم ايطاليا الشمالية كما رأينا آنفاً . وعندما أطلق البابا من أسره في فونتينبلو عاد الى ايطاليا في آخر آذار وحاول مورا ان يتخلى عن قسم من دولته .

وحتى الآن ، لم يكن بين رجلي الدولة ،مترنيخ ومورا ، إلا ترتيبات سياسية محضة وموضعية وشخصية غير أنه ابتداءً من هذه الآونة أي ابتداءً من الوقت الذي توصلا فيه إلى تقويض الحكم الفرنسي في ايطاليا أخذ برنامج كل منهما يتسع ، وازداد طموح مورا . لقد كان مورا من أبناء الجنوب يؤخذ بالاحلام ويستسلم للخيال ، ويعتقد ان الأشياء تصل اليه بمجرد تصورها في مخيلته . وما زال حوله حشد من الايطاليين يداعب خياله . وقدم عليه في نابولي مندوبون من روما ليرجوه أن يضع يده على المدينة الخالدة . وارادت الماسونية التي كان مورا سيدها الاعظم أن تضعه على رأس ايطاليا ، وبالحاحهذه المؤثرات المختلفة ،وحباً منه في زيادة زبائنه ، اندفع مورا في تحقيق الاصلاحات الدستورية في دولته . ودعمه في كل مكان من استفادوا من الأموال القومية ممن اشتروا أموال الكنيسة المعصرة او من اموال النبلاء المعروضة للبيع . وقال مورا الى سفير النمسا : « انكم لاتستفيدون شيئاً من جميع الدول الصغيرة التي تريدون تأسيسها في ايطاليا ، اتركوني حراً لأتكفل بجيش دائم مؤلف من

٦٠٠٠٠و٦٠ رجل ، فراحة ايطاليا ونفوذكم فيها يصبحان في أمان » . وفي الوقت ذاته اتصل بنابوليون في جزيرة البا ، وتفاوض مع البابا للتخلي عن قطعة من الدول الحبرية والاعتراف به ملكاً على ان يعيد للبابا باقي الدولة الحبرية . ورأى ان سقوط نابوليون قد أضعفه فوضع برنامجين ممكنين : فاما ان يدعم نفسه بحركة عامة من قبل الرأي العام الايطـالي وذلك يكون بتأسيس دولة ايطالية تحت ادارته ؛ أو على الاقل ، إذا لم ينجح هذا البرنامج الاول ، ان يختص نهائياً بتاج نابولي .

أما من جهة مترنيـخ فبعد أن تخلص من نابوليون ، أخـد يفكر بالخلاص من مورا ، غير انه كان مقيداً بالمعاهدة التي وقعها معه ، ومن جهه أخرى كان يرغب بأخذ المفوضيات الحبرية ليحل فيها الأرشيدوقات (الأمراء النمساويين). وكانت ترتيبات مترنيـخ ترمي إلى خلق شيء في ايطاليا مماثل لما في المانيا : وهو أن يؤسس فيهـا اتحاداً ايطالياً يكون اعضاؤه زبائن للسياسة النمساوية ، وأن تحتفظ النمسا بمملكة ايطاليا تحت اسم « المملكة اللومباردية البندقية » ؛ أما في **بيمونت** فيمكن ان يزوج ارشيدوق ببنت فيكتور عمانوئيل ، الذي ليس له من نسله ذكور وإذا الغي القانون السالي الذي يحرم النساء من وراثة العرش ، فان هذا الارشيدوق يصبح ملك بيمونت — ساردينيـا ؛ وفي **توسكانا ومودينا** يعاد الارشيدوقات (الأمراء النمساويون) إلى عروشهم . وتبقى أخيراً ماريا لويز الامبراطورة ، وآل بوربون في بارما ويمكنهم ان يحتلوا اماكنهم في ايطاليا الوسطى . وعلى هذه الحكومات المختلفـــة التي هي زبائن للنمسا ، أن تتجمع بشكل اتحاد .

واذاً نحن أمام ترتيبين متضادين : **ترتيب مورا** و **ترتيب مترنيـخ** ومن الممكن ان يخرج عن كليهما تنظيم من شأنه ان يوجـد ايطاليا اما

بشكل مملكة أو بشكل اتحاد ، وينظم ايطاليا تنظيماً عاماً لم تعرفه في السابق .

غير أن الاخفاق كان مضاعفاً : فقد ظن مورا أن عودة نابوليون إلى فرنسا ستساعده على تحقيق غايته . وفي الوقت الذي نزل فيه نابوليون الأرض الفرنسية عائداً منجزيرة البا ، قام مورا بالعمليات العسكرية ، وطلب إلى مترنيخ حق المرور لجنوده عبر الثغور ليصد النفوذ الفرنسي غير أن مترنيخ رفض تلبيته واعتبر ان كل خرق ممكن لخط الحدود عذر له في قطع علاقاته مع مورا . ورأى هذا بعد نزول نابوليون في فريجوس واسطة لتحقيق اطماعه : ففي ١٩ آذار طلب من البابا أن يسمح له بمرور جيشه عبر الريف الروماني . غير أن البابا رفض فاحتل مورا الريف الروماني ، وفي ٢٩ منه عبر خط الحدود النمساوية ودخل روما فأدى ذلك إلى قطع علاقاته مع النمسا . وفي ٣٠ آذار القى من ريميني بنداء إلى الايطاليين : « أيها الايطاليون ، لقد حانت الساعة التي يجب ان تتم فيها مقدرات ايطاليا العظمى . وان الحكمة الالهية تدعوكم اخيراً أن تكونوا أمة مستقلة . فمن الالب الى مضيق صقلية يرتفع صوت واحد : « استقلال ايطاليا » . ثم أردف يقول : « ان ٨٠٠٠٠ ايطالي يتقدمون تحت أمر مليكهم وقد اقسموا الايمان الا ينعموا بالراحة قبل خلاص ايطاليا » وختم نداءه بقوله : « إني أدعو جميع الشجعان أن يلتفوا حولي للكفاح ! » . ودخل **بولون** في ٢ نيسان **ومودينا في** ٤ منه .

غير ان هذه الحركة التي أمل مورا باثارتها لم تحدث . فلم تكن الحماسة الا عند قسم من الشبيبة وبعض الطبقات المستنيرة . فمن ذلك ان الموسيقي روسيني الف « **نشيد الاستقلال** » وروسّي ، استاذ الحقوق في

جامعة بولون انخرط في هذه الحركة القومية وعين مفوضاً لأربع مقاطعات . والعناصر الوحيدة في هذا الحزب القومي توجد في الطبقات المتعلمة وبعض النبلاء وبعض رجال الجيش ، ولم يكن هنالك ما يسمى حركة كتل وجماهير لأن الشعب بقي جامداً لا يبدي حراكاً . ولذا فان مورا ترك وقواه الوحيدة فسهل على الجيش النمساوي حذفه واضطر الى العودة الى دولته وتنازل عن العرش بين يدي الانكليز . وفي ٢٠ أيار ابحر الى كان ثم الى كورسيكا وقام بضعة أسابيع بنوع من الخروج عن القانون ثم القي القبض عليه واعدم بالرصاص . وفي الحقيقة ان مورا لم يكن بطل القضية الايطالية الا بترتيب شخصي . وكانت هذه القضية ، بالنسبة اليه ، واسطة لايجاد دولة له ، والحزب القومي الذي ناداه لم يكن ليوجد في الواقع الا بشكل فكرة دون اذاعة في بعض العناصر الفكرية والعسكرية التي كانت على صلة بالفكرة الدستورية .

ان اخفاق ترتيب مورا الملكي والقومي كان واضحاً . وكذا اخفق كونفدراسيون مترنيخ . فقد كان مضطراً الى التخلي عن قسم من اطماعه ليعقد بسرعة معاهدة فينا . كما استحال عليه الحصول على المفوضيات الحبرية فأعادها الى الكاردينال كونسالفي وزير البابا بيوس السابع . وبعد واترلو لم تعد الدول تخشى نابوليون ولا الحرب ولذا بدت أكثر مقاومة واكثر استقلالاً أمام وحي مترنيخ ، واقوى مما كانت عليه من قبل وتستطيع أن تقاومه لأن روسيا وفرنسا كانتا تدعمانها . وهكذا نجد أن ملك نابولي والبابا وملك البيمونت ينحون ترتيبات مترنيخ ويرفضون الكونفدراسيون الذي اقترحه، حتى انهم فيما بعد يرفضون الاتحاد

البريدي على بساطته ، وبقيت ايطاليا « تعبيراً جغرافياً » بسيطاً كما عرفها من بعد مترنيخ نفسه .

وبعد أن اتينا على ذكر المانيا وايطاليا نرى وجود فرق محسوس بين الحركة الايطالية والحركة الألمانية وهو : ان الايطاليين لم يسهموا بأنفسهم لخلاص بلادهم . والدور الوحيد الذي نراه لهم هو تأسيس الحزب الميلاني الذى انتحل لنفسه اسم « الحزب الايطالي » مع أنه لم يكن سوى حزب محلي . ومن جهة أخرى نرى أن هذه الرسوم الاولى وهذه الآمال التي تجمعت حول مورا كانت في الواقع دون جذور ومضطربة ، كما أن هنالك مصالح تخشى رد الفعل ضد كل ما سوّي في ظل الحكم الفرنسي. لقد كانت الفكرة القومية غامضة جداً حتى عند رجال الآداب الذين كانوا اكثر تطوراً من غيرهم . ولذا فنحن في ايطاليا بعيدون عن الوعي القومي الذي شهدناه في المانيا .

وفي ختام هذا التحقيق الدقيق الذي اجريناه للبحث عن الأفكار والوقائع ، التي تساعدنا اثناء الثورة والامبراطورية ، على الكشف عن القوميّات الموجودة أو القوميات الناشئة ، نرى ممكناً أن نستجمع منه النتائج الآتية :

١ً — لم يكن للثورة ولا للامبراطورية ، كما رأينا ، سياسة في القوميات . ونقول « سياسة » ولا نقول « نظرية » .

٢ً — ان الأمم التي توافرت لديها من قبل عناصر القومية قد تقدمت في هذا العهد تقدماً لاسبيل الى نكرانه في ناحية الوعي القومي سواء بفضل النظريات التي أتت بها الثورة الفرنسية ، أو بفضل المثال الذي ضربته، حتى انها حاولت النضال بما أتاحته لها الثورة من فرصة : وهذه هي

حال **اليونان** **وايرلندة** **وبولونيا** . ولم يحصل أي بلد من هذه البلدان الثلاثة على نتائج فعلية وذلك اما لأن السكان لبثوا عزلاً من كل مساعدة ممكنة ، أو لأن السياسة الفرنسية تخلت عنهم . وفي البلاد الاخرى ولدت الثورة الفرنسية والامبراطورية رد فعل دفاعٍ وطني يعتبر كقاعدة أولى لكل قومية ، وتحت هذا الشكل الوطني تظهر لنا لأول مرة الفكرة القومية . وهذه هي حال الدولة التي وجدت من قبل في اطار قومي ، وقوي بهذه الصورة تركيبها المعنوي والخلقي مثل : **اسبانيا** ، **روسيا** **وهولندة** . ومن جهة أخرى نرى نزول المفاهيم والعواطف القومية الى الحقل السياسي بعد أن ظلت حتى ذلك الحين في الحقل الفكري المحض ، مثل **المانيا** وبدرجة أقل منها **ايطاليا** . والمسألة التي توضع الآن لمصيرها هي معرفة ما اذا كانت العاطفة القومية ، عندما تزول ضرورة الدفاع المشترك ، سيكتب لها البقاء وتجد اسباباً للوجود خارجة عن النضال ضد المحتل .

٣ً — النتائج المادية : لقد ابقى الحكم الفرنسي في اوربة آثاراً وجروحاً . فمن ذلك أن اوربه لن تعود إلى حالتها الاولى لما اعتورها من أعمال التبسيط في جهازها السياسي : مثل **المانيا وايطاليا والنمسا** فقد شهدت تأليف كتل من الاراضي اضخم بكثير من غبار الدول الذي كان من قبل . وكذا الامر في **تركيب المجتمع** : لان الامتيازات وادارة النبلاء والاقليميات حذفت بصورة عامة . وكذا حذفت العقبات التي تحول دون علاقات الناس والدول الداخلية ، مثل الجمارك والدخولية ... وغيرها . وفي كل مكان في اوربه سمحت الاصلاحات الاجتماعية باحتكاك طبقات المجتمع فادى ذلك الى الشعور أو الى خلق **التضامن** الذي لم يوجد بعد .

٤ — ان تبدلاً يحدث في السنوات التي تلي في ذاكرة الشعوب بتأثير الذكرى والنسيان . وهذا العمل المعنوي يساعد على استعمال النظريات الفرنسية واتخاذها قدوة . وذلك لأن الثورة جهزت الشعوب بأبطال الحرية والقومية الذين سيظلون افكار قوة لمدة قرن فيما بعد . وكذا فان ضلال الذكريات سوف يجعل هذه الشعوب تشعر بالكبرياء لأنها ساهمت في الملحمة الامبراطورية . ولكن لتنتقل هذه الحوادث ويظهر تأثيرها البعيد يجب أن يمر عليها الزمن ، كما يجب وجود عنصر للمقارنة. ان ثقل ارهاق نظام الحلف المقدس الاستبدادي سوف يزين الثورة الفرنسية والامبراطورية بضياء الحرية والقومية الذي يفيد في صالح الشعوب.

الفصل الخامس

أوربة ١٨١٥

يجب الا نتصور في ذهننا دوماً ان العمل الانشائي الذي قام به مؤتمر فيّنا عملًا اوجدته المطامع والترتيبات السياسية التي سجلت حالة القوى القائمـــة بين الأمم عام ١٨١٥ ؛ كذلك يجب الا نرى فيه عملًا أملته الصدف والظروف . فمن ذلك ان عودة نابوليون بعد نفيه إلى جزيرة ألبا لم تبدل الخطط التي كانت موضع المناقشة والبحث في مؤتمر فينّا . وكل مافي الأمر انها عجلتها وأسرعت في حث عمل كان في حيز الانشاء ، ولم تحوله بل حذفت كل عنصر مغاير له . ولا شك في ان ظفر الحلفاء على حـكم المائة يوم النابوليوني قد شدد الشروط التي فرضت على فرنسا ، ولكنه لم يبدل الحالة الأوربية التي وضعت في فينّـا . يضاف الى ذلك ان الظروف كلها لم تمل هذا الوضع الأوربي الجديد . فلم يـكن اذن عملًا وليد الظلم او الاتفاق . بل اننا نجد فيه مذهباً ومفهوماً للحق العام . واذا شئنا ان نرى رد الفعل الذى احدثه هذا المذهب عند الشعوب فما علينا الا ان نفهمه قبل كل شيء .

الهدف والمذهب . ـ لقد وجدت الدول الأوربية أمام فرصة استثنائية وهي ان اوربة ، لأول مرة منذ قرون ، كانت بحاجة الى البناء والانشاء على أساس جديد لأن الحـكم الفرنسي توطد فيها الى ماوراء نهر الفيستول.

ومن جهة أخرى نجد ان هنالك ضرورة فرضت على الدول وهي انَّ كثرة الآلام ، التي عاشتها الشعوب خلال خمس وعشرين عاماً قضتها في الحرب، اضطرتها ان تجد مذهباً أو سياسة تستطيع بها الحيلولة دون رجوع الحرب مرة أخرى .

لذا رأت الدول ان تنشيء **النظام الأوربي** . فمنذ فريديريك الثاني سادت في اوربة سياسة القوة والسلب ، وعاملها الوحيد هو الطموح . ولم يكن للدول الأوربية في سياستها الخارجية أي رائد للحق أو أي اعتبار له . لقد أتت فرنسا الثورة بنظرية العقل وأرادت ان تنيبه مناب القوة. غير انها ، كما رأينا ، مالبثت ان تخلت بسرعة عن هذا المذهب . ولقد كانت تقاليد السياسة الخارجية في اوربه منذ فريديريك الثاني تقوم على **اقتطاع الأراضي وتقسيم بولونيا** وتوسعية حكومة الديركتوار واطماع نابوليون الجنونية . أما الآن فينبغي اعادة النظام وتوطيد قواعد السياسة .

لقد تصور الكسندر الأول ، سيد السياسة الأوربية بعد نصر١٨١٤ ، منذ بداية حكمه ان اوربة بحاجة الى بناء على أسس عادلة وأن هذه الحاجة ملحة وضرورية . وفي التعليمات التي أعطاها الى المندوب فوق العادة الذي أرسله الى لندن ليتفاوض مع الحكومة الانكليزية بشأن التألب ، أوضح في ١١ ايلول ١٨١٤ ان هدفه « **توطيد السلام الأوربي على أسس ثابتة ومتينة ودائمة** » وأضاف : « ويبدو لي أننا لانستطيع بلوغ هذا الهدف الأكبر الا اذا توصلنا من جهة الى تعلق الأمم بحكوماتها ، وذلك بجعلنا هذه الاخيرة أهلًا لأن تسلك الطريق التي تؤمن الخير الأعظم لشعوبها الخاضعة لها ، ومن جهة أخرى اذا استطعنا تثبيت العلاقات الدولية على قواعد واضحة ،ومن صالح الحكومات جميعاً احترامها . على ان مثل هذا النظام وهذه الحالة ، لايمكن الوصول اليهما الا اذا أحطنا الحكومات بسياج ضد

الأهواء والطموح الجامح والجنون التي تضيع الرجال الذين يوجدون على رأسها ، وفي الوقت نفسه وطدنا حق البشر ، الذي ينظم علاقات الأمم الأوربية ، على مبادىء حقيقية » . ولا شك في ان هذه الافكار عظيمة وكريمة . غير أن القيصر ، على ماعرف عنه من تناقض ، تخلى عنها بعض الوقت ، عندما أسهم في سياسة نابوليون التوسعية . ولكن هذه الأفكار عادت فظهرت في فكره عام ١٨١٤ — ١٨١٥ بعد أن اصبحت ضرورة وأخذ الجميع يشعرون بها . ولذا فان النظام الأوربي الذي يراد انشاؤه يستند على بعض افكار أساسية نوردها فيا يلي :

الفكرة الأولى هي لزوم طرح القوة كقاعدة لتملك حالة أو وضع من الاوضاع. لأن السيادة على بلد من البلدان لاتكتسب بالفتح ، والقوة لاتخلق الحق ، وليتملك أمير دولة من الدول بصورة حقوقية يجب ان يتخلى عن هذه الدولة سيدها الشرعي .فالتخلي او التنازل هو الذي يخلق الحق لا الفتح . وهذه هي الفكرة التي وسعها تالليران طويلا في تعلياته التي أتى بها الى مؤتمر فينّا. ونذكر على سبيل المثال ان سادة أوربه في فينّا ، عندما اقتطعوا الساكس لإعطاء قسم منها الى بروسيا ، لم يكن ترتيبهم في فكرهم سوى مشروع الى ان قبل ملك ساكس بنفسه بهذا الاقتطاع . وقد صرح تالليران عندما التقى لأول مرة بمندوبي الدول فوق العادة : « ان حاجة اوربة الاولى هي ان تبعد الرأي القائل بأنه يمكن اكتساب حقوق بمجرد الفتح ، وان تحيي مبدأ الشرعية الذي ينبثق عنه النظام والاستقرار » . وإذا استثنينا الأراضي الشاغرة ، كما هي الحالة في الاراضي الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الراين ، فان سادة فينّا لم يتصرفوا بالأراضي دون رضى مالكها الشرعي .

والفكرة الثانية الأساسية التي أوحت بتنظيم مؤتمر فينّا هي تعيين حالة

تملك كل أمير في اوربه برضى الجميع في هـذه الحالة الموطدة . والصك النهائي لمؤتمر فينا المؤرخ في ٩ حزيران ١٨١٥ يعتبر أول عهد أرضي لأوربة ووثيقة تعين حالة تملك كل دولة مضمونة بتوقيـع الدول الثماني العظمى ولا يمكن تحويلها أو تبديلها إلا برضى الجميـع . ولذا فان للموقعين كلمتهم عندما يراد تصور تغيير في هذا الوضع الأوربي الجديد . وقـد جرى مثل هذه الحالة ايضاً في مؤتمر باريس عام ١٨٥٦ الذي ختم حرب القرم . وكما قال **البير سوريل** : ان همّ الدبلوماسيين في مؤتمر فينّا هو « بناء السلام العام على عقد جماعي » وان خرق هذا العقد المذيل بتواقيـع أوربة يعتبر خروجاً على الحق العام .

والفكرة الثالثة هي خضوع العلاقات الدولية إلى قواعد العقل والعدل والاحترام المتبادل أي إلى مجموع القواعـد التي يطلق عليها اسم « حقوق البشر » التي لم تقنن في ذلك العهد بقواعد حقوقية، كما حصل ذلك تدريجياً خلال التاسع عشر . بل وجد شيء جديد وهو **الفقه** اكثر من **القانون** . وقد ظهر في العام ١٨١٥ بشكله الحديث . فقواعد العدل واحترام حقوق الآخرين والحكمة والاعتدال في الاطماع تعتبر شيئاً مناقضاً لسياسة نابوليون حاول الحلفاء ان يقروه . حتى ان الكسندر الأول ، بعد حكم المائة يوم والظفر عليه في واترلو ، حاول في معاهدة الحلف المقدس أن يخول قاعدة ومؤيداً معنويين لحق البشر هـــذا الذي يرمي إلى تأسيس العلاقات الدولية على نفس قواعد الأخلاق التي تسود علاقات الأفراد .

نجد اذن في عمل دبلوماسيي ڤينّا فلسفة للعلاقات الدولية هدفها انابة حكم الحق مناب حكم القوة لا مجموعة نشأت عن وجهات نظر سابقة أو حاولت أن تسد اطماع الدول الظافرة . فقد وجدت ضرورة أقوى من الرجال أنفسهم . ووجد في مؤتمر ڤينا كثير من المـــلاهي (كوميديات)

لعبت باسم المبادىء كما هي الحال في ملهاة تاللیران التي لعبها باسم مبدئه الشهير : « **مبدأ الشرعية** » . ووجدت بين حين وآخر مطامع ومطامح . على أن هنالك مشهداً حاداً بين الكسندر وتاللیران في غرة تشرين الأول ١٨١٤ يدل جيداً على تعارض وجهتي النظر بينهما في بعض الأحيان : وعندما تكلم القيصر عن الوضع الذي يراد توطيده قال : « يجب على كل انسان ان يجد فيه آداباً ولياقة » فأجاب تاللیران : « وكل إنسان حقوقه » . ثم اعترض القيصر : « ولكن إذا كنت لا تريد أن يجد كل إنسان آداباً ولياقة فماذا تريد ؟ » قال تاللیران : « اني أضع الحق أولاً والآداب واللياقة بعده » . إن آداب اوربة هي الحق ، ان هذه اللغة ياصاحب الجلالة ليست لغتكم ، انها غريبة عنكم وقلبكم ينكرها » . غير أن القيصر في الواقع اضطر بدوره أن يطوي اللياقة والمجاملة أمام الحق . لأن الضرورات كانت أقوى من ارادة الافراد . ومن تنازع المطامع الجامحة ينشأ ، بحكم الضرورة ، حل وسط أو تسوية ، اللهم إلا إذا اريدت الحرب ، ولكن أوربة خرجت حديثاً من الحرب وليس في نيتها العودة إليها . ولذا يجب ان يقوم حل وسط يسوي بين المنافع والمطامع المتناقضة وهذا الحل الوسط لايمكن ان يقوم إلا بتنازل متبادل يقرب حل العدل إن لم يقرب الحق .

وبعد فكيف فهم هذا النظام وعلى أي أساس ؟

يجب أن نذهب إلى أبعد من نابوليون والثورة ، اذا أردنا تأسيس النظام وقواعد الحق الذي يقوم مقام القوة ، لنجد الفكرة التي كانت فكرة الجمعية التأسيسية . غير أن مفهوم الحق عند الدول في العام ١٨١٥ لم يكن الحق نفسه الذي وجدناه عند الجمعية التأسيسية عام ١٧٨٩ . وذلك لأن هؤلاء الدبلوماسيين لم يكونوا فلاسفة بل كانوا رجال دولة وواقعيين

حتى ان بعضهم كانوا عمليين تجربيين ، مثل الوزير الانكليزي كاسلريغ . والرجال الذين كانوا معه يوجهون المؤتمر ، مثل مترنيخ والكسندر الأول وتالليران ، لم يكونوا نظريين بل كانوا ينظرون الى الوضع الذي يؤمن سلام أوربة كحساب للقوى . ولقد أمنوا هذا السلام عدة مرات : ففي معاهدة حلف ٩ ايلول ١٨١٣ قالوا ان هدفهم تأمين راحة أوربة « بتوطيد توازن صحيح بين الدول » . وفي ندائهم إلى فرنسا في أول كانون الأول ١٨١٣ صرحوا بأن قصدهم « حالة سلام مؤسس على توزيع عاقل للقوى » . وفي اتفاق ٣٠ أيار ١٨١٤ الذي يرافق معاهدة باريس تصرح المادة الاولى منه بأن فرنسا تقبل « بالعلاقات التي ينجم عنها سياسة توازن حقيقي ودائم في أوربة » . وما فتىء الدبلوماسيون يكررون : توطيد التوازن بين القوى .

وهذه هي الفكرة التي سادت كل التاريخ الداخلي للمؤتمر وخاصة الخلاف الشهير بين روسيا وبروسيا من جهة ، والنمسا من جهة أخرى ، وإلى جانبها أتت انكلترا لتوازن وتحدد مطامع بروسيا في ساكس وروسيا في بولونيا . ان فكرة التوازن بين قوى الدول الأوربية عينت المفاهيم الأساسية التي بنيت عليها اوربة وهي أن الدول الكبرى ، باستثناء روسيا ، لم تكبر بل عادت إلى حالة تعادل الحالة القديمة ، ووزعت بصورة مغايرة ، ولكنها لم تكن اعظم مما كانت عليه قبل الحرب. وأوحت فكرة التوازن هذه بتأسيس دول وسط على درجة من القوة تستطيع بها ان تكون أهلاً للحياة بنفسها ، وان تناهض مطامع الدول الكبرى ، وتؤلف ما يعدل وزن هذه الدول . ونجد الفكرة نفسها في المفهوم الذي بقي عزيزاً على الدبلوماسيين مدة طويلة وهو احداث « الدول الفاصلة » على حدود الدول العظمى الطموحة والخطرة بغية لزومها

حدودها وذلك مثل : بملكة البلاد المنخفضة في شمال فرنسا . ولتوطيد هذا التوازن قررت الدول ايضاً في العام ١٨١٥ حذف الدول الصغرى الضئيلة التي كانت عديدة في اوربه الوسطى .

أما الطرق التي اتبعوها لتحقيق هذا التوازن فكان لها معناها : لقد عملت الدول على احداث حصص كما يعمل عند اقتسام الإرث . وشكلت الدول بناءً على حسابات قامت بها « لجنة الاحصاء » . واتخذت هذه كقاعدة لذلك ثلاثة عناصر : **المساحة والموارد والسكان** . وباتخاذ هذه العناصر الثلاثة كانت تسوى الحصص المتوازنة . ولنضرب لذلك مثلاً : بروسيا ، فقد اضاعت ثلاثة ملايين ونصف من النفوس بتنازلها لروسيا عن بعض الأراضي في بولونيا . وعوضت هذه الثلاثة ملايين ونصف : في بوسنانيا بـ (٨٠٠٠٠٠) ؛ وعلى الضفة اليسرى لنهر الراين بـ (مليون) وفي وستفاليا بـ (٨٠٠٠٠٠) ؛ وفي ساكس بـ (٨٠٠٠٠٠) نسمة .

وعلى هذا فالمفهوم مفهوم سياسة ميكانيكية لا تعتبر إلا النتيجة الطبيعية والنتيجة المادية ولا تعتبر الجغرافيا : ففكرة الحدود الطبيعية حذفت بتمامها، كما حذفت الفكرة القائلة بأن الدولة يجب أن تنمو في إطار طبيعي . وكذا ايضاً لم تؤخذ بعين الاعتبار التقاليد التاريخية : فمن ذلك ان الدول الاسكاندينافية وزعت بشكل يخالف تماماً ما كانت عليه حتى الآن ، لأن فنلاندة التي كانت مرتبطة بالسويد اعطيت إلى روسيا ؛ والنورفج ، التي كانت تابعة للدانيمارك ، اعطيت الى السويد . ولم يهتم ايضاً بالعنصر المعنوي وما يمكن أن تكون ارادة الشعوب ، وهذه هي الفكرة التي شادت عليها الجمعية التأسيسية نظريتها في القومية . وعلى هذا فقد أسس التوازن الأوربي على حساب القوى . على أن هذه الفكرة لها ما يبررها في الواقع لأن توزيع القوى كان محكماً : فقد حوفظ على السلام بهذه

السياسة في اوربة حتى حرب القرم أو إلى حرب ايطاليا . غير ان مثل هذا المفهوم كان يبدو غريباً في مثل ذلك التاريخ الذي نحن فيه بين النظام القديم والنظام الحديث ، وذلك لأن حركة جديدة في الافكار حدثت ولم يعرها دبلوماسيو ١٨١٥ اهتمامهم .

وعلى هذا فان ظفر مفاهيم النظام القديم كان بتوازن القوى الاوربية عام ١٨١٥ ، وان الدول التي تشكلت على هذا النحو فهمت كما كانت تفهم قبل ١٧٨٩ ؛ بينما قامت حركة أفكار جديدة نجمت عن الثورة الفرنسية وتصورت أسس الدول بشكل آخر ، وفهمت الدول كنوع من « عقد » ووحدة يقبل بها المواطنون . وكذا قامت حركة أخرى في الأفكار ولم ينتبه لها في العام ١٨١٥ وهي الفلسفة الالمانية في الدولة التي تعتبر الدولة كائناً عضوياً لا ترتيباً واتحاد قوى تحت سيادة أمير من الامراء. وعلى هذا فان العمل الذي يراد به تأسيس النظام في أوربة على أسس قانونية كان بناء لاسند له ، كما كان سبباً في جميع الثورات التي تألمت منها أوربة إلى أن وجدت قواعد وأسساً أخرى .

ولقد اخذت هذه الصفة تزداد وضوحاً وسارت ، نوعاما ، في هذا الاتجاه نفسه بتأثير الحوادث التي وجهت عمل مؤتمر فينا ، وعلى أثر حكم المائه يوم ونتائج هذا الحكم أخذ عمل المؤتمر طابعاً مناوئاً لفرنسا . وذلك لأن حكم المائة يوم بدل موقف اوربه تجاه فرنسا . فبينا نجد ان الحلفاء في العام ١٨١٤ يعاملون فرنسا المغلوبة بكرم وينسحبون عنها مباشرة بعد احتلال ثلاثة اسابيع ، اذا بنا نرى في العام ١٨١٥ هجوم ١٢٠٠ر٠٠٠ رجل يأتون اليها من كل صقع من اصقاع اوربة بعد انتهاء الحرب في واقعة واترلو ويحتلونها خلال ثلاثة أشهر ويرتكبون فيها اعمال الشدة والقساوة والاكراه والنهب والسلب . وقد خمنت « لجنة التصفية »

فيما بعد مقدار المصاريف فبلغ ٦٨٢ مليوناً فرنكاً . واذا تركنا جانباً الاقتطاعات ، التي جرت على الحدود وكانت ضيقة بسبب معارضة القيصر وانكلترا لمطامع الامراء الالمانيين ، فقد كان على فرنسا ان تتحمل احتلال (١٥٠٠٠٠ رجل) وتتكفل باعاشتهم خلال خمس سنوات وتدفع غرامة حربية قدرها ٧٠٠ مليون فرنك ، يضاف الى ذلك الديون التي طالب بها الأفراد والتي تركها احتلال الامبراطورية في بلادهم وقد بلغت مليار ونصف فرنك ، وأخيراً بعض أعمال النهب التي قامت في المتاحف وآلمت قلوب الفرنسيين . واتخذت احتياطات ضد فرنسا بصورة خاصة : منها ان الحلفاء جددوا جميعاً **ميثاق شومون** بالحلف الرباعي في ٢٠ تشرين الثاني ١٨١٥ . وكان سفراء الحلفاء يجتمعون اسبوعياً في باريس لمراقبة سير الحكومة الفرنسية . وأخذ الحلفاء يتدخلون في سياسة فرنسا الداخلية ويسدون الى الملك بنصائحهم في السياسة الواجب اتباعها ويتصلون بالأحزاب السياسية وخاصة بحزب الملكيين المتطرفين . وكانت النتيجة ان طبع عمل مؤتمر ١٨١٥ بطابع مناوىء لفرنسا مع انه لم يكن له مثل ذلك الطابع في الأصل . وصار الدول تشتبه بها ، ووضعتها اوربة في حالة عزلة . حتى اننا نرى في مؤتمر ايكس لاشابل عام ١٨١٨ ان الحلفاء سحبوا جيوش الاحتلال وابقوا باتفاق ١٢ تشرين الأول ١٨١٨ على الحلف الرباعي ضد فرنسا الثورية . وقد اوحت انكلترا بهذا الحلف الرباعي . ونجد هنا عنصراً دائماً في السياسة الأوربية وهو عزل فرنسا أمام أي حلف يتشكل في كل حين ولو دلت الحوادث على عدم ضرورة المحافظة على هذا الحلف . ولذا جعلت الظروف من فرنسا عنصراً معارضاً لأوربة التي نظّمها الدبلوماسيون عام ١٨١٥ .

والنتيجة الثانية لعمل المؤتمر هي انه ولد في فرنسا حزباً قومياً أخذ

يعبر عن آرائه بالحال . ففي الوقت الذى مازال فيه الحلفاء على الأرض الفرنسية نشر سالفاندي في شهر آذار ١٧١٦ كراساً يسمى « التألب وفرنسا » وهو مجرد اتهام ضد جيوش الحلفاء . وبعد سالفاندي ظهرت عدة كراريس أشهرها كراريس شيفر اخوان . كما نجد الرأي نفسه والمطالب نفسها في الصحف .وبالاضافة الى الاحتلال قامت المعارضة بتأثير « الارهاب الابيض » ومغالاة الملكيين المتطرفين بمطاليبهم في المجلس . ونلمس في المطاليب القومية كره معاهدات ١٨١٥ وآل بوربون الذين رجعوا الى فرنسا « بسيارات شحن الأجنبي » . وغذى هذه المعارضة القومية وجسدها تسريح الجيش الفرنسي بعد الهزيمة وعودة الجنود القدماء الى قراهم . كما قام الجنود المسرحون في المدن والقرى بدعاية قومية ضد الحلفاء وضد أوربة الجديدة .

وكانت عناصر هذا الحزب القومي تتألف من **الاحرار** الذين يريدون توسيع دستور العهد ويؤلفون في العام ١٨١٧ الحزب المسمى حزب « **المستقلين** » وكان حزباً حراً مع مايخالطه من نزعة جمهورية أحياناً ، وكان يطالب بسيادة الشعب دون ان يكون بوناپارتيا . وقد دخلت في هذا الحزب الى جانب المستقلين ، عناصر بوناپارتيه وعسكرية فبدلت سيماءه وعظم بسرعة . ويظهر لنا ذلك في الانتخابات التي توالت منذ ١٨١٧ الى١٨٢٠ ونم نشاطه عن مقتل دوق دوبري (بن الملك شارل العاشر فيما بعد) وتشكيل الجمعية السرية الكبرى وهي **الجمعية الفحمية** عام ١٨٢١ وبعض مؤامرات عسكرية عام ١٨٢١ و ١٨٢٢ .

ومن جهة ثانية بدأت دعاية « البوناپارتيين » وهدفها اظهار نابوليون رجل الثورة وتشخيص الثورة الفرنسية في نابوليون . وقد أوجدت هذه الاسطورة عدة كراريس وتآليف . فظهرت في العام ١٨١٧ « رسالة من رأس

الرجاء الصالح » تحدثنا عن المعاملة التي لقيها نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة و « رسائل عن حكم المائة يوم » لبنجامن كونستان (١٨٢٠) التي تمثل لنا نابوليون رجلا حراً . وبعد موت نابوليون في ٥ أيار ١٨٢١ ظهرت تآليف رفقائه في المنفى : فقد نشر **اوميرا** عام ١٨٢٢ «نابوليون في المنفى » **ولاس كاز** في العام ١٨٢٣ « ذكرى القديسة هيلانة »وفي السنه نفسها نشر الجنرال **مونتولون** « أمالي القديسة هيلانة » وفي العام ١٨٢٥ نشر الطبيب **آنتومارشي** « ذكرياتي » وبهذه المؤلفـــات حصل اختلاط بين الثورة الفرنسية ونابوليون . وبدا نابوليون جندي الثورة ، وكذا فكرة عظمة فرنسا والبرنامج القومي والحدود الطبيعية ارتبطت بالثورة . وكل هذا من الثورة والامبراطورية والحزب القومي في العهد الرجعي تغطى بالعلم المثلث الألوان . كما تناول حزب اليسار في فرنسا فكرة الجيروندين وهي ان فرنسا أتت الى الشعوب بالحرية وساعدتها على تحقيق مطامعها وآمالها . وبعد أن رأينا حوادث الثورة والامبراطورية نجد الآن تشويهاً حقيقياً للحوادث . غير ان هذا الاختلاط بين نابوليون والثورة وفكرة السياسة الفرنسية التي تدعـو شعوب أوربة الى الحرية والقومية ، قد قبلتها أحزاب اليسار الفرنسي منذ ذاك العهد كبديهية . ولذا فان الظروف ولدت ، في اوربة ١٨١٥ حول فرنسا ، مطالب دائمة تريد حالة اخرى مغايرة مؤسسة على الحرية والقومية .

وهنالك ظروف أخرى وجهت عمل مؤتمر فينا ١٨١٥ في اتجاه سياسي وطبعته بطابع رجعي وهي حصول اختلاط بين عمل ١٨١٥ والنظـــام القديم مواز للاختلاط الذي تجمع بين نابوليون والحرية . والسبب في ذلك يرجع الى سياسة مترنيخ . فقد بسط مترنيخ الأشياء الى النهاية القصوى وقال « ان اساس السياسة المعاصرة هو ويجب ان يكون الراحة » . ولا

شك ان هذه الراحة كانت رغبة اوربة باجمعها عندما خرجت من الخمس والعشرين سنة التي قضتها في الحرب ، ولم يأل مترنيخ جهداً في استغلال هذه العاطفة العامة . وقد اوجس خيفة منذ العام ١٨١٣ عندما رأى ثورة شتاين والآخرين أثناء حرب التحرير من فرنسا . وأخيراً كانت الدولة النمساوية دولة اصطناعية لدرجة قصوى رابطها الوحيد « استبداد الموظفين » ، ولذا فان كل حركة في داخل الدولة النمساوية تهدد بحدوث انقلاب . ولهذه الاسباب المختلفة وسع مترنيخ بسياسة عامة ماكان منفعة النمسا وحدها . ولقد لخص بنفسه برنامجه السياسي ببعض عبارات بسط فيها الأشياء فقال « ان هدف الأشياع واحد وحيد الشكل وهو قلب جميع الأشياء الموجودة شرعاً . ولذا فإن المبدأ الذي يجب ان يعارض الملوك به هو مبدأ المحافظة على جميع الأشياء الموجودة شرعاً » .

ويمثل مترنيخ تأثير سياسة النمسا في اوربة بالرجعية والحكم المطلق. ولتحقيق هذه السياسة استخدم الوسائل التي نظمها مؤتمر فينا وسادة أوربة. وسواء أكان المقصود هو الحلف المقدس أم الحلف الرباعي فان مترنيخ وجهها الى رد فعل سياسي ظهر بمظهر المؤتمرات الأوربيه والمقابلات الدولية بين سادة اوربه لتسوية القضايا التي تهم النظام العام ، وأدى به الأمر الى ان أخرج من العمل الذي وضعه الحلفاء مبدأ جديداً للحق العام : وهو **حق التدخل** الذي أكده الحلفاء في تصريح **تروباو** في ١٨ تشرين الثاني ١٨٢٠ . وبناء على مبدأ الحلف الأوربي وضرورة قمع تقدم الشر الذي يهدد « الهيئة الاجتماعية » أي النظام الأوربي فان سادة أوربة يقررون:

١) ان الدول التي تخرج من الحلف الأوربي هي الدول التي يحدث فيها تغيرات في نظامها الداخلي بنتيجة الثورة ومن شانها ان تهدد جيرانها.

٢) انهم يرفضون الاعتراف « بكل تغير تتعرض له السلطة الشرعية او الاعمال الصادرة عن ارادتها الحرة » .

٣) انهم يحولون دون انتقال خطر التبدل أو الثورة إلى الغير ، ولذا فانهم يقومون بادىء بدء بمساعي ودية حباً منهم في اعادة الدولة الضالة إلى حظيرة الحلف . وإذا لم تنجح هذه المساعي فانهم يستعملون الوسائل القسرية كالتنفيذ العسكري .

هذا ويتضمن تصريح تروباو شيئين اساسين :

الأول – انه ينقـل إلى الصعيد السياسي الضمان الدولي الذي أوجد للمحافظة على الحالة الراهنة في اوربة . ولم يكن القصد من ذلك ضمان الحالة الراهنة في الدول فحسب ، بل النظام السياسي في داخل كل من الدول .

الثاني – ان تصريح تروباو يضع مؤيداً أي انه يوجد نوعاً من ضابطة دولية تقوم فوق سيادة الدول واستقلالها .

وهذ شيء جديد كل الجدة . وهذه هي المرة الأولى التي يوضع فيها المؤيد المشترك ، المؤيد الدولي ، في حال الافتئات على الحق العام . ولا شك أن هذا الحادث بنفسه يعتبر تقدماً عظيماً للحق العام . غير ان هـذه الضابطة استعملت للمحافظة على النظام الاستبدادي الذي وضع في داخل البلاد الأوربية . وقد رفضت انكلترا تصريح تروباو وعارضت امتداد الحلف إلى مثل هذا الحد قبل بضعة اسابيع بمذكرة مؤرخة في ٥ أيار ١٨٢٠ بمناسبة اسبانيا حيث نراها على العكس تضع مبدأ عـدم التدخل وتصرح بأن سياستها لا تقبل بالتدخل في الشؤون الداخلية لدولة أخرى. أما فرنسا فانها لم تقبل مبدئياً بتصريح تروباو، غير انها في الواقع أسهمت فيه

وذلك لأنها اشتركت بمؤتمر ليبــــاخ ومؤتمر فيرونة اللذين أعلنـا المؤيد الدولي ضد النابوليين (سكان نابولي) ثم ضد الاسبانيين .

وهكذا نرى أن عمل مؤتمر فينّا قد وجه ، من الناحية السياسية ، توجيهاً رجعياً محافظاً وكانت له نتيجتان :

١ - عزل فرنسا ونشأة حزب قومي فيها مناهض لعمل ١٨١٥ ، وسيحدث هذا الحزب تقليداً جديداً في السياسة الخارجية الفرنسية .

٢ - توسع الحلف الأوربي وسعيه للمحافظة على الحكم المطلق ، وفي هذا ما يجعل لأوربة سياءها ولفرنسا سياءها الخاصة .

حركات الحرية - . لقد قامت ضد معاهدات ١٨١٥ ، في السنوات التي اعقبت هذا العام حركات **قومية وحرية** .

والجدير بالذكر فيما يتعلق بالقومية هو أن الحرية كانت في طليعة المطاليب التي تقدمت بها الشعوب . وذلك لأن المنافع التي هددها النظام الجديد كانت متعددة ، فحيث توطد الحكم الفرنسي كانت التبدلات الداخلية تجري فوراً : من مساواة قانونية ، وحريات خاصة وحرية دينية وتعصير أموال الكنيسة ، ووحدة التشريع بواسطة قانون نابوليون ، وتنظيم الادارة واستقلال العدالة مع جميع أشكال أصول المحاكمات التي يضمنها القانون . ولقد ابقى الحلفاء مبدئياً على هذه الاصلاحات . غير ان المجتمعات الأوربية التي تبدلت بتأثير هذه الاصلاحات شهدت بعد عام ١٨١٥ عودة سادة أو ارستقراطيين لم يتغيروا في المهجر بل رجعوا وهم مشبعون بأفكار الحكم الاستبدادي المطلق والامتيازات كما في السابق. ونجم عن ذلك أن أصبح الحكم الاستبدادي المطلق قاعدة الدول في أوربة ، ووضعت في داخل كل دولة من هذه الدول قضية جديدة ترجع إلى هذا التناقض بين الاصلاحات

التي اجراها الحكم الفرنسي وحوفظ عليها وبين الحكم المطلق الذي توضّع فوقها من جديد . ومن جهة أخرى ، لقد منّى الحلفاء الشعوب بالوعود المعسولة ليثيروها ضد نابوليون ووعدوها بالحرية . غير أنهم لم يفوا بوعودهم لا من حيث تنظيم اوربة العام على أسس وقواعد قومية ، ولا من حيث التنظيم الداخلي للدول وذلك لأن الحكم المطلق قام مقام وعود الحرية في هذه الدول .

ولهذه الأسباب اختلطت **فكرة القومية وفكرة الحرية** . وكما جرى في العهود الاولى للثورة الفرنسية نرى أن حركة القومية أخذت شكل الحرية الدستورية .

المانيا . — ففي المانيا نشاهد في السنوات التي تلي ١٨١٥ حل الحزب القومي الذي تشكل عام ١٨١٣ . والسبب في ذلك يرجع إلى ان هذا الحزب خيب الآمال التي عقدت عليه ، خلال بضع سنين حتى وبضعة أشهر . وأول هذه الآمال الآمال التي عقدت على المعاهدات : فقد أثارت معاهدة باريس حفيظة الحزب القومي الألماني لأنها كانت بعيدة عن تحقيق الآمال التي رجاها منها ، لا سيما وان فرنسا نجت بسلام من هذه الحرب . كما أن أعضاء هذا الحزب اخذوا يندددون بأنانية الدول العظمى وخاصة روسيا بكبريائها وغطرستها ومزاعمها في قيادة العالم وتدخلها في شؤون المانيا الداخلية ، ويشكون ايضاً انكلترا التي لا يهمها سوى منافعها الاقتصادية وتحول ، عند حد تعبيرهم ، دون نهوض المانيا ، ويستخلصون بأن كل هذا يمكن ايضاحه بسهولة : لأن المانيا ضعيفة ، ولو كانت دولة موحدة لأخذت الأشياء وجهة أخرى . ومثل هذا التفكير كان آخر ضربة موجهة للوطنية العالمية . فقد بدا لهم الآن أن المثل الاعلى الانساني انما

هو خداع وضلال ، وثارت وساوسهم من مكامنها وأصبحوا حذرين في كل ما يتعلق بحقوق المانيا . وهكذا نراهم ينتصبون ويقفون جميعاً كلما لمسوا تدخلًا للأجنبي في الشؤون الالمانية .

واخفقت آمالهم أيضاً في رجعة الامبراطورية الالمانية . وربما كان حلمهم الاكبر اعادة بناء الوحدة . وقد كتب آرندت : « الوحدة » بل أقوى وحدة وأمتن وحدة ممكنة ، هذا ماتريده المانيا ، هذا ما هو ضروري لأمنها الخارجي ورفاهها الداخلي والويل لدبلوماسيي المؤتمر ان لم يفهموا هذه النقطة » . وكتب آخر في مجلة نيميزيس (آلهة الثأر والعدالة عند اليونان) : « يجب ان نطالب بامبراطور قبل كل شيء ... وليكن عندنا امبراطور فحسب والباقي فضلٌ ، عندئذ تحتل المانيا مكانها الأول بين أمم العالم ، عندئذ تتمتع المانيا بحريتها المطلقة .. » ونشر غورز في بدء ١٨١٥ حواراً يسمى « امبراطورية وامبراطور » يعرض فيه نمساوي وساكسوني وبروسي وكاثوليكي ... الخ ... نظريات حزبه . ومن هذه التصريحات يستخلص بان حالة المانيا المضطربة يجب أن تنتهي : « كلا ، يجب الا تستمر الحالة القديمة دوماً وابداً ! ان الأشكال الجديدة ضرورية ويجب أن تقوم دول المانية كبرى وقوية . وإذا رافق هذا الحادث بعض الظلم والحيف ، فالزمن يمحوه والعشب ينمو فوقه ». وهو يرى أن المانيا إذا لم ينظمها الدبلوماسيون على هذا النحو فسيأتي يوم تنظم فيه بالقوة : « إنّ الدليل القوي للتنبؤات القديمة لم يظهر بعد . فهو يأتينا بالسلام ويفصل القضايا بالسيف ويعمل بالدم والحديد . ويصنع من المانيا صفحة بيضاء تنتقش عليها الثورة . وإذا لم يشأ قوم ان يؤسسوا البناء الحقيقي وجبت القوة للقيام بما لم يقم به طوعاً » .

ولم يعد إنشاء الامبراطورية الألمانية من جديد لأن النمسا لم تشأ

استرجاع التاج الامبراطوري الألماني ، كما لم تشأ بروسيا أن تتوضع سلطة عليا في مملكتها ، وكل ماعمله المؤتمر في ڤينا هو تأليف الاتحاد الجرماني الكونفدرالي الذي أوجد في المانيا حالة ثابتة ، وجعل منها دولة مسالمة في وسط أوربة وحكم عليها بالعطالة وعدم الحركة .

غير أن سواد الشعب الالماني بقي دون حراك أمام هذه القضية . وذلك لأن النعرة الاقليمية ما زالت قاعدة عامة في الأفكار وما زال الشعب متعلقاً بملوكه القدماء . ولدينا منها بعض ظاهرات بسيطة ساذجة ، ونذكر على سبيل المثال حالة لاندغرف هس — كاسّل : فقد هرب اثناء الخطر وحمل معه جميع امواله . وعند ما ذهب الخطر وكسر نابوليون عاد . وقد سُميع ، بهذه المناسبة ، فلاح يقول : « حقاً انه حمار عجوز ولكننا نريده » . ومن جهة أخرى كان الألمانيون منهمكين بصعوبات الحياة المادية التي اعقبتها الحرب . ونفدت قوى المانيا بعد أن ظلت ميدان قتال خلال سنوات . يضاف إلى ذلك ان محصول ١٨١٦ كان عدماً تقريباً بسبب الأمطار ،وسادت المجاعة في شتاء وربيع ١٨١٧ ، وكانت عصابات المتسولين تجوب المانيا . ولحق الضرر بالصناعة لان منتجات الصناعة الانكليزية اغرقتها، ولم تستطع بيع منتجاتها بسبب التعرفة الجمركية العالية التي وضعتها على الحدود فرنسا من جهة وروسيا من جهة أخرى . وتهددت اوضاع المانيا على هذا النحو ، ولم يعد البورجوازيون والفلاحون يفكرون إلا بحالتهم المادية دون أن يرتفعوا إلى أعلى من ذلك .

وأخيراً أخفق الحزب القومي برغبته في الحرية الداخلية التي كان يؤملها . وكل ما تم هو أن مني الالمانيون بالوعود . ولعلنا نذكر نداءات شتاين وفريديريك غليوم الثالث ،حتى اننا نجد هذا الملك قبيل

استئناف الحرب عام ١٨١٥ يلقي في ٢٢ أيار لهذا العام بنداء إلى شعبه ويعده بالدستور : « سينظم التمثيل القومي ، وسيتناول مجال عمل المجلس القومي كل ما يتعلق بالتشريع بما فيه الضرائب . » . ومع هذا فقد خامر الشك بعض الوطنيين البروسيين : فمن ذلك أن فيخته ، الذي توفي عام ١٨١٤ ، كان يخشى ألا يفي ملك بروسيا بوعده : وقد قال بهذه المناسبة : « عندما يلقي الأمير الخاضع لنابوليون بنداء لشعبه فهذا يعني : قوموا لتكونوا أرقائي لا أرقاء الأجنبي ، وهذا هو الحق . يجب ألا تكون وعود الامراء وسيلة بسيطة يستعملونها عندما يكونون مقتنعين بأن لا فائدة من جميع الوسائل الأخرى ، كما يجب ألا يسيل الدم الألماني لتوطيد الامتيازات . » وكان غورز يشعر بنفس الشك ويعبر عنه بما يمازجه من تهديد ، وقد كتب في العدد ٢٥ من صحيفة « الميركور الرنيانية » : « يجب ألا يظن بأنه يمكن التخلص عادةً بالمعاهدات وبالكلام . لقد أعطت الشعوب حقاً وتريد أن تأخذ مكافأتها حقاً . » . ووجدت لجنة مؤتمر فينا ، التي كانت تدرس الشؤون الالمانية ، نفسها أمام مشروع أول يوطد بحق أساساً دستورياً . وفي هذا المشروع : « يجب على مجالس الدولة ، أن تكون دستورية في جميع بلاد الاتحاد » وقد وضع مندوب اللوكسمبورغ تعديلاً وأراد أن يوضح به حقوق هذه الدساتير . وينص هذا التعديل : « يرى أعضاء الاتحاد أن يقوم في جميع الدول الالمانية دستور تمثيلي ودياطات . وبهذه الدياطات يصبح الدستور مضموناً ، ويضمن للدياطات الحق في استشارتها بكل ما يتعلق بالأحكام التشريعية العامة وفي قبول الضرائب ورفع الشكايات إلى الملوك . » . غير أنه ضيق بالتدريج معنى هذه المادة أثناء المناقشة ، وأخيراً توصل إلى مادة غامضة ، وهي المادة ١٣ التي تقول : « ستوجد مجالس دولة في جميع بلاد الاتحاد » . وهذا التعبير

« مجالس دولة » غامض لأنه لا يدل على مجلس دستوري ، بل يمكن أن يفهم منه هذا النوع من المجالس الاقليمية لعام ١٨٠٧ التي لم يكن لها سلطة مطلقاً ، ومن جهة أخرى تقول هذه المادة « ستوجد » لا « يجب أن توجد » أي ليس فيها ما يدل على الالزام . وقد قيل على سبيل الهزء ، في ذاك العهد ، إن هذا التعبير من قبيل التنبؤ لا حقيقة واقعية . ومذ ساور الحكومات القلق نكلت ونست وعودها . غير أن الحكومات في جنوب ألمانيا ، وقد شعرت بأن مستقبلها لا يطمئن اليه ، رأت من الضروري الأخذ بسند لها عند الشعب . فمن ذلك أن ماكسمليان ملك بافاريا منح شعبة دستوراً في ٢٦ أيار ١٨١٨ وتبعه دوق باد الأكبر في شهر آب ؛ وكذا غليوم فرتامبرغ ، بعد أن تفاوض طويلاً مع ممثلي رعيته ، منح الدستور لشعبه في آخر العام ١٨١٨ . وكان يطمع بأن يضم حول فرتامبرغ مجموع الحزب الألماني ، ويدعمه في ذلك القيصر الكسندر الأول ، الذي كان في ذلك الحين في مرحلة الحرية من مراحله في الحكم . وتبع دوق فرتامبرغ دوق درمشتاد وناسّو وهانوفر . وفي جميع هذه الدول التي منحت شعوبها دساتير كانت المجالس استشارية لا مجالس مناقشة ، ومذ بدأت تناقش قضايا الحكم قلق السادة واشتكوا إلى مترنيخ . أما في سائر الدول الأخرى فقد ساد النظام القديم أو وجدت فيها دياطات لا سلطة لها .

بروسيا . — أما في بروسيا ، حيث كانت الوعود واضحة ، فقد كان رد الفعل مباشراً . وقد أحاط فريدريك غليوم نفسه بمشاورين رجعيين يمثلون الروح البروسية القديمة لا الروح القومية مثل شمالتز وفيتغنشتاين اللذين يعتبران الوطنيين ثوريين . وفقد هاردانبرغ حظوته بسرعة ، وليحافظ على كرسيه استسلم الرجعية ورد الفعل . وحلت المصائب بالوطنيين الذين

جدوا بنـــاء بروسيا بحق . فمنهم من مني بسقوط حظوته ، وهذا أقل المصائب ، ومنهم من كان نصيبه السجن أو النفي . ومنعت اعادة طبع خطب فيخته ، وحذفت جريدة « الميوكور الرينانية » في ١٣ كانون الثاني ١٨١٦ . ولوحق غورز بعد أن نشر كراساً باسم « ألمانيـا والثورة » ، واضطر إلى الفرار إلى سويسرا وما لبث أن عاد بعـــد قليل . اما آرندت وياهن وشتاين فقد اضطروا الى الاختفاء أو الصمت . وفقد هومبولدت حظوته أيضاً . وصدرت ارادة ملكيـــة في ٢٩ أيار ١٨١٦ فهدمت في الواقع اصلاح عام ١٨١١ الاجتماعي وحصرته في الحقول الكبرى التي لا تقل عن خمسة عشر هكتاراً ، وادخلت في أراضي الأمير قطع الفلاحين الذين جردوا من أملاكهم .

وفي بضعة أشهر اضمحل الحزب القومي وتفرق أو سكت تماماً ولم ينبس ببنت شفة . وهكذا نرى أن الحركة التي قامت في العـــام ١٨١٣ قد انحلت بتمامها في سنتين أو ثلاث سنوات . وعندما ذهب مترنيخ إلى مؤتمر ايكس لا شابل عام ١٨١٨ اجتاز ألمانيا كالقادة المنتصرين وكان السادة يستقبلونه بكل مظاهر الامتثال والخضوع .

ومع هذا فقد امتـدت الحركة ببضع هزات كانت تقوم في أوساط الشبيبة الجامعية . ولعلنا نذكر أن الطلاب كانوا أول العناصر القوميـة التي شكت السلاح عام ١٨١٣ ، ففي هذه الشبيبة الجامعيـة استمرت طويلاً « روح المحاربين القدماء » . وكان لهم أحياناً زعماؤهم مثل الضابط القديم **ياهن** الذي جعل نفسه داعية للتربية البدنية وألف في ألمانيا جمعيات رياضية . وقد تعلم أصول هذه التربية في الدانيمارك وجعل لتلاميذه الطلاب الذين جمعهم حوله هذا الشعار :

يقظان ، حر ، فرح ، تقي

وكان يكره كل ما هو فرنسي ولا يريد أن يتكلم إلا بالكلمات التي لاتذكر بشيء بفرنسا : فمن ذلك أنه لم يشأ أن يستعمل كلمة جامعة التي لها مقابل فرنسي ، وليجتنب هذا اللفظ نحت كلمات خاصة وسمى الجامعات « ملاعب العقل » وعنده أفكار غريبة ، منها قوله : يجب أن توضع صحراء بين المانيا وفرنسا وتستوطنها الوحوش الضارية لاجتناب الحرب بين هذين البلدين وللحيلولة دون غزو الفرنسيين المانيا . وكانت هذه الشبيبة ، التي التفت حول ياهن واستمرت عندها روح النضال منذ ١٨١٣، تظهر عواطفها بخفة وطفولة : فقد تبنوا ما سموه « اللباس الالماني » وهو يتألف من معطف ضيق يلتصق بالجسم مع قبة قميص كبيرة مسدودة من الأمام تستر قبة المعطف ، وشعور متموجة وطاقية وريش متعدد الألوان ، واحتذوا الجزمات على نمط ساسة الخيل . وهم على الغالب غير مربين ومشاغبون مدمنون للشرب على شرف ارمينيوس . وقد الفوا في الجامعات « جمعيات المانية » منذ عودتهم من الحرب . ومن العبث أن نقول أن كان لديهم أي نظرية في السياسة ، ان كل ما يريدونه هو تأمين عظمة المانيا بتحريرها من كل نفوذ أجنبي ، وذلك بترك مطلق الحرية ، كما يقولون ، إلى « الحياة الشعبية » . وبالاجمال كان عملهم تأويلاً من نوع منحط لبعض افكار هردر .

ومع هذا فقد حدث نوع من تطهير في هذا الوسط الجائش الفوار وذلك بتأثير **لودين** أحد أساتذة جامعة ايينا . وكانت هذه الجامعة حرة أكثر من سائر الجامعات الاخرى وذلك لانها وجدت في دولة دوق ساكس فايمار الاكبر حيث كان غوته وزيره . وبفضل الاستاذ لودين تشكلت رابطة طلاب غرضها تخليص الطلاب من الاصناف القديمة التي يرجع عهدها إلى العصر الوسيط ، وجمعهم في اتحاد يدعى « برشنشافت »

ينفخ في الشبيبة روحاً أوسع وأكثر قومية . وقد تبنوا العلم المثلث الألوان : الأسود والأحمر والذهبي ، وكانوا طلاباً جديين ومخلصين وعلى الغالب أتقياء ، وقد نظموا شعباً لاتحاد البرشنشافت في جميع الجامعات أو على الأقل في مختلف نقاط المانيا . ونظمت هذه الرابطة في ١٨ تشرين الأول ١٨١٧ في قصر ڤارتبورغ عيداً للاحتفال بذكرى نظريات لوثير في فيتمبرغ وواقعة ليبزيغ معاً . وفي آخر النهار ، وبعد خطب ومظاهرات مختلفة ، أقاموا في ساحة المدينة كوماً من كتب المؤلفين الرجعيين من أمثال هاللر وآنسيللون وكامبتز وكوتزوبو مع عصا عريف ، رمز العسكرية القديمة ، وجمة (شعر مستعار) رمز النظام القديم ، ومشد ، رمز التخنث ، وأعملوا فيها النار . وفي شهر أيار ١٨١٨ اجتمع مندوبون عن أربع عشرة جامعة لتشكيل اتحاد الماني للبرشنشافت .

وفي هذا الوسط الجامعي وجدت جامعة قوية بروحها وهي جامعة غيسّن الصغيرة في أمارة هسّ - كاسّل . وقد وجد فيها جمهوري راديكالي له مذهب خاص ويعتبر حواري القضاء على الظلم والطغيان ويسمى **كارل فوللن** . التف حوله الطلاب وتبعوه في مذهبه واطلقوا على أنفسهم اسم « المتعنتون » . وقد اثارتهم فصاحة كارل فوللن فكانوا شعلة نار ، حازمين متطرفين . وكان أكره ما يكرهونه الشاعر والمؤلف الهزلي كوتزوبو . وكان هذا صديقاً للقيصر الكسندر الأول يوجه اليه كل شهر تقريراً عن حالة الرأي والحوادث التي تحدث في المانيا . وقع أحد تقاريره بأيدي الطلاب فنشروه في مجلة « نيميزيس » . فأقام كوتزوبو الدعوى على فوللن ، وأثار بذلك حفيظة الطلاب . وكان أحدهم ، واسمه ساند ، صوفياً محدود الذكاء ، وقد خيل اليه أن ينجي المانيا بالخلاص من كوتزوبو فاغتاله في ٢٣ آذار ١٨١٩ وحاول بعد ذلك الانتحار إلا أنه اوقف واعدم في ٢٠ آيار ١٨٢٠ .

أحدث مقتل كوتزوبو هياجاً عظيماً في أوساط الثوريين والمحافظين على السواء ، فضلاً عن ان محاولة اغتيال ارتكبت في أول تموز ١٨١٩ ضد وزير ناسّو من قبل مساعد صيدلي يدعى لوننغ . وقد انتحر هذا وهو في السجن . واقترح على اثر ذلك مندوب الساكس وبروسيا في دياط فرنكفورت اتخاذ التدابير التي تمنع انتشار هذه الحركة في الجامعات . وجرت مقابلة بين فريديريك غليوم الثالث ومترنيخ في توبليتز في شهر تموز . وفي كارلسباد اجتمع ممثلو تسع دول تحت رئاسة مترنيخ واتخذوا في ٢٥ تموز عـــدة تدابير . ثم ابدلت هذه التدابير بقرار أصدره دياط فرنكفورت في ٢٠ ايلول ١٨١٩ . واول هذه التدابير التدبير الذي يرمي إلى تفسير دستور الاتحـاد وخاصة المادة — ١٣ — الشهيرة التي تنص على الدساتير والتي فسرت تفسيراً ملكياً بصورة خاصة وذلك لتحديد امكانيات الدساتير . كما تقرر ، من جهة أخرى ، ان تخول القوة الإلزاميـة إلى مقررات الدياط في مختلف الدول الألمانية . وإلى جانب هذه التدابير العامة ،اتخذت تدابير قامعة ضد الحركة الجامعية ، وتقضي بالغاء رابطات الطلاب وحل البرشنشافت ووضع مفوض بقرب كل جامعة له الحق في مراقبة دروس الاساتذة ، وإذا اقتضت الحال في حذفها أو ابعاد الاساتذة عن الكليات . ومن غير المفيد أن نقول ان مثل هذا التدبير قد طبق بحق الطلاب . ووضعت الرقابة لمدة خمس سنوات والفت لجنة تحقيق في مايّنس وعهد اليها بالبحث عن أصل الحركة الثورية وتشعبها .

وفي بدء العـــام التالي اجتمع ممثلو جميع الدول الألمانية في فينا وقننوا جميع التدابير المتخذة « بقرار فينّا النهـائي » الذي نشر في ٨ حزيران ١٨٢٠ . وأكدت في هذا « القرار النهائي » سيادة الأمراء وفي الوقت ذاته منعهم من اعطـــاء الحريات الزائدة لشعوبهم . كما حددت صلاحيات المجالس الدستورية وحذف نشر مناقشاتها .

وقامت لجنة ماينس بتحقيقها بشكل دقيق وطبقت بشدة التدابير المتخذة ضد الطلاب : ففي بروسيا أوقف عدد من الطلاب وحكم عليهم باثنتي عشرة سنة او خمس عشرة سنة بالسجن في القلعة . وزج ياهن في السجن ، وعزل آرندت عن كرسي الاستاذية في جامعة بون . وكذا غورز فقد اضطر ، بعد عودته من سويسرا ، الى الاقامة في ستراسبورغ. وكثير ممن عاش من اعضاء الحزب القومي اضطروا الى مغادرة وطنهم والالتجاء الى البلاد الاجنبية . وخضع الباقون وأغمي على هذه الحركة القومية الجامعية وجرى لها ماجرى للحركة الأخرى.

وهكذا قضي على الحركة القومية . الا ان الحوادث التي مرت برهنت على انه يجب الحصول على الحرية السياسية قبل الأمل باعادة بناء المانيا على اساس قومي . وكما برهنت الحوادث التي تلت عام ١٨١٥ على ان لاحركة قومية ممكنة ان لم يسبقها فتح للحرية السياسية . ولذا فان فكرة الحرية ستتقدم على الفكرة القومية او ان الفكرتين تختلطان معاً .

ايطاليا — لقد أرتنا ايطاليا حركة قومية اقل اندفاعاً من حركة المانيا بكثير . وكان كل شيء فيها في الدور الذي تلا ١٨١٥ اكثر تعقيداً والتباساً مما رأيناه في المانيا . ففي مضمار الأفكار كادت الحركة القومية ان ترتسم الا انها لم تصل في أي مكان الى درجة الوعي الذي وصلت اليه في المانيا . وفي مضمار السياسة لم تكن ايطاليا شيئاً وما كانت من قبل شيئاً . فلم يكن لها ، كما في المانيا ، ذكريات قومية تستطيع بها ان تملك زمامها وتصبح سيدة نفسها ، ولذا كانت ايطاليا في هذه السنوات في حالة اختلاط وبحران عميق . فالسلالات التي اعيدت الى عروشها فقدت كل اساس في محبة الشعوب ، ففقد بذلك

النظام القديم جاهه وهيبته . ولم يكن هنالك اي عنصر عـاطفي ليتعلق به ، وذلك لان الشعوب كانت تنظر اليه نظرهـا الى المستغل المضطهد الغاصب. ومن جهة أخرى لاقت ايطاليا، في ظل الحكم الفرنسي ، حركة بدلتها بصورة عميقة : فقد تعلمنت حضارتها ، حتى ان سلطة الكنيسة ، التي كانت واسعة قبل آخر القرن الثامن عشر ، زالت تقريباً في جميع النواحي سواء في الناحية الفكرية أم في الناحية الاجتماعية ، كما تعلمنت الادارة في الدولة الرومانية .

واذا فقد انهار الأساس الديني في ظل الامبراطورية ، . لقد كانت الثورة الفرنسية مهدمة لايطـاليا ولم تبن طبقة من الناس يستطيعون ان يؤلفوا اطاراً لعاطفة قومية وحرية و بورجوازية اقتصادية وفكرية . ومع هذا ، ورغم الاضطراب والاختلاط ، فقد أبدت ايطاليا لنا مشهداً تسوده الاهواء الجامحة وأعمال الشدة والاكراه التي تدل بحق على عناصر الطبع الايطالي . فلم يكن فيها نظام او شعور مشترك ومعنى للجماعة كما رأينا في المانيا . لقد كان الناس والاحزاب مشبعين بروح التعنت وعدم التسامح وشهوة السيطرة والنفوذ ، وكان النزاع للوصول الى السلطة اكثر مما كان للافكار . ومن جهـة أخرى كان الايطـاليون يحبون الميلودرام والدسائس والمكايد والمؤامرات والترتيبات السرية . ولذا أخذت حركتهم السياسية ، بصورة عفوية تقريباً ، شكل الجمعيات السرية : لأن التنظيم السياسي فيهـا يختفي بشكل ترتيبات تقلد قليلا أو كثيراً ترتيبـات الماسونية .ونتيجة ذلك ان عملهـم كان عمـل مؤامرات وثورات وحرب أهلية ، حتى انهم كانوا يقومون بالعمل السياسي قبل ان تكون لديهم فكرة سياسية .

من كل هــذا تعطينا ايطاليـا منظراً يختلف عمـا شهدناه

في المانيا . على ان ما يلفت النظر هو ان ايطاليا ، التي كانت أقل من المانيا تقدماً ووعياً للفكرة القوميـــة ، قد عملت بأسرع منها بكثير . فقد تألفت بعد عام ١٨١٥ جماعات حرة وقومية معاً . ومع هـذا فلم يستقبل العهد الرجعي بسوء بل اعتبر نوعاً من احتجاج ضد الحكم الفرنسي. وكما رأينا في المانيا ، أخذ السادة في ايطاليـــا يمنون شعوبهم بالوعود . فقد وعد مترنيخ الميلانيين بأن يتفق قانون المملكة اللومباردية ـ البندقية مع الطبع والأعراف الايطاليـة . واعلن فرديناند ملك نابولي في ٢٠ أيار ١٨١٥ بأنه سيمنح دستوراً ويعلن العفو العـــام ويقوم باصلاحات اجتماعية . وأظهر دوق طوسكانا الأكبر استعداده لمنح رعيته برلماناً ، وهو وإن أقر القوانين التي كانت قبل ١٧٨٩ إلا ان هذه « القوانـــين الليؤبولدية » تساوي قانون نابوليون ، حتى انها تفوقه من الوجهة الاجتماعية من عدة نقاط . وبصورة عامة ، وباستثناء مملكة الصقليتين ، لم يرتكب العهد الرجعي في ايطاليا اعمال الانتقام والقصاص ، حتى ان هذه الرجعيات لم تكن قاسية ، وكان الملوك أو رجال حكوماتهم أناساً أشرافاً حسني النية ، الا انهم كانوا لايستطيعون فهم الشعوب مطلقاً ليدركوا مبلــغ الاصلاحات التي جرت أثناء غيابهم ، او التي اصبحت ضرورية الآن . فمن هؤلاء السادة فرنسوا مودينا ، وكان في حياته الخاصـــة رجلاً معتدلاً كريماً وزوجاً طيباً وأباً صالحاً وأراد أن يجمع حوله أناساً أكفاء ، إلا انه كان يعتبر من أقدس واجباته ان ينقـذ المجتمع وينجيه من المذاهب « الهدامة » ، وان « الثلب والعصيان يؤديان الى ضياع السلام الدائم والطمأنينة العامة في هذه الدنيا » . ولذا يجب ان يعهد الى الحـــكام والكهان بأمر تطهير المجتمع من هذه المذاهب السيئة ، ويقول : « الأحرار مذنبون فلنـــدع لهم ان يندموا ولنعاقب الذين لم يتوبوا » . ويرى ان

الجزاء الخفيف حب منتحــل للانسانية » . ويبدو لنا ان هذا الرجل كان مزيجاً من الظلم القبيح والفضيلة الخاصة والطفولة . فمن ذلك أنه لم يشأ أن تمر عجلات الديليجانس بعاصمته مودينا لأنه كما كان يقول « لا يوجد إلا اليعاقبة الذين يسيحون » .

وفي كل مكان أعيد الحكم الرجعي كانت الحكومات تعيد النظام القديم : ففي المملكة اللومباردية - البندقية ادخل القانون النمساوي لا القانون الايطالي ، وحصرت الوظائف العليا بالنمساويين او الالمانيين او التيروليين أيضاً . واستؤنف الانخراط في الجيش النمساوي ، وكان الجنود الذين يحتلون البلاد يظهرون بمظهر القساوة والاستعلاء والكبرياء . وفي المملكة البيمونتية - الساردية كان الملك فيكتور عمانوئيل يخشى كل تجديد : أعاد الامتيازات الاقطاعية والمحاكم الكنسية ، ووضع البروتستانتيين واليهود خارج القانون ، وكل ما ابقى عليه من النظام الفرنسي الضابطة والمركزية وأضاف لها اليسوعيين . وبعد قليل من الزمن وجد جميع الموظفين والملاكين للأموال التي اشتروها في العهد الفرنسي انهم مهددون بوضعهم . وفي الدولة الرومانية حاول كونسالفي ، أمين دولة بيوس السابع ، ان يستند على النبلاء والبورجوازيين ويوطد نظاماً حراً ، ولكنه أخفق في مسعاه لما رآه من تثبيط الكرادلة والكهان والطبقات الشعبية الدنيا التي تعيش من صدقات الاكليروس . وفي نابولي أعيدت الاموال الى المهاجرين ورد العفو العام الى لا شيء تقريباً . وحذف الملك الدستور الذي منحه اثناء الحكم الانكليزي في صقلية والذي يؤمن لها الحكم الذاتي . وبمقتضى « صك الاتحاد » الصادر عام ١٨١٦ ارتبطت صقليــة بمملكة نابولي . وهكذا ساد في جميع أنحاء ايطاليا نظام الضابطة السياسية وامتياز النبلاء ورجعة الاكليروس واتجهت النية والارادة المنظمة الى محي كل ما عمله الفرنسيون من ١٨٠٠ الى ١٨١٥ .

واذاً فقد كان النظام واحداً في جميع الحكومات . وعلى مايبدو انه ولد مقاومة واحدة ايضاً . وفي الواقع لم يوجد سوى مركزي مقاومة : الأول ، مملكة نابولي ، لأن النظام كان فيها أقسى مما في غيرها ، ولأنه وجد فيها من قبل عناصر تنظيم تجمعت منذ عهد مورا ؛ والثاني ، المملكة اللومباردية ـ البندقية ، وذلك لأن التطور السياسي والفكري كان متقدماً فيها أكثر من غيرها ، ولأن تربية المجتمع كانت جيدة .

ومن الطبيعي ان تكون عناصر هذه الأحزاب الجديدة العناصر التي اضرت بها الثورة الفرنسية وأصابتها في وضعها ، وهي البورجوازية العليا التي رأت نفسها قد جردت بارجاع الامتيازات الى الطبقة النبيلة ، وشلت تجارتها بالرسوم والمكوس الداخلية والتشريع القديم . ولذا فقد تضررت برجعة الامتيازات ونفوذ الاكليروس والركود الفكري وما الى ذلك مما وقعت فيه الدول . كما تضرر ايضاً **العسكريون** وأصيبوا بأوضاعهم . لقد كان الجيش الامبراطوري ديموقراطياً . اما الآن فقد رأى الضباط وضباط الصف ان الرتب تعطى الى النبلاء ، وان الضباط المهاجرين يتمتعون وحدهم بالمناصب . ومن جهة أخرى ، استاء العسكريون لأنهم رأوا أنفسهم الآن تحت نفوذ النمساويين بعد أن غلبوهم بالامس مراراً عندما كانوا في جيوش نابوليون . وأخيراً كانوا يتألمون كباقي المجتمع من ضياع الحريات الاجتماعية . هذا ويجب ان نضيف ، الى البورجوازية العليا والعسكريين ، **الموظفين الذين فقدوا وظائفهم** ويؤلفون بالطبع طبقة مستاءة . وقد توطدت الروابط بين هذه الفئات بسهوله ، وتوضعت في مختلف النواحي خمائر الثورة والتحريض . على ان الشيء الذي يلفت النظر هو ان عمال القيصر كانوا في السنوات الاولى يشتغلون لصالح الافكار الحرة . وكذلك السياح الانكليز الذين يطوفون البلاد ويأتون معهم بالحرية .

وكذا كانت قراءة المناقشات في البرلمان الفرنسي والانكليزي تقوم بالتربية السياسية لهذه العناصر القومية . وأخيراً استيقظت الحياة الفكرية وظهرت محتدمة : لقد كان الجيل الجديد يقرأ آثار فوسكولو والفيري أو الترجمات الأجنبية العديدة . ومع هذا فقد كانت هذه الحياة الفكرية مبعثرة ولم تجد الاطار الجامعي الذي يميز ألمانيا .

هذه هي العناصر التي تتألف منها جماعات الحرية والقومية التي نراها نشأت في موضعين : جنوب ايطاليا وشمالها .

ففي الجنوب وجد اطار لهذه العناصر وهو «**جمعية الفحامين**» وقد تحولت هذه الجمعية . ففي الأصل كانت أفكارها مضطربة كثيراً ، ومن الصعب معرفة ما اذا كان اعضاؤها ملكيين او جمهوريين . لقد كانوا ضد فرنسا لأن جمعية الفحامين تشكلت ضد حكم جوزيف بونابرت وموراً . وكان يشجعها الأنكليز وفرديناند نابولي . ولكننا رأينا انه يوجد عند بعض اعضائها بعض افكار ايطالية ، حتى انه وجد في العام ١٨١٥ بعض محاولات لتشكيل ايطاليا على يد مورا . وعلى كل حال نجد ان جمعية الفحامين ، غداة العهد الرجعي ، قد هجرت وشجبها فرديناند وناهضها بجمعية منافسة وهي « **جمعية النحاسين** » وضابطة قاسية شديدة يوجهها مدير الشرطة **كانوزا** وكان على درجة بالغة من الشدة حتى ان الحكومتين الانكليزية والروسية اجبرتا فرديناند على تسريحه . غير ان الذي جذب الى جمعية الفحامين زبائن كثيراً بعد ١٨١٥ انما هو اعمالها السرية التي تسحر الخيال ورمزية احتفالاتها ومثالية أفكارها لأن هذه الجمعية ترمي الى تجديد معنويات مشايعيها ، وابعاد الناس السيئي السلوك او غير الاشراف .

ان روح الكاربوناري مزيج من الصوفية المسيحية والاشتراكية . فقد قالوا : « لقد كان المسيح أول ضحية للطغاة » . وفي جميع المحافل (ألواج) كان تمثال المسيح على الجدار . وتختلط بهذه المسيحية افكار روسّو وأفكار القرن الثامن عشر في كل خليط . ويدير الكاربوناري محفل أعلى له عدة محاكم ومحكمة عدلية وله قوانينه الخاصة . ونظراً لطابع هذه الجمعية باعتبارها جمعية سرية فقد كانت مقسمة الى عدة جماعات منعزلة ، مبعثرة ولا يوجد فيها سوى تسلسل شخصي وفردي . ومن الصعب تأليف مجموعة واحدة لكل ايطاليا . لذا وجدت فيها اختلافات متعددة للمفاهيم السياسية وبقيت أفكارها غامضة . فالبعض يريدون نظريات جمهورية وآخرون ملكيون دستوريون . وعلى كل حال فقد وجدت عند الجميع فكرة استقلال ايطاليا مع فهم ايطاليا هذه بأشكال مختلفة . فبعضهم يراها بشكل حكومة اتحادية (فدرالية) برئاسة البابا . وآخرون يرونها بشكل دولة متحدة وجمهورية عاصمتها روما . وقد انتشرت هذه الجمعية بسرعة في كل مملكة نابولي وصقلية ومملكة نابولي الأصلية ، وفي جميع ايطاليا الجنوبية. ومن جهة أخرى ان تأسيس هذه الجمعيات السرية وهذه الرمزية وهذه التعاليم السرية كان يأتلف مع المزاج الايطالي . ولذا وجدت في كل مكان تقريباً جمعيات مماثلة دون ان يكون هنالك تآخ بين هذه الجمعيات وبين الفحمية النابولية . فمن ذلك ان شوهد تأسيس جمعيات **الغلف** في بولونيا و**الاتحاديين** في بيمونت و**آدلفي** في بارما .

وفي **شمال** ايطاليا ، وخاصة في المملكة اللومباردية — البندقية ، كانت الطبقة الفكرية في المجتمع عظيمة واخذت الحركة شكلا فكرياً اكثر مما في نابولي . ففي ايطاليا الشمالية كانت البورجوازية والطبقة النبيلة مبعدتين عن الوظائف العامة لاحتكار النمسا لها ولذا كانتا

متهيأتين لتأليف اطار المعارضة . ومن جهة أخرى كانت في ايطاليا الشمالية جاليات أجنبية من الفرنسيين والانكليز لها صالاتها وتستقبل الايطاليين وتذيع بينهم عن طريق المحادثة الافكار الدستورية اوالافكار الفرنسية والانكليزية . ومن افراد هذه الجاليات نخص بالذكر : السيدة ستال وسيسموندي وبايرون وبروك وغيرهم . والى جانب هذه الحركة الفكرية والافكار الدستورية انتشرت في هذه الحركة البورجوازية افكار الثورة الصناعية والفنية والتربوية . ولذا ادخلت فيها طريقة التعليم المتبادل الذي اوجد في انكلترا . ومن هنا نرى في ايطاليا الشمالية ، في ذلك العهد ان تخمر الافكار كان اكثر مما رأيناه في الجنوب . وقد تبلورت الحركة في مركزين : ميلانو وبريشيا وكان رئيسها كونفالونييري الذي رأينا جهوده اثناء تأسيس مملكة نائب الملك اوجين بوهارنيه . على ان كونفالونييري كان زعيما غير صالح لهذا اللقب باعتبار انه لم يكن رجل عمل وفعل . لقد كان ريبياً فولتيرياً ولم يكن على وئام مع هذه الحرية الابداعية التي تأسست . ومن جهة أخرى كان كونفالونييري رجلا محباً للنظام يرغب بالاستقرار . لقد كان رجلا ناعماً ولكن لم يكن في مكانه رجل عمل . وقد نشر هذا الفريق مجلة « الكونسيليا توره » ويديرها الشاعر سيلفيو بلليكو . وعارض النمساويون هذه المجلة بمجلة أخرى لتهديمها ومن ثم بسلسلة من المزعجات ونجحوا اخيراً في ازالتها من الوجود بعد عامين اي في العام ١٨١٩ .

وهذه الحركة ، التي نشأت في الجنوب والشمال ، يمكن في بدايتها أن تعطي أسساً لحركة قومية كبرى . ولكن كان يلزمها ، على كل حال ، الوقت لتنمو وتربي البلاد . وقد حدث تحت تأثير الظروف أن انتقلت إلى حيز العمل بصورة مبكرة . ونرى في الثورات الاولى التي انفجرت

عام ١٨٢٠ هذا الحادث ، الذي نراه في سياق تاريخ ايطاليا حتى زمن الوحـــدة ، والذي رمى بالعجز جميع الحركات الايطالية ، وهو الارتجال المفاجيء للحركات التي تنفجر دون أن تكون مهيأة ، وللحركات المبعثرة التي لم تنظم في عمل عام ، وأخيراً يمكننا القول لذة الايطاليين في العمل للعمل دون ان يعرفوا كثيراً إلى اين هم ذاهبون .

وحلت في آخر الوقت ازمة اقتصادية فزادت الاستياء والبؤس والقت بعدد من بائسي جميع الطبقات في قلب الكاربوناري فازداد عدد المساهمين زيادة عجز عنها الانتقاء في اقصاء الناس غير الاكفاء . وانتظمت في عقد الكاربوناري عناصر منظمة للمحافظة على النظام ، ونظم في ايطاليا الجنوبية حرس وطني لمكافحة الاشقياء . وكانت تضم هذه المليشا ما يقارب ٥٠٠٠٠ رجل تحت قيادة زعيم كالابري (من كالابر) كاربوناري يدعى **غليوم بيبيه** . وانتهت هذه المليشا بالانحيـــاز إلى صف الكاربوناري . ومن جهة ثانية كان ايطاليو جيش الجنوب يحقدون على الجنود النمساويين ، الذين بقوا في بلادهم حتى عام ١٨١٧ ، وعلى الملك فرديناند الذي تخلى عن مطاليبه في استقلال نابولي استقلالاً مطلقاً عن البابا ، وأخيراً كان الصقليون يكرهون النابوليين كرهاً شديداً وينزعون إلى الانفصال. هذه هي العناصر الخاصة بايطاليا الجنوبية . ونجد فيها روحاً اقليمية تنزع إلى عزل المملكة عن باقي ايطاليا. وقد فجر هذه الحركة خبر الثورة في اسبانيا . فقد شق عصا الطاعة قائد فرقة الفرسان في نولا في ٢ تموز ١٨٢٠ ، فأثار عصيان **كابيتانات وبازيليكات** وانضمام غليوم بيبيه والمليشا إلى الحركة الثورية . وفي ٥ تموز ودون مقاومة وعد الملك بالدستور . فرض عليه الكاربوناري بأن يكون هذا الدستور دستور اسبانيا لعام ١٨١٢ .

وانعقد البرلمان في أول تشرين الأول ١٨٢٠ وكانت الاكثرية فيه معتدلة غير ان . هؤلاء البرلمانين كانوا فصحاء وأصحاب مذاهب وليس لديهم أي روح سياسية . وهكذا نجد في هذه الثورة النابولية عنصرين : من جهة الجمعيات السرية الثورية ، ومن جهة أخرى البورجوازيين الذين يشكلون الجهاز السياسي، وهم معتدلون مستنيرون . وأمام هذين الحزبين كان الملك والبطانة الرجعية وقد تملكهما الجزع الآن ، إلا انهما سيستعيدان طمأنينتهما بسرعة .

وفي الوقت ذاته انفجرت حركة في صقلية : فقد ثارت بالرمو في ١٤ تموز وتألب النبلاء والأوباش والفوا عصابات وفرضوا الثورة بما قاموا به من أعمال القساوة والاكراه والشدة والنهب في المناطق المقاومة . وأرادوا من ثورتهم هذه توطيد الدستور الصقلي الذي يخولهم السلطة والاستقلال تجاه نابولي . وكانوا في الوقت ذاته متطرفين ورجعيين . وبالمقابل استيقظ عنصر آخر في هذه الحركة الصقلية : وذلك أن البورجوازيين مع من رافقهم من الجيش والموظفين كانوا اناساً احراراً على النمط الانكليزي . فقد خافوا الفوضى وعدم النظام وأرادوا الاستقلال الذاتي ودستوراً حراً كدستور ١٨١٢ دون الانفصال عن نابولي . وكان بالامكان المفاوضة بين هؤلاء الأحرار والحكومة النابولية . وقد منتهم نابولي بالوعود وبعثت بجيش صغير . ولكن بالرمو ثارت في وجه هذا الجيش الذي استطاع ان يستولي على المدينة في ٥ تشرين الأول . وحصل اتفاق بين اللواء القائد ورجال بالرمو يعترف باستقلال صقلية الذاتي ومنحها دستوراً شعبياً . غير ان البرلمان النابولي طرح هذا الاتفاق في ١٥ تشرين الأول . وخمدت ثورة الصقليين موقتاً إلا أنهم كانوا يعدون العدة للقيام بالعصيان في الربيع القادم .

نرى اذاً أن مفاهيم **الحويه و الاقليمية** قد طغت على ثورات الجنوب: فهنالك نعرة المملكة بالنسبة إلى مجموع ايطاليا ، وهنالك نعرة صقلية بالنسبة للمملكة . ولذا لا نرى في ذلك ظهوراً للفكرة الايطالية أي الفكرة القومية .

وبينا كانت هذه الثورة سائرة في مجراها كانت الدول مجتمعة في تروباو وقد قررت التدخل وعهدت به إلى النمسا ودعت ملك نابولي إلى مؤتمر ليباخ حيث تخلى عن رعيته . أما البرلمان النابولي فقد تمسك بنظريته ولم يشأ قبول أي اصلاح يسمح للوساطة الفرنسية . ولذا كان التدخل النمساوي سريعاً واكتفى بواقعة واحدة وهي واقعة ريبتي في ٨ آذار ١٨٢١ لتقويض الحكم الدستوري في نابولي . ودخلها النمساويون دون مقاومة في ٢٣ آذار ١٨٢١ . وقد ايقظت حركة نابولي انقسام الاحزاب واظهرته . وبرهنت على اخطاء الخفة والرعونة والهوى في ايطاليا الجنوبية ، وكان من نتيجتها اخفاق الثورة .

وفي **الشمال** حدث ما سنراه أيضاً في العام ١٨٣١ : وهو قيام حركات متتابعة دون أن يكون بينها تعاون أو تنسيق . كانت رومانيو متهيأة للعصيان ونادت المارش النابوليين ليأتوا لنجدتها . وانتظم عقد من القناصة وذهبوا يتمرنون في الغابة . وثار الميلانيون واستعدت البيمونت للثورة . ولكنها دخلت في الثورة والثورة تنهار في نابولي . وفي ايطاليا الشمالية هذه ، حيث يوجد عناصر مختلفة ، نجد فكرة لم نجدها في ايطاليا الجنوبية وهي **كره النمسا** . وتعتبر هذه الفكرة رابطة بين مختلف هذه البلاد . أما رجال الكاربو ناري في ايطاليا الشمالية فلم يكونوا جمهوريين بل انضموا إلى ملك بيمونت كرهاً « بالجنود البيض » لأن الجنود النمساويين كانوا يلبسون البدلات البيضاء . وكان جوزيف دوميستر ، وزير ملك بيمونت يطالب في سن بطرسبورغ « بمملكة بيمونتية في ايطاليا العليا » . وكان ضباط الجيش يكرهون النمساويين ، غير أنه

ينبغي لهم أن يتحرروا داخلياً بثورة وبعدها يمكن توطيد الاستقلال عن النمساويين . وذلك لأن الحرية الداخلية شرط أول للاستقلال القومي . ولذا كانت فكرتهم أن يستفيدوا من ثوره نابولي ويمدوا يدهم لمساعدة العصاة ويثيروا الميلانيين مع كونفالونييري ، ويهاجموا حاميتي ميلانو وبريشيا بعد أن ضعفتا بارسال الجنود إلى الجنوب ويستفيدوا من غياب الجيش النمساوي في نابولي ويقطعوه عن قواعده ، على أن ينادي الميلانيون بالحرية والاستقلال متى اجتاز البيمونتيون الحدود .

وقد هيء هذا الترتيب باتفاق مع أمير من أسرة سافوى وهو شارل البرت أمير كارينيان . غير أن هذا تخلى عنهم في آخر لحظة . وانفجر العصيان في الاسكندرية في ١٠ آذار ونادى بملك بيمونت ملك ايطاليا دون أن يعلم ما اذا كان هذا يعني ملكاً كما هي الحال في عهد الملك أوجين ، أو على العكس ملك ايطاليا بأجمعها . وقام الطلاب في تورينو في ١٢ آذار ، ولم يشأ الملك أن يمنح الدستور فتنازل عن العرش لصالح أخيه **شارل فيلكس** . واستلم الوصاية أمير كارينيان شارل البرت منتظراً وصول شارل فيلكس . ومنح شارل البرت ، دون أن يكون له حق في الأمر ، دستور ١٨١٢ إلى بيمونت وأخذ يتكلم عن اتحاد مع نابولي واتحاد مع ميلانو . غير أن رد الفعل مالبث أن بدل كل شيء . فقد اطرح شارل فيلكس جميع الاصلاحات التي قام بها شارل البرت . أما اللومبارديون فلم يشاءوا أن يأتوا بحراك قبل أن يصل البيمونتيون اليهم؛ ولم يستطع زعيم المؤامرة **سانتا روزا** أن يحرض الجيش ولذا لم يلق النمساويون أي مقاومة في اخماد الحركة . وكسرت الجيوش النمساوية الجيوش الدستورية في ٨ نيسان واحتلت **تورينو** و **جنوة** . وانهارت الثورة . ولكنها ، على كل حال ، تختلف عن حركة الجنوب لاننا لانجد

فيها حركة شعبية كما في الجنوب . وبالمقابل نجد فيها فكرة غامضة ، فكرة « ايطاليا الكبرى » ايطاليا المستقلة كما تصورها فوسكولو والفييري، كما نجد فيها هذه الرابطة التي تربط مختلف البلاد الايطالية في الشمال وهي كره النمسا، وإن أخذ الناس يتناقشون ايها تكون عاصمة الدولة المزمع تأسيسها ، ميلانو أو تورينو .

واذاً نجد أن لكل جزء في ايطاليا سياسة" خاصة تختلف عن الآخرى ومعادية لها . غير أن النتيجة الوحيدة لحركة الحرية القومية كان منها على كل حال ابدال ما كان حتى الآن من رد فعل أبوي إلى رد فعل شديد . ولتستطيع ايطاليا أن تتجاوز هذه المرحلة لابد لها من تربية قومية وسياسية . وهذ التربية لم توجد بعد وستحتاج إلى سنين طويلة قبل أن تتحقق .

غير أن ارتباط فكرة القومية وفكرة الحرية نجد له استثناء" هاماً نظراً للنتائج التي ستظهر في المستقبل . فقد وجدت بلاد ظهرت فيها الوطنية القومية بعودة الى التقاليد وبعصبية اخذت تناضل كل دخيل اجنبي . هذا ولما كانت الحرية عنصراً خارجياً مضاداً للتقاليد القومية فان هذه الأخيرة اخذت تعمل في الدفاع عن كيانها والوقوف في وجه الحرية .

اسبانيا . — وأول هذه البلاد اسبانيا . إن العهد الرجعي ، في اسبانيا ، الذي قام على أيدي الانكليز والثورة القومية ، كان بداية لعهد انتقام فظيع وسياسة حمقاء من قبل فرديناند السابع : فقد حذف جميع العناصر المشبوهة بعلاقتها مع الفرنسيين وأعاد السلطة الى الرهبان وكاماريللا (بطانة) البلاط . وقامت المعارضة في وجهه وانتظمت في اطار الماسونية التي تشكلت في اسبانيا ابان الحكم الفرنسي . واختلط فيها ضباط مغامرون لا يأتلفون مع نظام السلام ، وشباب هائمون بدون عمل .

والتف هذا المجموع حول افكار حرة ومضادة للاكليروس تقبلوها من فرنسا . وشكلت عناصر المعارضة هذه قوة سياسية في المدن البحرية حيث البورجوازية التجارية التي تضررت منافعها بالحكم الرجعي . وكان برنامج هذا الفريق دستور ١٨١٢ الذي وضعه الاحرار في قادس . وقام رجاله يدعون الجنود الذين تجمعوا حول قادس للذهاب إلى المستعمرات الاسبانية الثائرة في امريكا واخماد ثورتها . وقد قام هذا الجيش بثورتين : الاولى في الجنوب حول قادس تحت زعامة **رييغو**؛ والثانية في الشمال حول **لاكودون** في آذار ١٨٢٠ . وبعد سنتين قضتها اسبانيا في حياة دستورية مضطربة توطد الحكم الرجعي على يد الجنود الفرنسيين .

تجاه هذه العناصر التي تعطف على الحرية وقفت جميع العناصر التقليدية اي كل ما يمكن ان يسمى « الحزب القومي » في اسبانيا وهو الحزب الذي قام ضد فرنسا . والف رجاله انصار الحكم المطلق والمتطرفون منهم حكومة ، في شمال اسبانيا حول مدينة لاسو اورجيل في كاتالونيا ، وجيشاً ، وسموا جنوده **الرسوليين** . وكان الاكليروس العنصر الاسامي في هذه المعارضة القومية والرجعية . وقائد الفرنسيسكينيين هو الذي سمى هذا الجيش بجيش « الرسوليين » . واخيراً نجد في هذه الكتلة الفلاحين وقسماً من النبلاء . إذاً تتألف هذه الكتلة من جميع العناصر التي كافحت ضد فرنسا ، وقد اجتمعت الآن لكفاح الماسونيين و « المراطقة »، كما يقولون عن مجموع الحزب الحر . وفي هذه الشروط نفهم الفوز الذي لاقاه الشعب الاسباني على الجنود الفرنسيين في حملة ١٨٢٣ خلافاً لما مر امام الجنود النابوليونيين . وقد ارتكب هذا الحزب القومي كثيراً من جرائم القتل في شخص الاحرار . وقام العهد الرجعي بانتقام شرعي وفي خلال عشر سنوات سادت البلاد سياسة العنف التي قام بها الملك وساعده فيها وزيره **كالومارده** .

وهكذا ايقظت حركة الحرية في اسبانيا كل ما هو فظيع في الطبع والروح الاسبانيين . وفهمت الحرية في اسبانيا كدخيل اجنبي فأثارت كتلة القوميين ضدها .

روسيا . — وهنالك مثال آخر مشابه لهذا الحادث نجده في روسيا ففي عام ١٨١٤ و ١٨١٥ اتبع الكسندر الاول سياسة الاعتدال والحرية . ولقد رأيناه يتدخل في تنظيم اوربة تنظيماً عاماً ، ولصالح الدستور في فرنسا والمانيا وايطاليا ، كما منح دستوراً لبولونيا . غير أن الحركة في روسيا كما في اسبانيا ، أخذت شكلاً خاصاً : فمن ذلك أن البولونيين لم يكتفوا بسياسة الكسندر الحرة ولم يهدأ عداؤهم للروس حتى ان القيصر نفسه غير ظنه في نتائج سياسته الكريمة . وعندما افتتح الدياط الذي منحه للبولونيين عام ١٨٢٠ ، في فارسوفيا ، اظهر خيبته في خطابه مع احتفاظه بالنظم التي منحها . ومن جهة ثانية نرى أن الضباط الذين أتوا إلى اوربة أثناء حرب نابوليون والفوا جيش الاحتلال قد اشربوا بالأفكار الغربية وبالحرية ، وتبنوا لحد كبير بعض الأفكار الفرنسية ، وعندما عادوا إلى روسيا نظموا جمعيات حرة سموها باسماء مختلفة مثل : « اتحاد الخلاص » و « اتحاد السعادة » . وفي بعض الاحيان عقدوا صلات مع الكاربوناري . كما نمت الماسونية في الجيش الروسي وبين النبلاء .

الا أن الثورة ضد نابوليون والحرب الوطنية عام ١٨١٢ أحدثتا في مجموع روسيا هزة قومية في كل ما يمثل روسيا القديمة وروسيا التقليدية « روسيا المقدسة » . ففي عالم الآداب والفن كانت الحركة قومية ، وقد بدأت على يد **غلنكا** و **كرمزين** . وفي الحلقات الروحية كانت الحركة يقظة في الديانة الارثوذكسية وفرضت على القيصر طرد اليسوعيين

وحذف « جمعيات الكتاب المقدس » البروتستانتيه . واعيدت في المدارس والجامعات التقاليد الدينية . وقامت هيئة النبلاء العليا والموظفين التي تمثل الروح التقليدية على القيصر وأخذ نفوذها يزداد شيئاً فشيئاً فحذفت العناصر الحرة التي التفت حول القيصر في أول الأمر . وكان يقود هذه الرجعية التقليدية رجلان : آراكتشيف وزير الداخلية ويمثل الحركة بشكلها السياسي . والثاني فوسيوس ويمثل الأفكار الدينية ويمتاز بنفوذه المتزايد على القيصر . فقد اقصى بالتدريج كل من يمثل الحرية أمثال البولوني تشار توريسكي أو كابو ديستريياس وكان هذا مستشار القيصر الأول الا أنه فقد حظوته لديه في العام ١٨٢٢ . وعندما ايقظت الحركة اليونانية في روسيا فكرة التوسع القومي في البلقان على حساب تركيا كانت الرجعية قوية واستطاعت أن تحول دون تدخل الكسندر الاول لصالح الثوار . غير أن حركة التوسع هذه سوف تظهر بوضوح في عهد القيصر نيقولا الأول.

وعلى هذا النحو ظهر كل ما يؤلف أصالة روسيا بالنسبة إلى اوربه الغربية . لقد بدت الحرية في روسيا كدخيل اجنبي فتصدت لها التقاليد القومية كلها كما في اسبانيا . وبعد تردد انقاد الكسندر للتيار وانكر الموقف الذى اتخذه في السياسة الخارجية ، وانضم إلى مترنيخ في سياسة المؤتمر وأدى به الأمر إلى خوف حقيقي من كل ما يمكن أن يكون ثورة حرية حتى انه تخلى عن نصرة اليونان وتركهم وشأنهم .

غير ان روسيا واسبانيا كانتا استثناء لهذا الارتباط الذي رأيناه بين حركة الحرية والفكرة القومية . ويمكن ايضاح ذلك لأن هذين البلدين يمكن اعتبارهما خارجين عن اوربة ولا يساهمان إلا قليلاً في السياسة العامة . وبالاجمال نجد ان نظام ١٨١٥ قد محى ذكرى الضغط والقسر والحكم النابوليوني . وإذا قابلناه مع النظام الساحق الذي اقره الحلف المقدس

ومترنيخ نجد من جديد اختلاطاً بين فكرة الحرية والفكرة القومية . وهذه هي النتيجة الاولى .

والنتيجة الثانية هي الاختلاط بين فرنسا والفكرة القومية . وسبب ذلك يرجع إلى الاختلاط بين نابوليون والثورة . ومن جهة أخرى إلى الوضع الخاص الذي جعل لفرنسا في أوربة عام ١٨١٥ ، لأنها كانت الدولة الدستورية والبرلمانية الوحيدة بين دول القارة . ويعتبر هذا الوضع استثناء منحه العهد الرجعي إلى فرنسا . ولقد رأينا أن « حزباً قومياً » تأسس في فرنسا وجعل يطالب بسياسة الجيروندين في توسع القوميات . وهنا ظهر الاختلاط من جديد بين فرنسا وقضية القوميات الأوربية كما ظهر ذلك بعد عام ١٧٨٩ . وفي اوربة الخاضعة لنظام الصمت السياسي كانت المناقشات البرلمانية والجدل بين الاحزاب السياسية في فرنسا ، عنصراً للتربية يعلم الاحزاب السياسية في اوربة . وكان تأثير افكار بنيامين كونستان التي انتشرت في كل مكان حتى في روسيا دليلاً على ذلك . وكانت دروس غيزو في الحرية في جامعة السوربون تقرأ بشغف زائد في الاوساط الفكرية الاوربية . وتوطد على هذا النحو نفوذ فرنسا الروحي فأخذت تعمل ، كما في العام ١٧٨٩ ، على حرية العالم والقوميات الأوربية . ومع هذا فقد اشتركت فرنسا ، خلال فترة من الزمن ، في سياسة الرجعية وذلك لأنها قبلت بالمهمة التي عهدت اليها أوربة في اخماد الثورة في اسبانيا ؛ ولم تجرأ أن تستقبل على ارضها اللاجئين الايطاليين او الالمان الفارين من سياسة القمع والضرب على ايدي الأحرار . ولكن رغم هذا الاشتراك الموقت فان المصلحة الفرنسية اصبحت في اوربة مصلحة القومية . ومما يلفت النظر ان هذه القومية الأوربية ، التي شهدنا نشأتها اثر رد الفعل ضد النفوذ الفرنسي في ظل الحكم النابوليوني ، اختلطت من جديد مع نفوذ فرنسا . فقد كانت

فرنسا ، في نظر اوربة ، بطل القوميات ، وبالمقابل يعتبر الفرنسيون ان كل مصلحة قومية في اوربة اصبحت مصلحة فرنسية . وعندما وطدت فرنسا الحرية نهائياً في ثورة عام ١٨٣٠ كانت باريس نوعاً من عاصمة للحرية الأوربية .

ومما يلفت النظر حقاً هو ان بناء النظام الاستبدادي ورجعة فكرة الدولة في العام ١٨١٥ سيعملان لصالح نمو القوميات ، ولكن ينبغي لذلك بضع سنين . وبين هذا وذاك قامت اليونان أول دولة قومية .

الفصل السادس

اليونان أول دولة قومية

لقد شهدت الامبراطورية العثمانية في عهد الامبراطورية النابوليونية عدة تقلبات وشملتها عاصفة السياسة الأوربية فألّفت جزءاً من أطماع نابوليون ونزاع نابوليون ضد انكلترا . من جهة أخرى ، كانت موضع اطماع روسيا : فقد دامت الحرب بين الامبراطورية العثمانية وروسيا خلال خمس سنوات من ١٨٠٧ الى ١٨١٢ ، وكانت على غير وتيرة واحدة ، متراوحة بين صعود وهبوط . وأخيراً اضطر الكسندر الأول الى التساهل وتمشية الحال عندما وجد نفسه على وشك الحرب مع فرنسا ، ووقع مع تركيا معاهدة بخارست في ٢٨ أيار ١٨١٢ ، وبموجب هذه المعاهدة ردّ القيصر الأمارتين الدانوبيتين الى تركيا . غير انه احتفظ ببسّارابيا حتى نهر البروت . وفي الوقت ذاته كانت الامبراطورية العثمانية في حالة تقلبات داخلية : فقد ثار صرب باشوية بلغراد تحت زعامة قرة جورج من ١٨٠٤ الى ١٨١٢ ، ولم تدعمهم روسيا ، بل تخلت عنهم في الوقت الذي وقعت فيه معاهدة بخارست . يضاف الى ذلك ثورات القصر عند وفاة السلطان سليم الثالث ، وقد دامت هذه الثورات من ١٨٠٦ الى ١٨٠٩ . وأخيراً أصبحت الولايات مستقلة في الواقع : مثل مصر في زمن محمد علي ، وبلاد العرب مع الوهابيين ،

وباشوية عكا وباشوية كونيا وباشوية بغداد . وكانت هذه الولايات عملياً مستقلة في السنوات الأخيرة التي سبقت حكم نابوليون ، مثل باشوية ودّين التي تنطبق اليوم على بلغاريا والتي حاولت ان تؤلف دولة مستقلة على يد باسفان اوغلو . وآخر هؤلاء الباشوات الثائرين كان باشا الغرب وهو علي تيبيلين باشا البانيا وابيروس الذي خول هذه القيادة العليا مكافأة له على اخماده الثورة في الروملي وأخذه سولي عندما قامت الثورة اليونانية ،غير أن علي تيبيلين اطوح طاعة السلطان في شهر ايار ١٨٢٠ .

لقد اضعفت هذه الحوادث المتعددة الامبراطورية العثمانية . وأفاد اليونان من هذا الضعف وكذا الصرب الذين اخمدت ثورتهم عام ١٨١٢ . فقد عاودوا عصيانهم في ١٨١٥ تحت قيادة مربي خنازير يدعى ميلوش اوبرينوفيتش . غير أن هنالك فرقاً عظيماً بين عصيان الصرب وحركة اليونان : لقد كان عصيان الصرب ثورة فلاحين ضد الانكشاريين الأتراك وضد السلطات المحلية التي يسيء الاتراك استعمالها . واستغل العصيان هذا الرجل المراوغ الخداع فلم يطرح سلطة السلطان بل سعى ان يحصل منه على **الضمانات** التي تمنع اساءة استعمال الوظيفة من قبـــل الموظفين الأتراك ، وعلى الحكم الاداري الذاتي . أمـــا اليونان ، فعلى العكس ، كما رأينا ، كان لهم طبقة فكرية وارستقراطية روحية كونتا عندهم مثلاً اعلى وهو اعادة بناء « **البازيليا** » أي الامبراطورية البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية . ونجد في حركة اليونان سعة في النظر لانجدها عند الصرب . لقد كان اليونان يعتبرون بان لهم رسالة قومية وسيؤدون هذه الرساله ضمن الحدود الممكنة متى ساعدتهم الظروف ابتـــداءً من العام ١٨٢٠ .

الثورة . — لقد اقتفى عصيان اليونان ١٨٢٠ أثر الحركة التي رأيناها

في آخر القرن الثامن عشر ، ولكن هذا العصيان يختلف عنها بعدة مميزات :

أولاً باتصاله الوثيق مع الخارج اكثر من قبل : فقد رأينا ان اليونان كانوا على اتصال بالعالم الخارجي الممثل بافكار الثورة الفرنسية وسياسة بونابرت في السنوات الاخيرة من القرن الثامن عشر . بيد أن الاتصال أصبح وثيقاً وواضحاً . فمنذ ذلك التاريخ زالت المخاوف والاحتياطات التي كان عليها اليونان الارثوذكس ضد المراطقة الغربيين وعرفت القضية اليونانية أحسن من ذي قبل في اوربة : ففي آخر القرن عرفت قصة الأب بارتلمي « رحلة الفتى اناخارسيس في اغريقية » بلاد اليونان . وكذا كتاب بوفور في ١٧٩٩ عن اليونان ، وخاصة كتاب آخر انتشر ببطء ولكن قراءته شاعت في ظل الامبراطورية وهو : « رحلة اليونان الممتعة » لسفير فرنسي قديم في القسطنطينية ويدعى شوازول غوفيه . وقد صدر الكتاب في ١٧٨٢ ولكن انتشاره كان متأخراً . وانطلاقاً من هذه القاعدة عملت هذه المؤلفات على تعريف اوربه باليونان . ونذكر اولاً آثار كوريه وبعض الآثار الانكليزية وخاصة « تشايلدهارولد » لبايرون الذي نشره بعد رحلته إلى اليونان ١٨٠٩ — ١٨١٠ مع دعوة اليونان الى الثورة . وفي الوقت نفسه تقريباً أي في العام ١٨٠٦ نشر شاتوبريان « الطريق من باريس الى القدس » . ولاسيما آثار بوكوفيل وهو دبلوماسي قديم وطبيب الحق بالحملة الفرنسية إلى مصر وسجنه الأتراك ثم عاد إلى فرنسا ونشر في العام ١٨٠٥ « رحلة إلى موره » . وبعد ان نشر بوكوفيل كتابه هذا اثر عودته من الأسر رجع إلى البانيا واليونان وقضى فيها عشر سنوات بوصفه قنصلاً لفرنسا . وفي العام ١٨٢٠ نشر كتاب

« رحلة اليونان » بخمس مجلدات . وسيؤلف هذا الكتاب مايسمى « انجيل الهلنية » . كان بوكوفيل يحب اليونان ويصفهم بعطف ومودة ويثق بجهودهم ودل على تمسك اليونان بتقاليدهم القومية . وهو الذي جعل لبعض الاسماء اليونانية نوعاً من شعبية فعرفها الفرنسيون والأوربيون مثل : كلفت ، باليكار ، ارماتوريس الخ ... ويبدو ان الرأي العام الأوربي قد تنبه من ١٨١٥ — ١٨٢٠ للقضية اليونانية وجعل يعطف عليها .

وهذا الاتصال بين العالم الغربي واليونان عبر عنه بانشاء الجمعيات الخليطة الهلنية والأوربية : ففي باريس تألفت « جمعية أصدقاء الأمة اليونانية » وفتحت « الدار اليونانية » وهي دار استقبال لليونان تحت رعاية شوازول — غوفيه وادارة تاجر يوناني اسمه تسا كالوف . وهنالك جمعيات أخرى مثل « جمعية محبي الهلنية » وجمعية « محبي الالهام » وكان غرض هذه الجمعيات كلها مساعدة شباب اليونان للمجيء الى ديار الغرب واتمام دراستهم فيها. وفي اليونان نفسها انشأ بعض القناصل جمعيات، مماثلة مثل فوريل قنصل فرنسا في آثينه . فقد نشر بعد بضع سنوات « أغاني اليونان الشعبية » وأنشأ له عام ١٨٣٠ اول كرمي للآداب الأجنبية في جامعة السوربون . وكانت الجمعية التي أحدثها فوريل في أثينه جمعية أثرية وأدبية ولكنها ستنقلب بسهولة الى جمعية سياسية . وفي مؤتمر فينا قبل كابوديستورياس اكتتاب الديبلوماسيين لمساعدة شباب اليونان للمجيء الى ديار الغرب دون ان يحصل من مؤتمر فينا على تشكيل دولة مستقلة للجزر الايونية .

اذاً فالفارق الأول هو ان الحركة اليونانية اصبحت الآن معروفة في اوزبه وبدأ اليونان بعقد صلات فكرية وسياسية مع الغرب .

ثانياً انتقال مركز الحركة القوميـــة إلى بلاد اليونان نفسها . وذلك لأن الامارات الدانوبية وحي الفنار لم تعد على رأس الحركة . ولقد كانت بالطبع تهتم بالثقافة الهلنية ولكنها لم تكن وحدها . ففي الأقاليم الدانوبية كان يتكلم بالايطالية والفرنسية .واستيقظت تقاليد روما وذكرياتها ، وكل مــــايسمى في ذلك العصر داسيا : فمن ذلك ان نيقولا مافروكورداتو بحث في التآريخ البغدانية وجمع النصوص الرومانية القديمة. وادخلت اللغة الرومانية في الكنيسة . وبدأت تظهر في الأقاليم الدانوبية، التي بقيت حتى ذلك الحين يونانية الثقافة ، الفكرة الرومانية التي تختلف عن الفكرة اليونانية . وكان زعماؤها من علية المجتمع في البغدان او الافلاق مثل آل غالليماكي وآل سوتز وآل غيكا . وكانت هذه الطبقة الاجتماعية العليا في الاقاليم الدانوبية ، بحكم التقاليد والمنافع ، على صلة بالاتراك . وكان اعضاؤها أدوات لهم في الاقاليم الدانوبية . وقد بقوا تابعين مخلصين للأتراك ولم يلعبوا دوراً في العصيان ، بل على العكس كانوا عثرة أمام العصيان اليوناني ، ولم يساهم أحد منهم في عصيان ١٨٢١ . أما سواد الشعب فقد بقي لامبالياً تماماً بالعصيان اليوناني . وكذا البطريركية بقيت مخلصة للسلطان : فمن ذلك ان البطريرك غريغوار خضع منذ بدء العصيان عندما طلب اليه السلطان حرمان المتمردين على طاعته . وبالجملة فقـد بقي الاكليروس في القسطنطينية في معزل عن الحـركة اليونانية . وعندما جعل الاتراك الاكليروس الأعلى في القسطنطينية ووجهاء حي الفنار مسؤولين عن عصيان اليونان كان عملهم هذا في غير محله .فلا البطريركية ولا المجتمع العالي في القسطنطينية ساهم في هـــذه الحركة . وبالمقـــابل أصبحت الجزر الايونية نقطة ابتداء للحركة القومية اليونانية . فقد الّفت منذ ١٨١٥ دولة حرة مستقله تحت الحمـاية الانكليزية وضمان الروس ،

واعطيت دستوراً عام ١٨١٧ وكان لها مجلسان : مجلس الشيوخ ويتألف من سبعة أعضاء ، والمجلس التشريعي من اربعين عضواً منهم تسع وعشرون عضواً كانوا منتخبين ، ولها نوع من وزارة و « مجلس تنفيذي » يعينه الانكليز ، ومجلس قضائي كبير : أي انه كان للجزر حكومة تمثيلية غير ان السلطات الحقيقية كانت في يد الانكليز : كان المقيم الانكليزي يؤيد جميع المقررات التشريعية ويعين المجلس التنفيذي . وجدت فيها حامية انكليزية . ولبثت سياسة انكلترا في الجزر الايونية سياسة استبدادية وكان والنزاع قائماً بين الايونيين ، بين الحزب الارستقراطي والحزب الحر او الديموقراطي الذي يسمى (حزب الجاكيتات القصيرة) والشقاق دائماً . ومع هذان فان الجزر الايونية ، ولو لم تكن حرة ، كانت مثال الحرية بالنسبة لمجموع اليونان ، وتلعب من جهة ثانية دوراً ثقافياً هاماً : فقد وجدت فيها مدرسة قديمة للمؤرخين مثل : بابادوبولوس وسوماكيس وموستوكسزيس الذين الفوا تاريخ حركة عصيان القرن الثامن عشر وتاريخ التقاليد القومية . وتوّجم في ذلك العهد ايوني يدعى زامباللوس مآسي الفييري ، كما وجد وعاظ وخطباء مشاهير مثل بولغاريس وتيؤتوكيس ، وفي العام ١٨٠٧ تأسست الاكاديمية الايونية . وهكذا كانت الجزر الايونية مركزاً لحركة فكرية هامة ، كما كانت مثالا سياسياً ، ولها دور اقتصادي ايضاً ، فقد كانت المبادلات التجارية دائمة بين هذه الجزر وموره . وكانت ملجأ لليونان الذين يقعون في صعوبات مع الحكومة التركية . فمن ذلك ان اغناطيوس ، متروبوليت آرتا ، التجأ في كورفو ونظم في بداية العصيان حركة عودة اللاجئين والمهاجرين الى بلادهم .

لقد كان دور الجزر الايونية هاماً كمربية لليونان . ومن الوجهة

السياسية كانت تقوم بدور بانسلفانيا بالنسبة الى رومانيا . لقد كانت نقطة انطلاق الدعاة وملجأ الثوار . ووجد فيها لفيف من الأحرار الذين تبنوا نوعاً من تقويم قومي . فقد قاموا بتأريخ سنوات الاولمبياد كما كانت الحال في اغريقية القديمة ، وكان دور الجزر الايونية ايقاظ الحركة القومية في داخل اليونان نفسها . ولم تتوضع هذه الحركة في بعض المناطق كما كانت « مانيا » في آخر القرن الثامن عشر أو سولي في ابيروس بل انها انتشرت الآن في بلاد اليونان كلها .

لقد وجدت هذه الحركة شكلها في جمعية سرية تألفت عقب معاهدات فينا وهي « **جمعية الهيتري** » . وكما رأينا في باقي اوربة وفي المانيا وايطاليا خاصة ان حركة الحرية أخذت شكل الجمعيات السرية ، كذلك حصل شيء مماثل في بلاد اليونان . وكان اشخاص هذه الجمعيات السرية السياسية يخرجون من الجمعيات الأدبية التي تأسست اثناء الحكم الفرنسي او من المنظمات المحلية .على ان أصل الهيتري مازال غامضاً تقريباً . وربما كانت في الاصل جمعية صغيرة « جمعية الاصدقاء » .وعلى مايبدو انها اوجدت خارج بلاد اليونان اما في اوديسا او في باريس ومن ثم انتقلت الى القسطنطينية . واذا قلنا ان اصل الهيتري مازال غامضاً الا انها على كل حال انشئت في شكلها النهائي من قبل ثلاثة شبان : تاجر من آرتا واسمه سكوفاس وشابان آخران من باتموس وهما ايزا كالوف وكزانتوس وكلهم ينتمون الى الماسونية . وهنا نجد ذلك الارتباط الذي كنا لمحنا اليه آنفاً وهو ان الجمعيات الماسونية كانت داعية لفكرة الحرية. وكان غرض هؤلاء الفتية من تأسيس هذه الجمعية صنع اغريقية من جديد واثارتها ضد الاتراك معتمدة في ذلك على جهودها الخاصة لأن اوربه بقيت حيادية في العام ١٨١٥ بالنسبة لها . وكان عدد المشتركين

في الاصل قليلا . واتخذ المؤسسون جميع الاحتياطات التي تتخذها الجمعيات السرية كلها . فلا يقبل فيها العضو الا بعد تلقي الأسرار والاحتفالات التى تقتضيها مراسم الجمعية . كما ان اجتماعاتها سرية . وفيها شيء مماثل لما في جمعيات الفحامين وتتبع نظام التسلسل في الجمعيات. ففيها اعضاء وقناصل وحكام ويرتبطون بنوع من حكومة سرية تألفت في الأصل من ثلاثة مؤسسين :سكوفاس ، تساكالوف وكزانتوس ، ثم انضم اليهم بالتدريج آخرون ولم يكن مجموعهم كلهم اكثر من خمسة عشر فى ادارة الحركة .

وفى شهر نيسان ١٨١٨ نقل سكوفاس أركان الهيتري الى القسطنطينية ولكنه توفي بعدها بقليل . غير ان الهيتريين وجدوا اشياءاً بين شبيبة المدارس في العاصمة وفي جوارها . وكانت المحاولات الاولى التي قام بها بعضهم في غير محلها . فمن ذلك ان احدهم واسمه غالاتيس ارسل الى روسيا ليتصل باليونان اللاجئين فيها . غير ان الضابطة القت القبض عليه . وأسعفه الحظ ان كابوديسترياس الكور في الأصل كان يتمتع بنفوذ عظيم لدى القيصر فطوى القضية . وكذا اتصل هيتريو القسطنطينية بقره - جورج، الذي قاد الثورة الصربية وانسحب الى القسطنطينية ، ودفعوه الى معاودة العصيان . وما كاد يرجع لاثارة الشعب الصربي الا وعلم بخبره باشا بلغراد فالقي القبض عليه وأعدم . وكان برنامج الهيتري في الأصل اعادة «بازيليا» اوربه البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية . وربما كانت البطريركية على علم بنظمة الهيتري ولو لم تكن شريكة في هذه المنظمة . غير ان المنظمة تشكلت نهائياً في العام ١٨٢٠ . وذلك ان يونانياً يدعى برّوفوس،وكان في السابق منتمياً الى جمعية ريغاس ، كلف بالدعاية في بيلوبونيز فاتصل بزعيم مانيا مافروميخاليس ونال ثقته بواسطة رسالة حررها اليه البطريرك

غريغوار . واستطاع بذلك ان يضم اليه عدة اشياع . وسيكون هؤلاء زعماء الحركة ونخص بالذكر منهم تيؤدور كولوكوترونيس وبوتزاريس زعيم السولين أي الجبليين الذين يقيمون في جنوب ابيروس ، وفي ابيروس على الشاطىء المجاور للجزر الايونية . وكان عملاء الهيتري يجوبون جزر سيكلاد وسبوراد والجزر الايونية وشاطىء آسيا الصغرى والقدس . واتصلوا بالجاليات اليونانية في شواطىء البحر المتوسط من اوديسا الى مرسيليا . وكان جميع التجار اليونان على علم بالحركة ويمدونها بالمال . وفي باريس وضع تساكالوف الجمعية الأدبية ، التي تكلمنا عنها آنفاً ، تحت تصرف الهيتري . وفي الامارات الدانوبية استطاع أحد أعضاء الهيتري وهو الارشمندريت (رئيس دير عند اليونان) نيكا يوس ان يضم اليه بعض الأنصار وخاصة من عائلة الهوسبودار القديم قسطنطين يبسيلانتي . فقد انضم الى الحركة ابناه الكسندر وديمتريوس مع آخرين مثل ريزو ـ نيرولوس ومانوس اخوي سوتزو . وانضم كذلك بعض اعضاء الاكليروس مثل اسقف الأفلاق . وهكذا اشتركت جميع عناصر الدعاية . وكان برنامج الجمعية السياسي يرمي الى اعادة بناء اغريقية في اوسع حدودها على ان تضم تحت لوائها جميع اليونانيين .

وبعد أن تألفت هذه الجمعية على هـذا النحو وهيـأت العمل السياسي الممكن كانت بحاجة إلى زعيم للانتقال إلى العمل . ففكر أولاً ببعض أمراء من الأقاليم الدانوبية أصلهم من حي الفنار مثل الأمير كاراجـــا والأمير موروزي أو الكسندر مافروكورداتو . وأخيراً وجد من المناسب أن يتوجه إلى روسيا ، وأرسل إلى سن بطرسبورغ أحد زعماء الدعـاية في بيلوبونيز واسمـه باباريغو بولو وصحبه كزانتوس . فكرا بادىء بـدء بكابوديسترياس وطلبا إليه أن يأخذ على عاتقه ادارة الحركة . غير أن الوزير كان يعلم أن القيصر على غير استعداد لمساندة الثوار . ولم يكن منـه

إلا أن شجعهم ولكنه رفض أن يكون على رأسهم . وعلى عكسه قبل مساعد معسكر القيصر الكسندر يبسيلانتي ادارة الحركة . وما كان منه إلا أن قوى المنظمة في الأوساط الاغريقية في روسيا وانتقل مع الزعماء الذين أتوا واتصلوا به مثل باباريغوبولو وكزانتوس ومانوس ، إلى أوديسا التي أصبحت مقراً للحركة .

لقد كان هذا التوجيه الروسي للحركة اليونانية بمثابة نجدة لأنه ساعدهم على العمل ، كما كان في الوقت ذاته خرقاً لأن دور الأقاليم الدانوبية في العصيان ، كما سنرى ، كان بائساً ومشؤوماً . فقد عمل بعض القناصل الروس باتفاق مع الهيتريين في الاقاليم الدانوبية ونخص بالذكر منهم قنصل الافلاق بيني . فقد اتصل مع الصربين ، غير أن هؤلاء رفضوا الاشتراك لأن ميلوش أوبرينوفيتش رفض دعم الحركة اليونانية . كما أنهم اتصلوا أيضاً برومانيي غرب الافلاق في مقاطعة اولتينيا حيث يقوم زعيم محلي يسمى تيؤدور فلاديميريسكو ويلعب دورا في الثورة . وفي اوديسا عقد مجلس حربي ضم زعماء الهيتري في أول تشرين الأول ١٨٢٠ لتنظيم الحرب الممكنة وتقرر أن تكون في ربيع السنة المقبلة .

وفي الحقيقة ان الهيتري ينقصها الوضوح والدقة في مشاريعها وخططها ، وكان زعماؤها رجال عمل من نوع ضئيل . فهم يجهلون القوى التي يستطيعون التصرف بها فعلاً ولا يعرفون عواطف السكان الحقيقية ووضع البلاد التي يريدون اثارتها ، ويجهلون مبلغ أهبة الحركة القومية في موره والقسطنطينية ، وكل ما في الأمر أنهم كانوا مفعمين بنوع من ابداعية (رومانتيكية) سياسية غائمة دخانية . حتى ان يبسيلانتي نفسه لم يعرف ماذا يجب عمله ولم يكن رجلاً قوياً ونراه في آخر الوقت عند الاخفاق يترك كل شيء ويولي الأدبار . وكان يرى نفسه امبراطور

القسطنطينية ، امبراطور بيزنطة ، بينا كانت وسائله المادية ضئيلة لا شأن لها .

وستأخذ الحركة في الواقع شكلاً جديـداً . وإذا أعطت الهيتري اشارة الثورة فليست بالتي تحققها ، بل اليونان في بلادهم هم الذين يقومون بالثورة أي ان العنصر اليوناني المحلي هو الذي يكون على رأس الحركة .

لقد قرر يبسيلانتي الذي يقود الحركة منذ حزيران ١٨٢٠ أن تكون العمليات في شهر تشرين الثاني ، إلا أنها أرجئت دون أن يعلم السبب . وانفجرت في بدء آذار ١٨٢١ . وفي ٦ آذار عبر يبسيلانتي الحدود أي نهر البروت مع أخوته وجورج كانتاكوزين وجيش صغير وألقى بنداء إلى الاغريق مفعم بالذكريات القديمة والتشبيهات الغريبة ، فمن ذلك قوله : « إن الأتراك أنسال داريوس وكيخسرو المخنثين ستكون غلبتهم أسهل من غلبة الفرس القدماء » ووعدهم بنجدة دولة عظمى . وقد فسرهـا العالم أجمع بأنها روسيا . وأعلم رفقاءه بوصول فرقتين روسيتين . وتبنى المؤتمرون شعاراً لهم ينضمون تحتـه ، وهو راية سوداء مع العنقاء التي ترمز إلى البعث الهيلني . وزحف يبسيلانتي إلى يامي فسلمها إليـه الهوسبودار ميخائيل سوتزو ، وتخلل ذلك مقتل عدد من الأتراك في غالاتز وياسي .

ولكن العداء اتجه سريعاً ضد يبسيلانتي . فقد كان بحاجة إلى المال ففرض ضريبـة على أصحاب المصارف . ولم يكن للحركة أي صدى في في السكان . وبارك المتروبوليت عبثاً سلاح الثائرين ، كما أن توقعهم وصول الروس كان عبثاً ، ولم يبد السكان أي حراك ما لم يأت الروس . وما عتمت هذه اللامبالاة أن انقلبت سريعاً إلى كره حتى أن بعض المفكرين أخذوا يكافحون الهيتري . فمن ذلك أن الشاعر البغداني بيلديـان أخذ يصب اللعنات شعراً على الثائرين .

وبدا أن الحركة انطلقت بصورة سيئة . فقد سار يبسيلانتي من الافلاق بجيشه وزحف على البغدان نحو بخارست . فاستولى على فوتشاني ، غير أن سكان مدينة بلويستي رفضوا أن يفتحوا أبوابهم للجيش الهيلليني . وفي الغرب كانت حركة الرومانيين في اولتينيا تحدياً . وذلك أن الزعيم تيؤدور فلاديميريسكو ثار على الأتراك في كانون الثاني ١٨٢١ باتفاق مع نبلاء البلاد، وأرسل إلى البابا العالي « رفيعة حقوق » واستقر مع رجاله حول كوتروسيني بالقرب من بخارست. ومن الطبيعي في مثل هذه الحال أن تنضم الحركتان إلى بعض ، غير أن الرومانيين لم يعملوا شيئاً لليونان ولم يشأ فلاديميريسكو أن يدخل يبسيلانتي بخارست . فقد قال « لست مستعداً أن أهدر دم الرومانيين في سبيل اليونان » . وكان في بخارست جالية يونانية فأخذها الحماس لصالح الثورة والتفت حول الاستاذ جيناديوس. وعندما علم اليونانيون في بخارست وصول جيوش الهيتري أخذوا ينشدون نشيد ريغاس وأحرقوا كتبهم وألفوا الكتيبة المقدسة (الكتيبة الاسبارطية) ، وأقسموا يمين الاسبارطيين : « فوق أو تحت » . وتتألف هذه الكتيبة من خمسمائة رجل قتل منهم ثلثمائة أثناء العمليات . ولكن هذه الجالية اليونانية لم تكن السكان بأجمعهم . ودخل يبسيلانتي إلى بخارست في ٢٩ آذار أي في ١٠ نيسان في التقويم الغربي ، لأنه كان بحاجة للمال وعقد قرضاً ثم انسحب . أما فلاديميريسكو ، وقد علم في ذلك الحين أن القيصر لم يعترف بيبسيلانتي ، فقد احتج على حركة الهتيري برسالة وجهها إلى يبسيلانتي في ٢٢ نيسان وفيها يقول : « وما الذي يجمع بين الداسيين والهيلانيين . وماذا يستطيع الداسيون أن ينتظروا في المستقبل من دولة الهيلانيين الطيبة ؟ » وهدد يبسيلانتي بمغادرة البلاد وقال : « إن الشعب الفقير لا يستطيع أن يدعم هذا

الجيش الذي يؤخر انطلاقه دوماً » . ولم يشأ الأتراك الاعتراف بالحركة الرومانية . فقد طرد تيؤدور فلاديميريسكو من بخـارست وألقى فلاحون عليه القبض وسلموه إلى يبسيلانتيّ فقتله في بداية شهر حزيران .

ولسوء حظ يبسيلانتي كان القيصر آنذاك في مؤتمر ليباخ فعنفه مباشرة وانكر عمله وفي ١٩ آذار كتب اليه : « من المشين بحق الامبراطور أن يلغم أساس تركيا بعمل مخجل لجمعية سرية » . وتلقى سفير روسيا في القسطنطينية الأمر أن يكون تحت تصرف السلطان ويساعده على اخماد الثورة .

وبدا أن الحركة وقعت في حيص بيص . وفي مثل هذه الشروط تعذر النجاح . فقد كسر « الجيش الهيلاني » كما سمي بذلك في واقعة داغازاني على نهر الآلوزا في ٧ و ١٩ حزيران ، وفر يبسيلانتي نفسه والتجأ في النمسا الا أنه أوقف وزج في السجن . وتخلى عن الهيتريين الباقين في البغدان (مولدافيا) زعيمهم كانتاكوزين فسحقوا على ضفاف البروت في سكوليني في ١٩ حزيران . وآخر من بقوا من المقاومين اعتصموا في دير ونسفوا في بداية تشرين الأول .

وكانت نتيجة مشروع يبسيلانتي أن افسد قضية اليونان أمام الحكومات ففقدت مساعدة القيصر الخارجية . ومن جهة ثانية فسح المجال لظهور حركة رومانية قليلة الاهمية الآن الا أنها ستعظم وتكون دليلاً على حركة قومية تنمو في المستقبل . واذاً كان من قضية يبسيلانتي ان فصلت نهائياً بين الاقاليم الدانوبية واليونان أي بين القضية الرومانية والقضية اليونانية . وفي الحقيقة ان حركة الثورة لم تنجح بشروع يبسيلانتي بل ستنجح بالحركة اليونانية الموضعية في اليونان التي تنمو وتتسع باشارته .

نرى أن المساعدة التي كان من الممكن أن تؤديها الأقاليم الدانوبية الى اليونان قد انهارت ، وكذا انهار الأمل الذي علقه اليونان على باشا يانينا الثائر على السلطان . فقد أظهر علي تيبيلين منذ السابق عداءه لليونان وقام بذبح السوليين منذ ١٨٠٣ وجعل الانكليز يتخلون له عن مدينة بارغا في العام ١٨١٩ . ورغم هذا استنجد باليونان عندما ثار على السلطان وعقد صلاته مع الهيتري بواسطة بطريرك باتراس . وعقد اتفاق صريح بين بوتزاريس زعيم السوليين وبينه في ١ — ١٨ كانون الأول ١٨٢٠ . غير أن القائد التركي خورشيد باشا غلب علي باشا على أمره في ٢٦ كانون الثاني ١٨٢١ فاندحر في الجبال ، وأخيراً لزم عاصمته يانينا ووقع في كمين فأخذ وقتل في ٥ شباط ١٨٢٢ .

وما صلت اخبار الثورة الى القسطنطينية الا وقام في العاصمة التركية رد فعل شعبي شديد ورد فعل قام به الموظفون والعلماء . واتخذت الحكومة احتياطاتها بالحال فأوقفت بعض وجهاء الأسر العالية واستطاع بعضهم الفرار الى روسيا وبعضهم زجوا في السجن . وفي هذه الآونة عقد البطريرك غريغوار مجلساً مع بطريرك القدس واربعة عشر اسقفاً . ورغم ان البطريركية لم تشترك في الثورة الا ان البطريرك خلع واوقف ، وفي يوم الفصح (١٦ - ٢٩ نيسان ١٨٢١) شنق على باب الكنيسة مع اثني عشر اسقفاً . ولقمع حركة الفتنة تناولت التدابير الشديدة الوجهاء في القسطينطنية وفي خارجها . فقطع رأس ميخائيل مانوس ، وتيؤدور ريغاس وموروزي . وفي قرى البوسفور كان اليونان يصادون صيداً . وفي المدن المجاورة في ادرنة وسالونيك وأزمير أعدم ثمانون حبراً مع بعض زعماء حي الفنار . وكان من نتيجة هذه الشدة ان استحالت كل حركة عصيان في القسطنطينية . وهكذا قضي على الحركة اليونانية بكاملها ولم تستطع العودة . ونتج عنها ايضاً ان فقد اليونان كل أمل في تأسيس دولة عاصمتها القسطنطينية .

واذاً فما على اليونان الا أن يدافعوا وحدهم عن قضيتهم . ان الهيتري وسعت المؤامرة في كل اليونان حتى ان الثورة كانت عامة . وساهم فيها الاكليروس وكان عديداً . ففي بيلوبونيز الصغيرة كان يوجد خمسة مطارنة وثمانيه اساقفة مع عدد من الخوارنة . وتألفت لجنة على رأسها اساقفة باتراس ونونيمبازي وخريستيانوبولوس . وكان الارشمندريت نيكايوس عنصر الارتباط بين الهيتري والاساقفة . ومن جهة ثانية اشترك ، بطبيعة الحال ، في الثورة الكلفت والقرويون والصناع والتجار . وساهمت مانيا في منطقة لاكونيا مع زعيمها بترو مافرو ميخاليس ومجلس الشيوخ الذي يدير مانيا وعندما نشبت الثورة انضم اليها اليونان الذين اتوا من الخارج وخاصة من الجزر الايونية ، مثل كولوكوترونيس الذي أصبح فيما بعد احد الزعماء العسكريين الكبار في الثورة .

وما وصل الخبر ان يبسيلانتي عبر البروت الا ونادت اللجنة التي يوجهها أسقف باتراس جرمانوس وزعيس ولودوس بالثورة . وصعد هؤلاء إلى دير هاجيا لوزا ، وفي يوم البشارة الواقع في ٢٥ آذار في التقويم اليوناني الموافق إلى ٦ نيسان ١٨٢١ في التقويم الغربي ، القوا بنداء إلى الهيلانيين: « لنستعد بأنفسنا ولأنفسنا للكفـــاح العظيم في سبيل الاستقلال . ان كل أملنا ومستقبلنا محصور في هـذه الكلمات : إيمـــان ، حرية ، وطن » . وبعد ثلاثة ايام أي في ٢٨ آذار وجهوا إلى الدول بياناً يعلمونها بأن اليونان اطرحت نير الاتراك . واستقر المقام بالاركان العامة للعصيان في بلدة كالاماتا الصغيرة في لاكونيا حيث اتى مجلس الشيوخ واقام فيها. وامام هذا العصيان الذي قـام في الجبال لم يكن في وسع الاتراك إلا ان اعتصموا في المدن والحصون فحاصرهم اليونان ، وأخذوا باتراس عند مدخل خليج كورانت وقتلوا فيها ما يقارب ١٥٠٠٠ شخص . وكسر

كولوكوترونيس باشا موره في فـالتيتزي في ٢١ أيار ١٨٢١ . وكانت هذه الواقعة أول ظفر لليونان . وحاصر اليونان تريبوليتزا قاعدة موره وكان النضال حسب الفرص والزعماء والأماكن . ولتوحيد الحركة أسس مجلس الشيوخ في بيلوبونيز في ٥ حزيران . ويتألف من ستة إلى ثمانية اعضاء وعلى رأسه وضع ديمتريوس يبسيلانتي اخي زعيم العصيان في البغدان عندما وصل ماراً بطريقه في تريستا وهيدرا في ١٩ حزيران . ثم أخذت تريبوليتزا في ٥ تشرين الأول . ولم يجد فيها اليونان الأساقفة الأربعة الذين اوقفهم الاتراك وقتلوهم . وعندها اعملوا القتل في سكان المدينـة المسلمين فقتل فيها ثمانية آلاف شخص . واحتل اليونان آثينه عدا الاكروبول ، فقد بقي للأتراك . وما كان من قنصل فرنسا فوريل وانكلترا وروسيا إلا أن شجعوا الحركة. وبقيت مدينةنوبلي ، وهي ميناء بالقرب من آرغوس، بعض الوقت في يد الاتراك .

وانفجر العصيان في الشمال الشرقي : واستولى الكلفت على شعاب تيساليا . وكان زعيم العصيان المحلي العالم في اللغة آنتيم غازيس وقد نظم مجلساً قومياً . واحتلت شبه جزيرة خالسيديك . ومن جهة أخرى ، اخذت مدينة سالونا الواقعة على تخوم بيؤسيا و لوكريد وانفيسا . غير ان الاتراك استرجعوا فولو إلا أنهم لم يستطيعوا عبر الترموبيل . وتزعم هذه الحركة في الشمال مستشار سفارة باريس تيؤدور نيغري . وتألف مجلس لقيادة الثورة في الروملي .

وفي الغرب انطلقت الحركة من الجزر الايونية ووجهها المهاجرون الذين أتوا من ايطاليا وخاصة الكسندر ما فروكورداتو .أخذ الثوار آرتا واستولوا على ميسّولونغي وهي اكبر مدينة في زاوية اليونان القارية على خليج

كورنت . وتألف « مجلس الغرب » لتوجيه الحركة في مقاطعتي آكارنانيا وايتوليا .

وأخيراً في الجزر ، في جزيرة هيدرا الصغيرة ، نادى كوردوريوتيس وبولغاريس في ٢٨ نيسان « بالعصيان المقدس » . وانقلب البحارة إلى قرصان وهاجموا السفن التركية بالحراقات ليعملوا فيها النار . وهوجمت سفن قره علي رئيس الأسطول من كل جانب . واعلنت ساموس ، وسيرا وسبتزيا استقلالها ، بينما ظلت كيو على العكس تحت سيطرة الاتراك. وانضمت كريت أخيراً إلى الحركة . وفي بضعة أشهر أصبح البحر بيد اليونان . وتابعت العمليات سيرها بشكل مضطرب في الخريف . ووقعت كورنت بأيديهم على اثر المجاعة في ٢٢ كانون الثاني ١٨٢٢ .

وفي خلال عشرة أشهر لبثت المنازعات عفوية وموضعية . ويجب أن نذكر هذ الطابع الذي نلقاه في السنوات الاولى من استقلال اليونان وهو **بعثرة الجهود والنعرة الاقليمية** . ولا نجد خطة عامة منسقة في هذه الحركة . كما نجد ايضاً عنصرين آخرين : فمن جهة **زعماء العصابات** الذين يوجهون العمليات ويريدون أن يعملوا مستقلين ، ومن جهة ثانية **السياسيون** وهم أناس مفكرون وأكثرهم فناريون يرغبون في الاستقلال ونزعاتهم تسمو فوق هذه النعرة المحلية ومفاهيمهم السياسية أعلى وارفع .

وكان من الضروري أن يوضع حد لبعثرة الجهود . ولم يكن لليونان عاصمة سياسية : كانت **تريبوليتزا** متهدمة ، **وآرغوس** تهيمن عليها نوبلي التابعة للاتراك . **وكورنت** منفصلة عن القارة . وانتخت قرية لها مجدها الغابر في القديم وهي قرية بندا التي كانت مدينة ابيدور القديمة لاجتماع مجلس يضم ممثلين عن اليونان تحت رئاسة مافروكورداتو . وفي ١ — ١٢

كانون الثاني ١٨٢٢ نادى المجلس باستقلال اليونان ووقع هذا الاعلان ممثلو اليونان . ونظم هـذا المجلس حكومة على أسس مستمدة من النظريات الديموقراطية والتقليدية يمازجها بعض مفاهيم انكليزية . وتزعم هذه الحكومة مافروكورداتو لمعرفته السياسية وشروط الحكم . وهذه الحكومة التي تشكلت على هذا النحو تتألف من مجلس الشعب المؤلف من سبعين نائباً وقد وضع في يده جميع السلطات : سلطات التقرير وسلطات الاشراف إلا أنه خول هـذه السلطات إلى سلطة تنفيذية وصية مؤلفة من خمسة أعضاء ويرتبط بها ثمانية وزراء تنفيذ . وكان رئيس الوصاية مافروكورداتو ومثل هذا العمل ولا شك اثار استياء يبسيلانتي الذي فقد حظوته واعتباره لانكسار أخيه الكسندر وهزيمته ، كما أثار استيـــاء كولوكوترونيس الزعيم العسكري ، فألف لنفسه عصابة خاصة وأخـذ يناضل الحكومة النظامية . وانضم الى هذا الفريق الزعماء الآخرون مثل نيغري الذي يمثل حوكة الشمال الشرقي ووزير الشؤون الخارجية وكوليتيس الذي عهد اليه بقيادة الحرب . وزال على اثر ذلك مجلس شيوخ موره ومجلس الروملي ومجلس الغرب .

واتخذ مجلس ابيدور بعض مقررات أخرى : وجه بياناً إلى الاميركيين اعرب لهم فيه عن مودة الاغريق للجمهورية الكبرى وطلب معونتهم . كما قرر ان تكون العاصمة كورنت وابدل علم الهيتري الاسود المزين بالعنقاء بالعلم القومي ، وهو العلم ذو الصليب الابيض على ارضيه زرقاء سماوية ، وما زال علم اليونان .

وقامت هذه الحكومة ببعض الأعمال . فمن ذلك انها بعثت في ٢٧ نيسان بنداء إلى الدول الأوربية بينت فيه شرعية ثورتها وألمها من ان ترى الدول تتخلى عن اليونان : ثم اعلنت حصار الموانئ اليونانية . وامتد

هذا الحصار على موانى بحر ايجه في سبوراد وكريت وجميع شواطىء اليونان من ابيروس إلى تيسالونيا أي إلى سالونيك (١٣ — ٢٥ آذار) . وفي هذا ما يدل على أن الحركة كانت تطالب بجموع المناطق المأهولة باليونان والناطقة باليونانية . وكللت هذه التصريحات بالنجاح . فقد أخذ اليونان اكروبول اثينه في ٢١ حزيران ونوبلي في آخر آذار وبسقوط نوبلي سقطت باتراس وآرتا الواقعتان في الجهة الثانية من الخليج .

كان رد فعل الأتراك أمام هذا العصيان قوياً . ففي الشتاء حاول الاتراك الهجوم على شواطىء مورة ولكن دون نجاح . وغضبت الحكومة التركية من اعلان ابيدور ، فعقد السلطان مجلساً ، في ٢٥ شباط ١٨٢٢ ، حضره العلماء وزعماء الانكشاريين ، وبحث في قضية القضاء على اليونان بجزرة عامة . وفي كيو كانت المذابح . فقد قامت بعض الاضطرابات وتدخل قنصلا فرنسا والنمسا فعاد الهدوء والوفاق بين السلطات التركية والأهالي . غير أن الاسطول التركي وصل إلى كيو في ١١ — ٢٢ نيسان ١٨٢٢ وما نزل الاتراك الا وأخذوا يقتلون السكان الذين كانوا أمامهم . وأحرقت كنيسة المدينة وظلت المذابح قائمة خلال شهر . ويقدر عدد الضحايا بـ ٢٥٠٠٠ شخص ، وبيع ٤٥٠٠٠ بيع العبيد . ونجا الباقون بوصول البحارة اليونان مع حراقاتهم . واستفاد هؤلاء من بقاء الاسطول التركي في المدينة فالقوا عليه القنابل . وكان قائد هذه الحملة الجريئة كاناريس . وتهدم قسم من اسطول قره علي . ولاحق اليونان السفن التركية في جميع الجزر . ودمر قسم آخر من الاسطول التركي في ميتيلين وسعى اليونان في ابادة البحارة الاتراك ابادة تامة .

أما في البر فكانت الغلبة للأتراك : نظم خورشيد باشا في حزيران جيشين : الاول في تيسّاليا والثاني في ابيروس .

اقتحم دراما ـ علي قائد جيش تيساليا الترموبيل واجتاح بيوسيا وحاصر ديمتريوس يبسيلانتي في آثينه واستولى على اكروبول كورنت ووصل إلى آرغوس في ١٨ تموز . وبينما كان الاتراك يحاصرون آرغوس هاجمهم كولوكو ترونيس من ورائهم واضطرهم إلى الانسحاب إلى كورنت . وفي بداية آب كان الاتراك على برزخ كورنت .

أما جيش ابيروس وهو الجيش الذي ضرب علي تيبلن وأصبح طليقاً بسقوط الباشا فان زعيمه رشيد باشا انحدر نحو الجنوب ودحر بوتزاريس إلى آرتا وسحقه في بيتا في ٧ تموز . ومنها انحدر إلى وادي آسبروبوتاموس على ميسّولونغي ، وصمم أخذ ميسّولونغي بعبور الخليج إلى باتراس . وعلى هذه الصورة استطاع الجيشان التركيان من كورنت وباتراس أن يحصرا البيلوبونيز بين فكي كماشة . غير أن ماڤروكورداتو انقض على ميسّولونغي ودفع هجوم الاتراك في ٢٥ كانون الأول ١٨٢٢ واجبرهم على التراجع. ومن الجهة الأخرى لبث كولوكو ترونيس عند مدخل برزخ كورنت واضطر جنود دراما ـ علي عبور البرزخ مرة ثانية . واستسلمت ناوبليا في كانون الثاني ١٨٢٣ وجعلت العاصمة .

واستمر النزاع مبعثراً في اليونان طوال السنة ١٨٢٣ . وحاول اليونان عبثاً الاستيلاء على أوبيه التي يسميها الأتراك نيغروبون . وفي الشمال الغربي استولى الاتراك على مدينة سولي . ولم يبق الا ميسّولونغي التي مازالت صامدة . وقد دافع عنها بوتزاريس الا انه قتل في المعركة بالقرب من المدينة في ٢٦ آب ١٨٢٣ . وأخيراً استمر النزاع في كريت وكان يقوده يوناني من هيدرا يدعى تومبازي ضد رجال محمد علي والي مصر .

وخاب أمل اليونان في توسيع الثورة وامتدادها على القارة وذلك لأنه لم يبق سوى نقطتي مقاومة في اليونان القارية وهما : ميسّولونغي وآثينه ، غير أن اليونان خلصوا أنفسهم في آخر العام ١٨٢٣ . ووجد نوع من اليونان المستقلة وتقتصر على موره والجزر .

بقيت الدول أمام هذه الحركة دون حراك . ولأول مرة رأت نفسها أمام قضية قومية . على أن ما يسترعي النظر هو أن الدول لم تكن في وجهة نظر اليونان ولم تتصور القضية اليونانية إلا تحت زاوية سياستها العامة سواء من حيث مفاهيمها السياسية أم من حيث ترتيباتها الدبلوماسية .

إن مايهم أوربة خاصة ويؤلف جوهر القضية هو الخلاف التركي — الروسي على الأقاليم الدانوبية لا القضية اليونانية بذاتها .

كانت الدول مجتمعة في ليباخ عندما وصلتها أخبار قيام يبسيلانتي . وكان رد فعل مترنيخ مباشراً ، فقد اعتبر هؤلاء اليونان الثائرين متمردين وشارك الكسندر قيصر روسيا مترنيخ في ذلك لأن الكسندر انكر عمل يبسيلانتي . غير ان القيصر عندما عاد من ليباخ وأقام في سن بطرسبورغ وجد نفسه محاطاً بحركة رأي روسية تعطف على اليونان : ففي محيطه وجد يونان أو أناس من أصل فناري وكانوا كثرة . فمن هؤلاء نخص بالذكر الكسندر ستوردزا وخاصة كابوديسترياس، وكان مشاوراً للقيصر وما زال عظيم النفوذ وبقي كذلك حتى آخر العام ١٨٢٢ . وكان الاكليروس الأعلى في صالح اليونان لأن مقتل البطريرك غريغوار كان له صداه في الاوساط الروسية . وفي القسطنطينية نفسها اقترح السفير ستروغونوف على زملائه استدعاء الاسطول المحالف للقسطنطينية في ٢٥ نيسان . فمنعه

السفراء الآخرون وخاصة السفير الانكليزي سترانغفورد . وترك السلطات الروسية اليونان في روسيا يبعثون المال والاسلحة للثوار من بحارة ومن عصاه في البيلوبونيز .

وجدت الحكومة الروسية نفسها أمام قضية متناقضة السياسة . فهي تريد أن تمنع كل شبهة في تشجيع الثورة . ومن جهة ثانية لا تريد أن تفقد نفوذها التقليدي على الارثوذكس اليونان . ويبدو أن القيصر أخيراً استسلم لحد ما لتيار الرأي الذي يحيط به . وقد كتب سفير فرنسا لافرونيه إلى حكومته في تموز ١٨٢١ ان القيصر بذل جهداً كبيراً في هذا السبيل : « لقد كان القيصر حبراً اكثر منه امبراطوراً وقائداً ، فقد اعتقد بأنه دعي ليكون زعيم هذه الحرب الصليبية الجديدة . وكان طموحه في ذلك الحين دينياً . وكان اعلانه الحرب على الامبراطورية التركية اقل منه على المسلمين ، فقد أقسم ليثأرن للمسيحيين ويدفعن مضطهدي دين يسوع المسيح بعيداً في آسيا » . على أن الذي يهم القيصر في الوقت نفسه إنما هو توطيد الحالة في الامارات الدانوبية ، وإذا نظرت روسيا إلى القضية اليونانية فهي تنظر اليها دوماً من وراء الامارات الدانوبية .

وفي ١٨ كانون الثاني ١٨٢١ سلم السفير ستروغونوف انذاراً إلى الحكومة التركية وفيه يطلب القيصر اعادة بناء الكنائس التي دمرها الاتراك ، وممارسة حرية العبادة ، وان يميز الابرياء من المجرمين ، وإن تجلو الجيوش التركية عن الامارات الدانوبية وان يعين هوسبوداران جديدان لادارة الاقليمين : الافلاق والبغدان . ولما لم تقبل الحكومة التركية بهذه المطاليب غادر ستروغونوف القسطنطينية في ١٠ آب . وسألت الحكومة الروسية الدول عن الموقف الذي تتخذه في حالة الحرب إذا رفضت الحكومة العثمانية

اجابة الطلب وما هو الحل الذي ترتأيه في حالة انهيار الامبراطورية العثمانية ؟

كان هم الدول العظمى أن تحول دون وقوع الحرب بين الروس والاتراك ، لأن هذه الحرب اذا وقعت كان لها محاذير خطيرة ، لاسيما وان الامبراطورية العثمانية ضعيفة ومن الممكن إن تنهار في حالة حرب . وقد اتفق الانكليز والنمساويون على هذه النقطة : وعمل كاسلريغ ومترنيخ بانسجام ودعمتها فرنسا . حاول السفير الانكليزي سترانغفورد في القسطنطينية أن يهدىء الأحوال ويقرب بين الروس والأتراك . وضغط مترنيخ على الكسندر في مؤتمرات فينّا ومؤتمر فيرونه . وجرت مقابلة بين الامبراطور فرانسوا جوزيف والقيصر في تشرنوفيتز . وبفضل هذه الجهود وهذه الوساطات سويت القضية بعد لأي على الشكل الآتي :

ان الحكومة التركية تقبل بأن يجري تحقيق على الافعال التي ارتكبها الجنود الاتراك ، وبأن يضرب على مقترفي هذه الافعال ، وبأن تسحب جيوشها بالتدريج ، وتجلو جلاءً تاماً عن الامارتين الدانوبيتين ، وتعين هوسبودارين جديدين للبغدان والأفلاق . غير أنها في هذه المرة لم تأخذهما من يونان حي الفنار بل من بين الارستقراطيين (البويارد) المحليين . وقد عين جان ستوردزا و غريغوار جيخا هوسبودارين في حزيران ١٨٢٢ وهكذا كانت القضية اليونانية فرصة لأول فائدة قومية حصل عليها الرومان دون أن يطلبوها . وتوالت المفاوضات والاتفاقات على الخسائر التي تكبدوها وحرية عبور السفن التجارية الروسية في المضايق . وأخيراً لم يبعث الروس إلى القسطنطينية سفيراً بل قائماً بالأعمال تجارياً ، الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى توطيد العلاقات الدبلوماسية .

وفي كل هذا لانجد ذكراً لليونان ، بل على العكس ، نجد أن اليونان قد أقصوا . ووجهت الحكومة اليونانية رسالة إلى الدول المجتمعة في مؤتمر فيرونة مؤرخة من آرغوس في ٢٩ آب ١٨٢٢ وفيها تطلب أن تدعى للمناقشة في القضايا اليونانية أمام الدول ، وتحتج على كل مفاوضة تجري بين الدول والسلطان دون أن تشاور في الأمر،وتؤكد بأن اليونان لن يستسلموا مهما كان المستقبل . وأرسلت وفداً ليحاول أن يسمع صوته في مؤتمر فيرونه . وكان هذا الوفد يتألف من آندره ميتا كساس ومن الكولونيل الفرنسي جوردان وقد دخل في خدمة اليونان . ووصل الموفدان إلى انقونه وهي ميناء رومانية تابعة لدولة البابا . وقد حماها الكرمي الأقدس ، غير أن الدول رفضت استقبالها في فيرونه فاضطر إلى البقاء في انقونة . ورأى الكرسي الأقدس فرصة سانحة للقيام بمفاوضات غريبة . وقد بدأ بها كونسالفي بين اليونان وبين رهبنة « الطريقة المالطية » وأدت المفاوضات إلى عقد اتفاق في ١٠ تموز ١٨٢٣ : وفيه يعترف نظام مالطة باستقلال اليونان ويتخلى عن كل مطاليب أرضية في موره وفي نيغروبون ويمنح مساعدته لليونان ويقدم لها قرضاً ويقبل بالارثوذكس في ادارة النظام العامة ؛ وبالمقابل يتخلى اليونان للنظام عن رودس وعن جزيرتين صغيرتين . غير أن هذا الاتفاق اخفق أخيراً أمام العداء القائم بين الكاثوليك والارثوذكس في اليونان .

وهكذا لم تسترع مغامرات اليونان وفظائع الاتراك انتباه الدول ولا عطفها بل ان الدول احتقرت اليونان وأقصتهم .

غير أن القضية اليونانية وضعت أمام الدول قضية البحر المتوسط وهذا مارأته انكلترا ولم تخش الاعتراف به ، فقد قال سفير انكلترا السير تشارلز باغوت في القسطنطينية إلى لافيرونيه ، سفير فرنسا : « لقد حصلنا

لروسيا كل مايمكن الحصول عليه . . . غير أن الشيء الأساسي بالنسبة لأوربة هو الحيلولة دون امتداد العملاق الذي يضايق الجميع، وهو روسيا ، إلى البحر المتوسط . ونستطيع أن نضمن لكم بأنه لن يضع قدميه فيه ». لقد أرادت انكلترا قبل كل شيء أن تمنع الروس من التقدم إلى المضايق والبحر المتوسط . وقد أدرك مافروكورداتو وجهة النظر الانكليزيه هذه . وكان بحاجة للمال فأرسل مفاوضين إلى انكلترا في شهر حزيران ١٨٢٣ لاجراء قرض وبين لهم أن يصروا لدى الحكومة الانكليزية على خطر روسيا وبداهة سقوط الامبراطورية العثمانية من يوم لآخر وبالتالي يجب على الانكليز أن يبدلوا الامبراطورية العثمانية التي تسد الطريق بوجه الروس بدولة فتية وقوية ، وهي الدولة اليونانية . ويضاف إلى هذا الخوف من الروس فسح المجال أمام التجارة الانكليزية في البحر المتوسط الشرقي . وفي غضون ذلك توفي كاسلريغ وقام مقامه رجل نشيط قوي ومستقل وهو كاننغ . وقد اعترف لليونان بصفة المحاربين للحيلولة دون أعمال القرصنة وذلك لأن اليونان إذا اعترف بهم محاربين لايكونون قرصاناً وهذا صحيح من الوجهة الحقوقية . وسمح لهم باجراء قرض وقبله أصحاب مصارف لندن في ٢١ كانون الثاني ١٨٢٤ . وكان هذا القرض ٨٠٠٠٠٠ جنيه استرليني بسعر ٥٪ غير أن الفائدة ارتفعت إلى ٥٠٪ نظراً للتكاليف وما اليها من سمسرة وقومسيون ومكافآت وفي السنة التالية عقد قرض آخر في مثل هذه الشروط الفادحة .

وفي الواقع رأى الانكليز ماجعلهم يخشون تقدم الروس لأن القيصر اقترح ، لتسوية القضية اليونانية ، ترتيباً غريباً يسمى « مشروع الأقسام الثلاثة » (١٩ كانون الثاني ١٨٢٤) : وقال بأنه يبحث عن قواعد سلمية تمنع

اضطهاد المسلمين لليونان ، ولكنها في الوقت ذاته لاتخلق من متمردين دولة يونانية . ولذا اقترح تقسيم اليونان إلى ثلاثة أقسام :

١) **اغريقية الغربية** وتشمل شاطىء الادرياتيك وابيروس وأكارنانيا
٢) **اغريقية الشرقية** وتتألف من تساليا وبيوسيا وآتيكا
٣) **اغريقية الجنوبية** وتتألف من موره وكريت .

على أن يعطى لهذه الأقسام الثلاثة نظام مماثل لنظام الامارتين الدانوبيتين أي أن تمنح الاستقلال الذاتي ؛ وحكاماً كحاكمي البغدان والافلاق . أما الجزر فتمنح نظاماً بلدياً واسعاً . وتضمن الدول هذه الامتيازات التي تتخلى عنها تركيا . ويمثل اليونان رسمياً في القسطنطينية بواسطة بطارقتهم.

ومن الطبيعي أن يثير هذا الترتيب اليونان ، فوجهوا احتجاجهم إلى كانتغ في ١٢ — ٢٤ آب ١٨٢٤ . وقام مافروكورداتو على هذا الشكل الذي ارتؤي لليونان . ومن الجلي أن يكون على رأس هذه الامارات التي اقترحتها روسيا فناريون يحميهم الروس ويكونون في الوقت ذاته طوع بنان القيصر . وناقشت الدول هذا المشروع في مؤتمرات عقدت في سن بطرسبورغ في حزيران وتموز ١٨٢٤ وفي بداية ١٨٢٥ . ومن البديهي أن الدول لم تشأ أن يكون لروسيا هذا النفوذ الذي تأمل بتأسيسه . ولذا كانت مهمة الدبلوماسيين تعليق القضية بالمفاوضات وأخيراً منع تحقيقها .

ومع هذا فان مشروع الروس افاد اليونان . فقد أصبح من المقبول وجود وضع جديد لليونان ، حتى أن مترنيخ قبل بوجود « واقع يوناني ». ومن المؤكد الا ينتظر اليونان أي مساعدة أو سند إلا في الحدود التي يكونون فيها أداة للدبلوماسية الأوربية .

الأزمة الاغريقية والتدخل الأوربي . — ان الحالة التي ظلت

بالاجمال حتى الآن ملائمة للاغريق ، قـد تحولت جذرياً في العام ١٨٢٤ : لقد تحولت على حساب اليونان من الوجهة العسكرية من جهـة ، ومن الوجهة الدبلوماسية من جهة أخرى ، ونمت في الدول الغربية حركة لاتقاوم في الرأي لصالح الاغريق ، وهذه الحركة أجبرت الدول على التدخل . وبهذه الصورة انقلبت مسلمات القضية اليونانية في هذه السنة ١٨٢٤ لعدة أسباب :

السبب الأول : انهيار الاغريق . لقـد كان الاغريق غالبين حتى الآن ، لأن الشروط المحلية في النزاع شجعت على البطولة الفردية ، ولأن الأتراك لم يكن عندهم جيوش منظمة في حالة جيدة ؛ ولكن الاغريق المساكين ظهروا عاجزين عن تشكيل دولة . وقد اعترف الاميرال دو رينيي ، قائد الموقع الفرنسي في الشرق ، بأن مايسمى حكومة يونانية إنما هو « دجل ». فقد كان الزعماء فرديين بشكل مفرط ، ويجب أن نتذكر بان تقاليد اليونان هي بالضبط تقاليد استقلال بلدي ومحلي بالمعنى الدقيق للكلمة . وقد اجتمع **المجلس العام الثاني** لليونان ، وكان عـدده ثلاثـة اضعاف مجلس ابيدور ، وانعقد في آستروس ، واهتم في آن واحد بتغيير الحكم وباعادة النظر في الدستور الذي وضع في العام الفائت : فأيد الغاء مجالس الشيوخ الثلاثة ، كما فعل مجلس ابيدور . ووجد ، في هذا المجلس الجديد الذي انعقد في ربيع ١٨٢٣ ، ثلاثة أحزاب متنازعة :

١ — **حزب العسكريين** ، وهم يلتفون حول كولوكوترونيس .

٢ — **حزب الأرخونتس** ، أي الزعماء المدنيين ، وقـد انضم اليهم زعيم مانيا بترو مافروميخاليس .

٣ — **حزب الدبلوماسيين** وهم الفناريون .

وأخيراً ألف **ثالوث** ، وكان رئيسه بترو بك أي بـترو مافرو ـ

ميخاليس زعيم مانيا . غير أن كولوكوترونيس ، الذي أراد الدخول في الحكومة ، أجبر على تحويل هذه الحكومة الثلاثية إلى حكومة خماسية وأصبح مافروكورداتو رئيساً للمجلس التشريعي الذي استقر في ارغوس ؛ ولكن كولوكوترونيس هاجم هذا المجلس وبعثره . وكان العسكريون معه ، فألفوا حكومة منشقة في تريبوليتزا ، كما الف أبناء الجزر حكومة أخرى في هيدرا .

وقامت آنذاك حرب أهلية حقيقية بين الأحزاب الاغريقية : فقد طرد كولوكوترونيس من كورنث ، ثم من ناوبليا ، وحصل على هدنة في حزيران ١٨٢٤ ، واستعيض عنه على رأس الحكومة بشخص آخر ، وهو **كوندوريوتيس** وهو من هيدرا ، فأعاد الارتباط بين الجزائريين (سكان الجزر) والقاريين (سكان القارة) ؛ ووضع على رأس الجيوش قائد يدعى **كوليلتيس** . ثم عاود كولوكوترونيس القتال من جديد ضد الحكومة بعد قليل ؛ ولكن هذه المحاولة كانت بائسة : فقد قتل ابنه وزج بالسجن . وحدث حادث آخر وهو أن زعيماً قارياً يسمى **اوديسوس** ، زعيم الروملبين ، أراد الدخول في مفاوضات سرية مع الأتراك ليعطى له حكم جزيرة اوبيه أو نيغريبون فهاجمه الاغريق الآخرون ، وقبض عليه في نيسان ١٨٢٥ وقتل في آثينة .

وبدا إلى بعض الاغريق بانه لايمكن التوصل إلى اعادة النظام إلا إذا دعي أمير اجنبي ليوجههم . وقد سبق للاغريق أن اتصلوا في العام ١٨٢٣ مع لافاييت وأتاهم من فرنسا زعيم عسكري ، وهو الكولونيل فابيه ، في كانون الأول ١٨٢٣ . وأتى آخر من انكلترا وهو اللورد بايرون ، وكان هذا على صلة بمافروكورداتو بعد أن عرفه في انكلترا ، وأتى إلى اليونان عام ١٨٢٣ مع ثروة صغيرة ، وأراد أن يتزعم السوليين ، ولم يكن لهم زعيم ، وأن يقيم رأس جسر كبير على شاطىء

ابيروس وخليج كورنث من ليـــانت إلى ميسولونغي ولكنه يئس مما وجد ؛ لقد كان الاغريق دون تنظيم ، ويتنازعون فيما بينهم . ثم خر مريضاً ومات في ميسو لونغي ، في ١٩ نيسان ١٨٢٤ . واقـترح يوناني آخر ، وهو تيؤدور نيغري ، الأمير جيروم بونابوت عام ١٨٢٢. وفكر مافرو كورداتو باوجين بوهارنيه ، ولكن هذا توفي في شباط ١٨٢٤. واقترح نائب فرنسي ، نائب لواريه ، وهو لينيه دو فيلـّيفيك في الأول من تموز ١٨٢٤ ، على الاغريق ، أحد أبناء دوق اورلـان وهو دوق نومور ، وكانت سنه عشر سنوات ، وجرت مفاوضة حتى شهر أيار ولم تؤد إلى شيء ، ثم استؤنفت في السنة التالية ، في نيسان ١٨٢٥ ، على يد أحد أعوان دوق اورلئان ، رومينيي . وكان للأمير الفرنسي الفتى انصار ، مثل كوليلتيس ومافروميخاليس . ولكن الاغريق أرادوا أن تتعهد الحكومة الفرنسية بدعم الأمير الفتى وترسل اليه جيوشاً ومالاً ، وهذا مالاتريد حكومة العهد الرجعي أن تفعله ، حتى أن ملكية دوق دونومور المحتملة صرف عنها النظر. ولكن يرى هنا ظهور ماسيرى آجلاً في في المملكة الاغريقية : فقد تشكل بـين الاغريق ، حزب فرنسي ، وحزب انـكليزي ، وحزب روسي .

وهنالك عنصر آخر للشقاق وهو العداوة بين الـكاثوليك اللاتـــين والارثوذكس : ان الجزر الكاثوليـكية : سيرا ، ناكسوس ، تينوس . سانتوران لم تنضم إلى الحركة ؛ وقد كتب بوكوفيل : « ان الد أعداء الاغريق مبشرونا اللاتينيون الذين يهتمون بادىء بدء بصيد المنشقين » . لقد كان الـكاثوليك منعزلين بين الارثوذكس ، ويخشون في الواقع من أن اتساء معاملاتهم ، وأن يتهدم دينهم ، وقد طلب منهم عـدة مطاليب اكـثر مما يجب . فوضعوا أنفسهم تحت حماية فرنسـا واضطر الاميرال

دوريني أن يأتي مع الاسطول ويستقر في سـيرا ليحول دون وقوع مشاكل . وفي نيسان ١٨٢٤ اضطر أن يتدخل لدى الحكومة الاغريقية لحماية المصالح الكاثوليكية . حتى أن فوريل الذي كان يعطف جداً على الاغريق شارك ريني في رأيه بأن الاغريق يريدون أن يستأصلوا الكاثوليكية .

كانت هذه الفوضى كلها تعمل لصالح الاتراك ، وكان الاتراك غير منظمين من الوجهة العسكرية ، ولكن كان لديهم عنصر قوي متين في الامبراطورية العثمانية وهو الجيش الذي نظمه محمد علي باشا ، حاكم مصر ، على يد ضباط فرنسيين ، فقد قرر السلطان أن يستخدم هذا الجيش من ولاية مصر ضد ولايته في اليونان . وقد أعطى في العام ١٨٢٢ حكم كريت إلى محمد علي فأرسل هذا اليها صهره فتوفي . وحل محله تركي آخر وهـو حسين بك ، واستشريا في القتال في كريت ضد تومبازي ، واجتاحت الجيوش المصرية الجزيرة بصورة منظمة ، ودحرت العصابات الأخيرة في جزيرة صغيرة ، كاس ، التي أخذت عام ١٨٢٤ ، ونقل قسم من سكان كريت إلى مصر . وهذا مايسميه الاغريق « نكبة كانديا ». وكانديا هو الاسم التركي لكريت . وسمي محمد علي من قبل السلطان باسم **سيراسكيه** أي القائد الاعلى في موريه ، في ٩ شباط ١٨٢٤ وشرع الباشا بتعبئة جيش كبير مؤلف من ٨٠٠٠٠ جندي وانشاء سفن ، وطلب من فرنسا سفن نقل لهذا الجيش .

وفي غضون ذلك طاف أمير الماء (القبطان باشا) خسرو باشا بحر ايجه ونزل خاصة في بسارا ، وهي جزيرة صغيرة في عرض آتيكا : فانتحر الحماة اونسفوا أنفسهم لئلا يقعوا في أيدي الاتراك ، وفر من بقي

من السكان في ١١ تموز ١٨٢٤ ؛ وبعد « نكبة كانديا » جاءت نكبة بسارا . واستمرت العمليات في الجزر ناشبة بين الاسطول التركي والمصري من جهة ، والاغريق من جهة أخرى ، ولاقى القتال نجاحات مختلفة : فقد نجح الاغريق في تدمير جزء من اسطول خسرو باشا ، ولكنهم في الواقع ، أثناء الحملة المصرية في موريه ، كانوا غير قادرين على منع التموين العادي بالرجال والمؤمن من مصر إلى اليونان .

نزل ابراهيم باشا بن محمد علي باشا في موريه مع ١٢٠٠٠ رجل في **سفاكتيريا** ، في ٢١ آذار ١٨٢٥ ، ولم يستطع الزعيم الاغريقي **مياؤليس** أن يمنعه . وأخذت **نافادينو** في ١٨ أيار بالرغم من الدفاع الذي قام به كوندوريوتوس ومافروكورداتو . وكانت خسائر اليونان فادحة . وفي هذه المعركة الأولى في نافارينو قتل **سانتا ــ روزا** ، زعيم تجربة الثورة البيمونتية عام ١٨٢١ ، الذي وضع نفسه في خدمة اليونان . ونظم الأتراك هناك رأس جسر يتألف من **نافارينو** وميناءي **مودون وكودون** ومن هنا تابع ابراهيم العمليات بانتظام في البيلوبونيز وذبح السكان أو نقلوا إلى مصر . واخذت تباعاً **كالاماتا** ثم تريبوليتزا ، وفي ٢٢ حزيران ارغوس ؛ وحوصرت ناوبليا مع الحكومة الاغريقية التي فيها . وماوسع كولوكوترونيس والكلفت الذين معه إلا أن اعتصموا في الجبل .

وبقيت على القارة نقطتان اغريقيتان : **ميسولونغي وآثينة** . وقد انعزلت الواحدة عن الأخرى بأخذ بيوسيا ومدينة سالونا . وانقض على ميسولونغي جيش تركي قوي يقوده رشيد باشا ، في ٢٥ نيسان ؛ وبعد هجوم غير مثمر ، نظم حصار الموقع تنظيماً أصولياً : وكان اسطوله سيد الخليج فمنع التموين من الخارج ، إلا مرة واحدة استطاع فيها

مياؤليس بفضل حراقاته التي فرقت موقتاً الاسطول التركي ، أن يلقي بالمؤونة في ميسولونغي . ولانهاء الموقعة دعا رشيد باشا ابراهيم لمساعدته في ٢٤ كانون الثاني ١٨٢٦ ثم حاول هجوماً جديداً ، بعد قصف المدافع في ٢٤ شباط ، فأخفق . وفي ١٠ آذار بـدأ الهجوم على المدينة من البحر . وكان الحصار تاماً ؛ ولم يستطع مياؤليس اقتحامه في ١٥ نيسان .

عندئذ قـام الاتراك بهجوم جديد على الموقع . وكان غير مجد . ولكن أخذت المدينة أخيراً بعد يومين من القتال في ٢٢ و ٢٤ نيسان ١٨٢٦ . وانزوى **كابساليس**، جنليق المدينة، في آخر ماتبقى من المنازل، مـع من بقي من الحماة ، ينتظر الاتراك . وعندما وصلوا ، نسف كل شيء . وقتل الاتراك قسماً من السكان : قطـع ثلاثـة الاف رأس وارسلت إلى القسطنطينية ، وأسر ثلاثـة آلاف آخرون ولم ينـج من ميسولونغي إلا نحو ألف وثمـانمائـة شخص . وعندئـذ افترق الزعيمان وعاد ابراهيم إلى موريه يتمم فتوحاتـه المنظمة في البيلوبونيز وذهب رشيد باشا إلى آثينة . فانقض عليها الكولونيل فابيه مـع بعض النجدات ؛ ونظمت حمـلة نجدة على يد ضـابط البحرية الانكليزية كوكرام مع جنود مرتجلة من المتطوعين . ولكن الاخفاق كان ذريعاً ، وكانت الحالة في آثينة مخيبة . وتدخل الاميرال رينيي لاجتناب ما هو أقبح من ذلك . واستسلمت آثينة في ٥ حزيران ١٨٢٦ .

ولم يبـق شيء لليونان على القـارة . وفي موريه ، اقتصرت الدولة الاغريقية على ناوبليا تقريبـاً عـدا بعض النقاط المحلية في الجبال . ولم يبق اذن إلا الجزر وكانت مهددة أيضاً . وكانت هيدرا عاصمة الجزر في خطر واتخذت الاهبة لاجلاء السكان وفكر اليونان بالسفر إلى امريكا . ومع

ذلك لم تهدأ المنازعات بين اليونان . وأوشك الباقون الأحياء في ميسولونغي أن يتنازعوا مع رجال ناوبليا . ثم تدخل جينا ديوس أكبر وطني في تيساليا واستطاع أن يهدىء النزاع ويصالح جميع العالم بارسال الخصوم إلى آثينة . وبدا أن اليونان ضاعت . وفي بداية عام ١٨٢٧ كانت الحالة محية . وكان الاتراك واثقين من الظفر : وصرح وزير الشؤون الخارجية « الريس أفندي » في ٢٠ شباط ١٨٢٧ الى السفير الروسي بأن حملة السنة القادمة ستكون حاسمة .

ولكن اليونان نجت قبيل الموت بتدخل اوربه، ولزم لهذا التدخل أيضاً سنتان من المناقشات بين الدول لتنتقل إلى العمل وتنساق بتسلسل الظروف التي اجبرتها على القيام بالكر على الترك أكثر مما انساقت بالنظريات نفسها . وخرج هذا التدخل في الواقع من ضغوط الخارج على الحكومات ، ومن الممكن ان نقول ان تدخل الدبلوماسيين لصالح الاغريق كان نصراً ، بل النصر الأول للرأي العام على السياسة الأوربية .

وفي السنوات التي كان اليونان يقاتلون فيها الاتراك ببسالة ، قامت حركة كبرى في الرأي ، حركة محبي الهلنية في اوربة . وهذه الحركة اليونانية تختلف اختلافاً كبيراً عن الحركات الثورية التي انفجرت عام ١٨٢٠ و ١٨٢١ في ايطاليا أو في أوربة الوسطى أو في اسبانيا . هذا وتختلف الأسباب التي جذبت عطف الرأي الاوربي على اليونان ، كما تبين لنا كيف أن فكرة القومية معقدة ، وكيف تمور بالأفكار والعواطف. يوجد اولاً بالطبع ذكرى القديم الاتباعي : فقد كان اليونان يعتبرون ورثة ميلتياد أو تيمستوكل . وهنا يوجد عنصر انتقال تاريخي وعنصر أدبي تجدر الاشارة اليه وهو خاص في هذه الحالة . ولعلنا نذكر ، منذ

الأصل ، ان نداءات بونابرت إلى الاغريق عام ١٧٩٦ و ١٧٩٧ كانت مفعمة بذكريات القديم ، أي ان العقائدية الاتباعية كلها كانت تعمل لقضيه اليونان ، بالاضافة إلى الجاه الشرقي ، واللون المحلي ، والغريب أي كل ما كان يثير الرأي الابداعي في السنوات التي تلت عام ١٨١٥ . لقد سحرت القضية اليونانية الابداعيين ، كما سحرت الاتباعيين . ونقتصر على ذكر الأسماء الكبرى مثل بايرون،شاتوبريان، لامارتين ، وكانوا محبين للهلنية . ومنذ ١٨٢٠ دافع شاعران ابداعيان عن اليونان وهما : **الكسندر غيرو** ، وكان يعتبر في ذلك العصر زعيماً للمدرسة الابداعية في « قصيدة إلى الاغريق » وفينّيه في قصيدة تسمى « **بادغا** » . وإلى هذه **الفكرة الأدبية** ، التي اعطت محبة الهلنية طابعاً خاصاً ، تضاف فكرة الثورة . فقد تعصب اليسار كله في الاصل لصالح الاغريق منذ ربيع ١٨٢١ : ففي فرنسا ، مثلاً ، كانت أول جريدة بدأت بحملة لصالح الاغريق جريدة « **الدستوري** » في مقال لها في عددها الصادر في ٣٠ آذار ١٨٢١ ، ووقفت « **البريد الفرنسي** » بجانب الاغريق وتبعتها الجرائد الحرة . وعلى منبر المجلس النيابي كان أول الخطباء الذين تكلموا لصالح الاغريق بنجامن **كونستان** في ١٤ أيار ١٨٢١ ، ثم الجنرال **فوا** . ويضاف أيضاً إلى الفكرة الثورية ، الفكرة الدينية . ومما يلفت النظر أن يرى في حركة محبة الهلنية هذه اشتراك القابضين على الارثوذكسية في أوربة الشرقية ، في روسيا ، والكاثوليك في فرنسا مثل بونارد و « **جريدة المناقشات** » او جينود في « جريدة فرنسا » الذي اعلن الحرب الصليبية للمسيحيين ضد العثمانيين ، ضد المسلمين في الأصل ، وايضاً البروتستانت ، في انكلترا وفي جونيف . وهكذا بدت القضية اليونانية ، مثل قضية المسيحية ، حرباً صليبية على الاسلام . واخيراً يضاف إلى صف رجال الآداب ثوربون أو

مسيحيون ، وكلهم باحثون عن المغامرات ، وكانوا كثراً في اوربه في اعقاب حروب الثورة ونابوليون ، ولم يجدوا عملاً بعد ان توطد السلام في العالم فذهبوا إلى اليونان للبحث عن المغامرات التي لم تسمح لهم بها اوربة .

وفي ١٨٢٣ وضح التوثيق عن الحركة الاغريقية في أوربة بنشر قصص المتطوعين الأوائل ، الذين ذهبوا إلى اليونان وقصوا أعمال الاغريق ، مع معرفة الحوادث البطولية للباليكار والبحارة التي انتشرت في أوربة . وكان الدبلوماسي الفرنسي بوكوفيل أول من عرف أوربة باليونان الحديثة . بدأ في العام ١٨٢٤ بنشر « تاريخ تجديد اغريقية » وفيه يسرد قصة جميع الحوادث في شبه الجزيرة. ونما أيضاً تبسيط المعارف عن اليونان المحدثين في نمط حياتهم ، وأدبهم ، وأفكارهم ، مع مؤلفات مثل مؤلفات فوريل عام ١٨٢٣ في « الاغاني الشعبية في اغريقية الحديثة » ومؤلفات الدرامي نيبوموسين لوميرسيه. وابتداء من ١٨٢٤ ظفرت القضية الاغريقية عامة في أوربة في الرأي ، وفي السنة ١٨٢٥ بخاصة . وفي فرنسا نشر مؤلفان مطالبان لصالح اليونان : الأول للشاعر لامارتين وهو آخر اغنية ل « حج تشايلد هارولد » والثاني للكاتب شاتو بريان وهو « مذكرة عن اليونان » . وكان موت بايرون في ميسولونغي اشارة لاستئناف الحملة . يضاف إلى ذلك الهياج المفجع الذي هز أوربة أمام نكبة سنة ١٨٢٦ ، عندما سحق اليونان تباعاً في كانديا ، وفي البحر ، وفي ميسولونغي . ولقد وقفت أوربة كلها في ذلك الحين لصالح اليونان . وكانت باريس وجونيف مركزي ونقطتي حشد لمحبي الهلنية ، كما كانت مونيخ في المانيا .

ولكن الحركة لم تكن حركة رأي فقط . فقد كانت محبة الهلنية في الأصل أمراً واقعاً . وقد جرى أول انطلاق للمتطوعين الأوربيين إلى

اليونان في مرسيليا في ١٨ تموز ١٨٢١ ، وضم ثمانين شخصاً ذهبوا للانخراط في صفوف الاغريق ، مثل **الفرنسيين** بالبست ، فوتيه ، ريغبو ، و **الانكليز** غوردن ، آبني هاستينغز ، **والايطاليين** ، مثل سانتا ـ روزا . وهؤلاء المتطوعون عموماً أحرار ، وضباط وضباط صف جاهزون من الجيش الامبراطوري ، ومغامرون من كل نوع . ثم تتابعت قوافل المتطوعين في السنوات التالية دون أن تقف . وكان مجموع الحركة منسقاً بلجنة محبي الهلنية في باريس ويرأسها شاتوبريان .

وكانت هذه اللجنة تجمع في باريس وفي جونيف الهبات والاكتتابات نقداً وعيناً ، ويديرها صاحب مصرف في جونيف يدعى **اينار** . ونظمت هذه اللجنة عودة اليونان الذين يريدون الرجوع إلى بلادهم ، وقوافل المتطوعين ، وإرسال الملابس والأسلحة . ووجد ٤٢٣ متطوعاً أوربياً ذهبوا إلى اليونان . وقدر ثمن مجموع البضائع التي أرسلت إلى اليونان بـ ٦ ملايين فرنك ، كما أرسل اليهم مليون ونصف المليون فرنك نقداً سائلاً .

ـ وهذه الحركة المحبة للهلنية تبدو لنا نوعاً من حركة وجدان جماعي لكل أوربة الغربية ولكل أوربة الروحية ، وكان هدفها ونتيجتها الضغط على الحكومات لاجبارها على نجدة اليونان . وفي فرنسا اجبرت حركة الرأي حكومة فيلّيل ، التي تبنت سياسة الجمود ، على الاسهام في العمل .

ولكن هذه الحركة لم تنتشر في أوربة وحدها ، بل في الولايات المتحدة ايضاً . وكانت بوسطون اكبر مركز لمحبي الهلنية في الولايات المتحدة . وأرسل الاميركيون نجدات هامة مالية إلى اليونان . وتكررت أمام الكونغرس الاميركي تدخلات الرجال السياسيين ، وبخاصة دانيل ويبستر ، والقوا بتصريحات لصالح الاغريق ، وطلبوا بان يكون

للولايات المتحدة تمثيل دبلوماسي لدى الحكومة الثورية اليونانيـة . وفي رسالة الرئيس مونرو الشهيرة المؤرخة في ٢ كانون الاول ١٨٢٣ نجد مقطعاً يعلن بأن القضية اليونانية قضية عادلة مع التصريح بأن امريكا ، كما نعلم، لن تتدخل في شؤون أوربـة ، وبالمقابل لا تريد أن تتدخل أوربة في شؤون امريـكا . وارسلت فرقة بحرية اميركية إلى مياه الارخبيل اليوناني ظلت تتجول طوال صيف١٨٢٥ تحت قيادة ضابط البحرية(الكومودور) رودغرز .

ومن جهة أخرى ، ان الاوربيين ، الذين كانوا في الميدان ورأوا ماذا يجري ، عادوا وهم لصالح الاغريق ، نذكر منهم القناصل والبحارة . ففي الاصل كان هؤلاء الناس معـادين أو على الاقل مترددين في قضية الاغريق ، ولا سيما البحارة ، الذين كانوا يرون قرصنة الاغريق وتخفيهم غالبـاً تحت ظواهر وطنية ، والذين اضطروا بأعمال الاغريق العنيفـة إلى حماية التجارة الأوربية . وكانوا يرون في ميدان المعركة الشقاق يقسم هذه العصابات الاغريقية ، واذا كانوا في الأصل قليلي العطف على الاغريق وقليلي الثقة بفوزهم ، فقد بدلوا رأيهم تدريجياً ،لأن الاعمال العنيفة التي ارتكبها الاتراك أدت بهم إلى التفكير بأن من الضروري التدخل بـين الجلادين والضحايا ، وهكذا امكن انقاذ سبعة آلاف اغريقي من أيدي الاتراك بالسفن الفرنسية . ونظم القناصل الفرنسيون ملاجىء ووزعوا الاعانات على المنكوبين . ثم ان الملاحين والقناصل فزعوا من أعمال النفي التي يقوم بها الاتراك في نقل سكان المدن الاغريقية إلى مصر مثلاً أو إلى آسيـا الصغرى . وتأثرت انكلترا جداً في كانون الثاني ١٨٢٦ بالمشروع الذي نسب إلى محمد علي في نقل جميـع شعب البيلوبونيز إلى مصر . وقد وجد فرنسي يعمل لحساب الحكومة المصرية ويقوم بتنظيم الجيش المصري، وهو

الكولونيل سيف ويسمى سيف ـ سليمان أو سليمان باشا . ولم ينس سيف اصوله الأوربية ، فعهد بجزء من سكان آكايس إلى الملاحين الفرنسيين عوضاً عن نفيهم إلى مصر . ونرى هنـــا مثلاً يتكرر عدة مرات وهو أن العلاقات الطيبة بين فرنسا ومصر قد ساعدت على العمل لصالح الاغريق . وهكذا اخذت الشفقة الناس فضغطوا على حكوماتهم ليذهبوا بها إلى تفهم الأشياء فهماً صحيحاً . وفي شهر تموز ١٨٢٦ ، مثلاً ، كان الاميرال دو رينيى ، الذي يقود الموقع الفرنسي في مياه الشرق ، متشائماً في قضية اليونان : فهو يرى انها ضاعت تقريباً . ويعتقد بأن الخطر هو أن التدخل الاوربي ، ولو حدث ، ربما كان غير مجد ، وقد قال : « الا يبدو لنا أننا نقترب من اللحظة التي ستنصح فيها السياسة نفسها البشرية ؟! » واختتم في تقرير له عن الاعمال التي قام بها جيش ابراهيم في موريه بقوله : « ان الاتراك يستطيعون الابادة ولا يستطيعون التهدئة ، اذن يجب التدخل » . وعلى هذا النحو تدخلت البشرية أمام السياسة .

والسبب الثاني في هذا التدخل هو دعوة اليونانيين اليائسة لأوربة عندما اوشكوا على الانهيار : فقد القى لفيف من الاساقفة وزعماء المدن والزعماء العسكريين نداء في ٢٦ تموز ١٨٢٥ يطلب فيه من انكلترا ، لأنها الدولة الوحيدة التي كانت حكومتها تعطف على قضية اليونان ، ان تأخذ على عاتقها حماية اليونان . ويقول هذا النداء : « ان الأمة الاغريقية تودع طوعاً وديعتها المقدسة لحريتها ووجودها السياسي تحت حماية بريطانيا العظمى الخاصة » . ولكن طلب الحماية من انكلترا أثار احتجاجاً مباشراً من قبل الدول الأخرى وبخاصة النمسا والروسيا . فقد هدد القيصر باحتلال مولدافيا مباشرة اذا قبل الانكليز اقتراح اليونان . ومن جهة أخرى ، كان قسم من اليونان معادياً لفكرة الحمـــاية التي تستلب الوجود القومي ، ونخص بالذكر

منهم مافروكور داتو ، كوليتيس ، ديمتريوس يبسيلانتي . وأمام هـذا الاحتجاج رفض كاننغ الحماية وصرح ببقاء انكلترا محايدة وتمسك بالاعتراف بان الاغريق محاربون .

وعند فقدان الحماية طلب اليونان وساطة انكلترا بين الأتراك وبينهم . وفي شهر نيسان ١٨٢٦ قدموا هذا الطلب إلى السفير الانكليزي الذي التحق بالقسطنطينية ومر بطريقه بالمياه اليونانية ، وهو سترافورد -كاننغ ، ابن عم الوزير . ودعم المجلس القومي في ابيدور طلب الوساطة . وقبل اليونان مبدأ سيادة الأتراك التي يدل عليها بدفع الضريبة إلى السلطان شريطة الا يبقى على الأرض اليونانية أي ملكية تابعة للأتراك ، وأي حصن تركي ، وأي سلطة ادارية تركية . وطلبوا بان يمتد هذا الاستقلال الذاتي ، الذي يطالبون به ، على جميع البلاد المأهولة باليونان ، وعلى جميع المناطق الثائرة ، وأن تقوم هدنة مع ضمان من انكلترا لتنفيذها . والحقوا في ١٦ نيسان طلب الوساطة الانكليزية بنداء مؤثر إلى اوربة . وعلى هذا قبل اليونان ببعض التقييد لمطاليبهم الاولى ، لأنهم قبلوا الاعتراف بسيادة الأتراك ، ولكنهم احتفظوا بكل ما هو أساسي ببرنامجهم القومي من وجهة نظر تحديد الأرض ومن وجهة نظر الحياة السياسية الداخلية . ومن البديهي أن السلطان لم يكن مستعداً لوساطة أي دولة ، وأن يرفض الاتراك رفضاً باتاً عندما تكلم السفير الانكليزي بذلك: «ان الباب العالي لايسمح بأن يتدخل في شؤونه الداخلية . ان الاغريق رعاياه ، وليس لأحد الحق في التدخل بينه وبينهم » .

شعر الأغريق أمام هذه المصائب بضرورة التنظيم الذي ينقصهم حتى الآن . وغداة سقوط ميسولونغي انتخب في ابيدور مجلس مؤلف من

أحـــد عشر عضواً على أن يكلف بادارة شؤون الاغريق ويمثل جميع المناطق الثائرة . وكان يوجد مثلاً في لجنة الادارة هذه ممثل عن مانيا ، وهو زاايميس ، وممثـل عن ميسولونغي ، تريكوبيس الخ ... ولكن في الواقع ، كانت هذه اللجنة الادارية دون سلطات حقيقية . ولذا قلبهـا الجنود المرتزقة من السوليين أو الرومليين وطردوها بل وحبسوهـــا في ناوبليا ، ثم انعقد مجلس قومي ثالث في تريزين في شهر أيار ١٨٢٧ وسن دستوراً مؤلفاً من مائة وخمسين مادة يضمن جميع الحريات السياسية ، وهو دستور ديموقراطي بصورة متطرفة . وبموجبه ينشأ مجلس شيوخ ينتخب لثلاث سنوات مع رئيس للجمهورية ووزراء مسؤولين ، ومحكمه تمييز توجه العدل بشكل حيـــادي . وبانتظار انتخاب رئيس الجمهورية ووصوله عهد بالوصاية إلى ثلاثة أشخاص ، وكان هذا العمل رسماً أولياً لحكومة مركزية .

وشعر الاغريق بأن الحكومة الاغريقيـــة ، التي يوجهها اغريقي من البلاد . لا يطيعها الآخرون . وشعروا أيضاً بانهم بحاجة إلى كفيل حيال اوربة . ولذا انتخبوا رئيساً لليونان كان دبلوماسياً روسيا ، ووزيراً قديماً للقيصر الكسندر الأول ، ومن أصل يوناني ، ولد في كورفو ، واسمه كابو ديسترياس ، فقد حظوته لدى القيصر ، وكان في ذلك الحين في جونيف ، فقبل حالاً بالمهمة التي اراد اليونان أن يعهدوا بها اليه ، وبدأ بمساع دبلوماسية ليستطيع العودة إلى اليونان . وبانتظار وصوله حاولت الوصاية المؤلفة من ثلاثة اشخاص أن تحكم البلاد ، ولكنها كانت مجردة من كل سلطة . وكان الشقاق بين الزعماء العسكريين والارخونتس ، أي الزعماء المدنيين ، مستمراً ، وظلت الفوضى والفساد في كل مكان قاعدة الحياة في اليونان ، كما في السابق .

والسبب الثالث للتدخل الاوربي جديد وهو اعتلاء القيصر نيقولا الأول عرش روسيا . فقد خلف أخاه الكسندر الاول في شهر كانون الاول ١٨٢٥ ، وظل منهمكاً بعض الوقت في روسيا للقضاء على حركة ثورية قامت في البلاد ، وكانت مفاهيمه مغايرة لمفاهيم أخيه وسيوجه السياسة الروسية تبعاً لها : كان نيقولا ينكر فكرة التضامن الاوربي ، فكرة الكسندر ، التي ضحى كل شيء في سبيلها ، حتى القضية اليونانية . لقد سلك نيقولا سياسة روسية محضة وتخلى عن مثالية أخيه وسار باتجاه واقعي ، وباعتباره روسياً ، عاود التوسع نحو البلقان . وكان من طبيعة هذه السياسة ان تجعله يتدخل لصالح اليونان . وكان يريد تسوية شؤونه بنفسه وعوضاً عن سياسة الكسندر الجامدة قام بسياسة نشيطة وتدخل في كل مكان تقريباً . وآل الأمر بالدول ، لسد الطريق أمام الروس في الشرق ، إلى تصور الأخذ بمنفعة اليونان ، لا في سبيل الاغريق انفسهم ، بل ضد روسيا . وقررت انكلترا خاصة ، للحيلولة دون التوسع الروسي في البلقان أن تكون وسيطة ، وستكون كذلك لتحول دون وساطة روسيا ، فاذا تدخلت هذه ، استطاعت انكلترا أن تقنع الدول بأن يبقى التدخل الاوربي قائماً على قواعد سلمية ، وان تقيد الروس بوعد التجرد وعدم المنفعة بشكل متقابل بين الدول في البلقان .

ولكن الحكومة الروسية ، التي ارادت تسوية شؤونها مع تركيا ، لم تكن لتهتم تماماً بالاغريق ، فلم تكن القضية الاغريقية لتهم الروس ، بل قضية الاقاليم الدانوبية . وقد صرح القيصر نيقولا إلى السفير النمساوي بأنه لن يحارب في سبيل « متمردين » وينظر إلى الاغريق بنفس وجهة النظر التي نظر اليهم بها سلفه الكسندر الاول ، وبنفس وجهة نظر مترنيخ أيضاً . ولكنه دل من جهة أخرى على أنه سيحارب الترك ،

إذا اقتضت الحال ، لصيانة المصالح الروسية ، مصالح امبراطوريته . ولهذه الغاية أرسل، في ١٧ آذار ١٨٢٦ ، انذاراً إلى السلطان يطلب فيه أن يسلم الأقاليم الدانوبية في الحالة التي كانت عليها قبل ١٨٢١ ، وان ينفذ معاهدة بخارست لعام ١٨١٢ لصالح صربيا ، واعطى الاتراك مهلة ستة اسابيع للتخلي ، واذا لم يتم ذلك استدعى القائم بالاعمال من سان بطرسبورغ . وهذا الانذار الروسي المتعلق بالاقاليم الدانوبية ، دون الاغريق ، أحدث بالطبع خوفاً كبيراً في أوربة ، حتى ان فرنسا أسدت إلى الاتراك نصائح عاجلة بالاعتدال والتنازل ليجتنبوا ما هو اقبح . وبعد مفاوضات دقيقة بين الاتراك والروس توصل الطرفان إلى اتفاق آكرمان في ٦ — ٢٦ تشرين الاول ١٨٢٦ وسويت بموجبه قضية الاقاليم الدانوبية : وذلك بان تسمي الحكومة التركية هوسبوداراً جديداً في كل من البغدان (مولدافيا) والافلاق (فالاشيا) برضى الحكومة الروسية . كما حصل الروس على امتيازات تجارية في البحر الأسود وعلى عبور سفنهم التجارية بحرية في المضايق ، وأخيراً أصبح الاستقلال الذاتي ، الذي وعدت به صربيا ، عام ١٨١٢ ، أمراً واقعاً وحقيقة . وفي كل هذا لا نجد قضية لليونان ، لأن المقصود بالذات هو القضايا البلقانية خاصة ، ولأن القضايا الدانوبية وحدها هي التي تهم الروس .

تدخل الانكليز ضد هذه السياسة الروسية ولعبوا بالنار . وللحيلولة دون التدخل الروسي وامتداده نحو الجنوب ، وتجنب حرب بين تركيا وروسيا يمكن أن تؤدي إلى انهيار الامبراطورية العثمانية مع جميع النتائج الخطيرة التي لا يمكن التنبؤ بها ، قبل الانكليز بأن يتركوا الروس احراراً على الدانوب وتكفلوا هم انفسهم بالقضية الاغريقية . وعلى هذا الاساس وقعت الحكومتان بروتوكول ٤ نيسان ١٨٢٦ الذي وضع

أساساً لتسوية ممكنة بين الاغريق والترك . وعلى هـذه الأسس توسط الانكليز ودعمهم الروس ، وصرحت الدولتان بالتقابل بان ليس لهما اطماع ارضية أو سياسية أو تجارية ، واتفقتا على تسوية القضية الاغريقية وضمان الدول لها عند المصالحة بين الاغريق والترك . وبفضل هذا البروتوكول ، الذي قيد لحد ما الروس ، ايقن الانكليز أن الروس لن يتدخلوا في القضايا اليونانية وبالتالي في قضايا البحر المتوسط .

لقد وضع الانكليز السد في وجه الروس ، ولذا لم يهتموا كثيرا بالوساطة التي نص عليها . ومضى على هذا النحو قرابة خمسة عشر شهراً من المفاوضات المختلفة البطيئة مع المهلات الضرورية . وكانت هذه المفاوضات بصورة خاصة مع فرنسا ، لان هـــذه الدولة احتجت على التسوية التي تمت دون مشاركتها ؛ هـذا مع العلم بأن فرنسا وعلى الاقل الحكومة الفرنسية لم تكن لتعطف على اليونان باكثر مما كانت تعطف عليهم الحكومة الانكليزية . وفي الحقيقة ، ان فرنسا كانت تلعب بالورقة المصرية وتخشى ، من جهة أخرى ، أن تثير رد فعل روسي يمكن أن يؤدي إلى تعقيدات ، وربما إلى خطر حرب أوربية ؛ وأخيراً كانت تريد أن تشرك جميع الدول في هيئة واحدة للتدخل في اليونان . وانتهت هذه المفاوضات البطيئة المتباطئة على هذا النحو بتحويل البروتوكول الانغلو — روسي الى معاهدة بين الدول الثلاث : فرنسا روسيا ، انكلترا . وارادت النمسا وبروسيا أن تبقيا خارجاً عن هذه المعاهدة التي وقعت في ٦ تموز ١٨٢٧ .

تنص هذه المعاهدة على تسوية القضية اليونانية بشكل يبقى فيه السلطان العثماني سيد البلاد ، على ان يدل على هذه السيادة بدفع ضريبة سنوية ، وان يحكم اليونان بسلطة ينتخبونها بانفسهم مع إسهام الحكومة التركية

في الدلالة على زعيم البلاد ، وان تحل قضية الاملاك التركية في البلاد الاغريقية مقابل تعويض يدفع الى المالكين ، وأن تناقش حدود اغريقية بين الدول الثلاث والطرفين المعنيين. كما نصت الدول على وساطتها بين الاغريق والترك بمساع جماعية ، وعلى الطلب إلى الخصمين في الوقت نفسه أن يعلقا عداءهما وان يبرما بينهما هدنة تسمح بالتفاوض . وأخيراً سجلت المعاهدة تصريحاً رسمياً ومتقابلاً بالنزاهة والتجرد ، ونصت على الضمانة التي تعطيها الدول لتسوية القضية الاغريقية . وإذا رفض الاتراك وساطة الدول ، اقامت هذه الدول عملاء تجاريين لدى الاغريق ، وهذا يعني الاعتراف لهم ، لحد ما ، بوجود قومي . وفي الحالة التي يرفض فيها المتحاربون تعليق السلاح ، الهدنة ، تتدخل الدول للحيلولة دون استمرار العداء ولكن دون ان تسهم نفسها في الحرب .

ونرى أن تاريخ هذه المعاهدة ، ٦ تموز ١٨٢٧ ، تاريخ متأخر جاء بعد فوات الأوان ، أي في الوقت الذي سقطت فيه آثينة وكانت الموقع الوحيد الذي بقي للاغريق على القارة ؛ ولم يبق لهم بلاد حرة الا منطقة ناوبليا وآرغوس وبعض الجزر المجاورة ، وقسماً من جزر سيكلاد . ونرى أيضاً ان هذه المعاهدة كانت خجلى ، لأنها لا تتصور انشاء دولة اغريقية ، فضلاً عن أنه كان يعلق منح هذه الامتيازات الى ارادة الاتراك الطيبة . ولم تتكلم الدول بلغة القوميات. حتى انها لم تتكلم بلغة الإنسانية بل ظلت في مضمار السياسة البحتة ، السياسة الأنانية وغير الانسانية .

هذه هي الاحداث التي اجبرت الدول على الذهاب بعيداً والانتقال الى العمل الفعلي حتى جرها اشتباك الأمور وتعقيدها الى أبعد مما تريد . ومن جهة أخرى ، توفي كانتغ رئيس مجلس الوزراء ووزير الشؤون الخارجية البريطاني في ٨ آب ١٨٢٧ ، وبوفاته أصبحت السياسة الانكليزية أقل

نشاطاً وأقـــل جرأة في عهد خلفـــائه . وفي آخر العام ١٨٢٧ أطاحت الانتخابات في فرنسا بوزارة فيّليل ، وفي الوزارة التي تشكلت في كانون الثاني ١٨٢٨ استلم وزارة الخارجية الدبلوماسي لافيرونيه ، فقوم السياسة الفرنسية ، وكان في هذه القضية الشرقية على وفاق ، كالملك ، مع الرأي العام ، وعندما سويت هذه القضية كانت السياسة الفرنسية في الصعيد الأول وامحت السياسة الانكليزية أمامها .

ان التعليمات ، التي أرسلتها الحكومات الى السفراء وأمراء المـاء ، لتنفيذ معاهدة ٦ تموز ١٨٢٧ ، وصلت اليهم في بداية شهر آب . ولذا انتقل العمل من يد الحكومات الى يد العمال المحليين . ولقد رأينا أن هؤلاء العمال المحليين كانوا يعطفون على الاغريق أكثر من حكوماتهم ، وبخاصة أمراء الماء ، الذين فسروا المعاهدة قراراً بالتدخل لصالح حرية الاغريق . ونخص بالذكر من الأمـراء الانكليز كورينغتون ، وكان بحاراً نشيطاً من مدرسة نلسون ، ومحباً للهلنية ، وثائراً على الفظاعات التي شاهدهـا ؛ ومن الأمراء الفرنسيين ، دوريني ، الذي أصبح محباً للهلنية أيضاً ووجه العمليات البحرية وجعلها تدور لصـالح الاغريق . وقد قام الاميران ، على اثر التعليمات التي تلقياها ، بمساع لدى الاغريق في ٣٠ آب ، وقـالا بأن الدول اقترحت وساطتها على الباب العالي ، حسب رغبة الحكومة الاغريقية ، ولتسهيل هـذه المفاوضة يطلب الى المتحاربين تعليق العداء . واستبشر الاغريق خيراً بقبول هـذا الاقتراح مباشرة ، لأنه ينقذهم من خراب عسكري كلي . وقام السفراء بالمساعي لدى الاتراك في ١٦ آب ، واقترحوا على الحكومة التركية وساطـة الدول ، وتعليق العداء للسماح بهذه الوساطـة . فاذا رفض الأتراك أو سكتوا عن هذا الاقتراح ، فمن الضروري اتخاذ التدابير الناجعة المؤدية

الى ايقاف العداء ، وقد رفض وزير الشؤون الخارجية ، الريس أفندي ، أن يأخذ علماً بالمذكرة التي قدمت اليه واضطر السفراء أن يتركوها على كرسي لتعرف الحكومة التركية مضمونها اذا أرادت . وأثار تدخل الدول غضب السلطان . وفي ٣١ آب سلم السفراء مذكرة تعلم بأن الدول ستلجأ الى التدابير الضرورية لايقاف العداء بشكل ناجع ، وفي اليوم التالي أرسلت التعليمات الضرورية لهم . وقد حاول السفير الفرنسي غيّمينو ، الذي يتمتع بسلطة خاصة لدى الأتراك ، ان يلطف هذا المسعى ، وأن يفهمهم ضرورة التنازل في هذه القضية ، ولكن جهوده كانت غير مجدية . وصرح الأتراك في نهاية المهلة : « ان جوابنا هو أن الباب العالي لايستطيع ولن يستطيع أبداً أن يسمع بشيء لصالح الاغريق ، وهذا التصريح ايجابي ومطلق وقطعي » . وعندئذ أعطي الأمر في ٤ ايلول الى أمراء الماء بالتدخل للحيلولة دون الحرب ، وفي ٩ منه أعلم الباب العالي بالانتقال الى تنفيذ التدابير الضرورية . ومع هذا فان السفراء حافظوا على اتصالهم بالأتراك : وليس في هذا العمل أي تصريح بالحرب حيالهم . غير أن رفض الأتراك وتعنتهم دفعا الدول في سياسة ايجابيــة ، وكانت نفسها قلقة من هذه السياسة .

لقد كانت الاستعدادات التركية في الواقع هامة وتبدو أنها قادرة على القيام بضربة حاسمة : فقد كان الاسطول المصري الضخم متجمعاً في الاسكندرية لنقل النجدات الى البيلوبونيز وضرب الاغريق الضربات الأخيرة . وقد غادر الاسكندرية، في أول آب ١٨٢٧ ، والتحق بالاسطول التركي الموجود في ميناء نافارينو ، ووصل اليه في ٧ ايلول . واجتمع في نافارينو حشد من السفن التركية والمصرية بلغ عددها ١٢٦ سفينة .

وفي الوقت نفسه ، كانت جيوش ابراهيم تجتاح بانتظام آشية ومسينيا . وكان أمراء الماء الأوربيون ، وهم على سفنهم ، يرون بخوف وغضب حريق القرى وفرار السكان ، ويحاولون بتظاهرات منع هذا التخريب ، ولكن دون جدوى .

والتقت المحطتان الفرنسية والانكليزية في الشرق في جزيرة زانت في ٢١ ايلول ، ثم التحقت بها بعض السفن الروسية في ١٣ تشرين الأول . وكان هدف هذا التجمع البحري منع العمليات التي يريد الاسطولان المصري والتركي القيام بها في جزيرة هيدرا ، أي حصار حكومة الجزر اليونانية . وقد أعلم دوريني ابراهيم باشا بذلك في لقاء معه في٢٢ ايلول، وفي وقت كانت تقوم فيه مساع في الاسكندرية لدى محمد علي ، فوعد الحكومة الفرنسية بالعمل معاً . ولكن محمد علي وابراهيم كانا مقيدين بأوامر السلطان . ولذا لايمكنها أن يتفقا مع الأميرال دوريني الا بشكل غير رسمي ليكتفي المصريون بتظاهرة الأساطيل الحليفة لايقافهم في عملهم الممكن ، ووعدا باجتناب كل حادث . وعندئذ ، أي في ٢٥ ايلول ، أعرب أمراء الماء رسمياً الى ابراهيم بأنهم لايقبلون باستمرار الحرب أكثر من ذلك ، والتقت الأساطيل الحليفة في عرض نافارينو .

وفي الأول من تشرين الأول جرت محاولة من قسم من الاسطول التركي خرج من نافارينو متجهاً الى باتراس ، في مدخل خليج كورنث ، ليمد يد العون الى الجيوش التركية في هذه المنطقة . ولكن هذا الاسطول لاحقته السفن الحليفة واضطرته الى الدخول ثانية الى نافارينو في ٥ تشرين الأول . غير أن التخريبات المتلاحقة ،التي كان يقوم بها الأتراك ، أفقدت أمراء الماء صبرهم ، ورأوا بعد محاولة خروج الاسطول ومتابعة التخريب بأن لاسبيل لهم الى الاعتماد على الأتراك .

وعندئذ قرر الأميران دوريني وكودرينغتون اجبار الاسطولين التركي والمصري على الانفصال عن بعضها وعودة احدهما الى القسطنطينية والآخر الى الاسكندرية ، واذا رفضا هددا بهجوم مباشر .

وللقيام بهذه التظاهرة وهذا الإخطار دخلت الأساطيل جون نافارينو حيث تجمع الاسطولان التركي والمصري في ٢٠ تشرين الأول ، ووجد فيه ٢٤ سفينة حليفة ضد ٩٠ سفينة تركية . وقد حدث حادث لايمكن اجتنابه ، وذلك ان الأتراك أطلقوا النار على زورق مفاوضين من الحلفاء واشتعلت النار ، وفي بضع ساعات غرق الاسطول التركي والاسطول المصري أو أحرقا أو أخفقا على يد السفن الحليفة . وهكذا جرد الأتراك في حرب نافارينو من السلاح على البحر وبالتالي أصبحوا غير قادرين على كسر ما تبقى من مقاومة اغريقية في الجزر ، ومعزولين في موريه ، لانقطاع مواصلاتهم مع مصر .

غير أن حرب نافارينو ، من جهة ثابتة ، كانت تدخلاً فعلياً في نزاع بين الأتراك والاغريق ، مها كانت رغبة الحكومات في البقاء خارجاً عن النزاع . ولكن نتائج حادث نافارينو حولت التدخل الأوربي تماماً . وأثارت هذه الواقعة حماسة كبيرة عند الاغريق ، ورأوا فيها سلاماً وتشجيعاً لمتابعة عملياتهم فنظموا حملات على كانديا وعلى كيو ، كما نظم الكولونيل فابيه حملة على خليج آرتا وعلى مدخل كورنث ، والاميرال الانكليزي تشورتش ، الذي كان يعمل لخدمتهم ، على بريفوزا . وانتظموا من جهة أخرى في حكومة ، ووصل كابو ديسترياس في ١٨ كانون الثاني ١٨٢٨ ، وأخذ الحكم بيده ، كمجلس الدولة « البانهلينيون » الذي يحل محل المجلس ، وانحنى الزعماء العسكريون أمامه ، وقبلوا سلطته ،

والتفوا حوله . وفي الوقت نفسه أضفت نافارينو على محبة الملنية الأوربية عظمة ظافرة .

ومن نتائج موقعة نافارينو أنها أفسدت العلاقات بين الدول والباب العالي كما أفسدت علاقات الدول فيما بينها . فقد أكدت الدول عبثاً للحكومة التركية بأن سياستها لم تتبدل ، وانها تكن لها أفضل العواطف. ورأى الأتراك أن ظاهرة الصداقة هذه كانت في غير محلها تقريباً . وفي ١٠ تشرين الثاني أكدت مذكرة أوربية بأن الدول لاتفكر الا بتنفيذ معاهدة لندن وتهدئة النزاع بين الاغريق والترك . ومن الطبيعي أن يجادل الأتراك بعنف وجهة النظر هذه ويطرحوا كل اقتراح للسفراء . واضطر هؤلاء الى مغادرة القسطنطينية في ٨ كانون الأول . وفي ٢٠ منه أعلن السلطان الحرب المقدسة (الجهاد) بين المسلمين . ولكن ، اذا أفسدت نافارينو العلاقات بين الدول والحكومة التركية ، فقد أفسدت العلاقات بين الدول نفسها . فقد عادت بسرعة تؤكد أسس اتفاقها في تصريح مؤرخ في ١٢ كانون الأول ١٨٢٧ ، وزعمت فيه بانها لا تريد سوى تهدئة النزاع على الأسس التي قررتها فيما بينها ، وأعربت من جديد عن تخليها عن كل نفع أرضي وسياسي ورغبت في التعاون . وفي الواقع كانت انكلترا والنمسا فائرتين من نتائج التظاهرة ومن «حادث نافارينو المؤسف» كما وصفته الحكومة الانكليزية في خطاب العرش وخافت أن تفيد منه روسيا للتدخل في الشؤون الشرقية . أما روسيا فقد قلقت على مصالحها السياسية والتجارية في البحر الأسود ، بعد أن علقت بسبب القطيعة مع الأتراك . ومن جهة أخرى ، كان رد فعل الروس شديداً ضد اعلان الحرب المقدسة بين المسلمين . واتسع الجدل بين وجهات النظر المتعادية لكل من انكلترا وروسيا . وفي ٢٦ شباط

أعلم الروس بضرورة العمل معاً ، وإذا لم يشأ أحد أن يعمل ، فان روسيا عند الحاجة تعمل وحدها للدفاع عن مصالحها ، وصرحت بأن من الممكن انتهاز الفرصة لفرض معاهدة لندن على الأتراك . وأخيراً أعلنت روسيا الحرب على السلطان ، في ٢٦ نيسان ١٨٢٨ ، وأجتازت الجيوش الروسية نهر البروت في ٧ أيار .

ومن هذا الاختلاف بين مصالح الدول خرجت فائدة اليونان . لقد أصبحت الأزمة الانكليزية ـ الروسية في الواقع مهددة ، وبدا أن النزاع سيقع بين انكلترا وروسيـا ، واضطرت فرنسا أن تقوم بدور الحكم بين الدولتين : وبرع لافيرونيه بالعمل لدى الجانبين : في لندن وسن بطرسبورغ ، وانتهى باعداد ترتيب جعله مقبولاً . ويجنب هذا الترتيب وقوع أزمة بين الدولتين : وذلك بأن يترك الروس يسوون شؤونهم مع السلطان على نهر الدانوب ، لعدم وجود وسيلة للعمل غير ذلك ، ولكن من الممكن ربط الروس باتفاق يحدد بصورة وثيقة جداً عملياتهم في القضية الدانوبية ، على أن تتكفل الدولتان الأخريان ، مع دعم الروس المعنوي ، بالقضية اليونانية . وعلى هذا النحو تبقى العملية الروسية محصورة في البلقان ولا تطغي على البحر المتوسط . ولما رفضت انكلترا التعاون في العمليات العسكرية ، التي ستكون ضرورية في اغريقية ، أخـذت فرنسا على عاتقها العمل في اغريقية باسم الدولتين الأخريين ، روسيا وانكلترا . وقد أقر هذا الترتيب بمعاهدة الدول الثلاث في ١٩ تموز ١٨٢٨ . وفي الوقت نفسه أعلم السلطان بمتابعة الهدف نفسه دوماً وهو مصالحة الأتراك واليونان فقط .

وفي منتصف شهر آب أبحرت حملة فرنسية يقودها الجنرال ميزون من ميناء تولون ، وكانت تضم ١٥٠٠٠ رجل ، وتلقت تعليمات بالا تقوم

بالحرب إلا بعد نفاد أي ترتيب سلمي . وفي الوقت نفسه ، قامت الحكومة الفرنسية بعمل نشيط لدى محمد علي وإبراهيم باشا . وقد ساعد التفاهم بين فرنسا ومصر على حل القضية الاغريقية حلاً سلمياً . فقد قبل محمد علي وإبراهيم، اعتباراً للسياسة الفرنسية وصداقتها ، بالانسحاب من القضية اليونانية . وتم اتفاق مبدأ بين الاميرال دوريني وإبراهيم باشا في بداية تموز ، وعندما وصل جيش الجنرال ميزون ، نظم اتفاق رسمي بين الباشا والاميرالين ، في ٧ ايلول ، شروط جلاء الجيش المصري خارج البيلوبونيز ، وبدأ جيش إبراهيم اقلاعه في ٨ ايلول على سفن حليفة من نافارينو على أن ينقل تدريجياً إلى مصر ، تحت اشراف الحلفاء وبتموينهم. وسلمت الحصون،التي كانت لجيش إبراهيم على أرض البيلوبونيز الواحد بعد الآخر،إلى الجيوش الفرنسية بعد تظاهرة عسكرية بسيطة مراعاة لشرف الجيش. وبعد هذا الفوز أقلع معظم جيش الحملة الفرنسية ، وترك في الموقع خمسة آلاف جندي فقط تحت قيادة الجنرال شنايدر،وسيبقون حسب الحاجة لانهاء تهدئة الحالة في البلاد .

تحررت ، على يد الحملة الفرنسية ، شبه جزيرة موريه والجزر المجاورة وجزر سيكلاد . ولم يتناول ضمان الدول الثلاث موقتاً إلا هذه الاراضي . وهكذا فرض جيش الحملة الفرنسية الهدنة في البر كما فرض كفاح نافارينو بالفعل ، الهدنة في البحر . ولكن لم تقع خسائر ، اذ لم يجبر أحد على الانتقال إلى العمليات العسكرية الفعلية ، لأن الحملة الفرنسية في موريه كانت كما نرى مفاوضة دبلوماسية أكثر منها مشروعاً عسكرياً ، ولكنها صنعت شرفاً عظيماً للحكومة الفرنسية ولقائدها ، بالشكل الذي قامت فيه وبالنتائج التي حصلت عليها . ومما يلفت النظر ان الحكومة التركية والحكومة المصرية والاغريق كانوا مجمعين على الفرح بالشكل الذي وجهت فيه فرنسا العملية .

وهكذا تمت معاهدة لندن : لقد علقت الحرب بين الاغريق والترك ، ولكن أساس القضية الاغريقية نفسه ظل معلقاً .

وصرح إلى الباب العالي في تشرين الثاني بالنتيجة التي حصلت عليها الحملة الفرنسية وبامكان تسوية القضية سلمياً بمفاوضات مشتركة. غير أن أسس لندن كانت عامة جداً ولا تدل إلا على حلول غامضة . ولذا ينبغي ايضاح هذه الحلول وأسس هذه التسوية بمفاوضة مزدوجة ، مفاوضة تجري ميدانياً مع الاغريق ، ومفاوضة تجري، من جهة أخرى ، بين الدول ، أي مفاوضة في اليونان نفسها ومفاوضة في لندن .

في شهر تشرين الثاني أعلمت الحكومات الباب العالي بالأسباب التي دعتها للعمل وبالأمل في الدخول معه بمفاوضات لتسوية القضية وتهدئة الحالة في الشرق . وقد درس السفراء أسس التسوية ميدانياً بادىء بدء في كورفو ، ثم انتقلوا في شهر ايلول ١٨٢٨ إلى جزيرة بوروس وهي جزيرة واقعة بين جزيرة ايجين وهيدرا . ولكن الأتراك رفضوا أن يفاوضوا خارج القسطنطينية . ولذا اتصل السفراء بالاغريق وحدهم فقط . وفي ٢٣ ايلول قدم الاغريق مذكرات طالبوا فيها ، لاغريقية الجديدة ، بتساليا وقسم من ابيروس وأوبيه وكانديا . وقدموا أيضاً مذكرة بنظام الدولة المالي . ومن جهة أخرى ، قام السفراء بتحقيق ميداني في ثمان وعشرين نقطة . وبهذه المفاوضة وحدها اعترفت الدول في الواقع بالحكومة الاغريقية . وكانت وجهات نظر السفراء في القضية متباينة . وفازت أخيراً وجهات نظر السفير الفرنسي غيّمينو ، وكان حراً أكثر من الآخرين . وفي ١٢ كانون الأول وجه السفراء إلى الحكومات مذكرة بما توصلوا اليه : فقد اقترحوا أن يكون لليونان أرض معينة بخط

حدود يبدأ من خليج آرتا على البحر الادرياتيك ، في جنوب ابيروس، وينتهي في خليج فولو على بحر ايجه ، في شمال اوبيه . وبالتالي تضم اليونان ، من جهة ، شبه جزيرة موريه واتيكا وبيوسيا وأكارنانيا ، ومن جهة أخرى ، سيكلاد . وأوصى السفراء أن تعطى الدولة أيضاً ساموس وكريت ، وأن يبقى اليونان تحت السيادة العثمانية المطبوعة بدفع ضريبة مليون ونصف المليون قرش في السنة ، وأن يأخذ الأتراك تعويضات عن الأملاك التي سيتخلون عنها ، وأن يتقلد رئيس الدولة منصبه من قبل السلطان .

وبعد أسابيع طويلة ، في لندن ، ظهرت فيها الاختلافات بين الدول كما ظهرت بين السفراء ، تبنى مؤتمر المفوضين فوق العادة مشروعاً نص عليه بروتوكول لندن المؤرخ في ٢٢ آذار ١٨٢٩ . وفيه تبنيت الاسس التي وضعت في جزيرة بوروس ، واعطي إلى الاتراك والاغريق حق الاختيار، اما البقاء في البلاد أو مغادرتها خلال عام . واقر العفو العام الذي يجب اجرام الحرب وعقوباتها الانتقامية . وعرفت حكومة الدولة الجديدة بأن تتقرب ما أمكن من المبدأ الملكي والوراثي ، وأن ينتخب الأمير خارجاً عن الأسر الحاكمة في الدول الثلاث الحامية . وعلى الدول إذا رأت ذلك صالحاً ، أن تضمن الدولة الجديدة. وهكذا تبنت الدول مبدأ بناء دولة اغريقية تحت سيادة تركيا ، دون ان تنفصل عنها تماماً مع اعطائها ارضاً ضيقة ومحدودة. وبالاجمال تبنت الدول حلاًعملياً للصعوبات برجوعها إلى اتفاقها القديم ، اتفاق شهر تموز ١٨٢٧ .

بقي على الدول ان تقنع الاتراك بقبول هذه التسوية . أرسلت إلى تركيا في البدء بعثة فرنسية على رأسها الدبلوماسي آميديك جوبير ، ثم كلف السفراء عند عودتهم إلى القسطنطينية في ١٨ حزيران ١٨٢٩ بالمفاوضة

وعارض الترك طلبات أوربة بعناد هادىء ، ولم يقبلوا شيئاً ، غير أنهم قبلوا في تموز باصدار فرمان يعدون فيه « بحكومة صالحة » وتسليم مؤخر الديون والضرائب . وفي الواقع كان الاتراك يعتمدون على اختلاف الدول للانزلاق فيما بينها والفرار من رغباتها. وفي الحقيقة،وجد الانكليز أن اغريقية كبرت كثيراً فأرادوا أن تقتصر على شبه جزيرة موريه والجزر . ومن جهة اخرى ، لم يتهيب الاتراك الحرب الروسية - التركية ، لأن الحرب الروسية لم تحصل بعد على نتائج . وكان الروس يقومون بطبيعة الحال بهذه الحرب دون أن يهتموا بالقضية الاغريقية ، لأن اهتمامهم كان منصباً على الاقاليم الدانوبية وحدها فقط . وقاموا بالحرب في جهة القوقاز وحصلوا فيها على نجاحات : فمن ذلك أن باسكيفيتش أخذ في العام ١٨٢٨ قسماً من ارمينية التركية ووصل إلى ارضروم ، ولكن الروس في أوربة كانوا يتحركون في العام ١٨٢٨ دون نتائج كبرى : فقد احتلوا دون صعوبة الاقاليم الدانوبية ، وهذا امر بديهي ، وتوصلوا الى نهر الدانوب بسرعة ولكنهم وقفوا عنده بسبب عرض النهر وبسبب الحصون التي تحرسه ، ولم يستطيعوا انتزاع سيليستريا ولا شوملا ، واستطاعوا ان يأخذوا فارنا في جنوب الدلتا ، ولكنهم اضطروا ، في الشتاء ، إلى الانسحاب إلى يامّي . ومضت سنة ١٨٢٨ دون أي حادث عسكري حاسم . وفي ربيع ١٨٢٩ سلمت قيادة الجيش الروسي إلى الجنرال ديبيتش فحصل على نجاحات رصينة . فقد عاد الروس من الدفاع عن الشاطىء ونزلوا في آخر آذار في بورغاز . وانتصروا في الجبهة الأساسية على الدانوب في ١١ تموز في كوليفتشار وهذا النصر فتح أمامهم طريق جبل البلقان فانطلقوا فيه بجرأة ، ونفذوا الى السهل في جنوب جبل البلقان في تموز . وفي غضون ذلك عاود اليونان حمل السلاح

وقاموا بحملة على كريت فاخفقت ، وانتهت بذابح في كانديا في ١٣ و ١٤ آب ١٨٢٨ ، واسترجعت الجزيرة بانتظام دون أن يرتكب فيها محمد علي أي فظاعة . وعلى القارة استطاعوا أن يستردوا ليبانت على مدخل خليج كورنت ويتقربوا من مسيولونغي . وفي بـــداية الخريف قهر ديمتريوس يبسيلانتي الترك في بترا في لحف جبل هيليكون ، على تخـوم آتيكا وبيوسيا في ٥٤ أيلول ، وبهذا النصر خلص آتيكا وبيوسيا من الترك وفي شهر تموز بدأ دبيتش بحصار ادرنه . أما من جهة باسكيفيتش فقد أخذ أرضروم وزحف على طربزون . وفي ١٩ آب استسلمت ادرنه . وانحدر الفرسان الروس نحو الجنوب وظهروا حول القسطنطينية في اينوس و رودوستو ، ودبوا الرعب في العاصمة التركية .

دفع هذا الضغط العسكري الروسي الاتراك إلى التنازل في القضية الاغريقية ، وكان تنازلهم في هذه النقطة يتناغم مع الحوادث العسكرية ففي ٥ تموز عرضوا على موريه نظام الاقاليم الدانوبية ، وعلى الجزر ، النظام البلدي الحر ؛ وفي ١١ آب ، أي عندما وصل الروس أمام ادرنه اشتركوا في معاهدة ٦ تموز ؛ وفي ٢٤ آب ، بعد أخذ ادرنه ، اضطروا إلى الاستسلام ، نوعا ما ، لكرم ومروءة الدول ، وقبلوا سلفا بكل القرارات التي ستتخذ في لندن . واضطروا ، تحت ضغط المطالب الروسية، إلى توقيع معاهدة ادرنه في ١٤ ايلول ١٨٢٩ . وتتضمن هذه المعاهدة بصورة أساسية وبالبداهة البنود التي تهم الروس وتسوي القضايا الروسية: فقد نصت المعاهدة على توطيد امتيازات مولدافيا (البغدان) وفالاشيا (الافلاق) وتعيين الهوسبو دارين من الآن فصاعداً على مدى الحياة ، وعلى توكيد استقلال صربيا الذاتي . أما بالنسبة اليهم فقد حصلوا على تنازل الاتراك عن أفواه الدانوب، وعلى حرية التجارة في البحر الأسود وفي المضايق،

وأخيراً حصلوا على أراضي في القوقاز وفي أرمينية . أما ما يتعلق باليونان فقد تضمنت معاهدة ادرنة اشتراك الباب العالي في معاهدة ٦ تموز وفي بروتوكول لندن في ٢٢ آذار ١٨٢٩ .

وهكذا قبلت الدول بعد ثلاثة أعوام بوجود اليونان . ولم تتوصل لذلك إلا لاعتبارات سياسة عامة . ولم تقبل باليونان ولم تعرفها إلا تبعاً لضرورات سياستها ، ولم تتأثر في ذلك بداعي مذهب أو انسانية ، أو مثالية ، بل بداعي الدبلوماسية فحسب .

تشكيل المملكة اليونانية . — ولم يبق بعد سوى تنظيم هذه الدولة وتحويلها إلى مملكة . وفي الحقيقة ، وجدت اليونان بارادة الاغريق الحازمة . وبعد أن أعلنت استقلالها بثمان سنوات لم يكن لها شكل أو نظام أو قوانين ، ولا شيء بالاجمال من كل ما يؤلف دولة . لقد كانت قوة معنوية تحاول أن تتحقق ، وامة تبحث عن تحويل نفسها وتشخيصها بشكل دولة . لقد كان يجب خلق كل شيء من الشكل السياسي . ومن وجهة النظر هذه ، أي من منظر هذه الأمة، التي لم تؤلف دولة بعد ، نجد تعليماً هاماً في فلسفة التاريخ والحق العام .

لقد جرت محاولات أريد بها فرض قالب على هذه القوة الحية المعنوية ، الأمة الاغريقية اساساً ، واعطاؤها أطراً قاسية نفرت منها ، وظلت في كفاح دام سنوات عديدة بين المثالية الاغريقية والدبلوماسية ثم عاد هذا الكفاح بشكل آخر عندما أريد تأسيس الدولة .

كان ينبغي قبل كل شيء تعريف الدولة وتحديدها . وقد نشب خلاف بين الدول والاغريق على حدود هذه الدولة نفسها . كان مفهوم الاغريق مفهوماً قومياً ، وكان برنامجهم ، في الاصل ، برنامج الحد الأعلى ، برنامج ريغاس ، أو البرنامج الذي حددوه بالحصار الذي أعلنوه عام ١٨٢١

وشمل أغريقية الواسعة ، التي كانت في الواقع بعثاً وأحياء للامبراطورية البيزنطية ؛ غير أن الحوادث أجبرتهم ، في وقت مبكر ، على التخلي عن كل ما هو مفرط في هذا البرنامج ، أي عن المطالبة بالقسطنطينية وتراكيا في شمال بحر ايجة . أما ما يتعلق بالباقي فقد ظلوا أمناء على مثلهم الأعلى . ففي المجالس القومية الثلاثة وجد نواب أتوا من جميع البلاد الناطقة باللغة الاغريقية ، وسوليون ، واناس من ابيروس وكيو كريت وتساليا ومن جميع الجزر . وفي المجلس الرابع ، وهو مجلس آرغوس في العام ١٨٢٩ ، وجد أيضاً نواب من جميع هذه المناطق بما فيها تساليا . وقد عرّف كابو ديسترياس الأمة الاغريقية في رسالة وجهها، في ١٥ تشرين الأول ، إلى انكليزي يعرفه وهو ويلموت هورتون ، بقوله : « تتألف الأمة الاغريقية من اناس ما زالوا منذ سقوط القسطنطينية يدينون بالدين الارثوذكسي ، ويتكلمون لغة آبائهم ، ويخضعون لحكم كنائسهم الروحي والزمني ، مهما كان البلد الذي يسكنونه في تركيا . وان حدود اغريقية رسمتها ، منذ أربعة قرون ، حقوق لم يستطع الزمان ولا الارزاء من كل نوع ، ولا الفتح ان تقضي عليها » . وهذا هو مذهب القومية المحض كما يتصور في عناصره الروحية . وفي الواقع نرى هذه المطالبة نفسها في المذكرة التي قدمها كابو ديسترياس إلى السفراء ، في بوروس ، في ٢٣ ايلول ١٨٢٨ ، وفي الجواب الذي قدمه الاغريق بمذكرة عن بروتوكول لندن في ٣٠ أيار ١٨٢٩ . فقد كان الاغريق يشكون من أن كانديا وساموس لم تكونا موضع بحث في الدولة التي يراد تعريفها وتحديدها لهم ، ويتظلمون من أنهم لم يدعوا للاسهام في المفاوضات وفي المبادرة لانتخاب الأمير الذي سيسود عليهم ، ويطالبون بأن يكون هذا الامير من معتنقي الدين الارثوذكسي ، الدين القومي ؛

كما يطالبون بدستور رسمي صريح ينظم ادارة الدولة ، ويحتجون على اقتطاع أرضهم بوعي واضح لقوميتهم ، ويذكرون الحق الطبيعي في الوجود ، ويريدون تحقيق دولتهم بشكل حر . وفي كل هذه النقاط نرى النظرية الفرنسية في القومية في نقاوتها الكاملة .

أما الدول ، على العكس ، فلها وجهات نظر ومفاهيم أخرى . كانت انكلترا معادية لهذه الدولة الأغريقية الجديدة بعد أن أسهمت لحد ما في تأسيسها ؛ وذلك لأنها تكره الروس وتريد الابقاء على الامبراطورية العثمانية باعتبارها عقبة ضد الروس ، وتريد اضعاف اليونان ، لأنها تخشى من أن تكون اليونان زبوناً للحكومة الروسية . ولذا كانت تريد العودة إلى معاهدة ١٨٢٦ وانتزاع أوبيه وحتى آتيكا من اغريقية واقتصارها على موريه والجزر ولا تقبل مطلقاً باغريقي على شاطيء الادرياتيك وعلى شاطيء ابيروس تجاه الجزر الايونية ؛ بل ورفضت ، زمناً ما ، على هذه الدولة الجديدة اسم اغريقية ، لأن هذا الاسم في نظرها يوقظ اطماعاً . وعلقت الحدود التي يراد اعطاؤها لليونان بانتخاب الأمير ، وأبعدت كل الترشيحات التي اقترحتها فرنسا وروسيا . وأمام هذه المعارضة من انكلترا ، قدمت فرنسا عرضاً ماهراً أوحى به غيّمينو من قبل : وهو اذا قلصت أرض اليونان فيجب تعويضها بالاستقلال . وقبلت انكلترا أخيراً بالمبدأ في ١٠ تشرين الثاني . ونوقش طويلا انتخاب الأمير ، واخيراً اتفقت الدول في لندن ، على بروتوكول ٣ شباط ١٨٣٠ . وبموجبه تؤلف اغريقية دولة مستقلة استقلالاً تاماً ناجزاً دون أن تكون بلداً يتمتع فقط باستقلال اداري ، تحت السيادة التركية . وبالمقابل دفعت حدودها نحو الجنوب وامتدت من خليج آرتا في الغرب إلى مصب نهر آسبروبوتاموس أي إلى زاوية خليج كورنت ؛ ومن الجهة الاخرى ، من جهة بحر

ايجه ، وصل بالحدود من خليج فولو إلى مصب نهر سبيركيوس ، أي بالضبط الى زاوية خليج اوبيه ، وهذا يعني أن اغريقية القارية لاتضم آتيكا وبيوسيا . وقبل بأن يعطى إلى الاغريق جزيرتا اوبيه وسكيروس دون كانديا وساموس . وأن يكون الحكم ملكياً وراثياً ، وقدم التاج إلى ليوبولد دوساكس — كوبورغ . وتخلت فرنسا عن حماية الكاثوليك في اغريقية ، على ان تضمن حرية الكاثوليك وقبولهم في جميع الوظائف . ان بروتوكول ٣ شباط ١٨٣٠ الذي يعرف ويحدد الدولة الاغريقية ، بلغ رسمياً في ٨ نيسان ، إلى الباب العالي فقبله في ٢٤ منه دون ملاحظة ، كما بلغ رسمياً إلى اغريقية في اليوم نفسه ، وتدل التعليمات التي أرسلت إلى مقيمي الدول بأن المذكرة لاتتحمل أي رفض . وهذا يعني نوعاً من انذار ، وعلى الاغريق أن يقبلوه دون شرط أو استثناء . ولم يقبل من الاغريق أن يجادلوا في أرضهم وفي شكل حكومتهم .

ولقد أثار هذا البروتوكول وهذا العمل معارضة مزدوجة : معارضة قومية ومعارضة سياسية : معارضة قومية ، لأن السولين والروملين احتجوا مباشرة على ابعادهم عن اغريقية . وقد بلغ النضال في هاتين المنطقتين ، سولي والروميلي ، مبلغاً حاداً ، ولكن الدول ضحت بها . وأخذ الاغريق على كابو ديسترياس أنه لم يعرف كيف يحميهم . أما المعارضة السياسية فهي أن تقاليد البلاد الاغريقية كانت تقاليد جمهورية . ومذ عرف أن البروتوكول يفرض على اغريقية شكلاً ملكياً ، قدم ملتمس ضد الملكية يصرح بأن حالة البلاد لاتتلاءم مع مبدأ الملكية ، فضلاً عن أن الملكية حكم يكلف غالياً ، وان اغريقية فقيرة ، وليس لديها من الوسائل ماتوفي به الملك حقه . ولكن الاغريق لايستطيعون

أن يرفضوا التبليغ الرسمي الأوربي ، ولذا اطلعوا ليؤبولد المرشح إلى التاج الاغريقي على مطاليبهم ليدافع عنها لدى الدول . غير أن ليؤبولد ساكس - كوبورغ قبل ، في ٢٨ شباط ، التاج الذي قدم اليه وكتب إلى كابو ديسترياس يطلب منه نصائحه وايضاحاته . فأجاب كابو ديسترياس برسالة مؤرخه في ٦ نيسان ، استعرض فيها حالة اغريقية ومطاليب البلاد ، وتظلم من الشكل الذي حددت فيه الحدود وأوضح عدم ثقته بالترك ، وضرورة عدم انسحاب الاغريق عن الاراضي مالم يسحب الترك جيوشهم من المناطق التي يجب أن يتخلوا عنها الى الاغريق . كما أوضح كابوديسترياس أيضاً التزام الأمير بوجوب تصديق المجلس القومي الاغريقي على المعاهدة ، وطلب اليه أن يحصل على الاعتراف بمبدأ السيادة القومية ، وأن يحصل على المال الضروري للاغريق ، وأن يصبأ أي أن يغير دينه . وبعد قليل على رسالة كابو ديسترياس وجه مجلس الشيوخ ، في ٢٢ نيسان ، إلى الأمير مذكرة تضم احتجاجاً مثيراً على الاذلال الذي يراد فرضه على اليونان في الروميلي وكريت وساموس . وطلبت المذكرة من الأمير أن يعترف بالحريات القومية التي أقرتها اغريقية في أربعة مجالس متعاقبة .

وهكذا عارض الاغريق اوربة بمطالبة مزدوجة في الأرض وفي المفهوم السياسي للدولة . وحاول ليؤبولد أن يحصل من الدول على مايرضيه . ولكنه اصطدم برفض مطلق في قضية الحدود وفي القضية السياسية وفي القرض الذي طلبه.لأن المبالغ التي عرضت عليه كانت غير كافيه . وقرر في هذه الظروف ، بعد بضعة أسابيع في مفاوضات غير مجدية ، أن يرفض التاج ، في ٢١ أيار ، وأعلم بذلك كابو ديسترياس في الأول من حزيران .

ولكن،في السابع من حزيران، كانت الحكومة الانكليزية متمسكة بوجهة نظرها فرفضت حجج ليؤبولد وبورت البروتوكول . وتابع المؤتمر دراساته المفصلة في تطبيق المعاهدة دون أن يكترث بالاغريق . وفي هذه الأثناء قـامت ثورة تموز في باريس ، ثم نشبت الثورة في بروكسل فوضعت أمام الدول القضية البلجيكية ، وتركت اغريقية جانباً ولم يهتم بها . ولم تستأنف الجلسات في القضايا الاغريقيـة في لندن إلا في ٢٦ ايلول ١٨٣١ . وهكذا نرى وجود مفهومين للحق العام يتصادمان : مفهوم الاغريق القومي والديموقراطي ومفهوم الدول السياسي والدبلوماسي المحض .

لقد كان الاغريق يشكون الظلم ، ولذا لم يعترفوا للدول بأي جميل ، بل على العكس ، كانوا يشعرون بغيظ شديد ضد كل مايمثل الحل الأوربي . حتى ان اليونان ، على صغرها ، لم تتحرر مباشرة : لقد كان الأتراك بطيئين في التنفيذ وفي الجلاء عن البلاد وفي الوفاء بوعودهم التي قطعوها على أنفسهم بشأن أجزاء اغريقية الأخرى ، مثل ضمان الحريات الدينية في ساموس ، وكانديا ، ورودوس ، وفي تعمير الكنائس ، لقد تعهدوا بذلك في فرمانات ، ولكنهم كانوا بطيئين في التنفيذ ؛ وظهرت في اغريقية حـالة رأي لم يكن من طبيعتهـا السماح باقامة حكم بسهولة .

لقد كان جان أنطوان كابو ديسترياس الرجل الذي اختاره الاغريق رئيساً وكلفوه بتنظيم هذا الحكم . غير أنه لم يكن منسجماً مع مواطنيه . كان اوربياً أكثر منه اغريقياً ، وموظفاً روسياً ، ودبلوماسياً ارستقراطياً ، وحراً دون شك ، ولكنه لم يكن ديموقراطياً البتة . فقد وجد نفسه غريباً عن هذا البلد الذي أتى اليه ليتزعمه ، وكان يحتقر الكلفت ، وعند مجيئهم اليه قال لهم : «انني أعرفكم . إنكم أشقياء وقطاع طرق وكذابون».

ولكنه عرف كيف يكسب عدداً منهم مثل كولوكو ترونيس الذي دعمه باخلاص وأمانة ، وكان يفكر ويصرح بأن الاغريق يعيشون ويفكرون كما لو كانوا في العصر الوسيط ، ويرى لزوم جيل للوصول بهم إلى الحالة السياسية الضرورية . وأحاط نفسه بايونيين وباناس مثله ، من الجزر ، وبأناس تثقفوا في اوربة ، مثل اخوته ، ومثل القانوني سانواتاس أو كوليتيس . ونحى جانباً الفناريين ، هؤلاء الذين يسمون « الارخونتس » أي الزعماء المدنيين ، و « النقباء » أي الزعماء العسكريين. كان كابو ديسترياس رجلاً مفعماً بالكبرياء والغرور ، ولكنه مليء بالاخلاص والتفاني ، فقد ضحى بوضعه العظيم الأوربي للقضية الاغريقية ، عندما أتى وأخذ على عاتقه توجيهها.وكان، منجهة أخرى،واقعياً ، ولم يكن ابداعياًمطلقاً.فقد وجد أناطلالاغريقيةبل واطلال اغريقية القديمة كانت كوماً من الأحجار القديمة ، وكان نشاطه عجيباً ، وكان نوعاً ما الرجل الوحيد لقيادة الدولة .

حكم كابو ديسترياس الدولة مستبداً مستنيراً ، وأراد أن يضع حكماً للخير العام ، ولكن حكماً استبدادياً . فقد أبعد كل ماصنعَ حتى الآن تقليد اغريقية وتحريرها . وعوضاً عن **دستور تريزين** ، انتخب مجلساً من رجاله ، المجلس القومي الرابع ، الذي انعقد في آرغوس في تموز وفي آب ١٨٢٩ وسمى مجلساً للشيوخ مؤلفاً من ٢٧ عضواً ، انتخب كابو ديستريناس ٢١ منهم من قائمة قدمها المجلس ، وسمى بنفسه مباشرة ٦ شيوخ . ثم تخلى المجلس القومي عن سلطاته وخولها مجلس الشيوخ ، ولم يكن لمجلس الشيوخ هذا اختصاصات مالية . وسمى المجلس القومي ، من جهة أخرى ، مجلساً وزارياً مؤلفاً من ثلاثة أعضاء أخذوا من بين أعضاء مجلس الشيوخ ، مع أمين للدولة ، تريكوبيس . وعوضاً عن الدستور

الديموقراطي لمجلس تريزين ، تشكلت حكومة استبدادية يصحبها مجلس فقط ، وهذا المجلس حل محل « البانهلينيون » الذي هو نوع من مجلس دولة يمثل فيه جميع زعماء الاستقلال . وفوق البلديات التي تسمى « ديموجيرونتي » وتدير البلاد بسائق التقليد وتمثل تقاليد الاستقلال ، حتى في ظل الحكم التركي ، نظم كابو ديستريا مركزية على النمط الفرنسي مع محافظين ومحافظين مساعدين ، وإدارة قضائية نظامية مع قضاة يسمون مدى الحياة .

ومن جهة أخرى ، هيأ كابو ديستريا المستقبل ، وكان مقتنعاً ، كما كان يقول ، بأن الاغريق سيربون في الآجل البعيد على الحياة العامة . وكان يهتم بالفقراء والفلاحين ويحميهم من اللصوص والأشقياء وقطاع الطرق . وظلت لهذا ذكرى كابوديستريا « الأب جان » شعبية عند الاغريق. وأمر بزرع شجرة أبو فروة (الكستناء) وأدخل زراعة البطاطا . وفتح المدارس الزراعية لتنمية الحياة الريفية . وفي الوقت ذاته فتح الملاجىء والمدارس ، ومؤسسات التعليم للأطفال الفقراء والأيتام . وقد آوى سبعة آلاف طفل وثقفهم في هذه المدارس . وأهتم بالتعليم بالمعنى الأصلي ، وأدخل فيه مدارس التعليم المتبادل الذي يعلم فيه بعض الطلبة بعضهم الآخر تحت اشراف المعلم على الطراز الحر الأوروبي وفتح في بوروس مدرسة للتعليم الثانوي ، ومدرسة للحقوق في آثينة ، ومدرسة للبحرية في هيدرا ، ومدرسة للضباط ، وأنشأ ثلاث مطابع ، ومكتبات ، وفتح المتحف القومي .

وفي الوقت نفسه ، حاول تحسين حالة الدولة المالية والاقتصادية . فقد كانت اغريقية ، بعد ثمانية أعوام من النضال ، في حالة محزنة : تخربت المدن في تريبوليتزا ، ولم يبق سوى خمسمائة منزل ، وفي آثينة

لم يوجد سوى ١٦٢ بناية هامة غير معطوبة . وكان الشعب ضعيفاً جداً : فقد كان في موريه ٣٠٠٠٠٠ نسمة تقريباً ، و ٢٠٠٠٠٠ في الجزر ، ومائة الف في القسم القاري ، فيما وراء البرزخ . وكان ينقص اغريقية ، التي حددتها الدول على هذا النحو ، جميع المناطق الغنية ، وتساليا والجزر الغنية الكبرى ، مثل ساموس وكريت . وكانت الدولة دون موارد تقريباً : فقد كانت « الأموال القومية » التي كانت أموالاً تركية ، وبخاصة الأموال الدينية ، تؤلف نصف الأرض (التراب) ، بيد أنها كانت دون إدارة ولا تأتي بشيء تقريباً . وأسس كابو ديستزياس مصرفاً قومياً في ايجين ، ولكن الورق النقدي لهذا البنك كان دون قيمة تقريباً . وكانت الضرائب ثقيلة بالنسبة لموارد السكان ، ومع ذلك ، لاتأتي بشيء ، ولا تستطيع الدولة أن تعيش إلا برسوم على الواردات والصادرات ترتفع أحياناً إلى ٣٠٪ .

واضطر كابو ديستزياس ، لكل هذه السياسة ، أن يعتمد على الأجانب ، فقد أتى مثلاً للجيش بمعلمين فرنسيين ، وقدم جهداً كبيراً جداً ، وجهداً للمستقبل ، ولكن هذا الجهد اصطدم بكل تقاليد اغريقية وعاداتها بعد أن طبق بصورة قاسية . وكونت إدارة كابو ديستزياس بسرعة جمهوراً من المستائين : لأن هؤلاء الاغريق ، الذين عاشوا في الفوضى ، كانوا غير أهل للخضوع إلى النظام ، وليس لديهم حس بما ينبغي عمله لخلق دولة حديثة . وكانت تقاليدهم ، من جهة أخرى ، تقاليد ديموقراطية : فهم يكرهون أن يحكموا بالسلطة . ولذا بدا حكم كابو ديستزياس مخالفاً لكل مايعرفونه وكل ما يعتبرونه حقوقهم ، وكل ما كان سيماءهم القومية . ولذا انسحب كبار زعماء حزب الاستقلال : انسحب بترو مافرو ميخاليس في مانيا منذ البدء ؛ وفي ١٨٣٠ انطوى جميع كبار الزعماء في هيدرا ، مثل

كوردو ريوتيس ، مافروكورداتو ، مياؤليس ، كوليتيس ، ووقفوا حيال حكومة كابو ديسترياس الاستبدادية ، وطالبوا بالحريات الدستورية. وتأسست جرائد حرة متحمسة شديدة مثل جريدة « آبولون » و « الفجر ». وفي شهر أيار ١٨٣١ نشبت ثورة في الشمال في القسم القاري ، ولكنها أخمدت بفظاعة ووحشية . وبدأت تظهر عصابات الأشقياء في كل مكان تقريباً ، وبخاصة في الجبال ، وتهاجم قوافل المسافرين المنعزلين

وشجعت ثورة تموز ، في باريس ، مطاليب الأحرار ورفعت المعارضة دليلاً على ذلك الراية الفرنسية المثلثة الألوان . ومن جهة أخرى ، جعلت ثورة تموز من القضية الاغريقيـــة قضية خطيرة بالنسبة للدبلوماسية الأوربية . فاذا ظفر في اغريقية النفوذ الروسي ، الذي يمثله كابوديسترياس والحلول لاستبدادية ، فذلك يعني اخفاق الدول الحرة « الليبرالية » في الشرق كله وفي البحر المتوسط . وتميز كابو ديسترياس غيظاً أمام المعارضات التي أثارها حكمه فتبنى طرقاً جائرة : علق الحريات الدستورية ، حرية الأفراد ، الذين اوقفوا تعسفاً ؛ وحرية الصحافة ، بتعليق عدة صحف ؛ والغى البلديات التي كان الاغريق يتمسكون بها من أعماقهم ؛ وأقام محاكم استثنائية ، واعتمد في سياسة القوة هذه على المقيم الروسي ودعم نفسه بقوى الاميرال ريكورد البحرية . وعلى العكس توسط المقيمان الفرنسي والانكليزي وحاولا عبثاً مصالحة الرئيس والسياسيين الاغريق .

الفت المعارضة حكومة حرة في هيدرا ، واقترح كابو ديسترياس الضرب على يد هذه الحكومة بالقوة : أرسل سفناً احتشدت في بوروس ، ولكن مياؤليس وضع يده على هذه السفن. فتدخل الاميرال الرومي ريكورد، وعندئذ أحرق مياؤليس السفن في شهر آب ١٨٣١ عوضاً عن أن يسلمها . واجتاح الاسطول الروسي انتقاماً منه جزيرة بوروس فاستحالت إلى صحراء ، وتعالت صيحة الاحتجاج في كل اغريقية . وأمام ضربة

القوة هذه تدخل المقيان الفرنسي والانكليزي . وعندئذ قبل كابو ديسترياس دعوة المجلس القومي ، ولكن الانتخابات جرت وسط البلبلة والفوضى ، وكان طبيعياً أن تزيف تماماً . أوقف المعارضون واتهموا أمام المحاكم بالخيانة العظمى ، حتى أن المجلس الذي كان يهيأ ما كان ليمثل الرأي عن يقين ، ولم يستطع ان يجتمع تحت رئاسة كابو ديسترياس ، لأن هذا الأخير قتله أحد أبناء مافرو ميخاليس ، في ٢٧ ايلول ١٨٣١ (٩ تشرين الأول) عند دخوله إلى الكنيسة . وهكذا قلبت الحركة القومية أول حكومة اغريقية .

وأثارت خلافة كابو ديسترياس حرباً أهلية بطيئة أو فعلية دامت سنتين . ووجدت حكومتان : حكومة اوغستن ، أخي كابو ديسترياس ، وكان يدعمها فريق من النواب وكولوكوترونيس ، بينما أقامت الحكومة الأخرى في هيدرا وعاشت فيها وكان يدعمها سكان الجزر وأهل مانيا ومافروكورداتو ، ومياؤليس ومافروميخاليس الذي نحته جانباً الحكومة الرسمية . ومن جهة أخرى تألف فريق من الروميليين في الجهة المقابلة من خليج كورنث وكان زعيمه كوليتيس ، واعتبرت هذه الحكومة نفسها مدافعاً عن الحرية السياسية ضد الطغاة . ونشب العداء في كل مكان تقريباً ، حتى ضد الفرنسيين ، ضد جيش الاحتلال الفرنسي الذي ظل في موريه . وكان الاغريق الرسميون يعتمدون على الروس ، والفوضى تامة . وحاول المقيمون التوسط عبثاً . وأخيراً ظل حزب كوليتيس الحر غالباً ، واستقر في آغروس.وفر اوغستن كابو ديسترياس حاملاً معه رماد أخيه في بداية نيسان ١٨٣٢ . وكانت هذه المحاولة نهاية نظام السلطة وامكانية الاغريق في اقامة حكم قومي .

وفي غضون ذلك استأنف مؤتمر لندن أعماله ، وبدأ في آخر ايـلول ١٨٣١ بدراسة القضية الاغريقية ، بعد انقطاع دام عاماً ونيفاً . وكان يراد دوماً انتخاب السيد الذي تريد أوربة أن تقيمه على اغريقية . وبعد مناقشات ، وقع الاختيار في شباط ١٨٣٢ على **أوتون بافاريا**، وهو الابن الثاني للملك لويس الأول الذي كان محباً للهلنية ، فقد ثقف هـــذا الملك ابنه على حب التقاليد الاغريقية . وكان مربي الأمير الشاب اوتون الأستاذ **ايرش** ، فقد علمه في جو يعطف على الاغريق . وكان بـلاط مونيخ مركزاً لمحبة الهلنية في المانيا . مع هذا فقد فهم جيداً أن من من الضروري وجود شروط أفضل مما في السابق لتسهيل تولية الملك الشاب ، واشترط البافاريون للقبول تحسين الحالة . وأخيراً تدخلت معاهدة بـين الأمير اوتون والدول في ٧ أيار ١٨٣٢ : وبموجبها يعطى لقب « ملك »اغريقية لا«أميرها » ، ويقدم اليه قرض بستين مليوناً تدفع على عدةأقساط ؛ وأن تعطى اغريقية حدوداً أفضل . وتم التفاوض مع القسطنطينية لتثبيت هذه الحدود : وبعد مساومات طويلة آلت المفاوضات ، في ٢١ تموز ١٨٣٢ ، إلى اتفاق يوطد حدود اغريقيـة بخط من خليـج آرتا إلى خليـج فولو ؛ وبالمقابل تقاضى الاتراك تعويضاً نقدياً .

وبانتظار مجيء الملك الشاب وبلوغه سن الرشد ، إذ لم يكن له من العمر سوى سبعة عشر عاماً ، نظمت وصاية في اغريقية عهد بهـا ، في آخر ايلول ١٨٣٢ ، إلى ثلاثة رجال بافاريين لهم قيمتهم : **ارمانسبرغ** ، زعيم البافاريين الأحرار ؛ **وماورير** ، وهو وزير عـدل سابق . **وهايدك** ، وهو جـنرال سبق له أن خـدم في جيش اغريقية . وصل الملك الشاب

ناوبليا في ٣٠ كانون الثاني ١٨٣٣ ودخل المدينة رسمياً في ٦ شباط وسط الابتهاج العام . وبقي على اليونان عمل تنظيمي كبير يجب القيام به . ولقد وجدت اغريقيـة الآن في ذاتها عناصر لتنظيم هذه الحكومة .

بقيت تسوية وضع الاراضي الخارجية ، هذه الأراضي الاغريقيـة التي لم يرد أن تعطى لاغريقية ، لأن اغريقيةً الجديدة لاتضم في الواقع المناطق التي كانت مراكز أساسية للحركة القومية . أما المنطقتان القاريتان، الروميلي وتساليا ، فقد تركتا لتصرف الأتراك دون شرط أو قيد ، ودامت مطالبة الاغريق القومية بهذين الاقليمين الكبيرين . وكانوا يفهمون تساليا على أنها اقليم واسع جداً نحو الشمال كما كان البرنامج الاغريقي ، أي مطالبة الاغريق ، يشمل جنوب ماكدونيا حتى سالونيك . وبالتالي لم يكن للاغريق ، في هذه النقطة ، أي ضمان ، بل أنهم تركوا لتصرف الحكومة التركية كما في السابق .

أما الجزر الكبرى ، فقـد تركت أيضاً خارجاً عن اغريقية مثـل ميثيلين ، كيو ، ساموس ، كانديا ، حتى ان الدول لم تهتم إلا بساموس وكانديا ، اللتين طالب بها الاغريق صراحة ورسمياً في مختلف مذكراتهم، وأوصت تقارير السفراء في بوروس بأعطائها لليونان . وحصلت الدول على نظام خاص لجزيرة ساموس . وحوفظ فيها أخيراً على الحريات الادارية. وأثناء هذا الدور في الاستقلال والمفاوضات نجحت ساموس في بقائها مستقلة تقريباً تحت زعامة رئيس اغريقي ، **لوغوتيتيس** . وحكمهـا مجلس من الوجهاء الاغريق . وبوساطة الدول ، قبـــل اغريق ساموس الخضوع للحكومة التركية ، مقابل العفو العام الذي منحـه السلطان ، والحرية المطلقة لادارتهم وحرية ممارسة دينهم ، وانسحبت الجيوش التركية شريطة

أن تدفع الجزيرة للسلطان ضريبة سنوية قدرها ٤٠٠٫٠٠٠ قرش ، وأن يسمي الباب العالي أميراً منتخباً من بين المسيحيين لحكم المدينة ، وأن يعطى الحكم الفعلي للجزيرة إلى جثاليق ينتخبهم الوجهاء ، وأن تؤلف أمارة ساموس في داخل الامبراطورية العثمانية نوعاً من استثناء ، نوعاً من دولة صغيرة نصف مستقلة ، كياناً ادارياً على الأقل . ومنذ ذلك الحين هدأت جزيره ساموس وأغنت وظلت هذه حالها إلى اليوم الذي عادت فيه ، في الآجل البعيد، إلى الاغريق .

أما جزيرة كريت (كانديا) الكبرى فقد ظلت قضيتها معلقة لأن السلطان أولى حكمها إلى محمد علي ، حاكم مصر ، الجزء القوي والمتين من الامبراطورية التركية ، ولم يكن محمد علي بالطبع مستعداً لنزع ملكيتها عنه ، بل على العكس ، رأى غداة الأزمة الاغريقية أنه لم يستطع أخذ المكافأة التي وعد بها من قبل وهي حكم موريه ، فطالب السلطان بحكم آخر ، حكم سورية ، عوضاً عنها ، وبدأت الأزمة بين السلطان والباشا عام ١٨٣١ ، ولم تسو قضية كانديا وبقي الكريتيون دون ضمان من الدول .

ونرى في قضية هاتين الجزيرتين أن التسوية نظمت بين اوربة والحركة القومية الاغريقية . أما الجزر المجاورة للشاطىء التركي فلا يوجد فيها مجال للعمل الآن ، لأن الأغريق لايستطيعون التفكير باستمرار النضال فيها . أما في كريت فقد ظلت الحركة القومية نشيطة جداً ، وستظل كريت في ثورة دائمة طوال القرن التاسع عشر كله .

وبقيت الجزر الايونية خارجة عن القضية الاغريقية ، وكانت الحالة فيها سيئة بخاصة ، لأن هذه الجزر كانت مركزاً فكرياً للهلنية ومركزاً للحركة القومية . وكانت انكلترا ، الدولة الاوربية الحرة الليبرالية ، تحكم

الاغريق فيها بشدة مفرطة ، وقد سوت كل شيء لتمنع هذه الجزر الايونية من الاسهام في حركة الاستقلال اليونانية ، وادارتها بصورة استبدادية ، بالرغم من الدستور الذي منح لها في العام ١٨١٧ ، واخضعها الحاكم السير **توماس ميتلاند** لسلطة قاسية واستغلها مالياً .

وكشف الزعماء الأحرار أمره مراراً في مجلس العموم ، مثل يانغ ١٨٢٢ ، أو لورد بروغون . ولكن الحكومة الانكليزية غطت ميتلاند . ومنذ بداية حرب الاستقلال ، جمد الانكليز كل حركة مماثلة في الجزر الايونية : ففي ١٨٢١ نفي كل من انجدوا الاغريق وصودرت أموالهم ، واقيمت المحاكم العسكرية في كل مكان . وقامت حركة في جزيرة زانت فاوقفت باعدامات جماعية . وحكم على سكان جزيرة سيريغو بالموت لأنهم أرادوا الاستيلاء على سفينة تركية . وصرح نداء بأن كل فرد يتصل بالاغريق « المتمردين » يعتبر متمرداً ويعاقب بالموت . وهدأت هذه السياسة العنيفة عام ١٨٢٣ عندما اعترفت حكومة كاننغ بحرب الاغريق. وعندما مات ميتلاند استعيض عنه بحاكم حر وهو السير **فريديريك آدم** ، وسمح بتشكيل لجان اسعاف للاغريق وأوحت لجنة لندن المحبة للهلنية للحاكم بتعليمات كاننغ الحرة .

ولكن الانكليز ظلوا ، على الاقل ، يكرهون كل محاولة يراد منها فصل الجزر الايونية عن ادارتهم وربطها باغريقية . وعلى اثر احتجاج ، قدمه الاغريق ضد القبض على مركب اغريقي في المياه الايونية ، اعطى حاكم الجزر الحكومة الاغريقية ،إلى كابو ديسترياس، درساً قاسياً وصرح بأن لاصلة له بدولة « أسمية » لايعترف بها . ولقد رأينا عناد انكلترا في الحيلولة دون امتداد اغريقية من جهة ابيروس ، والجهود التي بذلتها لتوصل الحدود الاغريقية حتى مصب نهر الاسبروبوتاموس ، وتنتزع من الاغريق شاطىء

الادرياتيك المقابل للجزر الايونية . وفي العام ١٨٢٩ انتشرت اشاعات حول امكان ثورة يحاول الاغريق اثارتها في الجزر في وقت ثبتت فيه الحدود ببروتوكول ١٨٢٩ . فما كان من الحكومة الانكليزية إلا أن أرسلت في ١٦ أيار تعليماتها إلى المقيم الانكليزي في اليونان « دوكنز» تقول : « بيّنْ بالعبارات القوية إلى الكونت كابو ديسترياس كم سيكون سلوك اغريقية جنونياً إذا ما بدأت الحياة السياسية ، التي دعيت لها ، بمحاولة تغيير تسوية أيدها ضمان اكبر دول أوربة ، وبخاصة محاولة مس مصالح بريطانيا العظمى » .

وقد حافظت الحكومة الانكليزية على هذا النظام الاستبدادي في الداخل وعلى مبدأ حيازة انكلترا للجزر ، ولم يتحمل هذا النظام أي مناقشة في هذه النقطة . وهكذا نرى وجود أراضي اغريقية خاضعة للنير الأجنبي . ولهذا السبب يوجد استردادية اغريقية دائمة من أجل الجزر الايونية حتى عام ١٨٦٣ ؛ ومن اجل تساليا حتى عام ١٨٨١ ، وقد استعادها الاغريق في العام ١٨٩٨ ؛ ومن أجل الجزر وسالونيك حتى العام ١٩١٢ .

لقد كانت اليونان أول دولة مستقلة خرجت عن تجزئة الامبراطورية العثمانية ، واول دولة انشئت ، في أوربة عـــام ١٨١٥ ، على المبدأ القومي. كان انشاؤها عفوياً ، وكانت مدينة بوجودها من حيث الاساس لذاتها . وجدت أمامها مفاهيم الحق العام القديمة ، التي كانت في البدء معادية ولم تقبل بوجود اغريقية الا في الحد الذي تكون فيه الدولة الاغريقية بيدقاً مفيداً للعبها الدبلوماسي ، ثم قلصتها حسب مصلحة الدول ضاربة بمصلحة الاغريق عرض الحائط ، وفرضت عليها شكلا للحكم لايتفق مع التقاليد القومية . وعلى هذا فالدولة الاغريقية ، كما تشكلت عام

١٨٣٢ ، غير تامة التشكل : فهي لم تتم على الصعيد القومي ، نظراً لبقاء مطاليب يراد ظفرها وانتصارها وينبغي لذلك القرن التاسع عشر كله. ولم تتم على الصعيد السياسي ، لأنه ينبغي تكييف هذا الحكم الجديد الدخيل مع التقاليد القومية . وهكذا تبدو اليونان تجربة تاريخية على جانب عظيم من الأهمية .

ان تاريخ تشكل اليونان هام أيضاً تحت اعتبار آخر : فهو يرينا ، في الحقيقة ، بشكل جلي وبشكل مدهش ، استمرار المميزات القومية للشعب الاغريقي . وان ما رأيناه في هذه الدراسة كلها هو ، من جهة ، التجزئة إلى مناطق صغيرة جداً ؛ ومن جهة أخرى ، الفردية المفرطة وروح التعصب والتحزب المتطرفة التي تقسم الاغريق . وهاتان النقطتان : التجزئة في استقلال شبه بلدي ، والمبالغة في المنازعات الحزبية ، هما صفتان من صفات قدامى الاغريق . ومن وجهة النظر هذه يبدو الهيلانيون المحدثون سليلي الاغريق الأقدمين ، الآثينين والاسبارطين والبيوسيين . وهذا ما يجعلنا نعتقد بوجود استمرار لنفسية قوية تلفت النظر ، اما لأنها تتضح بصفات العرق ، واما لأنها تتضح باستمرار ظروف الحياة والتربية بالتقليد اللذين فرضا على الاغريق ، في كل يوم ، المفاهيم نفسها التي فرضت على اغريقية القديمة .

وأخيراً ، ان تشكل اغريقية لم يخدم اغريقية وحدها فحسب ، بل كان مثلا يحتذى أيضاً . فقد أعطى قوة لا تقاوم لفكرة القومية ، وصنع اجماع الرأي الاوربي ، الا بالطبع اجماع الحكومات ، لصالح هذه القومية الجديدة . وفي هذا المعنى ، كانت الحركة القومية الاغريقية عنصراً من أقوى العناصر في تفتيت أوربة الحلف المقدس .

الفهرس

تاريخ الحركات القومية

الجزء الأول

يقظة القوميات الأوربية

مقدمة

القومية في ميزان التاريخ

الحركات القومية الأوربية
في النصف الأول من القرن التاسع عشر

القسم الأول

القومية والوطنية

الفصل الأول

الأصول العقائدية لمبدأ القوميات

الفصل الثاني

الأصول التاريخية للقوميات الأوربية

الفصل الثالث

الثورة الفرنسية والقوميات الأوربية

الفصل الرابع

اوربة النابوليونية والقوميات

الفصل الخامس

أوربه ١٨١٥

الفصل السادس

اليونان أول دولة قومية







